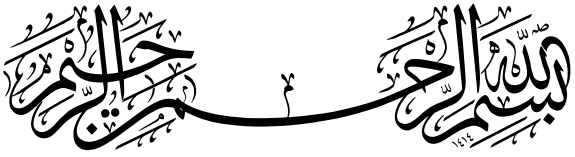


المؤتمر العلمي الدولي الثالث

عَنْ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ عليها السلام



وَلَهُ الحَمْدُ وَالشُّكْرُ وَبِهِ نَسْتَعِينُ



فَاطِمَةُ الزَّهراء عليها السلام

جُرْحٌ فِي قَلْبِ الإِسْلَامِ لَمْ يَنْدَمِلْ بَعْدُ

بُحوثُ المُؤْتَمَرِ العِلْميِّ الدَّوْليِّ الثَّالِث

عَنْ سَيِّدَةِ نِساءِ الْعالَمِيْنَ فَاطِمَةَ الزَّهْراءِ عليها السلام بِشِعار

فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءِ عليها السلام

(مِشْكَاةُ الْأَنْوَارِ وَمُسْتَوْدَعُ الأَسْرَارِ)

الجزءُ الرابعُ

بِرِعَايَةِ العَتَبَتَين الحُسَينيَّةِ والعَبَّاسيَّةِ المُقَدَّستَين

بِمُناسَبَةِ المَوْلِدِ المُبَارَكِ لِلسَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ عليها السلام

أَقَامَهُ قِسْمُ الشُّؤُونِ الْفِكْرِيَّةِ في مَقَامِ مُعْجِزَةِ رَدِّ الشَّمْسِ

لِلْإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِب عليه السلام

بِالتَّعَاوُنِ مَعَ مَرْكَزِ تُرَاثِ الحِلَّةِ التَّابِعِ لِلعَتَبَةِ العَبَّاسيَّةِ المُقَدَّسَةِ

وكُلِّيَّةِ التَّربيَةِ لِلعُلُومِ الإِنْسَانيَّةِ / جَامِعَةِ بَابِلَ

مِنْ ٢٠-٢١ جُمَادَى الآخِرَةِ ١٤٤٥هـ/٣-٤ كَانُونُ الثَّاني ٢٠٢٤م

المُشْرِفُ العَامُّ عَبْدُ الرَّسُولِ المُوسَوِيُّ

مُرَاجَعَةُ وَضَبْطُ

مَرْكَزُ تُرَاثِ الحِلَّةِ

وَثُلَّةٌ مِنْ فُضَلَاءِ الحَوْزَةِ العِلْمِيَّةِ

العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة
قسم شؤون المعارف والاستاذ والابتكار
مركز تراث الحلة
موبايل: 009647602320073
E-mail: hilla@alkafeel.net

العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة. قسم الشؤون الفكريَّة والثقافيَّة في مقام معجزة ردِّ الشمس. المؤتمر العلميّ الدوليّ عن سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء عليها السلام (الثالث : ٢٠٢٤ : الحِلَّة، العراق)، مؤلِّف.

بحوث المؤتمر العلميّ الدوليّ الثالث عن سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء عليها السلام : بشعار فاطمة الزَّهراء عليها السلام مشكاة الأنوار ومستودع الأسرار. الجزء الرابع.-الطبعة الأولى.- الحِلَّة، العراق : العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة، قسم شؤون المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة، مركز تراث الحِلَّة، ١٤٤٦ هـ. = ٢٠٢٤.

٦ مجلَّد: إيضاحيَّات ؛ ٢٤ سم

يتضمَّن ملاحق.

يتضمَّن إرجاعات ببليوجرافيَّة.

أغلب النص باللغة العربيَّة مع نصوص باللغة الإنجليزيَّة والفارسيَّة ؛ ومستخلصات باللغة العربيَّة والإنجليزيَّة.

١. فاطمة الزَّهراء، فاطمة بنت محمَّد بن عبد الله عليها السلام، ٨ قبل الهجرة-١١هجريّ--مؤتمرات. أ. العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة. قسم شؤون المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة. مركز تراث الحِلَّة، مؤلِّف. ب. جامعة بابل. كليَّة التربية للعلوم الإنسانيَّة، مؤلِّف. ج. العنوان.

LCC : BP80.F36 . A833 2024

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة

فهرسة أثناء النشر

٢٢٤/ ٨٠١
ح/ مركز تراث الحِلَّة - قسم شؤون المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة - العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة
بحوث المؤتمر العلميّ الدوليّ الثالث عن سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء عليها السلام
الجزء الرابع
E-mail: hilla@alkafeel.net
الحِلَّة/ مركز تراث الحِلَّة/ العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة
١٧,٥ × ٢٤سم
بحوث - دراسات
م/ و
٧٤٦/ ٢٠٢٥م
المكتبة الوطنيَّة/ الفهرسة

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٧٤٦) لسنة ٢٠٢٥م

الكتاب: بحوث المؤتمر العلميّ الدوليّ الثالث عن سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء عليها السلام. بشعار: فاطمة الزَّهراء مشكاة الأنوار ومستودع الأسرار (الجزء الرابع).

جهة الإصدار: العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة، قسم شؤون المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة، مركز تراث الحِلَّة.

الطَّبعة: الأُولى. المطبعة: دار الكفيل للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع.

سنة الطَّبع: ١٤٤٦هـ/ ٢٠٢٥م.

محورُ الدِّراساتِ اللغويَّة والأدبيَّة

ظلال المعاني وأثرها في الكشف عن أسرار الخطاب عند الزَّهراء عليها السلام

أ.د. قصي سمير عبيِّس
كليَّة الإمام الكاظم عليه السلام/ أقسام بابل

ملخَّص البحث

ظلال المعاني ظاهرة من ظواهر اللغة، واللغة بدورها: أداة اجتماعيَّة يوجِدها المجتمع؛ للرمز إلى عناصر معيشته، وطرق سلوكه، فظلُّ المعنى لا يُقال، وإنَّما يخطر على البال، ولا يُقال باللسان، وإنَّما يترتَّب على المعنى الذي تدلُّ عليه الألفاظ المنطوقة، وهذا ما سيتناوله البحث في ضوء ظلال المعاني من خطب الزَّهراء عليها السلام، وفي ظلِّ هذا التأمُّل ودقَّة اللحظ في خطب الصدِّيقة الزَّهراء عليها السلام، نجدها تعتمد كثيرًا على معانٍ مستبطَنة، تتَّضح عن طريق مستويات عدَّة من هذه الظلال، فمثلًا: على مستوى الموقف، وعلى مستوى الاستفهام الاستنكاري أو التعجُّبي؛ إذ إنَّ كلَّ نفي ظلّ المعنى له إثبات، وعلى مستوى دلالة الحذف في أن يكون المحذوف جملة أو مفردًا أو حرفًا، وعلى مستوى المعنى المجازيّ.

واعتمد الباحث في رسم خطَّته على المنهج الوصفيّ التحليليّ، ومن هنا قسِّم البحث على مقدَّمة وتمهيد وثلاثة مباحث تتلوها خاتمة.

جاء **التمهيد** على نقطتَين تمهِّدان للدخول في الدراسة، هما: بيان ماهيَّة ظلِّ المعنى لغةً واصطلاحًا، والوقوف على الأصول التراثيَّة لظلِّ المعنى.

المبحث الأوَّل: المعنى العُرفيّ الذي تعارف عليه النُّحاة يوصَل إليه أحيانا عن طريق العلاقات بين فقرات الخطاب، أو عن طريق إشارات نحويَّة، أو معانٍ مستبطنة يُظهرها الحذف أو المجاز، أو الاستفهام الاستنكاريّ أو التعجُّبيّ في خطب الزَّهراء عليها السلام.

المبحث الثاني: المعنى الذهنيّ الذي يريد أن يصل إلى المعنى الذي تدلُّ عليه أوضاع الفرد المدرك في ضوء استنباط العلاقات بين الأدلَّة، وبين مدلولاتها الذهنيَّة، على نحوٍ ما كان من إعطاء رسول الله صلى الله عليه وآله أرض فدك إلى ابنته الزَّهراء عليها السلام، ونكران ذلك الحقِّ، وتهتُّك القوم عليها، وهلمَّ جرًّا.

المبحث الثالث: المعنى الانطباعيّ، وهو ما يصل إليه عن طريق القول أو مايشبه القول من الإيماءات والإشارات والحركات الجسديَّة، فما يدلُّ على البال، هو ما يدلُّ عليها.

أمَّا الخاتمة فتناولت أهمَّ النتائج التي توصَّلتْ إليها الدراسة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على محمَد وآله الطيِّبين الطاهرين.

مقدِّمة

سبحان الله مُبْدِئ الكواكب اللوامع، ومنشىء السحائب الهوامع، باعث النبيِّ العربيِّ بالكَلِم الجوامع، والحكم الروائع، ومؤيِّده بالدلائل القواطع، والبراهين السواطع، فَشَنَّفَ بحديثه المسامع، وصلَّى الله على آله الأطهار ما أُنْهِلَتِ المنابع، وانهملت عند ذكرهم المدامع، ولاسيَّما ابنته الزَّهراء التي استقطبت النواظر والمسامع.

أمَّا بعد، إنَّ ظلال المعاني تعدُّ ظاهرة من ظواهر اللغة، واللغة بدورها أداة اجتماعيَّة يوجِدها المجتمع للرَّمز إلى عناصر معيشته وطُرق سلوكه، فظلَّ المعنى لا يُقال باللسان، وإنَّما يخطر على البال، ويترتَّب على المعنى الذي تدلُّ عليه الألفاظ المنطوقة، وهذا ما سيتناوله البحث في ضوء ظلال المعاني من خطب مولاتنا الزَّهراء عليها السلام، وهي الفكرة فيما أخال لم تُطرَح من قبل بحسب استقصائي القاصر، ممَّا يجعل هذه الدراسة جديدة في بابها.

وفي ظلِّ هذا التأمُّل ودقَّة اللحظ في خطب الصديقة الزَّهراء عليها السلام، نجدها تعتمد كثيرًا على معانٍ مستبطنة تتَّضح عن طريق مستويات عدَّة من هذه الظلال، فمثلًا: على مستوى الموقف، وعلى مستوى الاستفهام الاستنكاريّ، أو الاستفهام التعجُّبيّ، وما شاكل ذلك، وعلى مستوى المعنى المجازيّ إجمالًا، إذ إنَّ كلَّ نفيٍ لظلِّ المعنى له إثبات في الظاهر.

واعتمد الباحث في رسم خطَّته على المنهج الوصفيّ التحليليّ، وفي ظلِّ التتبُّع والتبصُّر، استوت خطَّة البحث على تمهيد وثلاثة مباحث تتلوها خاتمة.

بيَّن **التمهيد** ماهيَّة ظلِّ المعنى والخطاب عند الزَّهراء عليها السلام.

والمبحث الأوَّل: المعنى العرفي الذي تعارف عليه اللغويُّون، ويوصَل إليه أحيانًا عن طريق العلاقات بين فقرات الخطاب، أو عن طريق إشارات نحويَّة، أو معانٍ مستبطَنة يُظهِرها الحذف أو المجاز، أو الاستفهام الاستنكاريّ، أو التعجُّبي في خطب الزَّهراء عليها السلام.

والمبحث الثاني: المعنى الذهنيّ الذي يريد أن يصل إلى المعنى الذي تدلُّ عليه أوضاع الفرد المدرك في ضوء استنباط العلاقات بين الأدلَّة وبين مدلولاتها الذهنيَّة، على نحو ما كان من إعطاء رسول الله صلى الله عليه وآله أرض فدك إلى ابنته الزَّهراء عليها السلام، ونكران ذلك الحقّ، وتهتُّك القوم عليها، وهلمَّ جرًّا.

والمبحث الثالث: المعنى الانطباعيّ، هو ما يوصَل إليه عن طريق القول أو ما يشبه القول من الإيماءات والإشارات والحركات الجسديَّة، فما يدلُّ على البال، هو ما يدلُّ عليها.

أمَّا **الخاتمة** فتناولت أهمَّ النتائج التي توصَّلت إليها الدراسة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على محمَّد وآله الطيِّبين الطاهرين.

التمهيد

ظلال المعنى ودلالة الخطاب عند الزَّهراء عليها السلام

الظلُّ لغة: تبدَّى لـ(ابن منظور ت٧١١هـ) أصلان صحيح لمادَّة (ظ ل ل)، وهو ما كان أوَّل النهار إلى الـزوال من الموضع التي لم تصل إليه الشمس، وهو أعمُّ من الفيء، وجمعه: ظِـلال وأظـلال وظُـلُـول، واستظلَّ الشجرة استذرى بهـا[1]. وفي ضوء التعريف المعجميّ للظلِّ، يتَّضح لدينا وجود مكانيَن، مكان الشمس، ومكان الظلِّ، الـذي لم تصل إليه الشمس، ونستطيع أن نعبِّر عن المكانَين مجازًا بالمعنَيَين، مكان الشمس، وهو (المعنى الظاهريّ) الذي يعرف عن طريق القواميس اللغويَّة، ومكان الظلِّ، وهو (المعنى المجازيّ)، أو غير الظاهريّ الذي يُعرَف بظلِّ المعنى.

ومن زاوية أخرى، هناك من يرى أنَّ ظلَّ المعنى هو الصورة التي تقع على مكانٍ ما لشيء حجَب ضوء الشمس عن ذلك المكان، ويأخذ بالتناقص شيئًا فشيئًا، إلى أن ينمحي وقت الزوال[2]؛ لذا عندما نحاول معرفة معنى اللفظ ودلالته، يتملَّكنا إحساس بإخراج كنه اللفظ وجوهره، فيبصر الحاذق بأسرار الخطاب ما لا يبصره غيره، فيجد في

(١) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، محمَّد بن مكرم، دار صادر، بيروت، د.ت: ٥/ ٣١٥.

(٢) بلاغة النصِّ البصري بين اختزاليَّة الخطوط والأشكال ومتانة البناء وصوفيَّة الألوان: ١٠، وينظر: ظلال المعنى بين الدلالة والعرفانيَّة في ديوان ولادة متأخِّرة للشاعر عبد الرحيم جداية، إعداد: د. حسام العفوري، أستاذ اللغويَّات المشارك، الجامعة العربيَّة المفتوحة، مجلَّة الدراسات الثقافيَّة، المركز الديمقراطيّ العربيّ، العدد٨، سنة ٢٠١٩: ٦٨.

كلِّ لفظٍ حقيقته ومجازه، في ثنائيَّاتٍ ضدِّيَّةٍ أو مترادفةٍ أو متماثلةٍ، فظلُّ المعنى يعيدُك إلى مقاصد المخاطِب[1].

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّه قد وردت لفظة (ظلّ) في القرآن الكريم بدلالات مختلفة، فقد وردت بمعنى العزَّة والاستغناء عن اللَّهب والعطش، أمَّا المتَّقون فظِلَالهم ظليلة[2]، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾[3]، ووردت كناية عن غضارة العيش من فاءَ الظلُّ يفيءُ فيئًا، إذا رجع وعاد، بعدما نسخه ضياء الشمس، وأصل الفيء الرجوع[4]، ومنه كما في قوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾[5].

المعنى الاصطلاحي: في ضوء معاينة مصطلح (ظلِّ المعنى) من الكتب التي وقفت عليها، وجدت أنَّها تدلُّ على خروج اللفظ من معناه الأساسيّ إلى معناه المجازيّ، عن طريق خرق قوانين التتابع الأُفقي العادية[6]؛ أي تتغيَّر معاني الألفاظ من المعجميَّة إلى المجازيَّة؛ ولهذا لا تتحدَّد معاني الكلمات بواسطة القواميس اللغويَّة المتجرِّدة عن المعاني؛ إذ يحيط باللفظ جملة من الظروف والسياقات الحاليَّة والمقاميَّة، ممَّا يجعل لهذه اللفظة قيمة تعبيريَّة خاصَّة بها، وتقع في صُلب هذه العمليَّة ظلال المعنى، ويشتقُّ المرء ظلَّ المعنى عن طريق إيجاد علاقة متبادلة بين معنى مدلول جديد، وشكلٍ ناتجٍ من تفريغ دلالة سابقة[7]، ولعلَّ الدلائل على ذلك كثيرة، نذكر منها ما ذكره التهانويّ: «فمعاني الكلمات

(١) ينظر: ظلال المعنى بين الدلالة والعرفانيَّة في ديوان ولادة متأخرة للشاعر عبد الرحيم جداية: ٦٨.

(٢) ينظر: تفسير الرازي، محمَّد بن فخر الدين بن ضياء الدين الرازي، دار الطباعة العامرة، د.ت: ٣٠/ ٢٨٢.

(٣) سورة المرسلات: ٤١.

(٤) ينظر: تفسير الرازي: ٢/ ٤٠.

(٥) سورة النحل: ٤٨.

(٦) ينظر: دراسات في النقد المسرحيّ والأدب المقارن، محمَّد زكي العشماويّ، بيروت، دار النهضة العربيَّة، ١٩٨٣هـ: ٦٥.

(٧) المسرحيّ في الأدب الجزائريّ، عزّ الدين جلاوجيّ، وزارة الثقافة، عاصمة الثقافة العربية،=

لا تتحدَّد فقط بالتعريف التجريديّ الذي تحدِّدها به القواميس، إذ يحيط المعنى المنطقيّ لكلِّ كلمة جوٌّ عاطفيّ، هي التي تكوِّن قيمتها التعبيريَّة»[1].

والجوُّ العاطفيّ هنا إشارة إلى الشفرات التي تفتح خيوط المعاني المنغلقة داخل الخطاب؛ لإيجاد علاقة متبادَلة بين الدلالة السابقة واللاحقة، وهذا المعنى يُنقَل عن وليم رايت بقوله: «تنطوي الآليَّة الحقيقيَّة للقراءة على الكشف في الداخل كلّ وحدة من وحدة النصِّ عن خيوط المعنى التي تدعمها الشفرات المختلفة، ويُفهم من الشفرة في هذا السياق أنَّها ليست بنية محدَّدة من كشف اللغز، بل هي:.. سراب من البِنى، وتقع في صُلب هذه العمليَّة ظلال المعنى، ويشتقُّ المرء ظلَّ المعنى عن طريق إيجاد علاقة متبادَلة بين معنى مدلول جديد، وشكل ناتج من تفريغ دلالة سابقة»[2].

وهذه العلاقات نستطيع أن نُطلق عليها (القرائن)؛ بحسب ما اصطلح عليها الدكتور تمَّام حسَّان[3]، «ومع ذلك فإنَّ ظلَّ المعنى ليس مجرَّد وظيفة تعاقِب النصَّ الذي ينطوي على المعنى الأوَّليّ، فحين نقرأ نكشف ظلال المعنى الذي تغدو من خلال استمراريَّته وتكراره ضمن القراءة دلالات يتطلَّب منَّا أن نشتقَّ منها أمثلة أخرى لظلال المعاني»[4].

=٢٠٠٧م: ٤٥، والتَّشكيلُ الدلاليّ لِفضاءات المسرح بين النصِّ والعرض، عمر عروي، مجلَّة الذاكرة، العدد الثالث: ١٠٩.

(١) موسوعة كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمَّد بن عليّ التهانويّ، تقديم: د. رفيق العجم وآخرون، ط١، بيروت، مطبعة ناشرون، ١٩٩٦م: ٤٦.

(٢) المسرحيّ في الأدب الجزائريّ: ٤٥.

(٣) ينظر: حصاد السنين من حقول العربيَّة، د. تمَّام حسَّان، ط١، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠١٢م: ١٧١-١٧٤، خواطر من تأمُّل في لغة القرآن الكريم، تمَّام حسَّان، عالم الكتب، مكتبة عبد الخالق ثروت، ط١، ٢٠٠٦م: ٨٤.

(٤) المسرحيّ في الأدب الجزائريّ: ٤٥.

وقبل أن استحضر ما يعنّ لي من مُثُل بهذا الصدد، يجدر بي أن أستحضر في ذهني حقيقة مفادها أنَّ ظلَّ المعنى هو الأساس في ما يخطر على البال، وليس مجرَّد تعاقب نصوص أو تكرار دلالات، فعن طريق ظلال المعاني تولَد معانٍ جديدة. وممَّا تقدَّم يتَّضح أنَّ ظلَّ المعنى لا يُستدلُّ عليه بالمعاني المعجميَّة فحسب، وإنَّما تتعدَّد وسائل الدلالة، بحيث يشمل الأحداث والمواقف والانطباعات، فالتجريدات الذهنيَّة في ما يخطر على البال، مضافًا إليها وسائل الدلالة، تتشكَّل منهما ظلال المعاني.

الخطاب عند الزَّهراء عليها السلام

يعرَّف الخطاب بأنَّه النصَّ اللغويّ الذي يكوِّن كتلة بنيويَّة واحدة متماسكة الأجزاء، ويحوي على أغراض بلاغيَّة، وقد أشار إلى هذا المعنى عبد القاهر الجرجاني[1]، حين يأخذ الكلام بعضه بحجز بعض، ويصبح مجموع الكلام كلامًا واحدًا، والجدير بالذِّكر أنَّ الخطاب يرتبط في تركيبه بالواقع الخارجيّ من حيث المطابقة وعدمها، فإنَّ مفردات الخطاب ترتبط أيضًا بالواقع من جهة، كونها مكوَّنة من وحدات تشير إلى موجودات خارج اللغة[2]، وإذا أنعمنا النظر في خطاب مولاتنا الزَّهراء عليها السلام، نجده يرتبط بالمتخاطِبين، وهم:

أ. **المخاطِب**: وهي الزَّهراء عليها السلام بما ألَّفته من كلام؛ وفقًا لِما تُملي عليها معتقداتها في حفظ القرآن الكريم، والتمسُّك بدين أبيها الحقّ، ونصرة بعلها أمير المؤمنين عليه السلام، وكذلك التمسُّك بغاياتها المرجوَّة، ألا وهي استردادها لحقوقها المغتَصَبة بعد وفاة أبيها، والتمسُّك بوصيَّة النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله في تنصيب زوجها أمير المؤمنين إمامًا للمسلمين.

ب. **المخاطَب**: وهم القوم الذين أنكروا حقَّ الزَّهراء عليها السلام أو الذين لم ينصروها، إذ كان دورهم ينحصر على الاستماع، وذهنهم لا يخلو من الافتراضات والمعلومات

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٢٨١-٢٨٢.

(٢) ينظر: المعنى وظلال المعنى: ١٥٨.

وهذه العوامل تؤثِّر في طبيعة فهمهم للخطاب، ومن ذلك مثلًا أنَّ الصورة الذهنيَّة التي يتخيَّلها القوم عند تلقِّيهم كلام الزَّهراء عليها السلام لمرثيَّاتهم السابقة، بحيث إذا ذكرت كلمة (فدك) مثلًا؛ فسينصرف ذهنهم إلى اغتصاب أرضها، وما حلَّ عليها من ظلمٍ وسلبٍ للحقوق.

عناصر التخاطب في خطاب الزَّهراء عليها السلام

لا تكتمل عمليَّة التخاطب إلَّا بحضور عناصرها الأربعة، وهي المخاطِب، والمخاطَب، والخطاب، والمساق. وتتفاعل هذه العناصر الأربعة لإضفاء عنصر الاستخدام المُجدي على اللغة، ولكلِّ عنصر من العناصر دوره في هذا التجلي[1].

ويكون التخاطب بالشكل الآتي:

المرسِل (الزَّهراء) ⟸ **الرسالة** (خطبتها في القوم) ⟸ **الوضع** (لغة الزَّهراء، وما يصاحبها من أغراض بلاغيَّة وتربويَّة ورساليَّة) ⟸ **القناة** (أصوات تنغيميَّة ونبريَّة) ⟸ **المستقبل** (القوم)، ومدى تأثُّرهم بالخطاب.

ويقصد بالرسالة في هذا الشكل: الفكرة التي أرادت الزَّهراء عليها السلام أيصالها، أو المعلومة التي تكفَّلت بإيصالها للقوم، أو الصورة الذهنيَّة التي تعيشها في حال خطابها، وبيان مدى التأثيرات النفسيَّة التي صاحبتها[2].

ويقصد بالوضع: اللغة التي تبنَّتها مولاتنا الزَّهراء عليها السلام من اقتباسات قرآنيَّة، وأساليب بلاغيَّة مؤثِّرة في نفس المتلقِّي؛ وذلك للحصول على مبتغاها.

ويقصد بالقناة: الموجات الهوائيَّة التي تحمل الصوت من تنغيمٍ ونَبرٍ؛ لإظهار موارد التعجُّب والتوبيخ والنفي والاحتقار وغيرها من الأغراض المجازيَّة[3].

(١) المعنى وظلال المعنى: ١٤٥.

(٢) ينظر: المعنى وظلال المعنى: ١٤٥.

(٣) المعنى وظلال المعنى: ١٤٦.

المبحث الأوَّل

المعنى العُرفي

العُرف لغةً: له أصلان، الأصل الأوَّل: تتابع الشيء متَّصلًا ببعضه، ومنه عُرف الفرس، وسمِّي بذلك لتتابع الشعر، يقال: جاء القطا عُرفًا أي بعضها خلف بعض، والأصل الآخر: السكون والطمأنينة: بمعنى (المعرفة والعرفان)، تقول: عرف فلان فلانًا عرفانًا، ومعرفةً، وهذا أمر معروف، وهذا يدلُّ على ما قلناه من سكونه إليه؛ لأنَّ مَن أنكر شيئًا توحَّش منه، ونبا عنه. والعرف المعروف سمِّي بذلك؛ لأنَّ النفوس تسكن إليه[1]، وقيل: والعُرْفُ بالضمِّ: الجودُ، واسمُ ما تَبْذُله وتُعْطيه، ومَوْجُ البَحْرِ، وضدُّ النكْرِ، واسمٌ من الاعتِرافِ ، تقولُ: عَلَيَّ أَلْفٌ عُرْفًا، أي: اعْتِرافًا[2]. واستخلاصًا لما سبق يتبيَّن أن مصطلح العرف في لغة العرب يدور على أمرَين: تتابع الشيء متَّصلًا بعضه ببعض، والسكون والطمأنينة، والجود والاعتراف بالفضل والجميل.

العُرف اصطلاحًا: «ما استقرَّت النفوس عليه بشهادة العقول، وتلقَّته الطبائع بالقبول، وهو حجَّة أيضًا، لكنَّه أسرع إلى الفهم، وكذا العادة هي ما استمرَّ الناس عليه على حكم العقول، وعادوا إليه مرَّة أخرى»[3]، بمعنى «ما اعتاده الناس في المعاملَات، واستقامت عليه أمورهم»[4]، أو هو «ما تعارفه الناس وساروا عليه، من قولٍ، أو فعلٍ،

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٤/ ٢٨١.
(٢) ينظر: القاموس المحيط للفيروزآباديّ: ٨٣٦.
(٣) التعريفات للجرجانيّ: ١٤٩.
(٤) أصول الفقه محمَّد أبو زهرة: ٢٧٣.

أو تركٍ، ويسمَّى العادة»[١]. أمَّا القرافيّ فعرَّفه بقوله: «العُرف القوليّ أن تكون عادة أهل العُرف يستعملون اللفظ في معنى معين ولم يكن ذلك لغة[٢]». وعرَّفه ابن أمير الحاجّ بأنَّه: «أن يتعارف قوم إطلاق لفظٍ لمعنى، بحيث لا يتبادر عند سماعه إلَّا ذلك المعنى، كالدابَّة على الحمار، والدرهم للنقد الغالب»[٣].

وعرَّفه أحمد فهمي أبو سنَّة بقوله: «أن يشيع بين الناس استعمال بعض الألفاظ، أو التراكيب في معنًى معيَّن، بحيث يُصبح ذلك المعنى هو المتبادَر منه إلى أذهانهم عند الإطلاق، بلا قرينة ولا علاقة عقليَّة»[٤]، وقوله: «بلا قرينة أو علاقة عقليَّة»، خرج به المجاز؛ لأنَّ هذا النوع من العُرف، لغة وضعيَّة خاصَّة، تُصبح معانيها حقائق عرفيَّة؛ فإذا احتاج فهم المعنى المقصود إلى قرينة أو علاقة عقليَّة، لم يكن عرفًا، بل من قبيل المجاز[٥].

وسمِّي بالمعنى العرفيّ؛ لأنَّه: «موضع اتِّفاق بين أفراد المجتمع، ثمَّ يخضع للتصويب والتخطئة ما تدلُّ عليه العناصر اللغويَّة من الأدوات والأسماء والأفعال، وصور الجمل المختلفة، وكلُّ ما يشمل عليه العرف اللغويّ من العناصر، وتتَّضح ظلال المعنى للمعرب عند مزاولة إعراب الجملة؛ لأنَّ مصطلحات الإعراب قد لا ترِدُ على ذهن المعرب إلَّا بعد معرفته بهذه الظلال»[٦]، بمعنى أن الإعراب هو غير ظاهر في الجملة فالعلاقات بين الكلمات والمعاني المجازيَّة في مخيلة المعرب، هي التي تنسج خيوط الإعراب. ومن شأن هذا النوع من المعنى أن يكون صالحًا للتعقيد لتوالي العناصر الدالَّة

(١) علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلَف: ٨٩.

(٢) الفروق في أنواع الفروق: ١/ ٣١٤.

(٣) التقرير والتحبير، ابن أمير حاج أبو عبد الله شمس الدين محمَّد بن محمَّد، دار الكتب العلميَّة، ط٢، ١٩٨٣: ١/ ٣٥٠.

(٤) العُرف والعادة في رأي الفقهاء: ٤٣.

(٥) نظريَّة العُرف، عبد العزيز الخيَّاط ، مكتبة الأقصى، عمَّان، الأردن، ١٩٧٧م: ٣٥.

(٦) حصاد السنين من حقول العربيَّة: ١٦٤، خواطر من تأمّل في لغة القرآن الكريم: ٨٤-٨٥.

عليه؛ وبالنتيجة فإنَّ المعنى العرفيّ يعتمد في الإدراك على القياس[1]. ويُفهَم أنَّ العُرف اللغويّ يكون في المفردات، ويكون في المركَّبات (سياق النصِّ)، ويكون في سياق الموقف.

أوَّلًا. الألفاظ المفردة:

وهو أن تكون عادة أهل العرف استعمال اللفظ في معنى معيَّن، ولم يكن ذلك لغة[2]. ويُطلَق عليه الحقيقة العرفيَّة، نحو الدابَّة للحمار حصرًا من دون سائر الحيوانات، والغائط المطمئن من الأرض وغيرها، وهناك من عرَّفه بأنَّه: «ما تعارف الناس على إطلاق لفظ على معنى غير معناه اللغويّ، بحيث يتبادر منه هذا المعنى العرفيّ عند إطلاقه من دون حاجة إلى قرينة- ثمَّ قال- حتَّى سمُّوا استعمال اللفظ فيه حقيقة عرفيَّة»[3]، كاستخدامهم لفظ الولد في الذِّكر، مع أنَّه يشمل الذَّكر والأنثى، كما في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾[4]، فإنَّ الآية دالَّة على الاستعمال في الذَّكر والأنثى، بخلاف العُرف، فإنَّه يدلُّ على الذَّكر. ويبدو أنَّ خطاب الزَّهراء عليها السلام قد ألمح إلى هذا التفصيل في حديثها عن جهاد عليّ عليه السلام: «**فلا ينكفئ حتَّى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدودًا في ذات الله**»[5]. ففي ظلِّ المعنى لدلالة (مكدود) الذي أشارت إليه الزَّهراء عليها السلام، هنا يدلُّ على المجتهد في ذات الله تعالى بالعبادة

(١) حصاد السنين من حقول العربيَّة: ١٦٥، خواطر من تأمّل في لغة القرآن الكريم: ٨٤-٨٥.

(٢) التقرير والتحبير: ١/ ٣٤٠، والفروق للقرافيّ:١/ ١٧١، العُرف اللغويّ وأثره في الخطاب الشرعيّ (دراسة دلاليَّة تداوليَّة): مجلَّة المعيار، مجلَّد ٢٤، عدد ٥٢، سنة ٢٠٢٠: ٤٠٨.

(٣) مدخل أصول الفقه الإسلاميّ، الدار الجامعيَّة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٣٦: ٢/ ٣٢٦، والعُرف اللغويّ وأثره في الخطاب الشرعيّ (دراسة دلاليَّة تداوليَّة): مجلَّة المعيار، مجلَّد ٢٤، عدد ٥٢، سنة ٢٠٢٠: ٤٠٨.

(٤) سورة النساء: ١١.

(٥) بيت الأحزان: ١٤٣، بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٤.

والدعاء من سهر وجهد وتعب وتوجه وإخلاص وبكاء وغير ذلك، أمَّا دلالة لفظة (المكدود) في المعاجم فإنَّها تدلُّ على (المغلوب والمتعب)[1]، والمستعمل في ألفاظ المفردة الواحدة يُنظر إليها من زاويَتَين، **أحداهما**: أن يكون المتبادَر إلى الذهن بعض المدلول اللغويّ، مثل: تعارف الناس إطلاق لفظ (الولد) على الذكر دون الأنثى، مع أنَّه في اللغة يشمل النوعَين. قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾[2]. ومن ذلك قول مولاتنا الزَّهراء عليها السلام: «**أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئًا فريًّا.. وزعمتم أن لا حظوة لي ولا أرث من أبي ولا رحم بيننا؟! أفخصَّكم الله بآيةٍ أخرج أبي منها؟!**»[3]، فالمتبادر إلى الذهن أنَّ (إرث) تدلُّ على وراثة الابن من والده في كلِّ شيء، مع أنَّه خصَّت الزَّهراء بورث أرض فدك من أبيها، فقصدت المعنى المقيَّد المخصوص، لا المعنى المطلق العام.

الثانية: أن يكون المتبادَر إلى الذِّهن أعمَّ من المدلول اللغويّ، مثال إطلاق الدراهم على النقود الرائجة في البلد، مهما كان نوعها وقيمتها، حتَّى الورق النقديّ اليوم، مع أنَّ الدراهم- في الأصل- نقد فضِّي، مصكوك بوزن معيَّن، وقيمة محدَّدة[4].

ومنه قول الزَّهراء عليها السلام: «**وتقتاتون القد**»[5]، المعنى المعجميّ تأكلون اللحم، أمَّا ظلّ المعنى الذي أشارت إليه مولاتنا الزَّهراء عليها السلام، إذ وصفتهم بخباثة المشرب وجشوبة المأكل، دلالة على نجاستهم وتخلُّفهم وقساوتهم. ويمكن القول: إنَّ الأمثلة كثيرة، لكنِّي أخشى من الإطالة، والخروج عن الإيجاز الذي أبغيه في هذا المطلب.

(١) ينظر: لسان العرب، مادَّة كدد: ٣/ ٣٧٨.
(٢) سورة النساء: ١٢.
(٣) الاحتجاج: ١/ ١٣٨.
(٤) نظريَّة العُرف: ٣٤، العرف اللغوي وأثره في الخطاب الشرعيّ: ٤٠٩.
(٥) الاحتجاج: ١/ ١٣٨.

ثانيًا. على مستوى التركيب والعبارات (سياق النصّ):

فالمعنى العرفيّ لا يقتصر على الألفاظ كما رأينا؛ بل يشمل التركيب حيث ينتقل المعنى اللغويّ الحقيقيّ بواسطة غلبة استعماله في مدلول معيَّن إلى وضع عرفيّ يتطلَّب من المتلقِّي- إلى جنب معرفته بالوضع اللغويّ- إلمامًا بالاستعمال اللغويّ المتداوَل بين أبناء المجتمع الواحد والمتعارَف عليه، للوصول إلى حمل ناجح للكلام، وهو ما يقابل حديثًا مصطلح العبارات الجاهزة، كونها- كما يرى سيرل من نتاج الاستعمال العرفيّ؛ «حيث محاولة ترجمتها إلى لغة ثانية انطلاقًا من دلالتها الحرفيَّة يعطي معنًى مغاير تمامًا لما يقصد بها في الاستعمال المتعارَف عليه»[1]. هو الجانب القوليّ بما فيه من عناصر التركيب، وما تنتظم به من تصنيف وتأليف وعلاقات وقرائن، فالكلمة والجملة على الرغم من أنَّهما من العناصر المهمَّة في التحليل اللغويّ، إلَّا أنَّهما لا يعطيان صورة كاملة للأحداث اللغويَّة، لهذا لجأ أصحاب هذا المنهج إلى النصِّ باعتباره حدثًا تواصليًّا مركَّبًا ذا بنية مكتفية بنفسها، قادرًا على الإفصاح والتأثير والفعل للكشف عن وظيفته في التفاعل الإنسانيّ العامّ.

١. **السؤال الوارد عن دعوى سابقة:** ومِن ذلك قولها عليها السلام: «**أوَلست أنا وأبي من ملَّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمِّي**»[2]. السؤال هو: كيف تبادر ذلك السؤال من الزَّهراء عليها السلام وهي ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ وظلّ المعنى الذي أرادت قوله: أنا وأبي ملَّة واحدة، بدليل دعوى سابقة «**أيُّها الناس اعلموا أنِّي فاطمة وأبي محمَّد صلى الله عليه وآله أقول عودًا وبدوًا، ولا أقول ما أقول غلطًا، ولا أفعل ما أفعل شططًا**».. وكذلك قولها: «**أم انتم أعلم بخصوص القرآن من أبي وابن عمِّي**»، ودقيق اللحظ يرى أنَّها عليها السلام لم تقل زوجي، وإنَّما قالت ابن

(١) النظريَّة التداوليَّة عند الأصوليِّين، نصيرة محمَّد غماري، دار علم الكتاب الجديد، الأردن، ط١، ٢٠١٤: ٢٠٨.

(٢) الاحتجاج: ١/ ١٤١.

عمِّي، وظلّ المعنى هنا إشارة إلى علاقة الدم بينهما وبين رسول الله في أن أقرب الأقربين للرسول الأكرم قد ظلموا وسلبت حقوقهم، وعيل عليهم.

ومن هنا؛ فإنَّ العادة تجري باستعمالها لإنجاز أعمال غير مباشرة (فعل كلاميّ توجيهيّ غير مباشر)، بل أن يصبح استعمالها ذاك سنَّة قوليَّة تتَّفق عليه مجموعة لغويَّة معيَّنة[1]. فالمعنى الجاهز الذي التصق بها واشتهرت به، لا يُلغي معناها الحرفيّ، وللتوصُّل إلى قصد المتكلِّم يرجع إلى السياق الذي قيلت فيه. وضابطها: أن يكون شأن الوضع العرفيّ، تركيب لفظ مع لفظ، يشتهر في العرف تركيبه مع غيره[2]. مثل قول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾[3]، وقوله ﷻ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾[4]، فإنَّ المعنى الحقيقيّ بها لغةً، تعلُّق الحكم بالأعيان، واستعملها العُرف في التكليف بالأفعال المقصودة منها، حتَّى صار المتبادَر إلى الأفهام منها: تحريم مسيس الأمَّهات، وتحريم الانتفاع بالميتة، وكذلك قول الحالف: عَلَيَّ المشي إلى بيت الله، فإنَّ العُرف استعمله في إيجاب أحد النَّسكين: الحجّ أو العَمرة[5]؛ أي المسجد الحرام لا كلّ مسجد، مع أنَّ المساجد كلَّها بيوت لله.

٢. **دلالة الاستفهام الاستنكاريّ**: يكون مبدوءًا بحرف نفي، فإنَّ ظلّ المعنى هو الإثبات أو الأمر، والشاهد على معنى الإثبات قولها عليها السلام: «**أوَلست أنا وأبي من ملَّة واحدة؟**»، وظلّ المعنى: أنا وأبي على ملَّة واحدة. أمَّا إذا ورد الاستفهام

(١) السؤال البلاغي (الإنشاء والتأويل)، بسمة بلحاج رحومة الشكيلي، دار محمَّد عليّ للنشر، ط١، ٢٠٠٣: ٢٠٠.

(٢) الفروق، القرفيّ: ١/ ٣١٣.

(٣) سورة النساء: ٢٣.

(٤) سورة المائدة: ٣.

(٥) أثر العُرف في التشريع الإسلاميّ، السيِّد صالح عوض، دار الكتاب الجديد، القاهرة: ١٢٢-١٢٣.

الإنكاريّ بغير حرف نفي، فإنَّ ظلّ المعنى هو النفي أو النهي، «**يابن أبي قحافة أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي**»، وظلّ المعنى: في كتاب الله ترث أباك وأرث أبي، فما عدا ممَّا بدا!.

٣. **التحوُّل من المعنى الحقيقيّ للاستفهام إلى ظلِّ المعنى التعجُّب**: ومن ذلك قولها عليها السلام: «**فيا حسرتي لكم، وأنَّى بكم**»[١]. من الواضح أنَّ هذا التركيب الذي يحوي على أداة الاستفهام (أنَّى) لا يدلُّ بأيِّ حالٍ من الأحوال على الاستفهام، فالزَّهراء عليها السلام لا تسأل القوم على أحوالهم كونها عالمة بهم ، وإنَّما المقصود هنا التعجُّب منهم لما فعلوه وما اقترفوه، وسياق المقام أو الموقف دلَّ على ذلك.

ثالثًا. سياق الموقف:

يشمل كلّ مايقوله المشاركون في عمليَّة الكلام، وما يسلكونه، كما يشكِّل الخلفيَّة الثقافيَّة بما تتضمَّنه من سياقات خبرات المشاركين[٢]، ويكون سياق الموقف على أشكال عدَّة:

أ. **المقام**: وهو ما يكشف ظلَّ المعنى الذي يعرف عن طريق أوضاع تداوليَّة غير منطوقة، توصَف أحيانًا بأنَّها عناصر الموقف، وهي عظيمة الأهميَّة لفهم ما يُقال[٣]، ويسمِّيها المفسِّرون (أسباب النزول)، ويسمِّيها شرَّاح النصوص بـ(المقام). ومن ذلك قد تجد خطبة الزَّهراء عليها السلام واضحة الصياغة، لا يتحقَّق فهمها الكامل بمضامنيها الدقيقة، وبمطلبها المراد، إلَّا بعد تقديمٍ له بذِكر الظروف والأسباب التي دعت إلى الخطبة، ومن ذلك يُنقَل أنَّ الزَّهراء عليها السلام «دخلت على أبي بكر، فجلست ثمَّ أنَّت أنَّة

(١) الاحتجاج: ١٤٩.
(٢) المعنى وظلال المعنى: ١٢٠.
(٣) المعنى وظلال المعنى: ١٢٠.

أجهش القوم بالبكاء، فارتجَّ المجلس، ثمَّ أمهلت هنيئة حتَّى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله، فعاد القوم في بكائهم»[1].

فسياق الموقف من ألم وحسرة ومظلوميَّة يوضِّح المراد من خطبتهاعليها السلام، فلو كان سياق الموقف غير ذلك؛ لما وبَّخت وبيَّنت الحسرة والمظلوميَّة التي لحقت بها، أمَّا سبب معاودة القوم للبكاء فهو أنَّه ذكرت رسول اللهصلى الله عليه وآله، فظلَّ المعنى يشير إلى مدى حجم إيلامها ومظلوميَّتها، ومن ذلك أيضًا دلالة الحذف في السياق فإنَّه يدلُّ على ظلِّ المعنى.

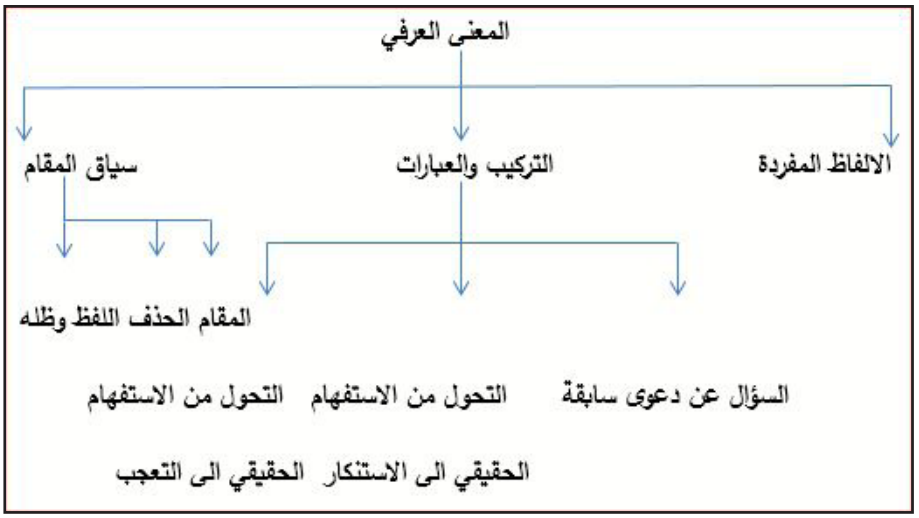
ب. **الحذف**: ومن الشواهد على ذلك قولهاعليها السلام: «**فجعل الله الإيمان تطهيرًا من الشِّرك**»[2]، بمعنى أنَّه سبحانه وتعالى إنَّما فرض الإيمان الذي هو التصديق بالله بأن يصدِّق بوجوده وصفاته، وبرُسله بأن يصدِّق بأنَّهم صادقون فيما أخبروا به عن الله ، وبكتبه بأن يصدِّق بأنَّها كلام الله، وأنَّ مضمونها حقٌّ، وبالبعث من القبور والصراط والميزان وبالجنَّة والنَّار وبالملائكة بأنَّهم موجودون وأنَّهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، إلى غير ذلك[3].

وكذلك قولهاعليها السلام: «**نحن وسيلته في خلقه، ونحن خاصَّته، ومحلَّ قدسه، ونحن حجَّته في غيبه**»[4]، والتقدير: اختصَّنا من بين عباده بالكرامة والمنزلة، وتقديسه سبحانه، وتنزيهه عمَّا لا يليق به من الصِّفات، وأنَّه سبحانه يحتجُّ على عباده في أوامره ونواهيه وأحكامه يوم القيامة. ودقيق اللحظ يتلمَّس أنَّ هناك حذفًا في السياق دلَّت عليه القرائن الأخرى (ما هذه القرائن؟)، وذلك هو ظلُّ المعنى.

(١) الاحتجاج: ١/ ١٤١.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٣٤.
(٣) ينظر: مجمع البحرين ١/ ١١٣.
(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦/ ٢١١.

ت. **اختيار نوع الألفاظ للدلالة على ظلِّ المعنى**: ويُقصد به انسجام الألفاظ ودقَّة اختيارها مع الموقف، ومن ذلك قول الزَّهراء عليها السلام: «**أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحَمَلة دينه ووحيه، وأمناء على أنفسكم، وبلغاؤه في الأمم**»[1]. في هذه الفقرة من الخطبة أشارت الزَّهراء إلى المهاجرين والأنصار الذي واكبوا أباها الرسول الأكرم محمَّدًا صلى الله عليه وآله، وكانت لهم منزلة رفيعة في عهد أبيها، وظاهر المعنى أنَّ الزَّهراء عليها السلام قد أشادت بهم وامتدحتم، لكنَّ ظلَّ المعنى خلاف ذلك، فهنا توبيخ لهم على ماكانوا عليه، وما هم عليه الآن من ضعف وخنوع، وتركهم لكلمة الحقِّ، بدليل قولها عليها السلام: «**فهيهات منكم، وكيف بكم، وأنَّى تؤفكون؟ وكتاب الله بين أظهركم.. فقد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون، أم بغيره تحكمون؟**»[2]. فقد خرج المعنى هنا من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي (هل كلُّ معنى مجازي يمكن أن يكون ظلالًا للمعنى؟) الذي يدلُّ على تعجبها من القوم (فعل كلامي تعبيري غير مباشر)، واستفهاماتها الاستنكاريَّة التي تشكِّكهم بسلامة دينهم، واقترابهم من سوء الخاتمة؛ لأنَّهم أنكروا ولاية أمير المؤمنين، وحقّ فاطمة من ورثها لأرض فدك، وما دامت مولاتنا صاحبة حقٍّ إلى هذا الحدِّ، فجدير بالقوم من المهاجرين والأنصار من صحابة أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله أن يعترفوا بحقوقها، ولكنَّهم لم يجدوا من الإفصاح عن المفردات، ومن القدرة أن يعترفوا لها بذنوبهم، وهذا يجعل للمعنى ظلًّا خاصًّا.

(١) الاحتجاج: ١/ ١٣٣.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٣٧.



مخطَّط رقم (١)

مخطَّط توضيحيّ من لدن الباحث لظلِّ المعنى العرفيّ عند الزَّهراء عليها السلام

المبحث الثاني

المعنى الذهنيّ

الذهن لغةً: حِفْظُ القَلْب، نقول: اجعَلْ ذِهْنَك إلى كذا وكذا[1]، وذكر ابن منظور أنَّه: «فِي النَّوَادِرِ: ذَهِنْتُ كَذَا وَكَذَا أَي فَهِمْتُهُ. وذَهَنتُ عَنْ كَذَا: فَهِمْتُ عَنْهُ. وَيُقَالُ: ذَهَنَني عَنْ كَذَا وأَذْهَنَني واسْتَذْهَنَني أَي أَنساني وأَلهاني عَنِ الذِّكْرِ.. وفلانٌ يُذاهِنُ النَّاسَ أَي يُفاطنهم. وذاهَنَني فذَهَنْتُه أَي كُنْتُ أَجْوَدَ مِنْهُ ذِهْنًا. والذِّهْنُ أَيضًا: القوَّة»[2]. وممَّا تقدَّم يتَّضح أنَّ معنى المعنى اللغويّ للذهن هو كلُّ ما يتعلَّق بالعمليَّات الفكريَّة التي يصدرها العقل من حفظ وتحليل واستنتاج وفهم.

أمَّا المعنى الاصطلاحي للذهن، فهو: «الاستعداد التام لإدراك العلوم والمعارف بالفكر»[3]. أو هو قوَّة للنَّفس معدَّة لاكتساب العلوم، تشمل الحواس الظاهرة والباطنة[4]، فالذهن قادر بطبيعته على إدراك ماهيَّات الأشياء إدراكًا تامًّا، والماهيَّات هي المعاني الكليَّة للأشياء[5]. ولم يغفل العرب القدماء عن أثر المعنى الذهنيّ في المعنى، فقد بحث الدَّارسون العرب القدامى كالفارابيّ (ت ٣٣٩هـ)، وابن سينا (ت٤٢٨هـ)، والغزَّاليّ (ت٥٠٥هـ) موضوع الإدراك والمعاني الذهنيَّة.

(١) العين: ٤/ ٤٠.
(٢) لسان العرب: ١٣/ ١٧٤ (ذهن).
(٣) التعريفات: ١/ ١١١ (ذهن).
(٤) التوقيف على مهمَّات التعاريف: ١/ ١٧١.
(٥) مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانيَّة أو مقال في الإنسان، أرنست كاسيرر: ٢٥.

وقد لخَّص الجرجانيّ (ت٨١٦هـ) المعنى الذهنيّ بقوله: إنَّه إحاطة الشيء بكماله، وهو حصول الصورة عند النفس الناطقة، وتمثيل حقيقة الشيء وحده من غير حكم عليه بنفي أو إثبات يسمَّى(تصوُّرًا)، ومع النفي بأحدهما يسمَّى تصديقًا[١]، ويُفهم من هذا التعريف أنَّ الصورة الذهنيَّة هي فهم الشيء بكامله ولا تتحصَّل إلَّا بمعرفَتين، **أولاهما**: حصول الصورة الذهنيَّة، ومعرفة حقيقة هذه الصورة ، أي معرفة طبيعتها الخاصَّة على أنَّها جنس أو نوع من الأجناس أو الأنواع التي يمكن تصوُّرها في الذهن، وهذا كلُّه من غير حكم عليها بالإثبات أو النفي.

والصورة الذهنيَّة عند علماء الغرب قد تنوَّعت أيضًا، فقد أثبت بعض العلماء أنَّ هنالك مصدرَين للمعرفة الذهنيَّة، هما: الحساسيَّة والفهم، أو التجربة وقدرتنا على أن نفكِّر في هذه التجربة ، وأمَّا الصورة الذهنيَّة للمعرفة، فهي في نظر (كانط) قبليَّة؛ لأنَّ الفهم يفكِّر في معطيات بفضل المقولات التي هو حائز لها بصورة سابقة على أيَّة تجربة[٢]. والمتأمِّل في دلالة الصورة الذهنيَّة عند علماء العرب القدامى والعلماء المحدثين من الغرب، يجد أنَّها تعتمد على الاستنباط، الذي يلخِّصه لفظ (إذن)، ومثال على المعنى الذهنيّ لظلال المعاني، قد وردت روايات عديدة، منها ما هو صحيح سندًا، تدُّل على أنَّ الملائكة تدخل بيوت الأئمَّة، وتطأ بسطهم، وتتَّكأ على مساورهم، ويجمع الأئمَّة من زغبها لأولادهم، فعن أبي حمزة الثماليّ، قال: «دخلت على عليّ بن الحسين عليه السلام، فاحتبست في الدار ساعة، ثمَّ دخلت البيت، وهو يلتقط شيئًا، وأدخل يده من وراء السِّتر فناوله مَن كان في البيت، فقلت: جُعِلت فداك، هذا الذي أراك تلتقطه، أي شيء هو؟ فقال: **فضلة من زغب الملائكة نجمعه إذا خلونا، نجعله سيجًا لأولادنا**. فقلت: جُعِلت فداك، وإنَّهم ليأتونكم؟ فقال: **يا أبا حمزة، إنَّهم ليزاحمونا على تكأتِنا**»[٣].

(١) التعريفات: ١٨.

(٢) ما هي الإبستمولوجيا، محمَّد وقيدي: ٤٥.

(٣) الكافي: ج ١، ص٣٩٣، ورواه الصفَّار أيضًا بسند صحيح عن أحمد بن محمَّد، ثمَّ بقيَّة السند.=

والمعنى الذهنيّ هنا أنَّ أمير المؤمنين والزَّهراء والحسنَين عليهم السلام كانوا يحتفظون بزغب جناح الملائكة؛ ليوصلوا رسالة ماديَّة للناس بأنَّ بيوتهم مزار للملائكة ومحطّ جبريل فيها؛ لإلقاء الحجَّة على الناس بأحقيَّتهم، وإزالة الغموض عن الذين لم يعرفوا أحقيَّتهم، وهذا يكون مرهونًا بإدراك القوم الذهنيّ للعلاقات بين ما يصادفهم من الأدلَّة وبين مدلولاتها الذهنيَّة. إذن بعد كلِّ تلك المصاديق فقد أثبتوا بأنَّهم القرآن الناطق، وطريق الحقِّ، ولكن للأسف مالَ القوم على غير طريقهم، ولم تنفعهم المدلولات الذهنيَّة، وإذا تأمَّلنا في هذا الحدث، نستنتج أنَّ «البنية التصوريَّة التمثيليَّة لا تقوم على كيانات تركيبيَّة كالأسماء والأفعال؛ بل على كيانات مغايرة، كالأحداث والأزمنة والمقاصد، وعمومًا يُطلق عليها بنية فضائيَّة ذهنيَّة موازية للبنيَّة التركيبيَّة»(١).

وبهذا يكون الخطاب أوقع في النفس، وأقوى في التأثير، وأدعى إلى القبول؛ إذ يجعل الحسَّ يتأثَّر عن طريق الخيال ما شاء له التأثُّر؛ فيستقرُّ المعنى في النهاية في أعماق النفس. ولعلَّ من أهمِّ مضامين المعاني الذهنيَّة عند الزَّهراء عليها السلام:

١. الإبداع في إخراج اللفظ من المعنى الذهنيّ إلى الصورة المحسوسة والمتخيَّلة: بهذه الهيأة يكون الخطاب أوقع في النفس، وأقوى في التأثير، وأدعى إلى القبول؛ إذ يجعل الحسَّ يتأثَّر عن طريق الخيال بالصورة ما شاء له التأثر؛ فيستقرُّ المعنى في النهاية في أعماق النفس، ومن ذلك قول مولاتنا الزَّهراء عليها السلام: «**فبلَّغ الرسالة، صادعًا ضاربًا ثبجهم آخذًا بأكظامهم، يجف الأصنام وينكث الهام، حتَّى انهزم الجمع وولوا الدُّبر، حتَّى تفرَّى الليل عن صبحه، وأسفر الحقُّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين**»(٢).

=راجع: بصائر الدرجات: ٦/ ١١١.

(١) دور التصوُّر الذهنيّ في تشكيل المعنى، صالح غيلوس، جامعة محمَّد بوضياف ، المسيلة، مجلَّة العمدة في اللسانيَّات وتحليل الخطاب، المجلَّد ٤، ع٤، ٢٠٢٠: ١٠١.

(٢) الاحتجاج: ١/ ١٣٥.

ودقيق اللحظ يتَّضح لديه أنَّه كيف ترسم في الخيال صورة في ذهن المتلقِّي تبليغ الرسالة، بوصفها عليها السلام صادعًا في الإظهار والتصريح بالحقِّ، والصورة الذهنيَّة الأخرى في وصفها عليها السلام: ضاربًا ثبجهم، والثَبَج: وسط الشيء ومعظمه(١)، وسلسلت عليها السلام الأحداث وحوَّلتها من صور ذهنيَّة إلى دلالات لفظيَّة، فقالت: «**حتَّى تفرَّى الليل عن صبحه**»(٢)؛ أي انشقَّ حتَّى ظهر وجه الصباح(٣).

والمعنى الذهني المتوقَّع أنَّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله نقل الصورة الذهنيَّة في كيفيَّة الدفاع عن رسالته إلى واقع محسوس، فاستمرَّ في إيصال رسالته، ولم يستسلم إلى أن حوَّل الصورة الذهنيَّة إلى واقع محسوس في أنَّه هزم الجمع، وولُّوا مدبرين، وأسفر الحقُّ، وتفرَّى الليل عن صبحه، وخرس الشياطين، وعندما نبصر كلامها الشريف نتلمَّس مدى الإتقان والإبداع لما يمتاز من سبك في المعاني وظلال المعاني، وإنَّ القارئ الخبير يستشعر أن نورًا ربانيًّا يكمن وراء كلِّ عبارة من عباراتها، وأن تسديدًا خفيًّا نسجت أفكارها لا يدركها إلَّا من توغَّل في كنهها واكتشف مقدار مظلوميَّتها في ضوء ظلال المعاني التي ترمي إليها، وهنا أضحى خطابها أوقع في النفس، وأقوى في التأثير، وأدعى إلى القبول؛ إذ يجعل الحسَّ يتأثَّر عن طريق الخيال بالصورة، فيستقرّ المعنى في النهاية في أعماق النفس.

٢. **التخييل الحسِّيّ**: وهو المعنى الذهنيّ الذي يضفيه تصوير الخطاب عند مولاتنا الزَّهراء، ويحوِّل اللوحة الصامتة إلى منظر حي متحرِّك، فهو لا يكاد يعبِّر بالصورة المحسوسة والمتخيَّلة عن المعنى الذهنيّ، أو الحالة النفسيَّة، حتَّى يرتقي بالصورة التي رسمها فيمنحها الحياة النابضة، والحركة المتجدِّدة، فإذا المعنى الذهنيّ حركة يرتفع بها

(١) ينظر: شرح خطبة الزَّهراء، للخوانساريّ: ٦٩-٧٠.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٣٥.
(٣) ينظر: النهاية في غريب الأثر: ٢/ ٤٨٩، وينظر: شرح خطبة الزَّهراء، للخوانساريّ: ٦٩-٧٠.

نبض الحياة، وإذا الحالة النفسيَّة لوحة متحرِّكة أو مشهد حيّ[1]. ومن أمثلة ذلك: قول الزَّهراء عليها السلام: «**فَلَمَّا اخْتارَ اللهُ لِنَبِيِّهِ دارَ أَنْبِيائِهِ وَمَأْوى أَصْفِيائِهِ، ظَهَرَ فيكُمْ حَسيكَةُ النِّفاقِ وَسَمَلَ جِلْبابُ الدّينِ، وَنَطَقَ كاظِمُ الْغاوِينِ، وَنَبَغَ خامِلُ الأَقَلِّينَ، وَهَدَرَ فَنيقُ الْمُبْطِلِينَ فَخَطَرَ فِي عَرَصاتِكُمْ، وَأَطْلَعَ الشَيْطانُ رَأْسَهُ مِنْ مَغْرِزِهِ، هاتفًا بِكُمْ، فَأَلْفاكُمْ لِدَعْوَتِهِ مُسْتَجيبينَ، وَلِلْغِرَّةِ فِيهِ مُلاحِظِينَ. ثُمَّ اسْتَنْهَضَكُمْ فَوَجَدَكُمْ خِفافًا، وَأَحْمَشَكُمْ فَأَلْفاكَمْ غِضابًا، فَوَسَمْتُمْ غَيْرَ إِبِلِكُمْ، وَأَوْرَدْتُمْ غَيْرَ شِرْبِكُمْ، هذا وَالْعَهْدُ قَريبٌ، وَالْكَلْمُ رَحِيبٌ، وَالْجُرْحُ لَمَّا يَنْدَمِلْ، وَالرَّسُولُ لَمَّا يُقْبَرْ، ابْتِدارًا زَعَمْتُمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ**»[2].

ودقيق اللحظ يجد التحوُّل من صورة هادفة تنماز بالإيمان والعفَّة والوئام، زرعها الرسول الأكرم محمَّد صلى الله عليه وآله في حياته، إلى صورة مغايرة تمامًا بعدما انتقل الرسول الأكرم إلى دار الآخرة، فأضحوا منافقين، ملبِّين دعوة الشياطين، وعن عهدهم لنبيِّهم جدّ ناكثين، ولعلَّ انتقال الصورة من صورة مستقرَّة نقيَّة الى صورة مشوَّشة إثر وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، يدلُّ على ضعف إيمان الناس بالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ولا بأهل بيته عليهم السلام، وهذا ما أرادت إيصاله مولاتنا الزَّهراء عليها السلام للقوم.

ومن ذلك أيضًا قول الزَّهراء عليها السلام: «**أَتَقُولُونَ ماتَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله؟! فَخَطْبٌ جَليلٌ اسْتَوْسَعَ وَهْيُهُ، وَاسْتَنْهَرَ فَتْقُهُ، وَانْفَتَقَ رَتْقُهُ، وَأَظْلَمَتِ الْأَرْضُ لِغَيْبَتِهِ، وَكُسِفَتِ النُّجُومُ لِمُصِيبَتِهِ، وَأَكْدَتِ الْآمالُ، وَخَشَعَتِ الجِبالُ، وَأُضيعَ الحَريمُ، وَأُزيلَتِ الْحُرْمَةُ عِنْدَ مَماتِهِ. فَتِلْكِ وَاللهِ النَّازِلَةُ الْكُبْرى، وَالْمُصيبَةُ الْعُظْمى، لَا مِثْلُها نازِلَةٌ وَلَا بائِقَةٌ عاجِلَةٌ**»[3].

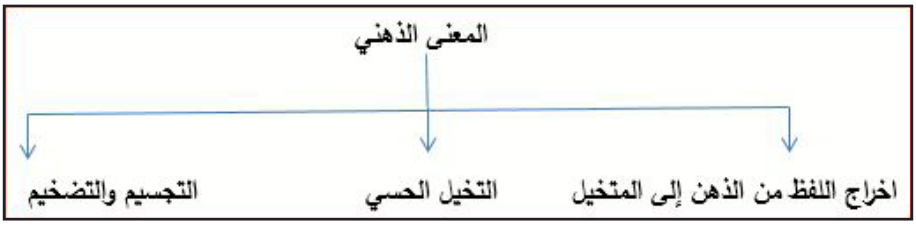
نلحظ من ذلك كيف تغيَّرت الصورة بعد وفاة نبيِّنا الأكرم صلى الله عليه وآله، فتحوَّل المعنى الذهنيّ من معنى مستقرّ إلى معنى متحرِّك جرَّاء الخطب الجليل الذي ألمَّ بالأمَّة فأظلمت الأرض لفقده، وكسفت النجوم، وخشعت الجبال، وأزيلت الحرمة، حتَّى

(١) ينظر: الواضح في علوم القرآن: ١٧١.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٣٦.
(٣) الاحتجاج: ١/ ١٣٩.

وصل بها الأمر أن تنعت هذا اليوم بـ(يوم النازلة الكبرى)، مشيرة إلى التغيير المفاجئ للقوم وتحوُّلهم من صورة إلى أخرى بعد وفاة أبيها المصطفى صلى الله عليه وآله.

٣. **التجسيم والتضخيم**: إنَّ من مظاهر المعاني الذهنيَّة في خطاب الزَّهراء عليها السلام تجسيم المعنويَّات وتضخيمها، وإبرازها وكأنَّها أجسام أو محسوسات، على العموم، تتضاخم وتتعاظم، حسبما يقتضي الجو والمشهد، حتَّى تملأ النفس شعورًا وإحساسًا[١]. ومن أمثلة ذلك قول الزَّهراء عليها السلام: «**فَأَخَذَ بِسَمْعِكُمْ وَأَبْصارِكُمْ، وَلَبِئْسَ ما تَأَوَّلْتُمْ، وَساءَ ما أَشَرْتُمْ، وشَرَّ ما مِنْهُ اعتَضْتُمْ، لَتَجِدَنَّ وَاللهِ مَحْمِلَهُ ثَقيلًا، وَغِبَّهُ وَبيلًا إِذا كُشِفَ لَكُمُ الغِطاءُ، وَبانَ ما وَراءَهُ الضَّرَّاءُ**»[٢].

وهنا تجسيم المعنويَّات وتضخيمها وتفظيعها ، لما فعله القوم من أعمال تنافي مبادئ الدين الحنيف من عدم قولهم الحقّ في ولاية أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وكذلك سكوتهم على اغتصاب حقِّها في فدك، وهذه الكبائر من الذنوب العظيمة كانت عاقبتهم أنَّها وصفتهم بأنَّ الله تعالى أَخَذَ بِسَمْعِكُمْ وَأَبْصارِكُمْ.



مخطط رقم (٢)

مخطَّط توضيحيّ من لدن الباحث لظلِّ المعنى الذهنِّي عند الزَّهراء عليها السلام

(١) ينظر: الواضح في علوم القرآن: ١٧٢.

(٢) الاحتجاج: ١/ ١٤٤.

المبحث الثالث

المعنى الانطباعيّ

الطبع في اللغة: السجيَّةُ التي جُبِلَ عليها الإنسان، وهو في الأصل مصدرٌ، والطَبيعَةُ مثله، وكذلك الطِباعُ. والطَبْعُ: الخَتْمُ، وهو التأثير في الطين ونحوه[1].

فهو «كلُّ مايثور في النفس من انفعال بما يصادف المرء، ممَّا يسبب له الإحساس بالرضا، أو يبعث في نفسه الضيق، يبدأ ذلك من ردَّة فعله لحالة الطقس، ويمتدُّ إلى سماع الموسيقى أو الاستغاثة أو المشاهد المسرحيَّة أو الإحساس بالسخونة الشديدة عند اللمس المفاجئ أو نحو ذلك»[2].

والانطباع هو فلسفة الصدق في التعبير عن الموضوعات، ومن جنس ما يثير هذا المعنى ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[3]. يُعرّف المؤمنون الفقراء في ضوء انطباع الناس عنهم، حتَّى يكاد يكون الانطباع عليهم أنَّهم أغنياء من شدَّة ملازمتهم للتعفُّف، وبهذا أنَّ المعنى الانطباعيّ يتوقَّف على ردَّة الفعل المباشرة، من دون الاستعانة بالعُرف أو المعنى الذهنيّ، ومن

(١) الصِّحاح، مادَّة (طبع): ٢/ ١٢٥٣.
(٢) حصاد السنين: ١٦٥.
(٣) سورة البقرة: ٢٧٣.

هنا فقد تأثَّرت الزَّهراء عليها السلام بما شهدته في حياتها الواقعيَّة من سلب حقوقها وحقوق زوجها، فعبَّرت عن طريق ردَّة الفعل من دون الحاجة إلى المعاني الذهنيَّة والمعاني العرفيَّة، فقد سجَّلت مولاتنا لحظة مظلوميَّتها السابقة، لحاضر مغتصَب، وبمعنى آخر تبرير للإحساس الذي أصابها من دون الرجوع إلى العُرف أو الذِّهن.

ومن ذلك عندما رمت الزَّهراء عليها السلام بطرفها نحو الأنصار، وقالت لهم: «**يا معشر النقيبة وأعضاد الملَّة وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقِّي والسِّنَة عن ظلامتي**»[1]. فالخطاب هنا ردَّة فعل لما فعله القوم في اغتصاب حقِّها عليها السلام، فكأنَّ ظلّ المعنى هنا لماذا الضعف والجهل على اجتماع السقيفة، وإبعاد أمير المؤمنين عن ولاية المسلمين؟ وكذلك ما سبب الخنوع عندما غصبوا أرض فدك وأخذوها عنوة منها، فأثَّر خطابها في القوم، فانطبع بما أثَّر فيهم، وأقامت معهم علاقة جدليَّة. وإذا تأمَّلنا في حال مولاتنا الزَّهراء عليها السلام نجدها صرَّحت بهذا الكلام وفقًا لانطباعاتها المباشرة، وهذا الانطباع لا يتغيَّر إلَّا إذا أثبت القوم العكس في مواقفهم تجاه الزَّهراء عليها السلام، وهذا لم يحدث البتَّة؛ لذا كانت الزَّهراء قاسية جدًّا في التعامل معهم؛ وفقًا لانطباعاتها السابقة عن القوم.

عوامل تكوين الانطباع الناجح عند الزَّهراء عليها السلام

هناك كثير من الإشارات اللفظيَّة وغير اللفظيَّة التي عملت عليها مولاتنا الزَّهراء عليها السلام؛ لتؤثِّر في نفوس القوم، وتغيِّر من قناعاتهم وانطباعاتهم المريضة، فركَّزت في ذلك على (حركة الجسد، واتِّصال العين، والانفعالات التي تكشف الآخر)، وغيرها، فضلًا عن المواجهة المباشرة التي تعدُّ واحدة من أهمِّ الإشارات التي تعطي انطباعًا دقيقًا، وهذا ما فعلته مولاتنا الزَّهراء عليها السلام عندما واجهت القوم، وخطبت بهم خطبتها؛ لتكشف حقيقتهم، ولعلَّ أهمَّ الأدوات الفاعلة عند الزَّهراء عليها السلام لتغيير انطباعات القوم، هي:

(١) الاحتجاج: ١/ ١٣٩.

١. **قدَّمت أفضل ما لديها من صفات ومهارات وعلوم اكتسبتها؛ لتثبت أحقيَّتها، وتكسب قضيَّتها:** فقد كان خطابها مستلهَمًا من القرآن الكريم الذي لا يدانيه شيء في الكمال، ومن ذلك قولها: «**أَنْتُمْ تزْعُمُونَ أن لَا إرْثَ لَنا، أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ تَبْغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**»(١)، وهنا أرادت عليها السلام - باستعمالها نصًّا قرآنيًّا- أن تغيِّر انطباعهم وسلوكيَّاتهم المريضة في أنَّها تمثِّل الوجه الآخر للقرآن الكريم، وأنَّها القرآن الناطق التي لا تخرج عن حكمه تعالى، فأضحى من البدهيّ أن يسلِّم لها القوم ويمتثل لحجَّتها في إثبات إرثها.

٢. **تذكير القوم بمكانتها ونسبها وقدسيَّتها:** ذكرت الزَّهراء عليها السلام فضائلها ونسبتها ومكانتها؛ لكي تُلقي الحجَّة على القوم، ومن ذلك: «**أيُّها الناس اعلموا أنِّي فاطمة وأبي محمَّد، أقول عودًا وبدءًا، ولا أقول ما أقول غلطًا**»(٢). فهنا ذكَّرت الناس بشرف انتسابها في مدى قربها من النبيّ الأكرم محمَّد صلى الله عليه وآله، وبدقَّة أمانتها في القول والفعل، لتغيِّر قناعاتهم وانطباعهم السابقة من حالةٍ إلى أخرى.

٣. **اعتماد القوَّة الحجاجيَّة والدليل الناهض في بيانها لتغيير قناعاتهم وانطباعاتهم:** اتَّسمت مولاتنا الزَّهراء بقوَّة حجَّتها في دفاعها عن حقوقها، ومن تمثُّلات ذلك قولها عليها السلام: «**فلَمَّا اختار الله لنبيِّه دار أنبيائه وماوى أصفيائه، ظهر فيكم حسيكة النفاق.. ثمَّ استنهضكم فوجدكم خفافًا، وأحمشكم فألفاكم غضابًا، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لمَّا يندمل، والرسول لمَّا يقبر، ابتدارًا زعمتم خوف الفتنة**»(٣)

(١) الاحتجاج: ١/ ١٣٨.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٣٦.
(٣) الاحتجاج: ١/ ١٣٣.

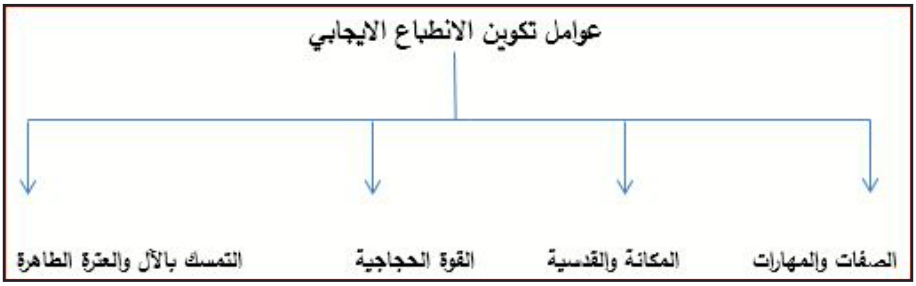
فالسيِّدة الزَّهراءعليها السلام تطرح في هذا الموضع قضيَّة مصيريَّة، وهي: ادِّعاء أهل السقيفة، وإظهارهم للناس كذبًا وخديعةً، أنَّهم اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة؛ دفعًا للفتنة، مع أنَّ الغرض كان غصب الخلافة عن أهلها، وهو عين الفتنة، فالموجِّه الشكِّيّ (زعمتم) عمل على بناء الخطاب وتوجيه الأمر الحجاجيّ/ الفتنة، وقد ساعدت روابط العطف الحجاجيّ (الواو، الفاء، ثمَّ) على تساوق الحجج وترتيبها، ومن ثمَّ ترسيخ المنحى الحجاجيّ المطلوب، وتحقيق الغاية المنشودة، وهي: بطلان «زعمتم خوف الفتنة»، ولا يخفى الانسجام الحجاجيّ بين الموجِّه الشكِّيّ (زعمتم)، وروابط العطف الحجاجيّ الذي وضَّح القوَّة الحجاجيَّة للقول في ضوء الركون إلى ثنائيَّة ضديَّة (إنكار/ اثبات)[1].

٤. **السعي لاقناعهم باتِّباع النهج القويم**: وهو التمسُّك بالنبيِّ الأكرمصلى الله عليه وآله، وتحذيرهم من الطمع في الدنيا واتِّباع الملذَّات، ومن ذلك قولهاعليها السلام: «**فَأَنْقَذَكُمُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى بِمُحَمَّدٍصلى الله عليه وآله بَعْدَ اللُّتَيَّا وَالَّتِي، وَبَعْدَ أَنْ مُنِيَ بِبُهَمِ الرِّجالِ وَذُؤْبانِ الْعَرَبِ وَمَرَدَةِ أَهْلِ الْكِتابِ.. مُشْمِرًا ناصِحًا ، مُجِدًّا كادِحًا وأَنْتُمْ فِي رَفاهِيَةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَادِعُونَ فاكِهُونَ آمِنُونَ، تَتَرَبَّصُونَ بِنا الدَّوائِرَ، وتَتَوَكَّفُونَ الأَخْبارَ، وَتَنْكُصُونَ عِنْدَ النِّزالِ، وَتَفِرُّونَ عِنْدَ القِتالِ**»[2]. فالسيِّدة الزَّهراءعليها السلام تطرح في هذا الموضع قضيَّة مصيريَّة، وهي: إنَّ الله تعالى أنقذ الناس من الضَّلالة والتيه بمحمَّدصلى الله عليه وآله، وهو أبوها، فظلَّ المعنى هنا كأنَّها تُشعِر القوم بأنَّهم ليسوا مشمولين بلطف المنقذ؛لأنَّهم عادوا ابنة المنقذ العظيم، فضلًا عن ادِّعاءاتهم كذبًا، وهنا قد حقَّقت المنطق العقليّ في التغيُّر الفكريّ والسلوكيّ في

(١) التوجيه الحجاجيّ في الخطبة الفدكيَّة للسيِّدة الزَّهراءعليها السلام، عبد الإله العرداويّ، وعبد الكريم السعداويّ: ١١.

(٢) الاحتجاج: ١/ ١٣٦.

ذهن المتلقِّي العام، وتوجيهه نحو تبنِّي انطباع جديد، وموقف وسلوك واقعيّ منطقيّ تجاه القضايا المطروحة(١).



مخطط رقم (٣)

مخطَّط توضيحيّ من لدن الباحث لتكوين الانطباع الإيجابيّ في خطبة الزَّهراء عليها السلام

الخاتمة

حان المقام أن أستجلي قطاف هذا البحث، ومن أهمِّ تلك القطاف:

١. تبدَّى لي أنَّ ظلَّ المعنى لا يُستدلُّ عليه بالمعاني المعجميَّة فحسب، وإنَّما تتعدَّد وسائل الدلالة، بحيث يشمل الأحداث والمواقف والانطباعات، فالتجريدات الذهنيَّة في ما يخطر على البال، مضافًا إليها وسائل الدلالة، يتشكَّل منهما ظلال المعاني.

٢. وظَّفت الزَّهراء عليها السلام لغتها العالية وما عندها من مواهب رحمانيَّة في القدرة على التأثير بالمتلقِّي عند طريق استعمالها المعنى الذي يفهمه الجميع، وظلّ المعنى الذي كانت مقاصدها ومراميها فيه، وهذا لا يظهر بصورة جليَّة، وإنَّما يفهم مقاصده في ضوء المعاني العرفيَّة، والتجريدات الذهنيَّة، والمعاني الانطباعيَّة.

٣. كشفت ظلال المعاني في خطب مولاتنا الزَّهراء صلى الله عليها وآلها أن المتبادر إلى الذهن أعمّ من المدلول اللغويّ، أو إنَّ المتبادر إلى الذهن بعض المدلول اللغويّ.

(١) التوجيه الحجاجيّ في الخطبة الفدكيَّة للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام: ١١.

٤. أثبتت الدراسة أنَّ كثيرًا من ظلال المعاني عند مولاتنا الزَّهراء عليها السلام تبيَّنت في ضوء المقام الذي يُشير إلى مدى حجم إيلامها ومظلوميَّتها.

٥. توصَّل الباحث إلى أنَّ ظلال المعاني في الأسئلة التي وجَّهتها مولاتنا الزَّهراء عليها السلام في خطبها إلى القوم، لا تدلُّ على سؤال المستفهِم طالب الجواب، وإنَّما تدلُّ على الاستنكار أو التعجُّب أو غير ذلك من الاستفهامات المجازيَّة الأخرى.

٦. بيَّنت الدراسة جملة من الأدوات التي قدَّمتها الزَّهراء عليها السلام لتغيير قناعات القوم، وانطباعاتهم؛ بما ينسجم مع ثوابتها القرآنيَّة والعقديَّة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وآله الطاهرين.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. أثر العرف في التشريع الإسلاميّ، السيِّد صالح عوض، دار الكتاب الجديد، القاهرة، د.ت.

٢. الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ (علماء القرن السادس)، منظَّمة الأوقاف والشؤون الخيريَّة، دار الأسوة للطباعة والنشر، د.ت.

٣. أصول الفقه، محمَّد أبو زهرة، مطبعة فاتحة، ١٩٤٧م.

٤. بحار الأنوار، محمَّد باقر المجلسيّ (ت١١١١هأ)، مؤسَّسة الوفاء، بيروت، لبنان، د.ت.

٥. بصائر الدرجات، محمَّد بن الحسن الصفَّار (ت٢٩٠هـ)، تصحيح وتعليق وتقديم: الحاج ميرزا حسن كوچه باغي، مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ، ١٤٠٤/ ١٣٦٢ش.

٦. بيت الأحزان، عبَّاس القمِّيّ (ت٣٥٩هـ)، مطبعة أمير، دار الحكمة، قم، إيران، ١٤١٢هـ.

٧. التعريفات، أبو الحسن عليّ الشريف الجرجانيّ (ت٨١٦هـ) حقَّقه وضبطه وصحَّحه: جماعة من العلماء، الدار التونسيَّة للنشر، تونس، ١٩٧١م.

٨. مفاتيح الغيب المشتهر بـ(التفسير الكبير)، محمَّد بن فخر الدين بن ضياء الدين الرازي، دار الطباعة العامرة، د.ت.

٩. التقرير والتحبير، ابن أمير الحاج أبو عبد الله شمس الدين محمَّد بن محمَّد، دار الكتب العلميَّة، ط٢، ١٩٨٣م.

١٠. التوقيف على مهمَّات التعاريف، زين الدين محمَّد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن عليّ بن زين العابدين الحدَّادي ثمَّ المناوي القاهريّ (ت١٠٣١هـ)، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١١. حصاد السنين من حقول العربيَّة، د. تمَّام حسَّان، ط١، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠١٢م.

١٢. خواطر من تأمّل في لغة القرآن الكريم، تمَّام حسَّان عالم الكتب، مكتبة عبد الخالق ثروت، ط١، ٢٠٠٦م.

١٣. دراسات في النقد المسرحيّ والأدب المقارن، محمَّد زكي العشماويّ، بيروت، دار النهضة العربيَّة، ١٩٨٣هـ.

١٤. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانيّ، تحقيق: محمَّد رضوان الداية ومحمَّد فايز الداية، دار قتيبة، ١٩٨٣م.

١٥. دور التصوُّر الذهنيّ في تشكيل المعنى، صالح غيلوس، جامعة محمَّد بوضياف، المسيلة، مجلَّة العمدة في اللسانيَّات وتحليل الخطاب، مج٤، ع٤، ٢٠٢٠.

١٦. السؤال البلاغيّ (الإنشاء والتأويل)، بسمة بلحاج ورحومة الشكيليّ، دار محمَّد عليّ للنشر، ط١، د.ت.

١٧. شرح خطبة الزَّهراء، السيِّد أبو القاسم جعفر بن الحسين الخوانساريّ الجرفادقانيّ (ت١١٥٨هـ)، إعداد وتحقيق: السيِّد محمود الغريفي، د.ط، د.ت.

١٨. الصِّحاح تاج اللغة وصحاح العربيَّة، اسماعيل بن حمَّاد الجوهريّ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطَّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٧م.

١٩. ظلال المعنى بين الدلالة والعرفانيَّة في ديوان ولادة متأخِّرة للشاعر عبد الرحيم جداية، إعداد: د. حسام العفوريّ، مجلَّة الدراسات الثقافيَّة، المركز الديمقراطيّ العربيّ، العدد ٨، سنة ٢٠١٩م.

٢٠. العُرف اللغويّ وأثره في الخطاب الشرعيّ (دراسة دلاليَّة تداوليَّة)، مجلَّة المعيار، مج٢٤، ع٥٢، سنة٢٠٢٠م.

٢١. العُرف والعادة في رأي الفقهاء، أحمد فهمي أبو سنَّه، مطبعة الأزهر، ١٩٤٣م.

٢٢. علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف (ت١٣٧٥هـ) الناشر: مكتبة الدعوة، شباب الأزهر، عن الطبعة الثامنة لدار القلم، القاهرة، ١٩٤٢م.

٢٣. العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيديّ البصريّ (ت١٧٠هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزوميّ، ود. إبراهيم السامرَّائيّ، الناشر: دار ومكتبة الهلال، د.ت.

٢٤. الفروق، العبَّاس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافيّ (ت٦٨٤هـ)، عالم الكتب، د.ت.

٢٥. القاموس المحيط، مجد الدين محمَّد بن يعقوب الفيروزآباديّ، مطبعة البابي الحلبيّ، ط٢، ١٩٥٢م.

٢٦. الكافي، محمَّد بن يعقوب الشيخ الكلينيّ (ت٣٢٩هـ)، تحقيق وتصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، ط٥، مطبعة حيدري، الناشر: دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، ١٣٦٧ش.

٢٧. لسان العرب، ابن منظور، محمَّد بن مكرم بن عليّ، جمال الدين ابن منظور الأنصاريّ الرويفعيّ الإفريقيّ (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، د.ت.

٢٨. ماهي الإبستمولوجيا، محمَّد وقيدي، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، د.ت.

٢٩. مجمع البحرين، الشيخ الطريحيّ (ت١٠٨٥هـ)، تحقيق: السيِّد أحمد الحسينيّ، ط٢، ١٤٠٨/ ١٣٦٧ش.

٣٠. مدخل أصول الفقه الإسلاميّ، الدار الجامعيَّة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٣٦م.

٣١. مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانيَّة أو مقال في الإنسان، أرنست كاسيرر (١٨٧٤-١٩٤٥)، ترجمة: إحسان عبَّاس، د.ط، د.ت.

٣٢. المسرحيّ في الأدب الجزائريّ، عزّ الدين جلاوجي، وزارة الثقافة عاصمة الثقافة العربيَّة، ٢٠٠٧م.

٣٣. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء، تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

٣٤. المعنى وظلال المعنى، د. محمَّد محمَّد يونس عليّ، دار المدار الإسلاميّ، بيروت. لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م.

٣٥. موسوعة كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمَّد بن عليّ التهانويّ، تقديم: د. رفيق العجم وآخرين، ط١، بيروت، مطبعة ناشرون، ١٩٩٦م.

٣٦. النظريَّة التداوليَّة عند الأصوليِّين، نصيرة محمَّد غماري، دار علم الكتاب الجديد، الأردن، ط١، ٢٠١٤م.

٣٧. نظريَّة العُرف، عبد العزيز الخيَّاط، مكتبة الأقصى، عمَّان، الأردن، ١٩٧٧.

٣٨. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمَّد ابن محمَّد بن محمَّد بن عبد الكريم الشيبانيّ الجزريّ، ابن الأثير (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، الطناحيّ، مؤسَّسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم، إيران، د.ت.

٣٩. الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا، ومحي الدين مستو، دار الكلم الطيِّب، دار العلوم الإنسانيَّة، دمشق، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

خطاب السيِّدة فاطمة عليها السلام: دراسة أسلوبيَّة

د. فاطمة مهدي البزَّال

الجامعة اللبنانيَّة

ملخَّص البحث

يُعدُّ خطاب السيِّدة فاطمة عليها السلام من كنوز المعرفة والحكمة المُتجلِّية بكلِّ مضامينها، بما تملَّكته من فصاحة وبلاغة وتمكُّن من ناصية اللغة من خلال الأسلوب المُتقن الذي عبَّر عن دلالاتٍ عميقة على مستوى الخطاب، فجاء أسلوبها موجزًا مُكثَّفًا، مُراعية المعنى من غير إطنابٍ ولا غموض، مع الإفادة من الفنون البديعيَّة التي زادت من انسيابيَّة الكلام، ورفدته بإيقاعٍ أثرى النصَّ من غير تكلُّف ولا تصنُّع، فقد ظهرت براعة السيِّدة فاطمة عليها السلام في اختيارها الألفاظ الموحية التي تُناسب المقام، فتنتظم مع غيرها في شبكة علائقيَّة على مستوى المعنى والدَّلالة. لذلك جاء بحثي الموسوم بـ(خطاب السيِّدة فاطمة عليها السلام: دراسة أسلوبيَّة)، لأميط اللثام عن بعض الظَّواهر الأسلوبيَّة في أدعيتها وخطبها الشريفة وكلماتها القصار، على المستوى اللفظيّ، سأتناول دراسة التكرار اللفظيّ، التَّضادِّ، والتَّناصّ، وعلى المستوى التَّنغيميّ سأتناول دراسة التكرار الصَّوتيّ، السَّجع، والجناس.

الكلمات المفتاحيَّة: الدُّعاء، التكرار، التناص، المستوى الصَّوتيّ.

المقدِّمة

أهل البيت عليهم السلام هم بيت النبوَّة ومعدن الرِّسالة، خصَّهم الله بعظيم فضله، وجعلهم سادةً وأولياء للأمر دون العالمين، طاعتهم واجبة ومقرونة بطاعته، كلامهم فصل الخطاب، وتقريرهم حجَّة علينا بالغة، وكلُّ ما يصدرُ عنهم يؤشِّر لنا مسارب الحياة؛ لننعم بفيض توجيهاتهم، وحُسن تنظيمهم أمورنا الدُّنيويَّة والأُخرويَّة. لذلك تُعدُّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام المعين الثرّ الذي نغترف منه علمًا وأدبًا وقيمًا وإيمانًا، بهم نتوسَّل، وبهم نستشفع ليزول ما ران على قلوبنا من صدأ الدُّنيا ومُغرياتها.

ويُعدُّ مأثور أهل البيت عليهم السلام كنزًا للحكمة والموعظة الحسنة، وما وصل إلينا من أدعيتهم يُبيِّن عُمق ارتباطهم بالله تعالى، ويتجلَّى ذلك في صدق كلماتهم ومُناجاتهم وخشوعهم وأدبهم في الدُّعاء بين يدي الله، أضف إلى ذلك إفراغ هذه الشُّحنة العرفانيَّة والإيمانيَّة وصبَّها في قوالبَ مُحكمة السَّبك، عذبة الألفاظ، تُراعي النَّظير، مُنسجمة الأفكار، مُدعَّمة بالشَّواهد الدَّالة على عظمة الخالق، وضرورة اللجأ إليه في كلِّ الأحوال، هذه الأدعية تُلامس شغاف القلوب؛ لصدورها عن أناسٍ عرفوا الله حقَّ قدره، فكانوا مثالًا للتقوى والخشوع. ولا ريب في ذلك، فأهل البيت الأطهار هم امتداد لبيت الرِّسالة والوحي، وما يصدُرُ عنهم إنَّما هو استكمالٌ للنَّهج نفسه، فالرسول صلى الله عليه وآله لا ينطق عن الهوى إن هو إلَّا وحيٌ يوحى، وأمير المؤمنين عليه السلام فارس الكلام، وما نهج البلاغة الذي ضمَّ بعض ما صدر عنه إلَّا مثالٌ لإعجازه

وبلاغته وفصاحته، سار عليه القدماء، واتَّخذوه دليلًا، وكذلك المحدثون؛ لتنوُّع موضوعاته، وجمال تعابيره، وجودة سبكه، وتناسق ألفاظه، وسطوة معانيه التي تأخذ بالألباب.

ومن الجدير بالذِّكر أنَّ السيِّدة فاطمةعليها السلام هي من هذه الشجرة المباركة، وسليلة العترة الطَّاهرة، تربَّت في بيت الوحي والنبوَّة، وشهدت حياة أبيها رسول اللهصلى الله عليه وآله، وعاشت مع أمير المؤمنينعليه السلام في أحلك الظروف، فنهلت من علومهم، وتأدَّبت بأدبهم، وكانت امتدادًا لهم، فهي من أصحاب الكساء الذين أذهَب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيرًا، وهي من ربابنة سفينة النَّجاة، من ركبها نجا، ومن تخلَّف عنها هلك. سارت على نهجهم فكانت أدعيتُها مثالًا للصِّدق والخشوع والتَّضرُّع والتأدُّب بين يدَي الله تعالى، وكذلك كلماتها القِصار شكَّلت بإيجازها مدرسة قائمة بحدِّ ذاتها، فيها من التَّوجيهات والمواعظ ما يقي الإنسان الزَّلل، فترسم له معالم حياته الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة، ممَّا جعلها تجري على الألسن بخفَّة وانسيابيَّة، وتصير في بعضها أمثالًا تسير بها الرُّكبان، أمَّا خطبها فكانت صرخةً مدوِّيةً في وجه الغاصِبين الذين سلبوها حقَّها وحقَّ زوجها الذي نصِّب خليفةً للمسلمين بأمر الله تعالى.

لـذا، وانطلاقًا ممَّا سبق، حـدثتْ بي رغبة في تناول جوانب من أدعية السيِّدة الزَّهراءعليها السلام وكلماتها القِصار وخطبها؛ للوقوف على مميِّزاتها وما تحمله من مفاهيم ومضامين، في بحثي الموسوم بـ(خطاب السيِّدة فاطمةعليها السلام: دراسة أسلوبيَّة).

اعتمدت في دراستي هذه على المنهج الأسلوبيّ؛ لما له من دور في الكشف عن أدبيَّة النِّصِّ وجماليَّاته؛ لأنَّ الغاية من المقاربة الأسلوبيَّة هي الوصول إلى أغوار النِّصِّ الشِّعريّ، للوقوف على عتباته المظلمة وعناصره الفكريَّة، وشبكة علاقاته بالعناصر الوجدانيَّة، الَّتي يصنع تضافرها وحدة دلاليَّة.

ومن هنا كان لكلِّ نصٍّ قواعده الأسلوبيَّة المميَّزة الَّتي بموجبها يتحوَّل الأثر الأدبيّ إلى أثرٍ جماليّ. وهذا المنهج يُتيح للدَّارس: «أن يختار من هذه الظواهر الأسلوبيَّة ما هو متميِّز، والتَّميُّز يكون عندما تقوم هذه الظَّاهرة بوظيفتها، وهو إبراز جمال الأثر، وهذا ما يجعلنا نتعامل مع النَّصِّ بعلميَّة، ولكن من دون الانغلاق الَّذي يجعل التَّحليل جافًّا»[1].

ومن بواعث اختيار هذا المنهج ما رآه ريفاتير[2] في الأسلوب من: «قوَّة ضاغطة تتسلَّط على حساسيَّة القارئ، بوساطة إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام، وحمل القارئ على الانتباه إليها، إذ تتمثَّل في هذه القوَّة عمليَّة الإقناع والإمتاع معًا، ناهيك عن الإثارة الَّتي من خلالها يمضي الشخص المُثار في اتِّجاه ردود الفعل المثارة»[3]، فالأسلوبيَّة تتحدَّد بكونها البُعد اللسانيّ لظاهرة الأسلوب، طالما أنَّ جوهر الأثر الأدبيّ لا يمكن النَّفاذ إليه إلَّا عبر صياغته الإبلاغيَّة[4]، وكذلك تتحدَّد الأسلوبيَّة بدراسة الخصائص اللُّغويَّة التي بها يتحوَّل الخطاب عن سياقه الإخباريّ إلى وظيفته التأثيريَّة و الجماليَّة[5].

والأسلوبيَّة ترسم تأمُّلها لعالم النَّصِّ رسمًا تتعدَّد فيه القراءة، فهي تتأمَّل البنية التَّركيبيَّة النَّحويَّة، وتتأمَّل البنية الصَّوتيَّة والإيقاعيَّة والمعجميَّة، وتتأمَّل البنية الدَّلاليَّة الجماليَّة، ومن دون تجاهلٍ للسِّياق وما يكتنزه من علاقات اختياريَّة وانحرافيَّة. والمنهج الأسلوبيّ يعتمد على علوم اللغة المختلفة.

(١) صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، القاهرة، مؤسَّسة مختار للنشر والتَّوزيع، ١٩٩٢م، ص١٤.

(٢) باحث لسانيّ، وناقد أدبيّ بنيويّ أميركيّ.

(٣) ميشال ريفاتير، دراسات في الأسلوبيَّة البنيويَّة، القاهرة، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، ١٩٩٦م، ص١٠.

(٤) عبد السلام المسدي، الأسلوبيَّة والأسلوب، تونس، الدار العربيَّة للكتاب، ط٣، ١٩٩٣م، ص١٠.

(٥) م.ن، ص٣٥.

وقد قام هذا البحث على مبحثَين:

المبحث الأوَّل: المستوى اللفظيّ: تناولتُ فيه التّكرار، والتَّضاد، والتَّناصّ.

المبحث الثاني: تناولت فيه السَّجع، والجناس.

وسأعرض بعد المقدِّمة ما يفيد في معنى الدعاء وأهميَّته في القرآن الكريم، وعند أهل البيت عليهم السلام، وكذلك الكلمات القصار وأهميَّتها.

الدُّعاء وأهميَّته في القرآن الكريم وعند أهل البيت عليهم السلام

الدُّعاء سلاح المؤمن، وهو الطريق الأقرب للارتباط بالله تعالى، ومن أعظم النِّعم أن أبقى الله تعالى بابه مفتوحًا أمام عباده يتقرَّبون إليه بالدُّعاء سرًّا وجهرًا، ويتضرَّعون له خوفًا وخشيةً، وهو إلى ذلك وعدهم بالإجابة؛ لأنَّه أقرب إليهم من حبل الوريد، وحثّهم على الدُّعاء لأنَّه سبيل الرَّشاد، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1]. وقرنَ الدُّعاء بالعبادة، وجعله جزءًا لا يتجزَّأ منها، وتوعَّد المُستكبرين والمُعتدين الذين يستهينون بأداء حقوق الله بالعذاب الأليم، فقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3]، وجعل الدُّعاء مُقدَّسًا، به تسمو الرُّوح نحو الدَّرجات العُلا والمراتب الرَّفيعة التي يُحصِّلها الإنسان بالتزام رياضاته الرُّوحيَّة ليبلغ مدارج الكمال. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[4]. فالله تعالى ليس بحاجة

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) الأعراف: ٥٥.

(٣) غافر: ٦٠.

(٤) الفرقان: ٧٧.

لدعائنا، ولا تضرُّه معصيتنا، ولكنَّه تكرَّم علينا بفضله وجوده، وأبقى لنا باب الدُّعاء مفتوحًا رأفةً ورحمةً وتفضُّلًا. ويقول تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[1]. ويكون الاضطرار عندما يقطع الإنسان أمله من كلِّ شيء، ويتوجَّه بقلبه وروحه إلى واجب الوجود الذي يخضع كلُّ شيء لسلطانه وعظمته.

إلى جانب ذلك، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله حثُّه على الدُّعاء، فقال: «**الدُّعاء مخُّ العبادة، ولا يهلك مع الدُّعاء أحد**»[2]، فقد قرن الدُّعاء بالعبادة، وجعله جزءًا لا يتجزَّأ منها، كونه يمثِّل الارتباط الواعي بالله تعالى، وحاجة الإنسان للجأ إليه في كلِّ أموره؛ لأنَّه المُيسِّر والمُسهِّل لها. وعنه صلى الله عليه وآله: «**أفضل العبادة الدُّعاء، وإذا أذن الله لعبد في الدُّعاء، فتح له أبواب الرحمة، إنَّه لن يهلِك مع الدُّعاء أحد**»[3]. في هذا الحديث الشريف نرى الأبعاد الرؤيويَّة للدُّعاء، فإلى جانب ما يُمثِّله الدُّعاء من حالة خشوع وتبتُّل بين يدَي الله، إلَّا أنَّه عظيم الخَطَر أيضًا للنتائج المرجوَّة والمُحقَّقة كونه يُفضي لرضا الله، وفتح باب رحمته لعبده الدَّاعي، وتجنيبه الهلاك.

وقد سار أهل البيت عليهم السلام على النَّهج نفسه، ومثَّلت أدعيتهم مدرسةً في الخشوع، بحيث لم يتركوا بابًا إلَّا وطرقوه بجميل مناجاتهم وأدبهم بين يدي الله تعالى، فمن وصيَّة للإمام عليّ عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام، منصرفا إلى صفِّين، يحثُّه فيها على الدُّعاء، ويبيِّن آثاره المعنويَّة: «**واعلم أنَّ الذي بيده خزائن السَّماوات والأرض قد أذِن لك في الدُّعاء، وتكفَّل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه ليرحمك، ولم يجعل بينك وبينه مَن يحجبه عنك، ولم يُلجئك إلى من يشفع لك إليه، ولم يمنعكَ إن أسأت من التَّوبة، ولم يُعاجلك بالنِّقمة، فإذا ناديته سمع نداءك، وإذا ناجيته علم نجواك، فأفضيت إليه**

(١) النمل: ٦٢.

(٢) المجلسيّ، بحار الأنوار، تحقيق: السيِّد إبراهيم الميانجيّ ومحمَّد الباقر البهبوديّ، ط٢، ١٩٨٣م، ج٩٠، ص٣٠٠.

(٣) الحرُّ العامليّ، وسائل الشيعة: ٣٦/ ٥٢.

بحاجتك، وأبثته ذات نفسك، وشكوت إليه همومك، واستكشفته كُرُوبك، فمتى شئت استفتحت بالدُّعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب رحمته. فلا يُقنطنَّك إبطاء إجابته، فإنَّ العطيَّة على قدر النيَّة، وربَّما أُخِّرت عنك الإجابة، ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وربَّما سألت الشيء فلا تُؤتاه، وأوتيت خيرًا منه عاجلًا أو آجلًا. فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله، ويُنفي عنك وباله»[1].

تُمثِّل هذه الوصيَّة قمَّة الانقطاع لله تعالى، وتسليمه الأمور؛ لأنَّه الأعلم بالصَّالح الذي يخفى عن الإنسان في أغلب الأحيان. وهي وصيَّة توجيهيَّة لا تتعلَّق بالإمام الحسن وحده، بل شاملةٌ الناس جميعًا، تُبيِّن عمق الارتباط بالله والثِّقة به وتسليمه زمام الأمور؛ لأنَّه الأعلم بما هو الصالح لعباده، فإن أخَّر الاستجابة فلِعِلَّة وحِكمة هو يعلمها سبحانه. وفي حديث آخر قال عليه السلام: «**مَن أعطي الدعاء لم يُحرم الإجابة**»[2].

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: «**إذا دعوت فأقبل بقلبك وظُنَّ حاجتك بالباب**»[3]. إنَّ حُسن الظَّنِّ بالله، والإقبال بقلبٍ سليمٍ، لهوَ من موجبات الدُّعاء التي تُسرِّع الإجابة والقبول.

كما نلاحظ، فإنَّ للدُّعاء أهميَّة كبرى تتجلَّى في إقبال الإنسان على خالقه الذي فتح له أبواب رحمته، وعمَّق الصِّلة بين الخالق والمخلوق المحتاج دائمًا للمُعين والسَّند، فالعبد يشعر بالعجز والفقر أمام من يملك ناصيته، لذلك يعبِّر عن ضعفه واحتياجه لخالقه بالدُّعاء.

والدُّعاء لا يكون إلَّا بشروط، وأهمُّها: حُسن الظنِّ بالله، فإذا دعا الإنسان ربَّه، أيقن بالإجابة. وكذلك الإقبال على الدُّعاء بقلبٍ خاشعٍ لا ينشغل إلَّا بذِكر الله. فعن

(١) نهج البلاغة، ج٣، دار التعارف، بيروت، ص٥٥٧-٥٥٨.

(٢) م.ن، ص٦٨١.

(٣) الكلينيّ، الكافي، علَّق عليه: عليّ أكبر غفاري، ج٢، طهران، دار الكتب الإسلاميَّة، ٢٠٠٠م، ص٤٧٣.

الصادق عليه السلام: «**فإذا دعوت فأقبِل بقلبك ثمَّ استيقِن الإجابة**»[1]. ومن الأهميَّة بمكان عدم القنوط من رحمة الله، والإلحاح بالدُّعاء، وعدم تركه في الشِّدَّة وفي الرَّخاء، فالإنسان أقرب ما يكون إلى حضرة القُدس الأعظم في أثناء توجُّهه بقلبه السَّليم، وبدعائه الخالص لله تعالى، حيثُ تُزال الحُجُب وتطمئنُّ النُّفوس. وإذا ما تقصَّينا بعض ما وصل إلينا من الأدعية على لسان المعصومين لوجدنا أنّها تشملُ كلِّ مناحي الحياة، فلكلِّ يوم أو شهر أو سنة دعاء، ولكلِّ حالة قد يجد الإنسانُ فيها ضيقًا دعاء، ولم تقتصر الأدعية على الأمور الدُّنيويَّة، بل تعدَّتها إلى أمور الآخرة؛ كونها دار المقرِّ، وإليها يجب أن يوجِّه الإنسان عمله.

الكلمات القِصار وأهميَّتها

تدلُّ الكلمات القِصار على التمكُّن من ناصية اللغة، والتَّصرُّف في أمورها بطواعية، فتنحو منحى الإيجاز وتكثيف الدَّلالة، وهو أسلوب عُرف به الأئمَّة عليهم السلام؛ لما للإيجاز من قوَّة تعبيريَّة مؤثِّرة ومكثَّفة. فالإيجاز: «عبارة عن الغرض بأقلِّ ما يمكن من الحروف، من غير إخلال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ[2]﴾»[3].

وعرَّفه ابن أبي الإصبع بقوله: «الإيجاز اختصار بعض ألفاظ المعاني؛ ليأتي الكلام وجيزًا من غير حذف لبعض الاسم، ولا عدول عن لفظ المعنى الذي وضِع له»[4]. ويقول أبو الربيع المصريّ: «ولـمَّا كان بعض من أقوال الأئمَّة عليهم السلام سائرًا في النَّاس مسرى المثل، فينطبق عليها ما قيل من الأمثال الواردة نثرًا بأنَّها كلمات مختصرة تورَد

(١) الكلينيّ، الكافي، ص٤٧٣.
(٢) البقرة: ١٧٩.
(٣) الرازي، نهاية الإيجاز، تحقيق: د. نصرالله حاجي مفتي أوغلي، بيروت، دار صادر، ط١، ٢٠٠٤م، ص٢١٥.
(٤) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، ص٩٦.

للدَّلالة على أمور كليَّة مبسوطة، وليس في كلام العرب أوجز منها، ولـمَّا كانت الأمثال كالرُّموز، والإشارة التي يلوح بها على المعاني تلويحًا صارت من أوجز الكلام، وأكثره اختصارًا»[1].

والسيِّدة الزَّهراء عليها السلام سليلة العترة الطَّاهرة، نهلت من علوم أبيها سيِّد الأنبياء، فكانت بكلامها بليغة، فصيحة، شكَّلت كلماتها القصار أسلوبًا فريدًا ومميَّزا، بحيث غدا أغلبها مضرب المثل؛ لما تحمله من كثافة تعبيريَّة ودلاليَّة تصلح لتسيير أمور النَّاس في ميادين الحياة كافَّة.

أمَّا خِطبتاها، فقد جاءتا في وقتٍ حسَّاسٍ سعت فيه الزَّهراء لتبيان حقِّها المغتصَب، وإقامة الحجَّة على مَن كان حاضرًا من المُتقاعسين الساكتين عن الحقِّ، ساعيةً من خلال ذلك لتسليط الضوء على اغتصاب الخلافة من الوصيّ.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى إلى صناعة الإنشا١/ ٣٤٧.

المبحث الاوَّل

المستوى اللفظيّ

أعطت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام جلَّ اهتمامها لاختيار الألفاظ الموحية المؤدِّية للمعنى، بما فيها من دلالات وكثافة في الصُّور، لتعبِّر عن عمق ارتباطها بالله تعالى، وإرشادها وتوجيهها النَّاس، ونظرتها من الدنيا الفانية، مع التَّشديد على لذيذ المناجاة والعبادة التي تُقرِّب من الله أكثر. ومن هنا اتَّضحت قدرة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في اختيار الألفاظ وتوظيفها؛ لإصابة المعنى بدقَّة متناهية، ومن الأساليب التي اتَّبعَتها:

١. التِّكرار اللفظي:

يُعرِّف السَّجلماسيّ التِّكرار بأنَّه: «إعادة اللَّفظ الواحد بالعدد أو بالنَّوع، أو المعنى الواحد بالعدد أو بالنوع في القول مرَّتين فصاعدًا»[١].

من التَّعريف السَّابق نجد أنَّ السَّجلماسيّ يجعل التكرار قسمَين اثنين، قسمًا لفظيًّا وآخر معنويًّا، ونفهم من هذا التقسيم أنَّ التكرار: «يتشكَّل بنيويًّا على المستوى اللَّفظي عبر أنماط وحدات لسانيَّة مختلفة، تمتدُّ من تكرار الحرف، ثمَّ الكلمة، إلى الجملة، فالعبارة في مواضع أخرى غير الموضع الَّذي ذُكرت فيه أوَّل مرَّة. كما يتشكَّل دلاليًّا بإعادة ذِكر المعاني في صور مختلفة من البنى اللِّسانيَّة»[٢].

(١) السجلماسيّ، المنزع البديع، الرباط، مكتبة ومطبعة المعارف الجديدة، ١٩٨٠م، ص٤٧٦.
(٢) ميلود نزار، الإحالة التكراريَّة ودورها في التماسك النصِّيّ، مجلَّة علوم إنسانيَّة، عدد٤٤، ٢٠١٠م، ص٣.

ويساعد رصد التّكرار: «على فكِّ شفرة النَّصِّ، وإدراك دوره الدَّلاليّ فيه»[1]. وقد نبَّه دي بوجراند على أنَّ التكرار قد يكون ضارًّا إن لم يُحسن استخدامه، ممَّا يؤدِّي إلى إحباط الإعلاميَّة وتقليصها[2]، كما أنَّ الإكثار منه قد يُظهر الفقر اللُّغويّ لدى الكاتب، وينتج عنه عدم قبول النَّصِّ؛ لعدم تماسكه[3].

يتنوَّع التّكرار في خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، ويتَّخذ أشكالًا متعدِّدةً تبعًا للمنظومة المُراد التعبير عنها، فقد يكون اسمًا أو مقطعًا أو أسلوبًا أو ضميرًا. ففي دعائها عليها السلام: «**بسم الله النُّور، بسم الله نور النُّور، بسم الله نورٌ على نور، بسم الله الذي هو مدبِّر الأمور، بسم الله الذي خلق النُّور من النُّور، الحمد لله الذي خلق النُّور من النُّور، وأنزل النُّور على الطُّور**»[4].

نجد تكرار كلمة (النُّور) جليَّة في هذا المقطع، بحيث زاحمت كلَّ المفردات الأخرى، وكانت المحور الأساس، وأهميَّة الكلمة نابعة من أصلها القرآنيّ ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾[5]. فما بين تهليلٍ وتسبيحٍ وحمدٍ وثناء على خالق النُّور، يتجلَّى الخشوع والمهابة أمام عَظَمة الخالق الذي يضيء بنوره السماوات والأرض.

ومن منطلقٍ آخر، تُلفِت السيِّدة الزَّهراء النَّظر إلى أحقيَّة أهل البيت عليهم السلام في تبوُّءِ المنصب الإلهيّ، فهم الوسيلة إلى الله، وهم السَّادة والقادة الذين فرض طاعتهم، وأباح شفاعتهم، فتقول عليها السلام: «**واحمدوا الذي لعظمته ونوره يبتغي مَن في السماوات**

(١) مبروك محمَّد، جودة، التكرار وتماسك النَّص، القاهرة، مكتبة الآداب، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٩.

(٢) روبرت، دي بوجراند، النصُّ والخطاب والإجراء، القاهرة، عالم الكتب، ط١، ١٩٩٨م، ص٣٠٦.

(٣) حسام فرج، نظريَّة علم النصِّ، مكتبة الآداب للطباعة والنَّشر، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٠٨.

(٤) الشيرازيّ، السيِّد حسن، كلمة فاطمة الزَّهراء، هيئة محمَّد الأمين، ط٢، ٢٠٠٠م، ص٢٢١.

(٥) سورة النور: ٣٥.

والأرض إليه الوسيلة، ونحن وسيلته في خلقه، ونحن حجَّته في غيبه، ونحن ورثة أنبيائه»[1]

نلمح في هذا المقطع تكرارًا للضمير المنفصل بصيغة جمع المتكلِّم (نحن)، المتمثِّل بآل البيت الأطهار عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيرًا، وجعلهم سفينة النَّجاة، من ركبها نجا، ومن تخلَّف عنها هلك؛ فهم الحبل الممدود الموصِل إلى الله، وهم خَزَنة علمه وأمناء وحيه. بالإضافة لما حقَّقه التِّكرار على الصَّعيد المعنويّ، فإنَّنا نلمح توازنًا بين الجمل: (نحن وسيلته في خلقه/ نحن حجَّته في غيبه/ نحن ورثة أنبيائه)، وأضفى التوازن مزيدًا من الإيقاع الموسيقيّ على المقطع، فضلًا عن جذب المتلقِّي الذي صار على معرفة بأحقيَّتهم ومركزيَّتهم في الماضي والحاضر والباد، وهذا ما يستوجب شكر الباري على هذه النعمة «**واحمدوا الذي لعظمته..**».

وقد يأتي التِّكرار على هيئة أسلوبٍ مُحدثًا إيقاعًا على مستوى الكلام يتلاءم والأغراض الفنيَّة النفسيَّة والقيميَّة المُعبَّر عنها، ففي خطبتها الفدكيَّة، نلحظ تكرارا لأسلوب الاستفهام بكثرة، ويخرج في مجمله عن السياق في طلب المعرفة؛ ليأخذ معنى الإنكار والتعجُّب والاستغراب، ففي قولها عليها السلام: «**وكيف بكم؟ وأنَّى تؤفكون؟ وكتاب الله بين أظهركم، أرغبةً عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟**»[2].

نجد كمًّا كبيرا من العتب والاستغراب لما فعله القوم بعد رسول الله، وهو لـمَّا يُدفن بعد، وأوَّل ظلم وقع منهم على آل بيته عليهم السلام بتسليم خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله لمن لا يستحقُّ، مخالفين وناكثين بيعتهم للإمام عليّ عليه السلام، وحرمان السيِّدة فاطمة عليها السلام من فدك. لقد أرادت من الاستفهام تحريك الضمائر، وهزِّ الوعي الجمعيّ الذي كان مُخدَّرًا.

(١) عبد الكريم، أيمن، كتاب الأربعون حديثًا الفاطميَّة، مركز الأبحاث العقائديَّة.
(٢) كلمة فاطمة، م.س، ص٢٨٢.

ومن تكرارها ما كان جزءًا من جملة كما في قولها: «**سبحان من استنار بالحَوْلِ والقوَّة، سبحان من احتجب في سبع سماوات فلا عينٌ تراه، سبحان من أذلَّ الخلائق بالموت، سبحان الحيِّ العليم، سبحان الحليم الكريم**»(١).

إنَّ أهميَّة موضوع التَّسبيح استدعت تكرار جملة «**سبحان مَن**»، بالإضافة إلى الدَّلالة المعنويَّة، حقَّق التِّكرار نوعًا من التَّوازن والإيقاع الذي جعل الكلمات تجري بانسيابيَّة؛ لتلامس شغاف القلوب. هذا التسبيح مهَّد لذِكر صفات الخالق القويّ الجبَّار، الذي لا تُدرِكه الأبصار، وهو الحيُّ القيُّوم المتَّصف بالسرمديَّة، ساوى بين الخلائق بالموت، وهو إلى جانب هذه الصِّفات، التي تدلُّ على جبروته، رؤوف رحيم بعباده، «حليمٌ كريم».

٢. التضادُّ:

يعرِّف أبو الهلال العسكريّ المتضادَّين فيقول: «المتضادَّان هما اللَّذان ينتفي أحدهما عند وجود صاحبه، إذا كان وجود هذا على الوجه الَّذي يوجد عليه ذاك، كالسَّواد والبياض»(٢). ويقول الخطيب القزوينيّ في التضادِّ: «هو الجمع بين المتضادَّين، أي معنيَين متقابِلَين في الجملة»(٣).

نفهم ممَّا سبق أنَّ التَّضادَّ نوع من العلاقة بين المعاني، وهي أقرب إلى الذِّهن من أيَّة علاقة أخرى، إذ إنَّ ذِكر معنى قد يستدعي الضدَّ قبل المرادف.

ويرى محمَّد لطفي اليوسفيّ أنَّ ظاهرة التَّضادِّ تعتبر من مقوِّمات الشِّعر المعاصر، حيث تجعل الكلمات تتوالد وتتفجَّر، فيقول: «تعتبر هذه الظاهرة، أي التَّضادُّ، مرتكزًا

(١) كتاب الأربعون حديثًا الفاطميَّة، ص٢٢٦.

(٢) أبو الهلال العسكريّ، الفروق اللغويَّة، تحقيق: حسام الدين القدسيّ، بيروت، دار الكتب العلميَّة، ١٩٨١م، ص١٢٩.

(٣) الخطيب القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح: محمَّد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، ١٩٤٩م، ص٣٨٣.

من المرتكزات الَّتي تنهض عليها القصيدة المعاصرة، فهي تجعل من الكلمات والصُّور حوافز تحمل كلمات وصورًا»[1]. ويرى الدكتور عناد غزوان أنَّ الأديب: «إنَّما يوظِّف حسَّه بهذا الطِّباق في صورة أدبيَّة تُعدُّ عملا فنيًّا خلَّاقًا تتحرَّك فيه الفكرة الأدبيَّة بحريَّة وعفويَّة وقوَّة»[2].

ويتَّضح ما سبق من خلال:

التَّقابل المعجميّ المُركَّب:

المقابلة: «أن تجمع بين شيئَين متوافِقَين وبين ضدَّيهما، ثمَّ إذا شرطتهما بشرط، وجب أن تشرط ضدَّيهما بضدِّ ذلك الشَّرط، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[3]»[4].

ويكون التَّقابل في هذه الحال جمليًّا، وقد يمتدُّ لأكثر من جملة تبعًا للحالة المُعبَّر عنها، بحيث يؤدِّي الطِّباق فيها دورًا بالغًا في رسم الدَّلالة وإيضاح المُراد. وكما قيل: «والضِّدُّ يُظهرُ حسنه الضِّدُّ». والتَّقابل يكون بالتَّعبير عن حالَين تربطهما علاقة ضدِّيَّة وإبراز صفاتهما التي تنعكسُ في كلِّ مرَّة على الآخر المُقابل، كقول السيّدة الزَّهراء عليها السلام في دعائها: «**أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي**»[5]. في هذا الدُّعاء تسليمٌ تامٌّ لأمر الله، فنحن أمام جملَتَين متقابلَتين تمثِّلان مصير الإنسان: الحياة/ الموت، وكلاهما مشروط بتحقُّق الهدف منهما، ألا وهو (الخير)، فالحياة والموت بيد الله سبحانه. وكان لحضور ضمير المتكلِّم (ياء المتكلِّم) أثرٌ بارزٌ في توجيه الدلالة المعنويَّة؛

(١) محمَّد لطفي اليوسفيّ، تجلِّيات في بنية الشعر العربيّ المعاصر، ص٨٥.
(٢) د. عناد غزوان، التحليل النقديّ والجمال الأدبيّ، دار دجلة، ط١، ٢٠١١، ص٧٥.
(٣) الليل: ٥-١٠.
(٤) نهاية الإيجاز، م.س، ص١٧١.
(٥) الأربعون حديثًا الفاطميَّة، م.س.

فالسيِّدة الزَّهراءعليها السلام تتوجه في دعائها لله، وهو مقدِّر الأمور، عارفٌ بالصَّالح العام لعباده. ويتحقَّق التوازن بين الجملتَين المتقابلتَين ممَّا يُضفي إيقاعًا وحضورًا روحيًّا وتوجُّهًا عاليًا إلى الله تعالى.

ومن كلماتهاعليها السلام التي تتوجَّه بها إلى بعض النِّساء: «**ارضي أبوَي دينك محمَّدًا وعليًّا، بسَخَط أبوي نَسَبك، ولا ترضي أبوي نَسَبك، بسَخَط أبوي دينك**»[1]. من خلال هذا القول تدخل الزَّهراءعليها السلام في صلب العقيدة وأصول الدِّين، فالنبوَّة والإمامة ركنان أساسيَّان فيه، وهما المُنطلق إلى حياة سليمة في الدنيا والآخرة، من هنا جاءت المقابلة بين الرِّضا/ السَّخط، أبوا الدين/ أبوا النَّسب، فأبوا الدِّين أحقُّ بالاتِّباع فيما لو تعارضت المصلحة مع أبوَي النَّسب؛ لأنَّ بهما اكتمال الدين وصلاح الأمر.

ومن كلماتها الشَّريفةعليها السلام: «**مَن أصعد إلى الله خالص عبادته، أهبط الله إليه أفضل مصلحته**»[2]. في هذه الجملة الشَّرطيَّة علاقة تكامليَّة نشأت من خلال التقابل. أن يرضى الله عن عبده ويشمله بعطفه ويتخيَّر له ما يناسب مصلحته، يعني أنَّ هذا العبد قد أقام علاقة وثيقة مع الله تجلَّت في إخلاصه عبادتَه. وفي هذا المقطع تتجلَّى رحمة الله الرؤوف بعباده، الضَّامن مصلحتهم إذا ما تحقَّق شرط الإخلاص في العبادة، وهو القائل في محكم كتابه العزيز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3].

التَّضاد بالطِّباق:

في دعاء السيِّدة فاطمةعليها السلام: «**اللهمَّ إنِّي أسألك كلمة الإخلاص، وخشيتك في الرِّضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأسألك برد العيش بعد الموت**»[4]. يتجلَّى

(١) الأربعون حديثًا الفاطميَّة، م.س.

(٢) كتاب الأربعون حديثًا الفاطميَّة، أيمن عبد الكريم، مركز الأبحاث العقائديَّة.

(٣) الذاريات: ٥٦.

(٤) كلمة فاطمة، م.س، ص٢٢٧.

القُرب من الله عزّ وجلّ عبر الخشية منه في الرضا/ الغضب. أظهر هذا الطِّباق العُمق الرُّوحيّ وخشية الله في جميع الأحوال، هذه الخشية التي لا تتحقَّق إلَّا لمن عرفه حقَّ معرفته، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1]. وجاء الطِّباق الثاني: الغنى/ الفقر، فالله هو أفضل مقصود يلتجئ إليه العبد في فقره وفاقته، وقد ينساه في راحته وبحبوحته، من هنا أهميَّة أن لا ينسى الإنسان ذِكر الله في الشِّدَّة والرَّخاء. والطِّباق الثالث: العيش/ الموت، فالآخرة هي الباقية، وهي دار المقام، وفيها الخلود، والإنسان المؤمن دائم التوجُّس، يعمل لآخرته ليضمن الراحة الأبديَّة إلى جانب الأنبياء والأئمَّة والصالحين. هيمن على هذا المقطع ضميرا المتكلِّم والغائب، فالمرسِلة هي الزَّهراء عليها السلام، وهي أعبد خلق الله، عرفت الخالق حقَّ معرفته، ومع ذلك لم تتوانَ عن الدعاء والتوجُّه إليه بقلبٍ خاشعٍ خشيةً منه. وقد أسهم الطِّباق في تبيان الحالة التي تعتري السائل أمام المسؤول؛ لأنَّها كلُّها تصبُّ في بوتقة الآخرة، فالدُّنيا دار العمل، والآخرة دار الجزاء.

وفي دعائها عليها السلام: «**اللهمَّ إنِّي أسالك من قوَّتك لضعفنا، ومن غناك لفقرنا وفاقتنا، ومن حلمك وعلمك لجهلنا**»[2]. يتوالى الطِّباق ويتعدَّد مبيِّنًا الصِّفات العليا للخالق القاهر (القوَّة/ الغِنى/ الحلم/ العلم)، مقابل الصفات المخلوق المتِّصف بـ(الضَّعف/ الفقر/ الفاقة/ الجهل). أسهم الطِّباق في هذا المقطع في تبيان حال المخلوق المحتاج دائمًا إلى واجب الوجود ليرمِّم نقصه ويسدَّ حاجته. ونلاحظ استخدام ضمير المتكلِّم بصيغة الجمع، وذلك لإشراك القارئ في هذا الدُّعاء، وكأنَّه دعاءٌ جمعيٌّ يشترك به الجميع.

وفي خطبتها الفدكيَّة تتوجَّه للأنصار بكلامها فتقول: «**فأنَّى حرتم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الإعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشركتم بعد الإيمان؟**»[3]. تتالت

(١) فاطر: ٢٨.
(٢) كلمة فاطمة، م.س، ص٢٢٤.
(٣) م.ن، ص٢٨٥.

الجمل الاستفهاميَّة التي تفيد الاستغراب والدَّهشة من فعلة الأنصار في انقلابهم بعد وفاة الرَّسول. وقد تكرَّرت لفظة (بعد) أربع مرَّات في هذا المقطع للدَّلالة على ما كانوا، وإلى ماذا صاروا. وجاء الطِّباق ليوضِّح الصورة ويجلوها: (حرتم/ البيان)، (أسررتم/ الإعلان)، (نكصتم/ الإقدام)، (أشركتم/ الإيمان). ومن الملاحَظ أنَّها شملتهم بضمير المخاطَب بصيغة الجمع (أنتم)؛ لتدلَّ على ما اختصُّوا به من صفات جرَّاء تحوُّلهم وانقلابهم من حالٍ إلى حال، بينما أبقت على الصِّفات الحسنة التي أضاعوها بصيغة الإطلاق غير مختصَّة بزمنٍ معيَّنٍ أو بفئةٍ دون أخرى. إلى جانب ذلك أسهم التَّوازي بين الجمل في رفد المقطع بإيقاع أسهم في قرع آذان المستمعين عن طريق الزَّجر، وإعطاء مساحة للتَّفكير بعد التَّذكير بالصِّفات التي تملَّكوها سابقًا؛ لاستعادتها والمحافظة عليها.

٣. التَّناصّ:

هو تضمين النَّصِّ الأدبيِّ أفكارًا سابقةً عليه، وإكساء المعاني ألفاظًا جديدةً بحيث تندمج هذه الأفكار مع النصِّ الأصليّ، وتظهر بغير حُلَّتها الأولى، مع المحافظة على المعنى الأصليّ. ويتَّضح هذا المفهوم ويتبلور في نتاجات الأدباء الذين أغنَوا ثقافتهم، واطَّلعوا على كتابات مَن سَبَقهم، فأخذوا المعاني والأفكار، وصاغوها بما تملَّكوا من فنون القول؛ لتظهر في آثار أدبيَّة جديدة، وقد اكتست حُلَّةً أبانت عن فرادتهم وحُسن إخراجهم الكلام بفعل الثقافة التي تملَّكوها، ممَّا حدا بهم لتجاوز المألوف، وإبداع نصوصٍ أدبيَّةٍ إبداعيَّة.

وقد أشار القدماء إلى هذا المبحث، ووضعوه تحت مسمَّيات أخرى، كالتَّضمين والاقتباس والتلميح، وهي في الغالب لم تختلف عن تعريفات المُحدثين. وقد أشار أبو هلال العسكريّ إلى تداول المعاني، فقال: «ليس لأحد من أصناف القائلين غنًى عن تناول المعاني ممَّن تقدَّمهم والصَّبُّ على قوالب من سَبَقهم، ولكن عليهم- إذا أخذوها-

أن يكسوها ألفاظًا من عندهم، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتِها الأولى، ويزيدوها في حُسن تأليفها، وجودة تركيبها، وكمال حليَّتها ومعرضها، فإذا فعلوا ذلك فهم أحقُّ بها ممَّن سبقهم إليها»[1]. ويرى الدكتور يوسف نوفل أنَّ التناص هو «التَّفاعل الجدليّ القائم بين طرفَي النِّصِّ الحاضر والغائب، في شبكة من العلاقات الممتدَّة في فضاء النَّصِّ، دون وقوعٍ في أسر المُباشرة، ودون اقتصارٍ على القشرة الخارجيَّة»[2].

الاقتباس القرآنيّ:

«وهو أن تدرج كلمة من القرآن أو آية من الكلام، تزيينًا لنظامه وتفخيمًا لشأنه»[3]. وعرَّفه الخطيب القزوينيّ بقوله: «هو أن يضمِّن الكلام شيئًا من القرآن أو الحديث، لا على أنَّه منه»[4]. بينما قصره السيوطي في الإتقان على القرآن، دون الحديث.

يُعدُّ القرآن الكريم من أهمِّ المنابع التي يستقي منها الأئمَّة الأطهار أدعيتهم، فهو كلام الحقِّ، بما يحويه من إعجازٍ ومفاهيمَ ومضامينَ قيميَّة ودينيَّة واجتماعيَّة وروحيَّة، وبما يُمثِّل من دستورٍ للحياةِ، بحيث لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خَلفِه. لذا نجد أنَّ خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام تضمَّنت الكثير من الاقتباسات القرآنيَّة، بحيث إنَّها وظَّفت النصَّ القرآنيّ في سياقها؛ لذلك يُعدُّ النَّصُّ الفاطميّ تمثيلًا وتجسيدًا حيًّا للنصِّ القرآنيّ، كيف لا، وهي سليلة العترة الطَّاهرة، وربيبة بيت الوحي، استطاعت التأثير في المتلقِّي بصدقها وعفويَّتها وواقعيَّتها، ممَّا جعلها تُطلق ثورة في الواقع الفكريّ والاجتماعيّ

(١) أبو هلال العسكريّ، الصناعتَين، تحقيق: مفيد قميحة، ج١، بيروت، دار الكتب العلميَّة، ط٢، ١٩٧٤م، ص١٥٦.
(٢) يوسف نوفل، طائر الشعر، القاهرة، الهيئة العامَّة لقصور الثقافة، ط١، ٢٠١٠م، ص٤٧٧.
(٣) نهاية الإيجاز، م.س، ص١٧٣.
(٤) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلميَّة، ط١، ٢٠٠٣م، ص٣١٢.

والقيميّ. ففي خطبتها عليها السلام تقول: «**فجعلَ اللهُ الإيمانَ تطهيرًا لكم من الشِّرك.. والنَّهي عن شرب الخمر تنزيهًا عن الرِّجس، واجتناب القذف حجابًا عن اللعنة، وترك السَّرقة إيجابًا بالعفَّة، وحرَّم الشِّرك إخلاصًا له بالربوبيَّة، فاتَّقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتنَّ إلَّا وأنتم مسلمون، وأطيعوا الله ورسوله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنَّه إنَّما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ**»[1]. في هذه اللوحة الزاخرة بكلِّ المعاني الحقَّة، بيَّنت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام الأحكام الشَّرعيَّة، ودخلت في صُلب العقيدة؛ لأنَّها تمتلك المعرفة اليقينيَّة بأحكامها، فوظَّفت النصَّ القرآنيّ بعد أن ذابت المعاني القرآنيَّة وخالطت إدراكها ووعيها؛ لتبثَّها في ثنايا خطبتها الغرَّاء دون أن يفقد النصَّ القرآنيّ وظيفته السِّياقيَّة. فحين تقول: «**والنهي عن شرب الخمر تنزيهًا عن الرِّجس، واجتناب القذف حجابًا عن اللعنة**»، ففي ذلك تمثُّلًا لكلام الله تعالى في مُحكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[2].

لقد وظَّفت لفظة (الاجتناب) في سياق كلامها ليس للخمر، وإنَّما تعدَّت ذلك إلى حكم شرعيٍّ آخر؛ لعلمها واستيعابها الأمور الشرعيَّة وأحكامها، وجعلت الإيمان والتَّقوى والطاعة من القواعد التي تقوم عليها أركان الإسلام، هذه الطَّاعة لله ورسوله التي لا يقدر عليها إلَّا من كان عالـمًا (يخشى الله)، هذه الخشية الإلهيَّة التي يختصُّ بها العلماء بقدر علمهم ومعرفتهم.

وفي قولها عليها السلام: «**أيُّها النَّاس اعلموا أنِّي فاطمة، وأبي محمَّد صلى الله عليه وآله، أقول عودًا وبدوًا، ولا أقول ما أقول غلطًا، ولا أفعل ما أفعل شططًا، ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[3]، فإن تعزوه وتعرِّفوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمِّي دون**

(١) كلمة فاطمة، م.س، ص٢٧٩.

(٢) المائدة: ٩٠.

(٣) التوبة: ١٢٨.

رجالكم»[1]. سعت الزَّهراء عليها السلام في هذا المقطع لتبيان مقامها الرَّفيع والعظيم، فهي الصِّلة القائمة بين مقام النبوَّة والرسالة، ومقام الإمامة. هذه الخاصيَّة التي تملَّكتها الزَّهراء عليها السلام جعلت لصوتها دويًّا يقرع الآذان، ويرتِّب على المتلقِّي مسؤوليَّات، ومنها أن يُعيد النَّظر في سكوته عن الحقِّ بعد أن جاءته بالبيِّنة، والتي هي معروفة بطبيعة الحال ولا مجال لإنكارها، وفي قولها إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾[2].

وفي قولها عليها السلام: «**وكنتم على شفا حفرة من النَّار، مذقة الشَّارب، ونهزة الطَّامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القدّ، أذلَّة خاسئين، تخافون أن يتخطَّفكم النّاس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمَّد صلى الله عليه وآله بعد اللُّتيَّا والَّتي**»[3]

في هذا المقطع تستدعي السيِّدة فاطمة عليها السلام سلسلة من الأحداث وتسوقها كبرهان ودليل على الحياة التي كان يعيشها العرب قبل الإسلام على الصُّعد كافَّة، فلا أمن ولا أمان ولا حياة اجتماعيَّة فاعلة، وهذا ما يدلُّ على الخسَّة والذلَّة التي عاشوها قبل الإسلام، وهم على شفا حفرة من النَّار، وفي ذلك صدًى لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[4]. ولم تكتفِ بذلك، بل استدعت، لمزيد من التأكيد، نصًّا قرآنيًّا آخر للتَّذكير بما كانوا عليه من حالة انعدام الأمن والخوف، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[5].

(١) كلمة فاطمة، م.س، ص٢٨٠.
(٢) ص: ٢٢.
(٣) كلمة فاطمة، م.س، ص٢٨١.
(٤) آل عمران: ١٠٣.
(٥) الأنفال: ٢٦.

لقد أقامت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام مقارنة بين ما كان عليه النَّاس قبل البعثة، وبين ما صاروا إليه بعدها، فمن الخوف والذلِّ انتقلوا إلى النصر والتأييد، وكلُّ ذلك ببركة الرسول الأعظم؛ ليكون رحمةً للعالمين. هذا الكلام استدعى نصَّين قرآنيَّين تداخلا في نصٍّ واحدٍ، وهذه طريقة فنيَّة وظَّفت فيها الزَّهراء عليها السلام التناصَّ لخدمة الهدف الذي أرادت تحقيقه.

وفي قولها عليها السلام: «**وبعد أن مُني ببُهم الرِّجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، كلَّما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله**»[1]، استطاعت عليها السلام توظيف نصٍّ قرآنيّ لتعبِّر عن تأييد الله تعالى لرسوله والمؤمنين. فبعد الحديث عن الجوِّ العام الذي رافق الدَّعوة الإسلاميَّة، والحالة المأساويَّة من المؤامرة التي حاكها ذئاب العرب ومَرَدة أهل الكتاب بهدف القضاء على الدَّعوة الإسلاميَّة في مهدها، استدعت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام النصَّ القرآنيّ ليعلن التأييد الإلهيّ لصاحب الرسالة الغرَّاء في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ﴾[2].

وفي قولها عليها السلام: «**سبحان الله ما كان أبي رسول الله صلى الله عليه وآله عن كتاب الله صادفًا، ولا لأحكامه مخالفًا، بل كان يتبع أثره، ويقفو سوره.. بل سوَّلت لكم أنفسكم أمرًا؛ فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون**»[3].

في هذا المقطع تستدعي الزَّهراء عليها السلام الحوار الذي دار بين النبيّ يعقوب عليه السلام وأولاده: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[4].

(١) كلمة فاطمة، م.س، ص٢٨١.

(٢) المائدة: ٦٤.

(٣) كلمة فاطمة، م.س، ص ٢٨٧.

(٤) يوسف: ١٨.

إنَّ استخدام لفظة (كلَّا) حوَّل أسلوب الحوار القرآنيّ إلى أسلوب ردع في سياق الخطبة، وكأنَّها تشير عليها السلام إلى عقم الحوار مع هذه الفئة الضالَّة مع ما كشفته من أحقيَّتها في ميراث أبيها صلى الله عليه وآله.

من هنا يمكن القول: إنَّ خطبة السيِّدة فاطمة عليها السلام استفادت من النصِّ القرآنيّ الذي خالط فكرها، وقد تجلَّى ذلك بوضوح من خلال التناصِّ في ثنايا خطبتها، وهذا يمنح النصَّ بُعدًا دلاليًّا، ويفتحه على قراءات متعدِّدة تُثريه وتمدُّه بإيحاءات جماليَّة وفنيَّة.

المبحث الثَّاني

المستوى الصّوتيّ

تمتاز اللغة العربيَّة بالتَّكثيف الدلاليّ وبطبيعة الأصوات التي تشكَّلت منها المفردات؛ لأنَّها تنماز بخصوصيَّة في جِرسها الصَّوتيّ، وترددها النَّغميّ على مستوى الدلالَتين: الصَّوتيَّة والصَّرفيَّة، و«جاءت الكلمة العربيَّة إرثًا عن مراحل متعدِّدة، فتحوَّل كلُّ حرف من حروفها بفعل تعامله مع الأحاسيس والمشاعر الإنسانيَّة إلى وعاء من الخصائص والمعاني»[1]، ويضيف مصطفى الرافعيّ: «ففي الكلمة العربيَّة موسيقى باطنيَّة قوامها التَّوافق الفطريّ بين خصائص أحرفها وما تدلُّ عليه من المعاني إيحاءً وإيماءً»[2]، وممَّا قاله ابن جنِّيّ: «إنَّ العربيّ قد أبدع كلماته سوْقًا للحروف على سمْت المعنى المقصود والغرض المُراد»[3].

١. الجناس:

الجناس من فنون البديع، وهو: «أن يتشابه اللفظان في النُّطق ويختلفان في المعنى»[4]. ويرى الرازي أنَّ المتجانسين: «إمَّا أن يكونا مفردين، أو أحدهما مفردًا والآخر مُركَّبًا، أو كلاهما مركَّبًا.. فإن كانا مفردَين، فالمجانسة التَّامَّة إنَّما توجد إذا تساويا في أنواع

(١) حسن عبَّاس، خصائص الحروف العربيَّة ومعانيها، منشورات الاتِّحاد العربيّ، ١٩٩٨م، ص١٧.

(٢) مصطفى الرافعي، إعجاز القرآن، ص٢١٤-٢١٥.

(٣) ابن جنِّيّ، الخصائص، ج٢، ص١٦٢-١٦٣.

(٤) التفتازانيّ، مختصر المعاني، ج١، ص٢٧٢.

الحروف وأعدادها وهيئاتها. أمَّا إذا كان الاختلاف واقعًا في هيئتها فقط، فهو المُسمَّى بـ(التجنيس الناقص)، وأمَّا إذا كان الاختلاف واقعًا في أعدادها، فذلك أن يوجد في إحدى الكلمَتَين حرف لا يوجد في الثانية، كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾[1]، وأمَّا إذا كان الاختلاف واقعًا في أنواعها فقط، فيشترط أن لا يقع الاختلاف بأكثر من حرفٍ واحدٍ، كقوله صلى الله عليه وآله: «**الخير معقود بنواصي الخيل**»[2]. أمَّا عبد القاهر الجرجانيّ فيحدِّد شروط الجناس بقوله: «أمَّا التَّجنيس فإنَّك لا تستحسن تجانس اللفظتَين إلَّا إذا كان موقع معنَيَيهما من العقل موقعًا حميدًا، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمًى بعيدًا»[3]، وعليه: «فالتجنيس يمثِّل ثنائيَّة صوتيَّة خالصة، تتوافق فيها الصُّورة اللفظيَّة بين كلمَتَين»[4].

لم نقع في دراستنا على الجناس التامِّ في خطاب الزَّهراء عليها السلام، كونه كثير التَّكلُّف، أمَّا الجناس النَّاقص، فقد كان له دور في كشف النِّقاب عن بعض الدَّلالات والإيحاءات، ولم يكن للزخرفة فقط، وقد ورد الجناس في قولها عليها السلام: «**جمَّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتِّصالها، واستحمد إلى الخلايق بإجزالها، وثنَّى بالنَّدب إلى أمثالها**»[5].

فالجناس كان بين لفظَتَي (أمدُها وأبدُها)، فقد اتَّفقتا في الوزن، وجاء التركيب مختلفًا في حرفٍ واحدٍ داخل سياق النصِّ. يتَّضح من هذا المقطع التَّقارب الإيقاعيّ بين اللفظتَين عن طريق الحرفَين الشفويَّين (الميم والباء)، فنِعَم الله جمَّة لا يستطيع الإنسان الإحاطة بها لشمولها وتعددها،

(١) القيامة: ٢٩-٣٠.
(٢) نهاية الإيجاز، م.س، ص٥٩.
(٣) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ج١، ص٨.
(٤) محمَّد عبد المطلب، بناء الاسلوب في شعر الحداثة، ط٢، دار المعارف، ١٩٩٥م، ص٦٥.
(٥) كلمة فاطمة، م.س، ص٢٧٧.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[1]، كما نلحظ التوازن بين المقاطع، الذي رفدها بالإيقاع المُسهم في تبيان دلالاتها.

وفي قولها عليها السلام: «**وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة..**»[2]. وقع الجناس بين (ظاهرة، وزاهرة، وباهرة)، جاءت هذه الألفاظ متوازنة، وقد رفدت المقطع بإيقاع انعكس على الدلالات الموحية التي اكتسبتها الألفاظ من مجاورتها بعضها، دالَّة على أنَّ النصَّ القرآنيّ ظاهر بأموره، لا يوجد فيه ما يوجِب الشَّكَّ، بيِّنٌ واضحٌ باحكامه المشرقة، وكلُّ العلامات التي تُشير إلى القرآن يسودها النُّور والضِّياء.

وفي قولها عليها السلام: «**إيهًا بني قيلة، أأُهضم تراث أبيه وأنتم بمرأى منِّي ومسمَع، ومنتدى ومجمَع؟**»[3]. وقع الجناس بين لفظَتَي (مسمع ومجمع)، وكان الاختلاف بين حرفَي (السِّين والجيم). لقد توجَّهت بخطابها إلى الأوس والخزرج، فهم حاضرون ويستمعون لشكايتها وكلامها، ومع ذلك لا يجرؤون على الوقوف معها ضدَّ من سلبها حقَّها، وكأنَّهم بفعلتهم هذه قد رضوا وأقرُّوا، بل شاركوا في ظلمها. بالإضافة إلى الأبعاد الدَّلاليَّة التي حقَّقها الجناس، فقد أسهم برفد المقطع بإيقاع موسيقيّ هزَّ أوتار القلوب.

٢. السَّجع:

وهو من فنون البديع يُعنى بالتَّنغيم الصّوتي، «وهو على ثلاثة أقسام: فإمَّا أن تكون الكلمتان متساويَتَين في عدد الحروف وفي نوع الحرف الأخير، فيسمَّى بالمتوازي، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ١٣ وَأَكۡوَابٞ

(١) النحل: ١٨.
(٢) كلمة فاطمة، ص٢٨٢.
(٣) م.ن، ص٢٨٤.

مَّوْضُوعَةٌ﴾[1]. وإمَّا أن يختلفا في العدد ويتَّفقا في الحرف الأخير، فيسمَّى بالمُطرّف، كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[2]، وإمَّا أن يتَّفقا في عدد الحروف، ولا يتَّفقا في الحرف الأخير، فيسمَّى بالمتوازن، كقوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[3]. والسَّجع المرصَّع هو ما تتَّفق فيه ألفاظ الجملتَين وزنًا وتقفيةً، ويكون ما في الأولى مقابلًا لما في الثَّانية، نحو: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[4]»[5].

ويرى محمَّد عبد المطَّلب أنَّه: «يمثِّل ازدواج التَّوازن الصَّوتي، فتتواطأ فيه الفاصِلَتان من النَّثر على حرفٍ واحدٍ، وقد تتكشَّف هذه المزاوجة بتعادلٍ جزئيٍّ السَّجع، فلا يزيد أحدهما على الآخر، ثمَّ تزداد كثافة الإيقاع عندما تكون ألفاظ الجزَئَين المزدوجَين مسجوعة»[6].

في دعاء النُّور تقول السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: «**الحمد لله الذي خلق النُّور من النُّور، وأنزل النُّور على الطُّور، في كتابٍ مسطورٍ، في رقٍّ منشورٍ، بقدرٍ مقدورٍ، على نبيٍّ محبورٍ، الحمد لله الذي هو بالعزِّ مذكورٌ وبالفخرِ مشهورٌ، وعلى السَّرَّاءِ والضَّرَّاء مشكور**»[7].

نلحظ في هذا المقطع وجود السَّجع المتوازي الذي أعطى صبغة إيقاعيَّة تجذب السَّامع وتُريح النَّفس. لقد جاء السجع المتوازي هنا في تكرار (ور) في (منشور، مقدور، محبور، مذكور، مشهور، مشكور)، فمنح الدُّعاء أبعادًا دلاليَّة بالإضافة للبعد التصويريّ والإيقاعيّ، مع ما رافقه من صدى في مدِّ حرف الواو الذي جعلنا نبحر ونتفكَّر في صفات الله تعالى الموجِبة شكره في السَّراء والضَّراء.

(١) الغاشية: ١٣-١٤.
(٢) نوح: ١٣-١٤.
(٣) الغاشية: ١٥-١٦.
(٤) الانفطار: ١٣-١٤.
(٥) نهاية الإيجاز، م.س، ص٦٩.
(٦) بناء الأسلوب في شعر الحداثة، م.س، ص٦٦.
(٧) كلمة فاطمة، ص٢٢١.

وفي خطبتها تقول عليها السلام: «**وأشهد أنَّ أبي محمَّدًا عبده ورسوله.. ابتعثه الله إتمامًا لأمره، وعزيمةً على إمضاء حكمه، وإنفاذًا لمقادير حتمه، فرأى الأمم فِرقًا في أديانها، عكَّفًا على نيرانها، وعابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها، فأنار الله بمحمَّدٍ صلى الله عليه وآله ظُلمها، وجلَّى عن الأبصار غُممها**»(١)

في هذه المقطوعة تنوَّعت السَّجعات، وهذا ما أدَّى إلى تنوُّع الإيقاع؛ لإحداث الأثر الجماليّ من ناحية، والقدرة على التَّفنُّن في إيصال المعنى المُراد من ناحية أخرى. فالحديث عن النّبيّ صلى الله عليه وآله استدعى التَّذكير بأنَّه المختار من الله عز وجل، فجاءت السجعات المتوازية (أمره/ حكمه/ حتمه)؛ لتبيِّن الهدف من البعثة الشريفة، وهي إتمام أمر الله وحكمه. واستتبع ذلك تبيان الحال التي كان عليها العرب قبل البعثة من التفرقة وعبادة الأوثان والشِّرك بالله، فكانت السجعات تناسب مقتضى الحال (أديانها/ نيرانها/ أوثانها/ عرفانها)، بعدها انتقلت إلى النتيجة بتسلسلٍ منطقيّ بليغ، حيث كانت نتيجة البعثة الشريفة أن أضاء الكون بنور محمَّد وآل محمَّد صلى الله عليه وآله، وخروج النَّاس من ظلام الجاهليَّة إلى نور الإسلام (ظلمها/ غممها). لم يكن السجع في هذه المقطوعة للزخرفة، ولم يأتِ متكلِّفًا، بل ساهم في رفد المعنى بدلالات موحية بيَّنت فيها السيِّدة الزَّهراء عليها السلام مكانة أبيها ومهمَّته الرِّساليَّة التي انتدبه الله تعالى لتحقيقها.

وفي قولها عليها السلام: «**أيُّها النَّاس، اعلموا أنِّي فاطمة، وأبي محمَّد، أقول عودًا وبدءًا، ولا أقول ما أقول غلطًا، ولا أفعل ما أفعل شططًا**»(٢)، «**وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة**»(٣). تظهر في هذه العبارات جماليَّة السجع المرصَّع، وكذلك براعة الزَّهراء وبلاغتها في تخيُّر

(١) كلمة فاطمة، ص٢٧٨.
(٢) كلمة فاطمة، م.س، ص٢٨٠.
(٣) م.ن، ص٢٨٢.

الألفاظ والعبارات وجعلها متناسقة فنيا ودلاليًّا جاذبة المستمع، مؤثِّرة فيه عن طريق التوازن بين في الوحدات اللغويَّة. وتظهر جماليَّة الاستعارة في (أموره ظاهرة/ أحكامه زاهرة/ أعلامه باهرة..)، عندما خرجت من المحسوس إلى اللامحسوس في علاقة إسناديَّة وشبكة علائقيَّة جديدة.

وتظهر جماليَّة السجع المطرَّف في خطبتها عليها السلام في نهاية الفواصل المسجوعة بسبب اختلاف الأوزان بينها. فعندما أرادت التَّذكير ببعثة الرَّسول والجهود التي بذلها من أجل الدَّعوة الإسلاميَّة، مع ما رافقه من صعوبات وتحدِّيات، ومن ضرب الشِّرك والنفاق، قالت عليها السلام: «**فبلَّغ الرِّسالة صادعًا بالنَّذارة، مائلًا عن مدرجة المشركين، ضاربًا ثبجهم، آخذًا بأكظامهم، داعيًا إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة، يجفُّ الأصنام، وينكث الهام، حتَّى انهزم الجمع وولوا الدُّبر**»[1]. في هذا المقطع يبدو جليًّا اختيار الألفاظ المسجوعة ووضعها في سياقها الدلاليّ والإيقاعيّ، ممَّا أدَّى إلى لفت انتباه المتلقِّي. وقد تجاوز اسما الفاعل (ضاربًا/ آخذًا) العنصر الإيقاعيّ إلى ما هو أعمق في الدَّلالة وفي رسم صورة واضحة المعالم لجهاد رسول الله صلى الله عليه وآله ضدَّ المشركين، بعد أن قضى على رؤوسهم المجاهرة بالشِّرك والعداوة للدِّين القويم وللرسول الأمين.

الخاتمة

في ختام بحثنا، وفي رحاب خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، يمكننا القول:

- جاءت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في خطابها مراعية الوسائل والفنون الكلاميَّة من غير تكلُّف، وامتازت بقوَّة السَّبك والإخراج المُتقَن الذي راعى الدَّلالة وأثراها بطاقات إيحائيَّة كبيرة. فقد اعتمد التكرار بأنواعه المختلفة.
- وكان للسَّجع بأنواعه: المطرف والمتوازي والمرصَّع، حضوره المميَّز الذي أتى

(١) كلمة فاطمة، م.س، ص٢٨٠.

عفو الخاطر، وعمَّق من الدلالات، وأغنى النصَّ بالإيقاع، بالإضافة للجناس النَّاقص الذي استدعاه السِّياق، وزاد من جماليَّته.

- ظهر تأثُّر السيِّدة فاطمة عليها السلام بالقرآن الكريم من خلال الاقتباس الجزئيّ أو الكلِّيّ، وهذا دليل استيعابها واستحضارها في أدعيتها وأقوالها، ولاسيَّما عند الوقوف بين يدي الله بخشوع.
- تميَّز خطابها عليها السلام بحسن انتقاء ألفاظها لتعبِّر عن الحال، فجاءت قويَّة موحية في مواضع، ورقيقة هادئة في مواضع أُخر.
- حضر التَّضاد في خطابها عليها السلام بصورة جليَّة، فتبيان أي أمر يستحضر النَّقيض لتظهر أهميَّته، وقد جاء الطِّباق عن طريق المقابلة الجمليَّة تارةً، وعن طريق الطِّباق تارةً أخرى.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، تحقيق: حتفي محمَّد شرف، القاهرة.

٢. ابن جنِّيّ، الخصائص، نسخة إلكترونيَّة، إحياء التراث العربيّ.

٣. الجرجانيّ، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمَّد شاكر، جدَّة، دار المدنيّ.

٤. الحرُّ العامليّ، وسائل الشيعة، تحقيق: مؤسَّسة أل البيت عليهم السلام لاحياء التراث، ط٢، ١٤١٤هـ.

٥. دي بوجراند، روبرت، النصُّ والخطاب والإجراء، القاهرة، عالم الكتب، ط١، ١٩٩٨م.

٦. الرازي، نهاية الإيجاز، تحقيق: د. نصرالله حاجي مفتي أوغلي، بيروت، دار صادر، ط١، ٢٠٠٤م.

٧. الرافعيّ، مصطفى، إعجاز القرآن، راجعه: د. درويش الجويدي، بيروت، المكتبة العصريَّة، ٢٠٠٣م.

٨. ريفاتير، ميشال، دراسات في الأسلوبيَّة البنيويَّة، القاهرة، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، ١٩٩٦م.

٩. السجلماسيّ، المنزع البديع، الرباط، مكتبة ومطبعة المعارف الجديدة، ١٩٨٠م.

١٠. الشيرازي، السيِّد حسن، كلمة فاطمة الزَّهراء، هيئة محمَّد الامين، ط٢، ٢٠٠٠م.

١١. صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، القاهرة، مؤسَّسة مختار للنشر والتَّوزيع، ١٩٩٢م.

١٢. كتاب الأربعون حديثًا الفاطميَّة، أيمن عبد الكريم، مركز الأبحاث العقائديَّة.

١٣. عبد المطلب، محمَّد، بناء الأسلوب في شعر الحداثة، ط٢، دار المعارف، ١٩٩٥م.

١٤. العسكريّ، أبو الهلال، الفروق اللغويَّة، تحقيق: حسام الدين القدسيّ، بيروت، دار الكتب العلميَّة، ١٩٨١م.

١٥. العسكريّ، أبو هلال، الصناعَتَين، تحقيق: مفيد قميحة، ج١، بيروت، دار الكتب العلميَّة، ط٢، ١٩٧٤م.

١٦. غزوان، عناد، التحليل النقديّ والجمال الأدبيّ، دار دجلة، ط١، ٢٠١١.

١٧. فرج، حسام، نظريَّة علم النصِّ، مكتبة الآداب للطباعة والنَّشر، ط١، ٢٠٠٧م.

١٨. القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلميَّة، ط١، ٢٠٠٣م.

١٩. القلقشنديّ، صبح الاعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: د.يوسف عليّ طويل، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٧م.

٢٠. الكلينيّ، الكافي، علَّق عليه: عليّ أكبر غفاري، طهران، دار الكتب الإسلاميَّة، ٢٠٠٠م.

٢١. كوهين، جون، بنية اللغة الشِّعريَّة، ترجمة: محمَّد الولي ومحمَّد العمريّ، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط١، ١٩٨٦م.

٢٢. مبروك محمَّد، جودة، التكرار وتماسك النصِّ، القاهرة، مكتبة الآداب، ط١، ٢٠٠٨م.

٢٣. المجلسيّ، بحار الأنوار، تحقيق: السيِّد إبراهيم الميانجيّ ومحمَّد الباقر البهبوديّ، ط٢، ١٩٨٣م.

٢٤. المراكشيّ، ابن البنَّاء، الروض المريع في صناعة البديع، تحقيق: رضوان بن شقرون، ١٩٨٧م.

٢٥. المسديّ عبد السلام، الأسلوبيَّة والأسلوب، تونس، الدار العربيَّة للكتاب، ط٣، ١٩٩٣م.

٢٦. ميلود نزار، الإحالة التكراريَّة ودورها في التماسك النصِّيّ، مجلَّة علوم إنسانيَّة، عدد٤٤، ٢٠١٠م.

٢٧. نوفل، يوسف، طائر الشعر، القاهرة، الهيئة العامَّة لقصور الثقافة، ط١، ٢٠١٠م.

٢٨. اليوسفي، محمَّد لطفي، تجلِّيات في بنية الشعر العربيّ المعاصر.

الفصل بين الصدق والكذب
مرويَّات السيِّدة الزَّهراء عليها السلام دراسة في معيار الحَبْك

أ.د. خليل خلف بشير

جامعة البصرة/ كليَّة الآداب

الملخَّص

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، لاسيما الصدِّيقة الطاهرة فاطمة الزَّهراء عليها السلام.

أمَّا بعد..

فهذا بحث يبيِّن الفصل بين الصدق والكذب في مرويَّات السيِّدة الزَّهراء عليها السلام دراسة في معيار الحَبْك، ابتدأته بمدخل عنونته مرويَّات السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، النشر (الخطبتان)، والوصيَّة، والدعاء، والحديث، والشعر، فضلًا عن التطرُّق عن معيار الحبك، وعلاقاته وتطبيقها على مرويَّات السيِّدة الزَّهراء عليها السلام.

ومن نتائج البحث:

١. إحصاء مرويَّات الزَّهراء عليها السلام، وبيان تعدُّدها وتنوُّعها؛ وذلك لتنوُّع علم الزَّهراء عليها السلام.

٢. تعدُّد مرويَّات الزَّهراء عليها السلام بين شعر ونثر، وقد ذكرت ظلامتها في جميع هذه المرويَّات.

٣. إثبات صدق الزَّهراء عليها السلام بما تدَّعي، في ضوء تحليل مرويَّاتها وفق معيار الحبك الذي هو أحد معايير النظريَّة النصيَّة.

٤. بيان أهميَّة معيار الحبك، وارتباطه بالمعايير النَّصيَّة الأخرى، وأهمُّها السَّبك.

٥. إثبات أنَّ معيار الحبك شكليّ دلاليّ، فهو شكليّ من خلال المقام اللغويّ، ودلاليّ من خلال المقام غير اللغويّ.

٦. ذكر العلاقات اللغويَّة وتقسيمها إلى علاقات لغويَّة شكليَّة، وعلاقات دلاليَّة، مع إحصائها بشيءٍ من التَّفصيل.

المقدَّمة

هذا بحث يبيِّن الفصل بين الصدق والكذب في مرويَّات السيِّدة الزَّهراء عليها السلام دراسة في معيار الحَبْك، ابتدأته بمدخل عنونته مرويَّات السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، النثر (الخطبتان)، والوصيَّة، والدعاء، والحديث، والشعر، فضلًا عن التطرُّق عن معيار الحبك، وعلاقاته وتطبيقها على مرويَّات السيِّدة الزَّهراء عليها السلام.

ومن نتائج البحث:

١. إحصاء مرويَّات الزَّهراء عليها السلام، وبيان تعدُّدها وتنوُّعها؛ وذلك لتنوُّع ثقافة الزَّهراء عليها السلام.

٢. تعدُّد مرويَّات الزَّهراء عليها السلام بين شعر ونثر، وقد ذكرت ظلامتها في جميع هذه المرويَّات.

٣. إثبات صدق الزَّهراء عليها السلام بما تدَّعي، من خلال تحليل مرويَّاتها وفق معيار الحبك الذي هو أحد معايير النظريَّة النصيَّة.

٤. بيان أهميَّة معيار الحبك، وارتباطه بالمعايير النَّصيَّة الأخرى، وأهمُّها السَّبك.

٥. إثبات أنَّ معيار الحبك شكليّ دلاليّ، فهو شكليّ من خلال المقام اللغويّ، ودلاليّ من خلال المقام غير اللغويّ.

٦. ذكر العلاقات اللغويَّة وتقسيمها إلى علاقات لغويَّة شكليَّة، وعلاقات دلاليَّة، مع إحصائها بشيءٍ من التَّفصيل.

مدخل
مرويَّات السيِّدة الزَّهراء عليها السلام

المرويَّات لغةً: جاء في مقاييس اللغة عن ابن فارس: «الراء والواو والياء أصلٌ واحدٌ، ثمَّ يُشتقُّ منه، فالأصل ما كان خلاف العطش، ثمَّ يصرف في الكلام لحامل ما يروى منه.. ثمَّ شبَّه به الذي يأتي القوم بعلمٍ أو خبرٍ فيرويه، كأنَّه أتاهم بريهم من ذلك»[1]. أما في موضع آخر، فقد ذُكر أنَّه جمع من (مروي)، وهو مفعول، بمعنى الحكاية عن الشيء سواء أكان شعرًا أم قصَّة أم أحاديث[2]. وما نحن بصدده هو مرويَّات الزَّهراء عليها السلام، وهي كلُّ ما تمَّ نقله عن الزَّهراء من خُطب، وأحاديث، وأشعار، فضلًا عن وصيَّتها لأمير المؤمنين عليه السلام قبل استشهادها عليها السلام، وبسبب قوَّة الأحداث[3] وسرعتها بعد وفاة الرَّسول صلى الله عليه وآله، وللخلفيَّة العلميَّة والتنوُّع الثقافيّ الذي حازته الزَّهراء عليها السلام، كان نتاجها الفكريّ الذي روي عنها متنوِّعًا؛ لتنوُّع الأحداث وتنوُّع الثقافة.

وأهمُّ مرويَّات الزَّهراء عليها السلام:

النَّثر: (الخطبتان)

تذكر كتب التاريخ أنَّ هناك خطبَتَين للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام، وسنحاول في السطور الآتية التعريف بهما:

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس: ٤٠٧-٤٠٨.
(٢) معجم اللغة العربيَّة المعاصرة، أحمد مختار عمر: ٩٦٣.
(٣) ينظر: حياة سيِّدة النساء، باقر شريف القرشيّ: ١٥.

الخطبة الأولى: أو ما يُعرف بالخطبة الكبرى، أو الخطبة الفدكيَّة، وهي الخطبة الغرَّاء العصماء التي ألقتها سيِّدة النساء في المسجد النبويّ بعد وفاة الرسول الكريم محمَّدﷺ، بعد أن تولَّى أبو بكر الخلافة، وغصب فدكًا من فاطمة، فخرجت محاججةً ومعترضةً بصوتٍ صادحٍ، مطالبةً بحقِّها، وقد جرت الكثير من الحوارات والمجادلات بينهاعليها السلام وبين من يمثِّل السلطة الحاكمة في ذلك الوقت، أمَّا فيما يخصُّ أسانيدها ومصادرها، فقد ذَكَرت كتب التاريخ أنَّ أوَّل مَن نقل الخطبة أحمد بن أبي طاهر المعروف (بابن طيفور)[1]، وقد أوردها بأسانيد متعدِّدة ومتواترة. كذلك ممَّن نقل الخطبة ابن أبي الحديد المعتزليّ، في كتابه شرح نهج البلاغة[2]. كذلك ممَّن نقل الخطبة المؤرِّخ عليّ بن الحسين المسعوديّ في مروجه[3]، وتطول قائمه المصادر، ولا يتَّسع البحث لذكرها كاملة، وقد ذكر الشيخ الأنصاريّ مجموعة من مصادر الخطبة في كتابه اللمعة البيضاء[4]، كذلك الباحث الدكتور عبد الحسن عليّ حبيب الناصر في كتابه إشراقات غرَّاء من خطاب السيِّدة الزَّهراء[5].

الخطبة الثانية: أو الخطبة الصغرى، وسمِّيت أيضًا بخطبة الدار، ويسمِّيها الكثير من الباحثين بخطبة النساء، وهي الخطبة التي ألقتها سيِّدة النساء في نساء المهاجرين والأنصار، حين قدِمنَ لعيادتها بعد مرضهاعليها السلام، ويرجع هذا التعدُّد في الأسماء إلى بعض الحيثيَّات، فسمِّيت خطبة الدار، وذلك واضح؛ لأنَّها وقعت في دار الزَّهراءعليها السلام؛ وسمِّيت الصغرى قياسًا بالخطبة الفدكيَّة من حيث المضامين والمطالب، وكذلك إنَّها خطبة النساء؛ لأنَّها وجَّهت إلى جمع من نساء المهاجرين والأنصار، وهذا واضحٌ جليٌّ

(١) بلاغات النساء، ابن طيفور: ١٢.
(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٦/ ٢٥٢.
(٣) مروج الذهب، المسعوديّ: ٢/ ٣١١.
(٤) اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزَّهراء، محمَّد عليّ الأنصاريّ: ٣١٧.
(٥) إشراقات غرَّاء في خطاب السيِّدة الزَّهراء، د. عبد الحسين عليّ حبيب الناصر: ٩-١٠.

من توجيه الخطاب فيها، أمَّا تاريخ وقوعها بين وفاة الرسول الكريم محمَّد صلى الله عليه وآله، وبين وفاة الزَّهراء عليها السلام برواياتها الثلاث، فلا شكَّ أنَّها وقعت بهذه الحقبة بعد الخطبة الفدكيَّة، أمَّا مصادر الخطبة وأسانيدها فمتعدِّدة ومتواترة، وقد نقلها الكثير من علماء العامَّة وعلماء الشيعة بدءًا من ابن طيفور[1]، وابن أبي الحديد[2]، وابن جبر[3]، أمَّا من نقلها من علماء الشيعة، فالشيخ الصدوق، والشيخ الطوسيّ، والطبريّ، وابن بابويه[4]، وكذلك نقلها الشيخ إسماعيل الزنجانيّ الخوئيّ بثلاثة عشر متنًا، وبأسانيد متعدِّدة، ومن مصادر مختلفة[5]، وقد تناولها مجموعة من العلماء لشرح مضامينها وبيان ألفاظها، ومن أهمِّ من شرح الخطبة العلَّامة المجلسيّ[6]، والعلَّامة عبد الله البحرانيّ[7]، والسيِّد محمَّد كاظم القزوينيّ[8]، وعبد الله عبد العزيز الهاشميّ[9].

الوصيَّة

الوصية لغةً: قال ابن فارس: «وصى: الواو والصاد والحرف المعتل أصلٌ يدلُّ على وصل شيءٍ بشيء، ووصيت الشيء: وصلته، ويقال: وطئنا أرضًا واصية، أي: نبتها متَّصل قد امتلأت منه، ووصَّيت الليل باليوم: وصلتها وذلك في عمل تعمله، والوصيَّة من هذا القياس كلام يوصى، أي: يوصل يقال وصَّيته توصيةً وأوصيته إيصال»[10].

(١) بلاغات النساء: ١٦-٢٥.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٣٣.
(٣) نهج الإيمان، ابن جبر: ٦٢١.
(٤) ينظر: فاطمة من المهد إلى اللحد، السيِّد محمَّد كاظم القزوينيّ: ٣٧٥.
(٥) الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزَّهراء عليها السلام، إسماعيل الزنجانيّ: ١٣/ ٣٨٩-٤١٥.
(٦) بحار الأنوار، المجلسيّ: ٤٣/ ١٦٢-١٧٠.
(٧) عوالم العلوم، عبد الله البحرانيّ: ١١/ ٨١٤-٨٢٣.
(٨) فاطمة من المهد إلى اللحد: ٤٣٤-٤٤٠.
(٩) فاطمة الزَّهراء، عبد الله عبد العزيز الهاشميّ: ٣٢٣-٣٣٠.
(١٠) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، مادَّة (وصى): ٦/ ١٦.

أمَّا في لسان العرب، فيقول ابن منظور: «الوصيَّة: ما أوصيت به وسُمِّيت وصيَّة؛ لاتِّصالها بأمر ميت، وقيل لعليّ عليه السلام وصيّ؛ لاتِّصال نسبه وسببه وسمته برسول الله صلى الله عليه وآله»(١).

وفي معجم آخر جاءت الوصيَّة بمعنى جريدة النخل يحزم بها، «الوصيَّة ما يوصى به، جمع وصايا، وجريدة النخل يحزم بها، أو هي من الفسيل خاصَّة، الجمع وُصي»(٢)؛ إذ ورد أنَّ المادَّة اللغويَّة للفظ وصيَّة تدور حول الاتِّصال، فكلُّ وصيَّة يدخل فيها معنى الاتِّصال، فربط الشيء بشيء اتِّصال، ولذلك يسمَّى وصيًّا، وكذلك اتِّصال نبات الأرض بعضه ببعض، جعل الأرض تسمَّى واصية. وأرض واصية أي نبتها متَّصل، وسمِّيت وصيَّة الميت وصيَّة؛ لأنَّها تصل حياة الميت بمماته، وسمِّي أمير المؤمنين عليه السلام وصيًّا؛ لاتِّصال نسبه الشريف وسببه برسول الله محمَّد صلى الله عليه وآله، وسمِّيت جريدة النخل وصيَّة؛ لاتِّصال طرفيها بعد أن حُزِم بها، والخلاصة أنَّ وصيَّة تعني وصلَ شيء.

الوصيَّة اصطلاحًا: «هي تمليك مضاف إلى ما بعد الموت»(٣).

وفي تعريفٍ آخر ورد بأنَّها: «كلام يوجِّهه الموصي إلى شخص محدَّد تنفيذًا لعلمٍ أو إرشادٍ أو سلوكٍ عباديٍّ معيَّن، بالتزامه به في حياة الموصي أو بعد وفاته، وتتمُّ الوصيَّة في حياة الموصي إلى والٍ أو قاضٍ أو عاملٍ أو قائدٍ عسكريّ، في حين تتمُّ الوصيَّة إلى ما بعد المهات بالمطالبة بتنفيذ عملٍ عباديٍّ يتحدَّد بأولاده أو أقاربه أو غيرهم»(٤). وتظلُّ التعريفات في الوصيَّة (اصطلاحًا) كثيرة ومتعدِّدة بتعدُّد المذاهب، وقد تكون أكثر، فقد تتعدَّدت تعريفاتها في نفس المذهب، وقد أوردنا من هذه التعريفات ما هو أشمل،

(١) لسان العرب، ابن منظور: ٥/ ٣٩٤.

(٢) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، وأحمد الزيَّات، وحامد عبد القادر، ومحمَّد النجَّار: ٢/ ١١٠٠.

(٣) التعريفات، عليّ بن محمَّد الجرجانيّ: ٢٧٣.

(٤) تاريخ الأدب العربيّ في ضوء المنهج الإسلاميّ، د. محمود البستانيّ: ٤٦٥.

وأرى أنَّ أكثرها دقَّة هو ما ذكره السيِّد السيستانيّ حين قسَّم الوصيَّة إلى قسمَين: تمليكيَّة وعهديَّة، والوصيَّة التمليكيَّة: «هي أن يجعل الشخص شيئًا من ماله من مالٍ أو حقٍّ لغيره بعد وفاته، كأن يجعل شيئًا من تركته لزيد أو للفقراء بعد مماته، فهي وصيَّة بالملك أو الاختصاص»[1]، والوصيَّة العهديَّة: «وهي أن يعهد الشخص بتولِّي أحد بعد وفاته أمرًا يتعلَّق به أو بغيره، كدفنه بمكانٍ معيَّنٍ أو بزمانٍ معيَّن، أو تمليك شيء معيَّن من ماله لأحد، أو وقفه أو بيعه، أو الاستنابة عنه في صلاةٍ أو صومٍ أو حجٍّ، أو القيمومة على صغاره، ونحو ذلك، فهي وصيَّة بالتولية»[2].

وقد تتعدَّد أركان الوصيَّة حسب نوعها، فإذا كانت تمليكيَّة، فلها ثلاثة أركان (الموصي، والموصى به، والموصى له)، أمَّا إذا كانت الوصيَّة عهديَّة، فيكون قوامها بأمرَين (الموصي، والموصى به)، فإذا عيَّن الموصي شخصًا لتنفيذها، كان أطرافها ثلاثة أيضًا بإضافة الموصى إليه، وهو الذي يُطلَق عليه الوصيّ، وإذا كان الموصى به أمرًا متعلِّقًا بالغير، كتمليك مالٍ لزيدٍ مثلًا، كانت أركانها أربعة بإضافة الموصى له[3]، وقد تباينت آراء العلماء حول ماهيَّة الوصيَّة، أهي المكتوبة أم الملفوظة أم غيرها؟ فمنهم من يرى أنَّ الوصيَّة المكتوبة فقط، ومنهم من يرى أنَّها المكتوبة والملفوظة معًا، «وقد تكون على شكل رسالة تُكتب إلى أحد الأشخاص، أو خطابًا يوجِّهه إلى طرف، وتتميَّز بوحدة الموضوع أو بتنوُّع الموضوعات، وكلُّ الموضوع يتميَّز بموضوعٍ جزئيٍّ، بحيث تلتقي الموضوعات الجزئيَّة عند مصبٍّ فكريٍّ متجانس»[4].

ويرى بعض العلماء أن الوصيَّة هي كلُّ ما يدل على الإفهام، فتكون بذلك المكتوب والملفوظ والإشارة. قال السيِّد السيستانيّ: «لا تعتبر في صحَّة الوصيَّة التلفُّظ أو كتابتها،

(١) منهاج الصالحين، السيِّد عليّ الحسينيّ السيستانيّ: ٢/ ٢٨٢.
(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٢٨٢.
(٣) المصدر نفسه: ٢/ ٢٨٣.
(٤) ينظر: أدب الشريعة الإسلاميَّة، د. محمود البستانيّ: ٣١١.

بل يكفي كلُّ ما يدلُّ عليها حتَّى الإشارة المفهمة للمراد، وإن كان الشخص قادرًا على النطق»[1].

وقد وجِدت الوصيَّة قبل الإسلام، إلَّا أنَّ الإسلام أمر بها وأكَّدها، فقد تواترت الأحاديث في السنَّة النبويَّة على أهميَّة الوصيَّة والعمل بها، وفي بعض الأحيان أوجبها، ولأنَّ الزَّهراءعليها السلام من أشد الخلق تطبيقًا لتعاليم الإسلام والإرشاد النبويّ، كيف لا وهي من تربَّت في حِجر النبوَّة وموضع الرسالة، فقد تركت وصيَّتها بعد استشهادها، عاهدة إيَّاها إلى أمير المؤمنينعليه السلام، وقد اشتملت على كلِّ شروط الوصيَّة، بما في ذلك الشهود، وبنوعيها التمليكيَّة والعهديَّة، أمَّا التمليكيَّة فهي التي نصُّها: «**بسم الله الرَّحمن الرحيم هذا ما أوصت به فاطمة بنت محمَّد**صلى الله عليه وآله**، أوصت في حوائطها السبعة: (العواف، والدلال، والبرقة، والميثب، والحسنى، الصافي، ومال أمِّ إبراهيم) إلى عليّ بن أبي طالب**عليه السلام**، فإن مضى فإلى الحسن، فإن مضى فإلى الحسين، فإن مضى فإلى الأكبر من ولده من ولدي دون ولدك، شهد الله على ذلك والمقداد بن الأسود والزبير بن العوَّام، وكتب عليّ بن أبي طالب**عليه السلام»[2].

كانت هذه إحدى النصوص التي وردت فيها الوصيَّة.

وبالرغم من تعدُّدها، إلَّا أنَّها تدور حول نفس المعنى، ويرجع سبب الاختلاف لعدَّة أسباب، منها يرجع ظاهرًا إلى رواية أجزاء متقطِّعة منها من دون روايتها بصورة كاملة، فضلًا عن أنَّ روايتها بالمعنى أحيانًا يسبِّب اختلافًا في بعض ألفاظها، وترتيب فقراتها[3]. أمَّا العهدية، فالتي نصُّها: «**بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصت به فاطمة بنت محمَّد**صلى الله عليه وآله**، وهي تشهد أن لا إله إلَّا الله، وأن محمَّد عبده ورسوله، وأنَّ الجنَّة والنار حقٌّ، وأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث مَن في القبور، يا عليّ أنا فاطمة بنت**

(١) المسائل المنتخبة، السيِّد عليّ الحسينيّ السيستانيّ: ٣٣٤.

(٢) الكافي، الشيخ الكلينيّ: ٧/ ٤٨، وينظر: بحار الأنوار: ٤٣/ ٢٣٥.

(٣) ينظر: قراءات في وصيَّة الزَّهراءعليها السلام، السيِّد محمود المقدَّس الغريفيّ: ٩٥.

محمَّد، زوَّجني الله منك لأكون لك في الدنيا والآخرة، أنت أولى بي من غيري، حنِّطني وغسِّلني وكفِّنِّي، وصلِّي عليَّ، وادفنِّي بالليل، ولا تُعلِم أحدًا، واستودعك الله، واقرأ على ولَدَيَّ السلام إلى يوم القيامة»[1].

ومِن الملاحَظ أنَّ وصيَّة الزَّهراء عليها السلام، سواء أكانت العهديَّة أم التمليكيَّة، والتي قد تعدُّ وصيَّة واحدة، إلَّا أنَّها جاءت على شكل مقاطع، وسيأتي بيانها في الفصول القادمة، وأنَّها اشتملت على كلِّ ما تشتمل عليه الوصيَّة في الإسلام، حيث تبدأ بالتشهُّد لله والحمد والثناء عليه، مودعةً اعتقادها الدينيّ الكامل من خلال التشهُّد ومعتقدها، ومَن له الحقُّ بالتصرُّف بأملاكها، وردِّ المظالم لأصحابها، كذلك وجود الشهود في وصيَّتها، وأركان الوصيَّة الأربعة التي سبق ذِكرها، وهي الموصي، والموصى، والموصى به، والموصى له، وقد أكَّدت في وصيَّتها أيضًا، كما في جميع مرويَّاتها عليها السلام، على مظلوميَّتها، وبيان حقِّها، جاعلةً هذه الوصيَّة صرخة في وجه ظالميها، من خلال قولها: «.. ثمَّ قالت: **أوصيك أن لا يشهد أحد جنازتي من هؤلاء الذين ظلموني وأخذوا حقِّي، فإنَّهم عدوِّي وعدو رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا تترك أن يصلِّي عليَّ أحد منهم، ولا من أتباعهم، وادفنِّي بالليل إذا هدأت العيون، ونامت الأبصار**. ثمَّ توفِّيت عليها السلام»[2]، لتبقى هذه الوصيَّة على مرِّ الزمان مثارًا للتساؤلات: لماذا أوصت الزَّهراء بهذه الكيفيَّة؟ لعلَّ القارئ والباحث يصل إلى حقيقة ما جرى من انقلاب بعد أن قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله.

الدُّعاء

الدُّعاء لغة: مفرد أدعية، قال ابن فارس: «الدال والعين والحرف المعتلِّ أصلٌ واحدٌ وهو أن تميل الشيء إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك، نقول: دعوت أدعو دعاء»[3]. وقد

(١) بحار الأنوار: ٣٤/ ٢٧٨، وينظر: عوالم العلوم: ٦/ ٢٧٨.
(٢) روضة الواعظين، النيسابوريّ: ١٥١.
(٣) مقاييس اللغة، مادَّة (دعو): ٤٠٩.

جاء معنى الدُّعاء أيضًا الرغبة إلى الله ﷻ: «وهو أيضًا الرغبة إلى الله ﷻ، ودعا العبد ربَّه، دعاه دعاء ودعوى»[1]. وكلمة دعاء أصلها اللغويّ (دعاو) من (دعوت)، إلَّا أنَّ الواو جاءت بعد الألف فهُمِزت[2]، وتظلُّ المعاني تدور حول هذا المعنى في أغلب معاجم اللغة، وفيها بعض التباين، وقد وردت بمعانٍ أُخر، منها الطلب، والنداء، كذلك النداء إلى الطعام، وطلب إحضار الشيء أيضًا، والنسب، والمعاني التي ورد بها هذا اللفظ كثيرة ، ويظلُّ أغلبها يدور حول معنى الطلب والنداء، سواء أكان مجازيًّا، أم طلبًا حقيقيًّا.

الدُّعاء اصطلاحًا: «هو أن يطلب العبد حاجته من الله تعالى»[3]. وهذا تعريفٌ فيه الكثير من الاختصار، وهو بحاجة إلى التوضيح والشرح، إذ ليس كلُّ الأدعية هي طلبًا لحاجة معيَّنة، فقد تكون بعض الأدعية تمجيدًا وتقديسًا وتسبيحًا وتنزيهًا للذَّات الإلهيَّة المقدَّسة، لذلك نلحظ في تعريفات أُخر أكثر دقَّةً وشمولًا، باعتباره طلبًا؛ ليكون أكثر إحاطة، فالتسبيح والتنزيه في حقيقة الأمر طلب، وقد عرَّفه الرازي بأنَّه: «طلب الأدنى من الأعلى على وجه الخضوع والاستكانة»[4]، أمَّا دعاء العبد ربَّه: «فهو طلب العناية منه واستمداده إيَّاه المعونة»[5]، بَيدَ أنَّ أكثر التعريفات دقَّة هو التعريف الذي أورده د. محمود البستانيّ، وأنا أرى أنَّ هذا التعريف أكثر دقَّةً وتفصيلًا وبيانًا، فهو يرى أنَّ الدُّعاء يكون أحيانًا بكلامٍ مسموعٍ، وأحيانًا يكون بكلامٍ صامتٍ، ومن حيث المظهر الداخليّ، فإنَّه يقوم على عنصرٍ وجدانيّ، أمَّا من حيث المضمون، فينطوي على محوَرَين، هما الذاتيَّة والموضوعيَّة، فالذاتيَّة تتَّصل بالحاجات الفرديَّة للداعي، مثل الشفاء وطلب المال. أمَّا

(١) لسان العرب، مادة (دعو): ٣٦٠.
(٢) ينظر: صحيح مسلم: ١٨.
(٣) الدُّعاء عند أهل البيت عليهم السلام، محمَّد مهدي الآصفيّ: ١٣.
(٤) تفسير الرازي: ٥/ ٩٧.
(٥) المصدر نفسه.

الموضوعية فتشمل كلَّ ما هو غير ذاتيّ، وهو نمطان[1]:

١. عباديّ، وهو ما يتَّصل بتمجيد الله تعالى.

٢. اجتماعيّ، وهو ما يتَّصل بحاجات الآخرين، مثل طلب النَّصر على العدوِّ، واستسقاء المطر، والدُّعاء للآخرين

وللدعاء أركان، هي الداعي، والمدعو، والمدعو به، والمدعو له، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالدُّعاء، قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2]، وفي هذه الآية يقرن الله سبحانه وتعالى الدُّعاء بالعبادة، إذن: «الدُّعاء عبادة، لا بل جوهر العبادة وروحها والغاية من خلق الإنسان العبادة، والغاية من العبادة الانشداد إلى الله، والدُّعاء يحقِّق هذا الانشداد والارتباط من أوسع الأبواب، وبأقوى الوسائل»[3].

وقد روي أيضًا عن الرسول صلى الله عليه وآله: «**الدُّعاء مخُّ العبادة، ولا يهلك مع الدُّعاء أحد**»[4]. فكانت الزَّهراء عليها السلام مثالًا حقيقيًّا للمؤمن في تطبيق تعاليم الدين، ووصايا السنَّة، لذلك نجد الكثير من الأدعية التي تعود إلى السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، متناثرة في بطون أمَّهات الكتب، وقد عمد بعض العلماء إلى جمعها في كتبٍ أمثالِ كتاب الصحيفة الفاطميَّة، لمحمَّد تقي دخيل، وكتاب صحيفة الزَّهراء عليها السلام، للأستاذ أسعد عبُّود، وغيرها من كتب الأدعية التي وردت عنها، ولو أمعنَّا النظر في هذه الأدعية لوجدناها كثيرة ومتعدِّدة المواضيع، وهذا إن دلَّ على شيء، فإنَّما يدلُّ على شدَّة ارتباطها بالله تعالى، والإقبال عليه في كلِّ أمورها وحاجاتها، فنلحظ أنَّ لها أدعية خاصَّة في الصباح، وأدعية خاصَّة في المساء، وأذكار في الرزق، وأذكار في الشِّفاء، وهذا يعني أنَّ الزَّهراء عليها السلام كانت كثيرة الرجوع إلى الله تعالى في السرَّاء والضرَّاء، والتوكُّل عليه، ولأنَّها تعلم أنَّ الدُّعاء

(١) ينظر: القواعد البلاغيَّة في ضوء المنهج الإسلاميّ، د. محمود البستانيّ: ٢٨٩.
(٢) غافر: ٦٠.
(٣) الدُّعاء عند أهل البيت عليهم السلام: ١٩.
(٤) بحار الأنوار: ٩٣/ ٣٠٠.

مخُّ العبادة، فقد كثرت أدعيتها وتنوَّعت، كذلك فإنَّ كثرة الدُّعاء تدلُّ على الحبِّ بين العبد وربِّه، و«حبُّ الله تعالى من أفضل هذه العناصر وأقواها (أي عناصر العلاقة بالله تعالى)، وأبلغها في شدِّ الإنسان بالله تعالى، وتحكيم علاقته به عزَّ شأنه»[1].

الحديث

الحديث لغةً: ذكر ابن فارس أنَّ: «الحاء والدال والثاء أصلٌ واحدٌ، وهو كون الشيء لم يكن. يُقال: حدث أمر بعد أن لم يكن، والرجل الحَدَثُ الطريّ السنِّ، والحديث من هذا؛ لأنَّه كلامٌ يحدثُ منه الشيء بعد الشيء»[2].

أمَّا في لسان العرب، فقد ورد: «الحديث الجديد من الأشياء، والحديث الخبر يأتي على القليل والكثير، والجمع أحاديث»[3]، إذًا تدور مادَّة حديث في أغلب معاجم اللغة حول الجديد الذي لم يكن قد وقع، وهو بهذا عكس قديم، ومنها الكلام، وسمِّي حديثًا؛ لأنَّه يتجدَّد، دائم التجدُّد.

الحديث اصطلاحًا: قال ابن الأكفانيّ: عِلم رواية الحديث هو: «علم ينقل أقوال النبيّ صلى الله عليه وآله وأفعاله بالسَّماع المتَّصل، وضبطها وتحريرها»[4]. وقد نقل السيوطيّ هذا التعريف في كتابه (تدريب الراوي في شرح تقريب النواويّ)، حيث قال: «واعلم الحديث الخاصّ بالدراية علم يُعرَف من حقيقة الرواية وشروطها وأنواعها وأحكامها وحال الرواة وشروطهم وأصناف المرويَّات وما يتعلَّق بها»[5]، إذًا هو يقسِّم علم الحديث إلى قسمَين، هو علم الرواية وعلم الدراية، ولعلَّ سائلًا يسأل: هل الحديث هو ما نُقِل عن الرسول صلى الله عليه وآله؟ ونقصد بالحديث (القول والفعل والتقرير) بالمتن عن الرسول، أم إنَّ

(١) الدُّعاء عند اهل البيت عليهم السلام: ١٨٨.
(٢) مقاييس اللغة، مادَّة (حدث): ٢٣٥.
(٣) لسان العرب، مادَّة (حدث): ٣/ ٧٦.
(٤) إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، ابن الأكفانيّ: ١٥٥.
(٥) تدريب الراوي في شرح النواويّ، السيوطيّ: ٢٥.

كلام الصحابة وأهل البيت والتابعين يعدُّ حديثًا؟ وقد اثبت الطِّيبيّ أنَّ كلام الصحابة وأهل البيت والتابعين، وإن اختلف عن المتن ونقل بالمعنى ويراه هو الأرجح[1].

ولعلَّ من يقرأ حياة الزَّهراء عليها السلام يجد أنَّ الكثير من مرويَّاتها هي أحاديث وأحداث نُقِلت عنها عن طريق أهل البيت عليهم السلام أو الصحابة، فضلًا عن مجموعة كبيرة من العبارات القِصار والحِكَم في النصح والإرشاد. وعلى سبيل المثال حديث الكساء، وحديث تسبيح الزَّهراء، عليها السلام وحديث الثوب، التي نقلها أهل البيت عليهم السلام عن الزَّهراء عليها السلام، وهذا هو ما نقصده بمرويَّات الزَّهراء، التي تمَّت روايتها عن الزَّهراء عليها السلام، لا الروايات التي نقلتها الزَّهراء عن الرسول صلى الله عليه وآله، إذ لا بدَّ من التفريق بين مارَوَت الزَّهراء عن الرسول صلى الله عليه وآله، وما رواه الأئمَّة والأصحاب عن الزَّهراء عليها السلام، فقد نقلت الزَّهراء عن الرسول صلى الله عليه وآله الكثير من الأحاديث والأحداث، كيف لا وهي أمُّ ابيها، وكان الرسول صلى الله عليه وآله يخصُّها بكثير من أحاديثه، فضلًا عن عامَّة كلامه، فقد عاشت أغلب عمرها الشريف، وهي في كنفه، عدا بضعة أشهر بعد وفاته، ولو اعتمدنا أكثر الروايات مدَّة لوفاتها بعد وفاة الرسول، هي ثلاثة أشهر فقط، وقد احتوت كتب الحديث الإسلاميَّة عامَّة، والإماميَّة خاصَّة في طيَّاتها الكثير من أحاديثها وفقهها، وقد عمد جماعة من العلماء إلى جمع هذه الاحاديث في كتب تخصُّ حديث الزَّهراء، مثل موسوعة كلمات سيِّدتنا فاطمة الزَّهراء عليها السلام، إعداد مجموعه من العلماء في معهد باقر العلوم عليه السلام، منظمة الإعلام الإسلامي، وكذلك كتاب من فقه الزَّهراء عليها السلام، تأليف آية الله السيِّد محمَّد الشيرازيّ، والكتب التي تخصُّ أحاديث الزَّهراء عليها السلام كثيرة، ونحن في غِنَى عن ذِكرِها في هذا الموضع.

الشِّعر

الشِّعر لغةً: ورد الشِّعر في كتاب العين عن الخليل، قال: «والشِّعر القريض المحدَّد بعلامات لا يتجاوزها، وسمِّي شعرًا؛ لأنَّ الشاعر يفطن له بما لا يفطن له غيره من

(١) ينظر: الخلاصة في أصول الحديث، الطِّيبيّ: ٣٣.

معانيه، شعرٌ شاعرٌ، أي جيِّد، كما تقول: سبيٌ سابٌ، وطريقٌ سالكٌ، وإنَّما هو شعرٌ مشعور»[١].

أمَّا في مقاييس اللغة، فقد قال ابن فارس: «الشين والعين والراء، أصلان معروفان، يدلُّ أحدهما على نبات، والآخر على عِلم وعَلم.. الشعار: الذي يتنادى به القوم في الحرب، ليعرف بعضهم بعضًا، والأصل قولهم: شعرت بالشيء، إذا علمته وفطنت له، وليتَ شِعري قال قوم أصله من الشِّعرة كالدِّربة، والفطنة، يقال: شعرت شعره، قالوا سمِّي الشاعر؛ لأنَّه يفطن لما لا يفطن له غيره»[٢].

أمَّا اصطلاحًا: فلا يبعد المعنى الاصطلاحيّ عن المعنى اللغويّ، فهو «كلامٌ موزونٌ مقفًّى، وله معنى»[٣]. وقد ورد بأنَّه علم بفنون اللغة والأدب، فقد نُقِل عن الجرجانيّ أنَّه يقول: «أنا أقول أيَّدك الله: إنَّ الشِّعر علم من علوم العرب، يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء»[٤]. كذلك يعتبر الشِّعر سجلًّا لحوادث الأمم، فعبرَّوا عنه بديوان العرب؛ لما له من أهميَّة في حفظ مآثرهم وأيَّامهم، فيقول الجرجانيّ في دلائل الإعجاز: «الشِّعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب»[٥]. وبالمعنى نفسه يقول ابن عبَّاس: «الشِّعر ديوان العرب، فإذا خُفِي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله تعالى بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه»[٦].

أمَّا فائدته[٧]، فإنَّ الكلام إذا نُظِم صار أحسن من المنثور، وأصوَن من الابتذال، وإنَّ الشِّعر أسهل للحفظ، وقد أُجمِعَ على أنَّ المنثور من كلامهم أكثر، وأقل جيِّدًا محفوظًا،

(١) كتاب العين، الفراهيديّ، مادَّة (شعر): ٣٣٧.
(٢) مقاييس اللغة، مادَّة (شعر): ٥٠٦-٥٠٧.
(٣) نقد الشِّعر، قدامة بن جعفر: ٦٤.
(٤) الوساطة بين المتنبِّي وخصومه، الجرجانيّ: ١٥.
(٥) دلائل الإعجاز، الجرجانيّ: ٢٤.
(٦) الإتقان في علوم القران، السيوطيّ: ٨٤٧.
(٧) ينظر: العمدة في صناعة الشِّعر ونقده، ابن رشيق: ١/ ٥، ودلائل الإعجاز: ٢٩.

وإنَّ الشِّعر أقل، وأكثر جيِّدًا محفوظًا، وذلك لوجود الوزن والقافية. ويُنقَل أنَّ كلام العرب كان كلُّه منثورًا، فاحتاجت أن تتغنى بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذِكر أيَّامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسمحائه الأجواد لهزِّ نفسها إلى الكرم، وتدلُّ أبناءها إلى حسن الشِّيَم، فابتكروا أعاريض جعلوها موازينَ للكلم، فلمَّا تمَّ لهم وزنه، سمّوه شعرا؛ لأنَّهم شعره به، أي فطنوا له، وقيل أيضًا بنفس القضية ما تكلَّمت به العرب من جيِّد المنثور، أكثر ممَّا تكلمت به من جيِّد الموزون، فلم يُحفَظ من المنثور عِشرهُ، ولا ضاع من الموزون عِشره، وكذلك أنَّه ترسّل بين الماضي والحاضر، وفيه الحقُّ، والصدق، والحكمة، وفصل الخطاب، وفيه تقيَّد المعاني الشريفة، ينقل مكارم الأخلاق إلى الولد عن الوالد، ويؤدِّي وقائع الشرف عن الغائب إلى الشاهد، حتَّى ترى به آثار الماضين مخلَّدة في الباقيين، وعقول الأوَّلين مردودة في الآخرين.

ولمعرفة الزَّهراء عليها السلام بهذه الفائدة للشعر، فقد عمدت إلى كتابة مجموعة من الأبيات الشِّعرية لا بأس بها، واللافت للنظر أنَّ أغلب هذه الأشعار هي عبارة عن مراثٍ لأبيها صلى الله عليه وآله، وفقدٍ وشكوى ممَّا جرى عليها بعد وفاته من أخذ إرثها، والهجوم على بيتها، قائلة:

قد كان بعدك أنباءٌ وهنبثةٌ
لو كنت حاضرها لم تكثُر الخُطَبُ[1]

وكذلك قولها عليها السلام:

قل للمُغيَّب تحت أطباق الثرى
إن كنت تسمعُ صرختي ونِدائيا

(١) ديوان فاطمة الزَّهراء عليها السلام، صنعة وتحقيق د. كامل سلمان: ٢٣.

صبت علي مصائب لو انها
صبت على الايام صرن لياليا[1]

إنَّ مَن يطَّلع على أشعار الزَّهراءعليها السلام التي نُقِلت عن أكثر من سند، وتناثرت في بطون أمَّهات الكتب، وقد جمعها الدكتور كامل سلمان الجبوريّ بديوانٍ وحقَّقه، يجد أنَّ أغلبها كُتِبت بعد وفاه الرسولصلى الله عليه وآله، وتكثر فيها الشكوى من ظلمٍ قد وقع عليهاعليها السلام، فيكون بذلك إجابة لمن يسأل عن سبب نظمها بهذا الوقت بالتحديد، والشكوى من أيِّ شيء، وهذا هو القصد الذي أرادته الزَّهراءعليها السلام في جميع مرويَّاتها، وهو بيان مظلوميَّتها، والحَيف الذي وقع عليها من السلطة الحاكمة في تلك الفترة.

الحبك

الحبك لغة: يقول ابن فارس: «الحاء والباء والكاف أصل منقاس مطرد، وهو إحكام الشيء في امتداد واطراد»[2]. أمَّا في لسان العرب، فيقول ابن منظور: «والمحبوك: ما أُجِيد عمله. والمحبوك: المُحكم الخلق، قال: شيء أحكمته وأحسنت عمله، فقد أحبكته.. وجاد ما حبكه إذا أجاد نسجه. وحَبَكَ الثوب يَحْبِكُهُ يَحْبُكهُ حَبكًا أجاد نسجه وحسَّن أثر الصنعة فيه»[3]. إذًا المادَّة اللغوية تدور حول الإحكام والنسج، وهي قريبة جدًّا من المعنى الاصطلاحيّ لمعيار الحبك، إذ يكون نسج النصِّ محكمًا، وكلَّما كان نسجه محكمًا ومترابطًا، كان محبوكًا، وذلك لنسج عدَّة دلالات، وجعلها دلالةً واحدةً مشتركةً بالمعنى.

الحبك اصطلاحًا: إنَّ مصطلحات نحو النصِّ هي مصطلحات مترجَمة، وكما كان هناك تباين في ترجمة السَّبك على مستوى المصطلح لا المفهوم فقط،

(١) ديوان فاطمة الزَّهراءعليها السلام: ٥٨.
(٢) مقاييس اللغة، (حبك) ٢٧٥.
(٣) لسان العرب (حبك): ٣/ ٢٧.

كان هناك تباين في ترجمة مصطلح الحبك، ومن هذه الترجمات «التماسك، والانسجام، والتناسق، والتقارن، والتماسك الدلاليّ، والترابط الفكريّ، والالتحام، والتشاكل»[1]، وقد آثرنا مصطلح الحبك الذي استعمله الباحثان د. سعد مصلوح، ود. محمَّد العبد[2]، وذلك لحضور المصطلح في التراث العربّي النقديّ والبلاغيّ.

والحبك عرَّفه (دي بوجراند): «وهو يتطلَّب من الإجراءات ما تنشط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهوميّ واسترجاعه، وتشمل وسائل الحبك على العناصر المنطقيَّة كالسببيَّة، والعموم، والخصوص، معلومات عن تنظيم الأحداث، والأعمال والمواقف، السعي إلى التماسك فيما يتَّصل بالتجربة الإنسانيَّة، ويتدعَّم الحبك بتفاعل المعلومات التي يعرضها النصُّ مع المعرفة السابقة بالعالم»[3]. وهو أحد المعايير النصيَّة التي وضعها، والتي يجب توافرها في النصِّ. وقد عرَّفها الدكتور صبحي ابراهيم الفقي: «العلاقات التي تربط معاني الأقوال في الخطاب، أو معاني الجمل في النصِّ، وهذه تعتمد على معرفة المتحدِّثين لسياق المحيط بهم»[4].

أمَّا (دي بوجراند) فيرى أنَّ الحبك يكمل الربط اللفظيّ الذي أحدثه السبك بين عناصر النصِّ، فيهدف إلى الربط المعنويّ بينها، وكما يُقال: إنَّ السبك هو العلاقات الملفوظة الظاهرة الرابطة بين عناصر النصِّ، فإنَّ الحبك هو العلاقات الملحوظة غير الظاهرة، أي إنَّهما السبك والحبك مكمِّل أحدهما الآخر، فالحبك مكملٌ للسبك في فهم العلاقات على سطح النصِّ[5]. وممَّا تجدر الإشارة إليه أنَّ العلاقات في الحبك هي

(١) ينظر: معايير النصيَّة في شعر آل خليفة: ١٢٨-١٢٩.
(٢) ينظر: النصُّ والخطاب والاتِّصال، دكتور محمَّد العبد: ٧٠.
(٣) النصُّ والخطاب والإجراء: ١٠٣.
(٤) علم اللغة النصِّيّ بين النظريَّة والتطبيق: ٩٤.
(٥) ينظر: النحو وبناء الشِّعر في ضوء معايير النصيَّة في شعر الجواهريّ: ١٤٩.

على نوعَين، منها ما هو مقاليّ يتعلَّق بشكل النصِّ، ومنها ما هو مقاميّ يتعلَّق بخارج النص[١].

يمكن إيجاز أهميَّة الحبك بالآتي[٢]:

١. إنَّه يسهم في فهم النصِّ وتأويله، فغياب علاقات الحبك عن النصِّ قد تمثِّل عقبة في طريق المتلقِّي، فلا يُفهَم النصُّ، وتتشتَّت الجمل أمامه، مع كونها مترابطة نحويًّا.

٢. من خلال الحبك يظهر المعنى الصحيح لكلِّ عنصر من عناصر النصِّ.

٣. من خلال العلاقات في الحبك، يمكن ترجيح وجه معيَّن بعد أن كانت هناك وجوه متعدِّدة.

٤. يعطي حريَّة لمنشئ النصِّ في ترتيب عناصر النصِّ، أي إنَّ الحبك مدير لأمر الرتبة داخل النصِّ.

٥. له أهميَّة خاصَّة في حقل علم اللغة النصِّيّ، فهو النواة في تعريف النصِّ.

٦. يجعل المعلومات متَّصلة بعضها ببعض في إطارٍ نصِّيٍّ، أو موقفٍ اتِّصاليٍّ اتِّصالًا لا يشعر المستمعون أو القرَّاء فيه بثغرات أو انقطاع في المعلومات.

٧. يجعل المستمع أو القارئ مشاركًا في فهم النصِّ؛ لكونه حصيلة اعتبارات معرفيَّة (بنائيَّة) عند المستمعين أو القراء، فهو حصيلة تفعيلٍ دلاليّ، ينهض على ترابطٍ معنويّ بين التصوُّرات والمعارف.

٨. يختصُّ بالاستمراريَّة الدلاليَّة التي تتجلَّى في منظومة المفاهيم، والعلاقات الرابطة بينها، لذلك عُدَّ من العناصر الأساسيَّة في دراسة العلاقة بين النصِّ والسياق.

(١) ينظر: معايير النصِّ في شعر آل خليفة: ١٤٣.

(٢) ينظر: النحو وبناء الشِّعر في ضوء معايير النصيَّة في شعر الجواهريّ: ١٥٠

العلاقات

هي تلك العلاقات التي تربط عناصر النصِّ، وتربط أطرافه من خلال متواليات، أو بعضها، دون وسائل شكليَّة تُعتَمد في ذلك، ويُنظر إليها أنَّها علاقات دلاليَّة[1]، إذ إنَّ هذه العلاقات قد يرد بعضها في كتاب، ويرد بعضها الآخر في كتاب آخر من كتب اللسانيَّات، بيد أنَّ الدكتور جميل عبد المجيد قد جمعها في كتابه البديع بين البلاغة العربيَّة واللسانيَّات الحديثة[2]، نقلاً عن (أوجين نايدا)، مشيرًا إلى أنَّه عرضها عرضا مركَّزًا جيِّدًا، وقد قسَّمها الى:

أوَّلًا: علاقه الربط

١. الربط الأضافيّ (متكافئة، مختلفة):

أ. متكافئة: تشتمل على تعبيرَين (هو لم يمكث، وهو غادر)، فالعلاقة بين هذين التعبيرَين هي علاقه تكافؤ؛ لأنَّهما يقولان شيئًا واحدًا، ولكن في إشكال سطحيَّة مختلفة، وهذا ما عبَّر عن (دي بوجراند) بـ(إعادة الصياغة).

ب. مختلفة: وهي أكثر تعقيدًا، فقد تتضمن:

١. بنيات متوازية سواء لمشارك أو لمشاركين مختلفين مثل:

- لقد نحَّى المجلَّة جانبًا، وأخذ كتابًا.
- كانت تثرثر في المسرَّة، وهو كان يعمل في البدروم.

فهنا إضافة دلاليَّة مختلفة عن السابقة، فثمَّة أفعال أو أنشطة متوازية تصدر عن شخص واحد (تنحية المجلَّة، وأخذ الكتاب)، أو تصدر عن شخصَين مختلفَين (الثرثة، والعمل).

(١) ينظر: لسانيات النصِّ: ٢٦٨-٢٦٩.

(٢) ينظر: البديع بين البلاغة العربيَّة واللسانيَّات الحديثة: ١٤٢-١٤٧.

٢. بنيات معكوسة/ إذ يغدو العنصر، الذي لم يكن موضع تركيز في التعبير الأول، يغدو موضع تركيز في التعبير الثاني مثل

- هو دخل على الجاموس فجأة، وواحدة منها دفعته.

فقد كان التركيز في التعبير الأوَّل على (هو) في حين التعبير الثاني على (الجاموس)، ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الربط الإضافيّ المختلف يدخل فيما يُعرف بـ(الوصل)، ومن أهم أدواتها (الواو، وعلاوةً على ذلك، وأيضًا، وبالإضافة، وفوق ذلك).

٢. الربط الثنائيّ:

- العلاقات التقابليَّة: هي تربط بين طرفَين أو موقفَين أو حدَثين متقابلَين وأدواتها (لكن، ومع أن، ومع ذلك، وعلى النقيض، وغير ذلك)، ويدخل معها ما يُعرف بالربط العكسيّ.
- علاقات المقارنة: هي تقارن بين طرفَين أو حدثَين، وأدوات هذه العلاقة (أفضل من، والكاف، ومثل، وأفعل التفضيل في العربيَّة).
- إبداليَّة: وأهم أدواتها (أو)، وتكون بين الاختيار بين عنصرَين، وهذه العلاقة تدخل فيما يُعرف بـ(الفصل)، مثل: أتحدَّث معه أو كتب له رسالة.

ثانيًا: علاقه التبعيَّة (مؤهلة)

- التخصيص أو الإجمال.
- التفصيل.

وهي تعني إيراد معنى على سبيل الإجمال ثمَّ تفصيله أو تفسيره أو تخصيصه، مثل: كان أبوه بخيلًا جدًّا، فما كان لينفق ١٠ قروش لشراء البيبسي.

فالجملة الثانية تفصيل أو تفسير للجملة الأولى، وهذه العلاقة كثيرًا ما تقع بمستويات أعلى في النصِّ، كما تشكِّل الملمح الأساسيّ للخطاب التفسيريّ.

ثالثًا: الوصف

- وصف الكلِّ والجزء.
- وصف الكيفيَّة الحال التي وقع بها الحدث.
- المحيط والإطار.

١. المكان: جرى في المعسكر ثلاثة أميال.

٢. الزمان: أمس عمل هو ثلاث ساعات.

٣. الظرف: عندما سمع صوت سيارة الإسعاف، تنحَّى جانبًا.

رابعًا: العلاقات المنطقيَّة

السبب والأثر: ذهاب جون إلى نيويورك، تسبب له بمقابله ماري.

السبب والنتيجة: لأنَّ جون أراد مقابله ماري، فقد ذهب إلى نيويورك.

الوسيلة والنتيجة: بالذهاب إلى نيويورك، قابل جون ماري.

الشرط والجواب: لو كان جون ذهب إلى نيويورك، لكان قد قابل ماري.

المفترض والنتيجة: بما أن جون ذهب إلى نيويورك، فمن المؤكَّد أنَّه يقابل ماري.

الوسيلة والغرض: بالذهاب إلى نيويورك، لأجل أن يقابل ماري.

الأساس والتحقُّق: جون سافر إلى نيويورك، فقابل ماري.

وتمتاز هذه العلاقة بعدة أمور، أنَّها قابلة للتطبيق على جميع اللغات، حتَّى اللغات غير الشائعة، كذلك يمكن التعبير عن العلاقة بأكثر من أسلوب، فمثلًا علاقة المقارنة يمكن أن يعبَّر عنها بفعل يدلُّ على الأفضليَّة بدلًا من الأداة (أفضل من)، على أنَّ درجة

الوضوح في هذه العلاقات مختلفة من لغةٍ إلى أخرى، ممكن أن تدخل بنية معيَّنة من هذه العلاقات في أكثر من علاقة مع بنيات عديدة، وأخيرًا والأهم أنَّ هذه العلاقات قابلة للتطبيق على مستويات عديدة في بنية الخطاب، الجمل، والفقرات، والأجزاء، والفصول، والمجلَّدات[1].

ومن أهمِّ هذه العلاقات في مرويات الزَّهراء عليها السلام، هي:

لا يمكن لأيِّ نصٍّ أن يخلو من هذه العلاقات، وسيتم تناول هذه العلاقات مجتمعة في مجموعة من نصوص الزَّهراء عليها السلام، فمثلًا في رواية عمَّار بن ياسر (رضوان الله تعالى عليه) حين سألها عن الطيب بعد يوم زواجها من أمير المؤمنين عليه السلام، قالت: «**والله! لقد أتاني طيب مع جوار من الحور العين، وإنَّ فيهنَّ جارية حسناء كأنَّها القمر ليله البدر**»[2]، وهي علاقة ربط ثنائيّ تسمَّى (المقارنة)، إذ تقارن بين طرَفَين، وهما الطرف الأوَّل (الجارية الحسناء)، والطرف الثاني (القمر ليلة البدر)، إذ أسهمت في بناء الوصف داخل النصِّ[3]، وقد سمَّاها بعضهم بالعلاقة التمثيل؛ إشارة إلى عِظَم شأنها، وقد ورد الرابط اللفظيّ (الكاف) للدلالة على هذا التمثيل أو التشبيه، فمن خلال تصوُّر المتلقِّي لحالة القمر في ليلة البدر، يمكن أن يتصوَّر جمال تلك الجارية الحسناء التي لم يشاهدها، كذلك دور الضمير في الأداة، إذ يحيل إلى الجارية، وقد أسهم بالرَّبط أيضًا.

وفي رواية هجوم عمر على دار الزَّهراء عليها السلام، وبعد أن بويع لأبي بكر بالخلافة، وامتناع عليّ عليه السلام، إذ قالت: «**لا عهد لي بقوم اسوأ محضرا منكم، تركتم رسول الله صلى الله عليه وآله جنازة بين أيدينا، وقطعتم أمركم فيما بينكم، ولم تؤمِّرونا، ولم تروا لنا حقًّا، كأنَّكم لم تعلموا ما قال يوم غدير خمّ، والله لقد عقدَ له يومئذ الولاء؛ ليقطع منكم بذلك منها**

(١) ينظر: البديع بين البلاغة العربيَّة واللسانيَّات الحديثة: ١٤٧-١٤٨.

(٢) موسوعة كلمات فاطمة الزَّهراء عليها السلام: ١/ ٧٤.

(٣) ينظر: علم لغة النصِّ النظريَّة والتطبيق: ٢١٤.

الرجاء، ولكنّكم قطّعتم الأسباب بينكم وبين نبيّكم، والله حسيب بيننا وبينكم في الدنيا والآخرة»[1]. في هذا النصِّ المبارك وردت علاقة المقارنة من خلال أداة الربط (كأنَّ) فقد شبَّهت الزَّهراء عليها السلام حالهم في أخذ الخلافة بعد أن عهد بها الرسول يوم غدير خمّ وعلمهم بها ومعرفتهم، بمن لا يعلم، وفيه استنكار عليهم، كذلك وردت علاقة الربط المقارن من خلال الأداة (لكن)، وهو ربط معكوس يشارك به طرفان، الطرف الأوَّل «**عقد له الولاء؛ ليقطع منكم بذلك الرجاء**»، والطرف الثاني: «**قطّعتم الأسباب بينكم وبين نبيّكم**»، فقد ربطت الأداة- مع إحالة الضمائر- طَرَفي الكلام، برغم اختلاف الجمل، إذ يكون الربط بين أشياء تبدو متضاربة، وهذا ما يُعرَف بالربط المنعكس[2]، كذلك توجد علاقة الربط الثنائيّ (المقارنة) من خلال فعل التفضيل (أسوأ)، إذ قارنت بينهم وبين عامَّة الناس من خلال (أفعل) التفضيل، ولم تجد من هو اسوأ محضرًا منهم، كذلك تواجد العلاقة المنطقيَّة، وهي علاقة (الوسيلة والغرض)، في قولها: «**لقد عقد له يومئذ الولاء**»، وهي وسيله واضحة، والغرض هي جملة «**ليقطع منكم بذلك منها الرجاء**»، والرابط هو (لام التعليل)، وهي من علاقات السبب والنتيجة.

أمَّا في قولها عليها السلام، بعد أن اقتحم عمر ومن معه الدار، فقالت: «**والله لتخرجنَّ أو لأكشفنَّ شَعرِي ولأعجنَّ إلى الله**»[3]، وفيها علاقة إبداليَّة، وهي نوع من أنواع الربط الثنائيّ، فقد ربطت بين موقِفَين: (الخروج) أو (اكشف رأسي للدعاء)، ولولا الرابط (أو)، لم يكن هناك ربط بين الجملتَين، لكن الرابط (أو) أعطى معنى التخيير.

وقد ورد في رواية، لـمَّا أراد أبو بكر انتزاع فدك من يد فاطمة، قالت له: «**أليست في يدي، وفيها وكيلي، وقد أكلتُ غلَّتها ورسول الله صلى الله عليه وآله حيّ**. قالا: بلى.

قالت: **فلما تسألاني على ما في يدي؟**.

(١) موسوعة كلمات فاطمة الزَّهراء عليها السلام: ١/ ٣٩٤.
(٢) ينظر: البديع بين البلاغة العربيَّة واللسانيَّات الحديثة: ١٤٥.
(٣) موسوعة كلمات فاطمة الزَّهراء عليها السلام: ١/ ٣٩٨.

قالا: لأنَّها فيء المسلمين، فإن قامت بيِّنة، وإلَّا لم نُمضِها.

قالت لهما والناس حولهما يسمعون: **أفتريدان أن تردا ما صنع رسول الله ﷺ وتحكما فينا خاصَّة بما لم تحكما في سائر المسلمين، أيُّها الناس اسمعوا ما ركباها.** ثمَّ قالت: **أرأيتما إن ادَّعيت ما في أيدي المسلمين من أموالهم، أتسالونني البيِّنة أم تسالونهم؟** قالا: بل نسألك. قالت: **فإن ادَّعى جميع المسلمين ما في يدي، تسألونهم البيِّنة أم تسألونني؟**.

فغضب عمر وقال: إنَّ هذا فيء المسلمين وأرضهم، وهي في يدي فاطمة تأكل غلَّتها، فإن أقامت بيِّنة على ما ادَّعت أنَّ رسول الله ﷺ وهبها لها من بين المسلمين، وهي فيئهم وحقهم، نظرنا في ذلك. فقالت: **حسبي أنشدكم بالله أيها الناس! أما سمعتم رسول الله ﷺ يقول: إنَّ ابنتي سيِّدة نساء أهل الجنَّة؟** قالوا: اللهمَّ نعم قد سمعناه من رسول الله ﷺ. قالت: **أ فَسيِّدة نساء أهل الجنَّة تدَّعي الباطل وتأخذ ما ليس لها؟ أرأيتم لو أنَّ أربعة شهدوا عليَّ بفاحشة، أو رجلان بسرقة، أكنتم مصدِّقين عليَّ؟** فأمَّا أبو بكر فسكت، أمَّا عمر فقال: نعم ويوقَع عليك الحدّ. فقالت: **كذبت ولؤمت إلَّا أن تقرَّ أنَّك لست على دين محمَّد ﷺ، إن الذي يجيز على سيِّدة اهل الجنة شهادة أو يقيم عليها حدًّا لملعون كافر بما أنزل الله على محمَّد ﷺ، لأنَّ من أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيرًا لا تجوز عليهم شهادة؛ لأنَّهم معصومون من كلِّ سوء، مطهَّرون من كلِّ فاحشة، حدِّثني يا عمر مَن أهل هذه الآية، لو أنَّ قوما شهدوا عليهم، أو على أحدٍ منهم بشركٍ، أو كفرٍ، أو فاحشةٍ، كان المسلمون يتبرَّون منهم أو يحدُّونهم؟** قال: نعم، وما هم وسائر الناس إلَّا سواء. قالت: **كذبت وكفرت، ما هم وسائر الناس في ذلك سواء؛ لأنَّ الله عصمهم وأنزل عصمتهم وتطهيرهم وأذهب عنهم الرجس، فمن صدَّق عليهم فإنَّما يكذِّب الله ورسوله.**

فقال أبو بكر: أقسمت عليك يا عمر! لما سكت»[1].

(١) موسوعة كلمات فاطمة الزَّهراء عليها السلام: ١/ ٤١٠-٤١٢.

لقد ورد الكثير من العلاقات الدلاليَّة في هذه الرواية، ومن أهمِّها علاقة السؤال والحوار بدءًا من جملة «**أليست في يدي؟**»، وجوابها «بلى»، وجملة «**فلِمَ تسألاني البيِّنة**»، وجوابها «لأنَّها في يء المسلمين»، وجملة «**أفتريدان أن تردا..**»، وهنا لا يوجد جواب وذلك لقوَّة الحجَّة لدى الزَّهراء عليها السلام، وهو أسلوب حجاجيّ بحت واضح من قوَّة الحجج، وقد أفاد هذا الحوار داخل النصِّ، وجعله متماسكًا دالًّا، فعدم الجواب يجعل القارئ يتوصَّل إلى حقيقة أحقيَّة الزَّهراء بما طالبت به، ثمَّ تعود لأسلوب الاستفهام، لتوليد حوار جديد، فتسأل: «**أرأيتما إن ادَّعيت ما في أيدي المسلمين أتسألوني البيِّنة أم تسألونهم؟**»، وقد تساءلت عليها السلام بحرف الاستفهام الهمزة؛ لما يجمعه في التصوير والتصديق في الاستفهام، ولصغره أيضًا، فكان الجواب «بلى نسألك»، لتردَّ جوابهم بسؤال آخر معاكس للسؤال الأوَّل: «**فإن ادَّعى المسلمين ما في يدي، أتسألونهم البيِّنة أم تسألوني؟**»، وهنا يتملَّص من الجواب، ويُظهر ثوبه الحقيقيّ، ويراوغ بالإجابة بعكس السؤال الأوَّل الذي دحضت به قاعدتهم، فالبيِّنة على من ادَّعى وليس على من ادُّعيَ عليه، وإنَّ فدك كانت بيد الزَّهراء عليها السلام، ثمَّ ترجع إلى الحوار مع مزيد من الحجج، فلولا الحوار لما استطاعت أن تقيم عليهم هذه الحجج، وتسال مجدَّدًا: «**أما سمعتم رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنَّ ابنتي سيِّدة نساء أهل الجنَّة؟**»، فيكون الجواب «اللهمَّ نعم»، وهذا إقرار من جميع الحضور، ليكون ردّها عليها السلام: «**أفسيِّدة نساء أهل الجنَّة تدَّعي الباطل؟**»، ثمَّ تصعِّد الحجاج بالحوار وتستغل سكوت الطرف الآخر، وتقول بسؤال جديد وفرض حجَّة جديده أقوى من السابقة: «**أرأيتم لو أنَّ أربعة شهدوا عليَّ بفاحشة، أو سرقة أكنتم مصدِّقين عليَّ؟**»، ليعجز أبو بكر عن الجواب، ويتعجَّل عمر بالإجابة فيقول: «نعم ونقيم عليك الحدّ». ومن خلال هذا الجواب تنطلق عليها السلام لإثبات كذبه ولؤمه، لمخالفته قول الله عزَّ وجلَّ فيها إنَّها طاهرة من الرجس والدنس، ثمَّ تثبت نتيجة نهائية من خلال ذلك، وتسأل «**مَن أهل هذه الآية؟**» وتقول: «**لو أنَّ قومًا شهدوا عليهم أو على أحد منهم بفاحشة أو بشرك أو بكفر كان**

المسلمون يتبرَّؤون منهم ويحدُّونهم»، فيجيبها قائلًا: «نعم وما هم وسائر الناس في ذلك إلَّا سواء»، فتثبت كفره ومخالفته لله ﷻ ولكتابه الشريف قائلة: «**كذبت وكفرت**»، وهي نتيجة أشدُّ من النتيجة السابقة «**كذبت ولؤمت**»، ثمَّ تبيِّن ما وقع فيه من خلل أمام الحاضرين، وهو ردُّ شهادة الله ﷻ بحقِّها، وقبول شهادة البشر، وذلك لأنَّ الله ﷻ قال بعصمتهم وأذهب عنهم الرجس، فمن صدَّق عليهم، فهو يكذِّب الله ورسوله.

أمَّا العلاقة الثانية، وهي العلاقة المنطقيَّة، فحين سؤالها عن أخذ فدك منها، كان الجواب «لأنَّها فيء المسلمين»، وهذه علاقه منطقيَّة (النتيجة والسبب)، فقد أخذ منها فدك، كذلك في قولها «من يقم حدًّا عليها لملعون كافر بما أنزل الله على محمَّد ﷺ»، وهذه نتيجة، وسببها هو «لأنَّ من أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيرًا لا تجوز عليهم شهادة»، وكذلك «لا تجوز شهادة» لماذا وهي نتيجة، والسبب «لأنَّهم معصومون من كلِّ سوء، مطهَّرون من كلِّ فاحشة»، وكان الرابط في جميع هذه العلاقات المنطقيَّة (السبب والنتيجة) هو (لأنَّ)، وهي اداة تربط بين حدثين أو عنصرين يكون أحدهما نتيجة، والآخر سببًا لها.

أمَّا علاقه الشرط والجواب، فتتداخل تلك العلاقات مع علاقات أخرى، فتضفي على النصِّ التنوُّع والاستمراريَّة لوجود جملة (فعل الشرط)، وجملة (جواب الشرط)، وأهمّ أدواتها (لو، إن، لولا، إذا)[1]. وقد وردت في الرواية في (فإن أقمت البيِّنة)، وهي جملة فعل الشرط، والجواب (وإلَّا لم نمضها)، وعند تفكيك (إلَّا) تكون (إن) مع (لا)، وتقدير الكلام أن لا تقيمي بيِّنة لم نمضها، فالرابط (إن) قد ربطت جملَتين ليس بينهما علاقة عدا علاقة الربط التي حقَّقها الرابط (إن)، كذلك ورد في جملة (إن ادَّعيت..)، وهي جملة (فعل الشرط)، أمَّا جملة (جواب الشرط) (أتسألونهم البيِّنة أم تسألوني)، وإن الجملتَين ليس بينهما علاقة، بيد أن الرابط (إن) قد جعل بينهما علاقة الشرط، إذ

(١) ينظر: علم لغة النصِّ النظرية والتطبيق: ٢١٢.

تكون أحدها شرطًا لوجود الأخرى، وكذلك جملة (أن ادَّعى المسلمون)، وجوابها (أتسألونهم البيِّنة أم تسألوني)، وهي نفس الجملة السابقة، بيد أنَّ عناصرها معكوسة، ومن خلال انعكاسها أدَّت إلى علاقة أخرى، وهي علاقة التقابل بين الجملَتين، كذلك الرابط (لو)، إذ ربط بين جملتَين، الأولى (أرأيتم لو أنَّ أربعة شهدوا عليَّ)، فالرابط (لو) ربط هذه الجملة بجملة أخرى (أكنتم مصدِّقين عليَّ)، وقد استخدمت الأداة (لو)، لأنَّها أداة امتناع لامتناع، وهي بذلك تقول: إنها مبرأة من الفاحشة والسرقة، فقد ربط الرابط (لو) بين جملتَين لم يكن بينهما علاقة لا من قريب ولا من بعيد، وكذلك علاقة البديل (التخيير)، وهي من علاقات الانفصال في النصِّ التي تفيد التخيير بين معنَيَين، وتعبِّر عنها الروابط (أو، أم)[1]. ففي قولها (أتسألوني البيِّنة أم تسألوهم)، فالرابط (أم) أفاد معنى البديل أو التخيير بين سؤال الزَّهراء عليها السلام أو سؤال جميع المسلمين، كذلك في جملة (أتسألونهم البينة أم تسألوني)، وهو أيضًا تبادل أو تخيير بين أمرَين، كذلك الرابط (أو) ربط بين جملتَين، جملة (أربعة شهدوا عليّ)، وجملة (رجلان بسرقة)، وهنا تخير الزَّهراء بين قضيَّتين تعدَّان من الكبائر في الإسلام، ولا بدَّ من العقاب، وإقامة الحدِّ فتخيِّرهم بين أحد الفرضَين، فإن أقاموا الأوَّل تركوا الثاني، وإن أقاموا الثاني تركوا الأوَّل، وقد وردت علاقة الاستثناء، وهي من العلاقات الدلاليَّة التي تستخدم في بناء الخطب والوعظ، وأهم أدواتها (إلَّا، سوى، لكن، غير، أن)[2]، وقد وردت أيضًا في الرواية كذبت ولؤمت إلَّا أن تقرَّ أنَّك لست على دين محمَّد صلى الله عليه وآله، فالرابط (إلَّا) يبيِّن سبب قولها (كذبت ولؤمت)، فقوله السابق (كذبٌ ولؤمٌ)، إذا قاله مسلم، أمَّا إذا قاله غير مسلم فممكن قوله، فالاستثناء هنا لبيان سبب عدم هذا القول فهو لا يمكن أن يخرج إلَّا من رجل لم يعرف الإسلام والقرآن الكريم.

(١) ينظر: علم لغة النصِّ النظريَّة والتطبيق: ٢١٤.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢١٢.

أمَّا علاقة الربط الإضافيّ (التكافؤ) التي عبَّر عنها (دي بوجراند) بإعادة الصياغة، «أي إعادة تكرار المحتوى مع تغيير التعبير»[1]، فقد لاحظناها في حديثها مع أبي بكر بعد أن وردها أنَّه قبض فدك فخرجت في نساء بني هاشم حتَّى دخلت على أبي بكر، فقالت: «**يا أبا بكر: تريد أن تأخذ منِّي أرضًا جعلها لي رسول الله**ﷺ، **وتصدَّق بها عليَّ من الوجيف الذي لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أمَا كان رسول الله**ﷺ **قال: المرء يُحفظ في ولده، وقد علمت أنَّه لم يترك لولده شيئا غيرها**»[2]. فقد قالت عليها السلام «**أرضًا جعلها**»، ثمَّ عطفت عليها جملة «**وتصدَّق بها عليَّ**»، وهي نفس المعنى، ولكن التعبير السطحيّ مختلف، ثمَّ عادت لتقول «**وقد علمت أنَّه لم يترك لولده غيرها**»، وهي تكاد تكون نفس التعبيرَين السابقَين من حيث المعنى، وهي أنَّ فدكًا ملك للزَّهراء عليها السلام، فهي (الجعل والصدقة والتركة)، وفي جميع الأحوال تثبت عائديتها إلى الزَّهراء عليها السلام.

أمَّا علاقة الوصف، فقد ورد في رواية قبضها عليها السلام «.. ورأينا أنَّها قد فتحت عينيها فتحًا شديدًا، وقالت: **يا ابن عمّ هذا والله الحقّ، هذا هو عزرائيل قد نشر جناحه بالمشرق والمغرب، وقد وصفه لي أبي هذه صفته**»[3]، فقولها عليها السلام «**هذا والله الحقّ**» هو وصف، و بعده بيان الهيئة، إذ تبيِّن وصفه، وهي أيضًا علاقه الجزء بالكلِّ، فجناحه جزء من عزرائيل.

وأمَّا علاقة الإجمال والتفصيل، ففي رواية طلبها حنوطها قبل وفاتها، قالت: «**إنَّ جبرائيل أتى النبيّ**ﷺ، **لمَّا حضرته الوفاة، بكافور من الجنَّة، فقسَّمه ثلاثة: ثلث لنفسه، وثلث لعليّ، وثلث لي، وكان أربعين درهمًا**»[4]، فقد أجملت في قولها «**قسَّمه ثلاثة**»، ثمَّ فصَّلت في هذه إلى ثلاثة، فثلث لنفسه، وثلث لعلي، وثلث لها، وهو تفصيل لما تمَّ إجماله سابقًا.

(١) ينظر: البديع بين البلاغة العربيَّة واللسانيَّات النصيَّة: ١٤٤.
(٢) موسوعة كلمات فاطمة الزَّهراء عليها السلام: ١/ ٣٨٥.
(٣) المصدر نفسه: ٥٠٦.
(٤) المصدر نفسه: ٥٠٧.

البنية الكبرى

ظهر مصطلح البنية الكبرى على يد العالم الهولندي فان دايك؛ إذ عمد إلى نقل مصطلَحين من مجال النحو التوليديّ التحويليّ إلى مجال علم لغة النصِّ، ثمَّ طوَّره في أعماله التالية، ليؤكِّد الشروع في وضع نظريَّة لغويَّة نصيَّة تؤسِّس للعمل بالبنيات الكبرى الشاملة، مؤكِّدًا أنَّه أمر يتجاور نطاق النحو والنظريَّة اللسانيَّة العامَّة، ويصل إلى منطقة الخطاب(١)، وقد عرَّف فان دايك البنية الكبرى: «وهي بنية تجريديَّة كامنة تمثِّل منطق النصِّ»(٢)، ويقصد بالتجريديَّة أنَّها غير ملموسة بشكل مباشر في النصِّ، بل تحتاج إلى قراءة فاحصة لمضامين النصِّ، فهي ليست قواعد عرفيَّة كالأبنية العليا، فالأبنية الكبرى عبارة عن تصوُّرات دلاليَّة، فالقارئ لنصٍّ من نصوص لا يمكنه أن يصل إليها إلَّا بعد قراءة فاحصة للنصِّ(٣)، وقد نقل فان دايك المصطلَحين من مصطلَحين معاصرَين آنذاك في النحو التوليديّ التحويليّ، ونظرًا لتطوُّر النظريَّة اللسانيَّة وحاجتها إلى مصطلحات جديدة تعبِّر عن الرؤية الجديدة في هذه النظرية، فقد نقل مصطلح البنية العميقة التي تمثِّل الأساس المجرَّد للجملة، في حين تمثِّل البنية السطحيَّة الجانب المادِّيّ منها، من هنا كانت البنية العميقة للجملة منطلقًا منهجيًّا نحو بنية للمعنى أوسع وأشمل أطلق عليه البنية الكبرى، أمَّا البنية السطحيَّة فقد كانت أساسًا لبنية أخرى تظهر في سطح النصِّ سمَّاها (البنية العليا)(٤)، ويرى فان دايك أنَّ الجمل أو متواليات الجمل لا تكشف عن الوصف الدلاليّ، فهي غير مناسبة من دون توضيح الأبنية المجرَّدة التي تحتويه أو تشكل أساسًا له، فالتواصل لا يتحقَّق بين مستخدمي اللغة على أساس الجمل، وانَّما يتحقَّق

(١) ينظر: مصطلحا البنية الكبرى والبنية العليا، مجلَّة كليَّة التربية للبنات للعلوم الإنسانيَّة، العدد ١٨، السنه العاشرة، ٢٠١٦، الدكتور خالد توفيق: ٣٧٠.
(٢) علم لغة النصِّ المفاهيم والاتِّجاهات، سعيد بحيري: ١٢٤.
(٣) ينظر: الترابط النصِّيّ في ضوء التحليل اللسانيّ للخطاب، خليل البطاشيّ: ١٢٣.
(٤) ينظر: مصطلحا البنية الكبرى والبنية العليا: ٣٧٠.

على أساس النصوص في الأغلب، وهو يرى أنَّ النصَّ ممكن أن يكون جملة واحدة أو كلمة واحدة[١].

إنَّ طرق الوصول إلى البنية الكبرى التي اقترحها فان دايك تختلف عمَّا هي عليه في النحو التحويليّ التوليديّ، فقد كان المعيار القضويّ الذي أقيمت عليه قواعد السعي نحو البنية الكبرى، وإنَّ هذه القضيَّة سواء أكانت مفردة أم واردة في سلسلة من القضايا الجزئيَّة هي البؤرة المركزيَّة التي ينطلق منها المتلقِّي للوقوف على البنية الكبرى، وقد اشترط أنَّ لا تكون هذه القضايا ذات منحنى واسع دائمًا من امتداده أفقيًّا في سلاسل من الجمل المتجاورة أو عموديًّا من خلال تراكمه في فقرات متعاقبة وقضايا متوالية، ففي بعض الأحيان يساوي المستوى الأصغر في البناء النصِّيّ مع المستوى الأكبر حينما يكون النصُّ عبارة عن جمل قليلة، وقد تصل إلى أدنى مستوياتها، وهي الجملة الواحدة[٢].

وقد أشار أيضًا إلى دور المتلقِّي في فهم البنية الكبرى، وذلك من خلال تذكُّره للقضايا في الخطاب، واستنتاجها في المستوى الإدراكيّ للمتلقِّي، هو ما يحدد البنية الكبرى، فقد تكون لنفس النصِّ أكثر من بنية عند أكثر من متلقٍّ لاختلاف مستواهما الادراكيّ[٣]، وإنَّ هناك عمليَّات يسلكها القارئ (المتلقِّي) لبناء البنية الكليَّة، وتسمَّى أيضًا قواعد البنية الكبرى، وهي[٤]:

١. **عمليَّة الحذف**: وتندرج تحتها قاعدة عدم إمكان حذف قضيَّة تفترضها قضيَّة

(١) ينظر: علم لغة النصِّ المفاهيم والاتِّجاهات: ١٢٤.

(٢) ينظر: مصطلحا البنية الكبرى والبنية العليا: ٣٧١-٣٧٥.

(٣) ينظر: النصُّ والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلاليّ والتداوليّ، فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني: ٢١٥-٢١٦.

(٤) ينظر: علم لغة النصِّ، مدخل متداخل الاختصاصات، فان دايك، ترجمة: سعيد بحيريّ: ٨٣، والسبك والحبك في أدعية السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: ١٥٧-١٥٨، ولسانيَّات النصِّ: ٤٤-٤٥

لاحقة، وهي قاعدة تضمن الإنشاء الدلاليّ الجيِّد للبنية الكليَّة، فكلُّ معلومة غير مهمَّة أو غير أساسيه تُحذَف.

٢. **عمليَّة الاختيار**: وتتعلَّق بطرح بعض المعلومات، والإبقاء على بعض العناصر التي تتَّصل بالقضيَّة الأساسيَّة.

٣. **عمليَّة التعميم**: تتعلَّق بتحويل المادَّة إلى تصوُّر أكثر عموميَّة، وفيها تحدث المكوِّنات الأساسيَّة لتصوُّر ما، وتحلُّ من خلال ذلك قضيَّة جديدة محلَّ قضيَّة قديمة.

٤. **عمليَّة التركيب**: وتتعلَّق بخلق مادَّة جديدة لعرض التمثيل الدلاليّ بصورة أكثر تماسكًا «كلُّ تتابع قضويّ، تَسِمُ شروطًا عاديَّة، ومكونات، ونتائج، وخواص، وما أشبه لحال لغويَّة أشمل، تحلُّ محلّه قضيَّة، تَسِمُ هذه الحالة الشاملة»[١].

ومن هذه العمليَّة الأخيرة، يمكن إنتاج كمّ من التصوُّرات، وهذا ما يشابه النحو التوليديّ التحويليّ، وهو قدرة المنتج إنتاج كمٍّ غير محدود من الجمل، و«لا شكَّ أنَّ هذه الأفكار تبيِّن بجلاء ذلك التأثير العميق بالنحو التحويليّ التوليديّ»[٢]، وقد وسَّع فان دايك التحويلات لوصف تلك العمليَّات المعرفيَّة التي تنتج النصوص، وأدخل في نظريَّاته عناصر مهمَّة تتعلَّق: «بمستوى المنتج، مستوى المتلقِّي، اختلاف المعارف، الاهتمامات، أشكال الاتِّصال، عمليَّات التلقِّي، التذكُّر، التماسك الجزئيّ، التماسك الكلِّيّ للنصِّ، أشكال الانحراف، والتتابع الخطِّيّ للجمل، العلاقات الداخليَّة بين المتتاليات الجمليَّة، الترابط بين الأبنية الصغرى والأبنية الكبرى، كيفيَّة تخزين

(١) التحليل اللغويّ للنصِّ مدخل إلى المفاهيم الأساسيَّة والمناهج، كلاوس برنكر، ترجمة: سعيد بحيريّ: ٨٠.

(٢) علم لغة النصِّ المفاهيم والاتجاهات: ١٣١.

المعلومات واسترجاعها، وأوجه الفرق بين عمليَّات الذاكرة قصيرة المدى، وعمليَّات الذاكرة طويلة المدى في علم النفس المعرفيّ طرف الفهم التفسير، وغيرها من العناصر التي تبرز تداخل علم النصِّ مع علوم أخرى»[1]، أمَّا وظيفة القواعد الكبرى الرئيسة باتت فاعليَّتها «في إيصال المتلقِّي إلى تحديد الموضوع الرئيس للنصِّ، ومن قبل ذلك تحديد البنيه الكبرى»[2].

البنية الكبرى في وصيَّة الزَّهراء عليها السلام

إنَّ رصد البنية الكبرى في مرويَّات الزَّهراء عليها السلام جميعها أمر بالغ الصعوبة، ويحتاج إلى الكثير من الوقت والجهد، ولكن سنتناول وصيَّة الزَّهراء نموذجًا لرصد البنية الكبرى من خلاله، ولا بدَّ أن نشير إلى أنَّ هذه الوصيَّة هي الوصيَّة التمليكيَّة، وليس العهديَّة، فقد سبق أن تناولنا الوصيَّة العهديَّة في معيار السبك، وقد ورد نصُّ الوصيَّة العهديَّة في عدَّة كتب من كتب الرواية والتاريخ والحديث، بيد أنَّنا آثرنا نقلها عن كتاب قراءات في وصيَّة الزَّهراء عليها السلام؛ كونه كتابًا محقَّقًا، وقد نقلها بصورَتَين، الأولى: «**بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصت به فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله أوصت وهي تشهد أنَّ لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدا عبده ورسوله، وأنَّ الجنَّة والنار حقّ، وأنَّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور، يا عليّ أنا فاطمة بنت محمَّد زوَّجني الله منك لأكون لك في الدنيا والأخرة، أنت أولى بي من غيري، حنِّطني، وغسِّلني، وكفِّنِّي، وصلِّ عليَّ، وادفِّني بالليل، ولا تُعلِم أحدًا، وأستودعك الله واقرأ على ولديَّ السلام إلى يوم القيامة**»[3]، وقد صرَّحت عليها السلام في هذا النصِّ في كلماتها الأولى بقولها «**هذا ما أوصت به**» ويمكن أن يعدُّ هذا هو موضوع النصّ كونه وصيَّة، وقد اشتمل هذا النصُّ على مجموعة

(١) ينظر: علم لغة النصِّ المفاهيم والاتجاهات: ٨٣-٨٤.

(٢) مصطلحا البنية العليا والبنية الكبرى: ٣٧٨.

(٣) قراءات في وصيَّة الزَّهراء عليها السلام: ٩٩-١٠٠.

بنى عليا ترابطت فيما بينها لتكون البنية الكبرى للنصِّ، وأهمّ هذه البنى العليا:

١. بنية اعتقادها عليها السلام: فقد صرَّحت بمجموعة متوالية من القضايا لتشكِّل هذه البنية العليا، فالقضية الأولى «**أنَّها تشهد أنَّ لا إله إلَّا الله**»، والقضيَّة الثانية «**وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله**»، والقضيَّة الثالثة «**وأنَّ الجنَّة والنار حقّ**»، والقضيَّة الرابعة «**وأنَّ الساعة آتية لا ريب فيها**»، والقضيَّة السادسة «**أنَّ الله يبعث مَن في القبور**». وتترابط هذه القضايا من خلال الرابط «الواو»، ولولا وجود هذا الرابط لم يتشكَّل الربط السطحيّ بينها ليشكِّل هذا الربط سلسلة متوالية من القضايا التي تمثِّل المعتقد الإسلاميّ الإيمان بالله التوحيد والإيمان بالرسول والنبوَّة والإيمان بيوم القيامة، والإيمان بالنشر، والإيمان بالبعث، وقد شكَّلت هذه المتوالية من القضايا بنية عليا، وهي المعتقد الدينيّ للزَّهراء عليها السلام.

٢. البنية العليا الثانية: «صلة قربها من أمير المؤمنين عليه السلام»، وتشكِّل هذه البنية مجموعة من القضايا، القضيَّة الأولى «**زوَّجني الله منك**»، فهو زوجها، ولكون المؤمن يُجمَع بزوجته المؤمنة يوم القيامة، فقد قالت بعدها بالقضيَّة «**لأكون لك في الدنيا والآخرة**»، وهذه القضيَّة يمكن الاستغناء عنها حسب قاعدة الحذف والتعميم قواعد البنية الكبرى، ويمكن استنتاج مجموعة جديدة من التصوُّرات من خلالها، وهي ما يجمعها من المودَّة، والرحمة، والستر، والقضيَّة الثانية في هذه البنية العليا هي «**أنت أولى بي من غيري**»، وهو إقرار منها عليها السلام لأمير المؤمنين بأنَّه الولي عليها، وأنَّه ولي زمانها عليه السلام، وبالتأكيد فعلاقة «الزوج» تفرُق عن علاقة «وليّ الأمر»، فعلاقة الوليّ أشمل وأكثر اهتمامًا وطاعةً.

٣. البنية العليا الثالثة: «موضوع الوصيَّة»، وتبدأ بالقضيَّة «**حنِّطني**»، والقضيَّة الثانية «**غسِّلني**»، والقضيَّة الثالثة «**كفِّنِّي**»، والقضيَّة الرابعة «**صلِّ عليَّ**»،

والقضيَّة الخامسة «**ادفنّي بالليل**»، والقضيَّة السادسة «**لا تُعلِم أحدًا**»، هذه القضايا تشكِّل سلسلة من المتواليات يربط بينها الرابط «الـواو» لتشكِّل بنية عليا يمكن تصوُّرها بقضيَّة جديدة «هي كيفيَّة تجهيزها إلى مأواها الأخير».

٤. البنية العليا الرابعة: «وداعها لأهل البيت»، وتشكِّل هذه البنية العليا قضيَّتَين متواليَتَين، القضيَّة الأولى «**أستودعك الله**»، والقضيَّة الثانية «**واقرأ على ولديَّ السلام إلى يوم القيامة**»، وإنَّ الربط بينهما يشكِّل بنية عليا، هي وداع أهل بيتها عليها السلام.

إنَّ الربط الـدلاليّ بين هذه المتواليات (القضايا) والربط بينها بالرابط الدلاليّ «الـواو»، قد نتج عنه بنية كبرى، وهي نفس وصيَّة الزَّهراء عليها السلام، وقد عبَّر عن هذا محمَّد خطَّابي حين قال إنَّ هذه الأخيرة البنية الكليَّة لا تختلف عن مفهوم موضوع الخطاب[1].

أمَّا الصورة الثانية للوصيَّة، فهي: «**بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتبت فاطمة بنت محمَّد صلى الله عليه وآله في مالها، إن حدث لها حادث، تصدَّقت بثمانين أوقية تُنفَق عنها من ثمارها التي لها، كلّ عام في رجب، بعد نفقة السقي ونفقة العمل، وإنَّها أنفقت أثمارها العام، وأثمارها القمح عامًا قابلًا في أوان غلَّتها، وإنَّها أمرت لنساء محمَّد أبيها صلى الله عليه وآله خمسة وأربعين أوقيَّة، وأمرت لفقراء بني هاشم وبني عبد المطَّلب بخمسين أوقيَّة، وكتبت في أصل مالها في المدينة، أنَّ عليًّا عليه السلام أن تولِّيه مالها، فيجمع مالها إلى مال رسول الله صلى الله عليه وآله، فلا تفرَّق، ويليه ما دام حيًّا، فإذا حدث به حادث دفعه إلى ابنيَّ الحسن والحسين فليليانه، وإنَّي دفعت إلى عليّ بن أبي طالب على أنِّي أحلِّله فيه، فيدفع مالي، ومال محمَّد صلى الله عليه وآله، ولا يفرق منه شيئًا، يقضي عنِّي من أثمار المال ما أمرت به وما تصدَّقت به، فإذا قضى الله**

(١) لسانيَّات النصِّ: ٤٤.

صدقتها وما أمرت به، فالأمر بيد الله تعالى، وبيد عليّ عليه السلام يتصدَّق وينفق حيث يشاء، لا حرج عليه، فإذا حدث به حدث دفعه إلى ابنيَّ الحسن والحسين صلى الله عليه وآله المال جميعًا، مالي ومال محمَّد صلى الله عليه وآله، ينفقان ويتصدَّقان حيث شاء، ولا حرج عليهما، وإنَّ لابنة جندب - يعني بنت أبي ذر الغفاريّ- التابوت الأصغر (الأصفر)، والزريبة، والقطيفَتين، وإن حدث بأحد ممَّن أوصيت له قبل أن يُدفَع إليه فإنَّه يُنفَق عنه في الفقراء والمساكين، وإنَّ الأستار لا يستر بها امرأة إلَّا احدى ابنتَيَّ، غير أنَّ عليًّا يستر بهنَّ إن شاء ما لم ينكح، وإنَّ هذا ما كتبت فاطمة عليها السلام في مالها وقضت فيه والله شهيد، والمقداد بن الأسود، والزبير بن العوَّام، وعليّ بن أبي طالب كتبها، وليس على عليّ حرج فيما فعل من معروف»[1].

إنَّ هذه الوصيَّة المباركة تتضمَّن كلَّ أموالها عليها السلام، وقد قضت وحكمت فيها بالتفصيل، وقد كانت أيضًا عبارة عن مجموعة من البنى العليا.

- البنية العليا الأولى: «التي يمكن أن تعتبر بمثابة العنوان، وهي جملة افتتاحيَّة لتوضح ما يحتوي هذا الكتاب»، هذا ما كتبت فاطمة بنت محمَّد صلى الله عليه وآله في مالها إن حدث بها حادث، وهي مجموعة من القضايا ربط بينها مجموعة من الروابط لتشكل البنية العليا.
- البنيه العليا الثانية: «نفقتها ثمانين أوقية»، وتشكل من مجموعة من القضايا يمكن اختزالها «بنفقتها ثمانين أوقية»، وقضيَّة «**تنفق عنها من أثمارها التي لها**»، وقضيَّة «**كلُّ عام في رجب**»، وقضيَّة «**بعد نفقة السقي ونفقة العمل**»، هي قضايا قابلة للاختزال، فهي تعدُّ شرحا وتوضيحًا. أمَّا قضيَّة «**أنَّها أنفقت أثمارها العام**»، وقضيَّة «**أثمارها القمح عامًا قابلًا في أوان غلَّتها**»، فتعتبر مرتبطة بالقضيَّة الأساس، ولا يمكن الاستغناء عنها.

(١) قراءات في وصيَّة الزَّهراء عليها السلام: ١٠١-١٠٣.

- البنية العليا الثالثة: «نفقتها على نساء الرسول ﷺ، وفقراء بني هاشم، وبني عبد المطَّلب بخمس وأربعين أوقيَّة.
- البنية العليا الرابعة: «توليتها لعليّ عليه السلام في أموالها في المدينة»، مجموع القضايا في هذه البنية العليا كثير، بدءًا من «**وكتبت في أصل مالها في المدينة**»، وقضيَّة «**إنَّ عليًّا سألها أن تولِّيه مالها**»، وقضيَّة «**فيجمع مالها إلى مال رسول الله ﷺ فلا تفرِّق**»، وقضيَّة «**فيليه ما دام حيًّا**»، وقضيَّة «**فإذا حدث به حادث دفعه إلى ابنيَّ الحسن والحسين فليليانه**»، وقضيَّة «**وإنِّي دفعت إلى عليّ بن أبي طالب على أنِّي أحلِّله فيه**»، وقضيَّة «**فيدفع مالي ومال محمَّد ﷺ ولا يفرِّق منه شيئًا**»، وقضيَّة «**يقضي عنِّي من أثمار المال ما أمرت به وما تصدَّقت به**»، وإنَّ هذه القضايا توالت وشكَّلت سلسلة من المتواليات لينتج عنها بنية عليا واحدة.
- البنية العليا الخامسة: «**إن الأمر بيد الله وبيد أبي الحسن، وله حرية في التصرُّف بالأموال سواء أكان نفقة أو صدقة**»، وتبدأ بالقضيَّة «**فإذا أقضى الله صدقتها**»، والقضيَّة الثانية «**فالأمر بيد الله تعالى وبيد عليّ عليه السلام**»، والقضيَّة الثالثة «**يتصدَّق وينفق إذ شاء**»، والقضيَّة الرابعة «**لا حرج عليه**»، وهذه القضايا تجتمع لتشكِّل بنية عليا خاصَّة بتعلُّق الأمر بيد الله عزَّ وجلَّ، وبيد عليّ عليه السلام.
- البنية العليا السادسة: «**نقل التولية من عليّ عليه السلام إلى الحسن والحسين عليهما السلام**» وتبدأ بالقضيَّة «**فإذا حدث به حادث**»، وتليها القضيَّة «**دفعه إلى ابنيَّ الحسن والحسين**»، وتليها القضيَّة «**ينفقان ويتصدَّقان حيث شاءَا**»، والقضيَّة التي تليها «**لا حرج عليهما**».
- البنية العليا السابعة: «**إعطاء بعض الحاجات إلى ابنة أبي ذر الغفاري**»، وتبدأ بالقضيَّة «**إنَّ لابنه جندب- يعني بنت أبي ذر الغفاريّ- التابوت الأصغر**» ،

ويليها القضيَّة «**ويعطيها في المال ما كان**»، والقضيَّة التي تليها «**ونعلي الأدميين والنمط والحبّ والسرير**»، وهي قضيَّة لوحدها، وتليها قضيَّة «**إعطاء الزريبة وإعطاء القطيفتين**»، وقد سبق التكلُّم على معنى هذه البنية العليا في بدئها.

- البنية العليا الثامنة: «**إذا ما حدث بأحد ممن أوصيت له بشيء فهو يدفع صدقة عنه**»، وفي هذه البنية تتساوى القضايا مع مستوى البنية العليا.
- البنية العليا التاسعة: «**من يستتر باستتارها بعدها**»، وتبدأ «**وإنَّ الأستار لا يستر بها إلَّا إحدى ابنتيَّ**»، والقضيَّة التي تليها «**إنَّها منع أن تستر بها أحدًا آخر**»، والقضيَّة التي تليها «**غير أنَّ عليًّا يستتر بها إن شاء ما لم ينكح**».
- البنية العليا العاشرة: «**الشهود على هذا الكتاب**»، وتبدأ بالقضيَّة «**والله شهيد**»، وتليها القضيَّة «**والمقداد بن الأسود**»، وتليها قضيَّة «**والزبير بن العوام**».
- البنية العليا الحادية عشرة: «**إنَّ عليًّا عليه السلام كتب هذا الكتاب**»، وهي قضيَّة واحدة «**وعليّ بن أبي طالب كتبها**».
- والبنيه العليا الثانية عشرة: «**إنَّ عليًّا عليه السلام له حرية فعل المعروف**»، وتمثلها القضيَّة «**وليس على عليّ حرج فيما فعل من معروف**»

من الملاحَظ تعدُّد البنية العليا في هذا النصِّ المبارك، وإنَّ كلَّ بنية عليا تتشكَّل من مجموعة من القضايا، وقد تتشكَّل بنية عليا من قضيَّة واحدة، كما هو الحال في البنية الحادية عشرة، والثانية عشرة، إذ يتساوى مستوى البنية العليا مع مستوى القضيَّة، ولا يمكن إغفال دور الروابط الدلاليَّة، وكيف تمَّ الربط من خلالها، كذلك دور الروابط السطحيَّة، ودورها بالربط بين القضايا والبنية العليا، وقد أثبتنا مسبقًا القول

إنَّ تجمُّع البنى العليا وربطها بمجموعة من الروابط، لينتج عنه البنية الكبرى للنصِّ، وهي وصيَّة الزَّهراء عليها السلام في أموالها، أو كتابها في أموالها، وقد صرَّحت بذلك في قضيَّتَين في البدء، إذ قالت «**هذا ما كتبت**»، وفي الخاتمة، إذ قالت «**وإن هذا ما كتبت فاطمة** عليها السلام **في مالها**»، وهي قد تشكِّل موضوعًا لهذا الخطاب، كذلك أنَّ هناك كثيرًا من القضايا الأساسيَّة التي تدلُّ على هذا، وهي تشترك في الدلالة نفسها.

نتائج البحث

١. إحصاء مرويَّات الزَّهراء عليها السلام، وبيان تعددها وتنوُّعها؛ وذلك لتنوُّع ثقافة الزَّهراء عليها السلام.

٢. تعدُّد مرويَّات الزَّهراء عليها السلام بين شعر ونثر، وقد ذكرت ظلامتها في جميع هذه المرويَّات.

٣. إثبات صدق الزَّهراء بما تدَّعي، من خلال تحليل مرويَّاتها وفق معيار الحبك الذي هو أحد معايير النظريَّة النصيَّة.

٤. بيان أهميَّة معيار الحبك، وارتباطه بالمعايير النصيَّة الأخرى، وأهمُّها السبك.

٥. التفريق بين مصطلَحَي البنية العليا والبنية الكبرى من خلال تطبيقها على وصيَّة الزَّهراء عليها السلام.

٦. إثبات أنَّ معيار الحبك شكليّ دلاليّ، فهو شكليّ من خلال المقام اللغويّ، ودلاليّ من خلال المقام غير اللغويّ.

٧. ذِكر العلاقات اللغويَّة وتقسيمها إلى علاقات لغويَّة شكليَّة، وعلاقات دلاليَّة، مع إحصائها بشيءٍ من التفصيل.

المصادر

* القرآن الكريم.

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطيّ، تحقيق: مركز الدراسات القرآنيَّة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الأمانة العامَّة للشؤون العلميَّة.

٢. أدب الشريعة دراسة جديدة في بلاغة نصوص القرآن الكريم ونصوص الأربعة عشر معصومًا، الدكتور محمود البستاني، مؤسَّسة السبطين عليهما السلام العالميَّة، الطبعة الأولى، إيران، قم، ١٤٢٤هـ.

٣. إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم، ابن الأكفانيّ محمَّد بن إبراهيم بن ساعد، تحقيق: عبد المنعم محمَّد عمر، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ١٩٩٠م.

٤. إشراقات غرَّاء من خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام دراسة في ضوء منهج التحليل اللغويّ، الدكتور عبد الحسن عليّ حبيب الناصر، الطبعة الأولى، مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة، ٢٠١٨م.

٥. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمَّة الأطهار، محمَّد باقر المجلسيّ، تحقيق: عليّ النمازيّ الشاهروديّ، الطبعة الأولى، مؤسَّسة الأعلميّ للمطبوعات بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م/ ١٤٢٩هـ.

٦. بلاغات النساء وطرائف كلامهنَّ ومُلح نوادرهنَّ ونوادر ذوات الرأي منهنَّ وأشعارهنَّ في الجاهليَّة وصدر الإسلام، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر الملقَّب ابن طيفور، تحقيق: أحمد الألفيّ، مطبعة مدرسة والدة عبَّاس الأوَّل، بالطرقة الشرقيَّة، شارع خيرت، القاهرة، ١٩٠٨م/ ١٣٢٦هـ.

٧. تاريخ الأدب العربيّ في ضوء المنهج الاسلاميّ، الدكتور محمود البستانيّ، مجمع البحوث الإسلاميَّة، مكتبة مؤمن قريش، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م/ ١٤١٠هـ.

٨. التحليل اللغويّ للنصِّ مدخل إلى المفاهيم الإساسيَّة والمناهج، كلاوس برينكر، ترجمة: الدكتور سعيد حسن بحيري، الطبعة الثانية، مؤسَّسة المختار للنشر والتوزيع، نصر القاهرة، ٢٠١٠م.

٩. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين السيوطيّ، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمَّد الفاريابيّ، الطبعة الأولى والثانية منقَّحة ومزيدة، مكتبة الكوثر الرياض، الطبعة الأولى رمضان ١٤١٤هـ، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.

١٠. التعريفات، أبو الحسن عليّ بن محمَّد بن عليّ الجرجانيّ، وضع حواشيه وفهارسه: محمَّد باسل عيون السود، الطبعة الثانية، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م.

١١. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، محمَّد الرازي فخر الدين ابن ضياء الدين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٢. حياة سيِّدة النساء فاطمة الزَّهراء عليها السلام دراسة وتحليل، باقر شريف القرشيّ، تحقيق: مهدي باقر القرشيّ، الطبعة السادسة، نشر: دار الذخائر الإسلاميَّة، توزيع مكتبة الإمام الحسن عليه السلام العامَّة، النجف الأشرف، ٢٠٠٩م.

١٣. الخلاصة في أصول الحديث، الحسين بن عبد الله الطيبيّ، تحقيق: صبحي السامرَّائيّ، الطبعة الأولى، عالم الكتب، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م

١٤. الدُّعاء عند أهل البيت عليهم السلام، محمَّد مهدي الآصفيّ، دار المعارف الحكميَّة، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م/ ١٤٣٥هـ.

١٥. دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجانيّ، تصحيح: محمَّد عبده، اعتنى به: السيِّد محمَّد رشيد رضا، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م.

١٦. ديوان فاطمة الزَّهراء عليها السلام، صنعة وتحقيق: الدكتور كامل سلمان الجبوريّ، الطبعة الثانية، مؤسَّسة المواهب للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٢١م.

١٧. روضة الواعظين، محمَّد بن الفتَّال النيشابوريّ، تحقيق: غلام محسين المجيديّ، مجتبى الفرجيّ، مطبعة نكارش، الطبعة الثانية، إيران، قم، ٢٠١٠م/ ١٤٣١هـ.

١٨. السبك والحبك في أدعية السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، قادر شاكر عليّ، دار الولاء، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.

١٩. شرح نهج البلاغة، عزّ الدين أبو حامد عبد الحميد ابن أبي الحديد المعتزليّ، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، الدار اللبنانيَّة للنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

٢٠. صحيح مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجَّاج بن مسلم النيسابوريّ، وزارة الشؤون الإسلاميَّة والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربيَّة السعوديَّة، دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م/ ١٤٢١هـ.

٢١. علم اللغة النصِّيّ بين النظريَّة والتطبيق دراسة تطبيقيَّة على السور المكيَّة، الدكتور صبحي إبراهيم الفقي، الطبعة الأولى، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٢٢. علم لغة النصِّ المفاهيم والاتِّجاهات، الدكتور حسن سعيد بحيري، الطبعة الأولى، طبعة دار نوبار للطباعة، الشركة المصريَّة العالمية للنشر، لونجمان، الجيزة، مصر، ١٩٩٧م.

٢٣. علم لغة النصِّ النظريَّة والتطبيق، عزَّة شبل محمَّد، الطبعة الثانية، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٩م.

٢٤. علم النصِّ مدخل متداخل الاختصاصات، تون أ. فان دايك، ترجمة: سعيد حسن بحيري، الطبعة الثانية، دار القاهرة، مصر، ٢٠٠٥م.

٢٥. العمدة في صناعة الشِّعر ونقده، أبو عليّ الحسن بن رشيق القيراونيّ، اعتنى به: السيِّد محمَّد بدر الدين الحلبيّ، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٠٧م/ ١٢٢٥هـ.

٢٦. عوالم العلوم والمعارف والأحوال من الآيات والأخبار والأقوال، الشيخ عبد الله البحرانيّ، تحقيق: مؤسَّسة الإمام المهدي، الطبعة الثانية، مطبعة أنصار المهدي عجل الله فرجه الشريف، قم، إيران، شعبان ١٤٣٠هـ.

٢٧. العين مرتَّبًا على حروف المعجم، الخليل بن أحمد الفراهيديّ، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣ م.

٢٨. فاطمة الزَّهراء من قبل الميلاد إلى بعد الاستشهاد، عبد الله عبد العزيز الهاشميّ، مكتبة الفقيه، السالميَّة، الكويت، د.ت.

٢٩. فاطمة عليها السلام من المهد إلى اللحد، محمَّد كاظم القزوينيّ، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب الشرقيَّة، النجف الأشرف، العراق، ١٣٩٢هـ.

٣٠. قراءات في وصيَّة الزَّهراء عليها السلام، السيِّد محمود المقدَّس الغريفيّ، الطبعة الثانية، مزيدة ومنقَّحة، دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٨م/ ١٤٣٩هـ.

٣١. القواعد البلاغيَّة في ضوء المنهج الإسلاميّ، الدكتور محمود البستانيّ، مجمع البحوث الإسلاميَّة، الطبعة الأولى، مؤسَّسة الطبع والنشر في الأستانة الرضويَّة المقدَّسة، ١٤١٤هـ.

٣٢. الكافي، أبو جعفر محمَّد بن يعقوب الكلينيّ، دار الحديث للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، إيران، قم، ١٤٣٤هـ.

٣٣. لسان العرب، ابن منظور، اعتنى به: أمين محمَّد عبد الوهاب، ومحمَّد الصادق العبيديّ، الطبعة الثالثة، طبعة جديدة مصحَّحة وملوَّنة، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م.

٣٤. لسانيَّات النصِّ مدخل إلى انسجام الخطاب، الدكتور محمَّد خطابي، الطبعة الأولى، المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت، لبنان، ١٩٩١م.

٣٥. اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزَّهراء، محمَّد عليّ بن أحمد التبريزيّ الأنصاريّ، تحقيق: السيِّد هاشم الميلانيّ، دار التبليغ الإسلاميّ، بيروت، حارة حريك، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٣٦. مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن عليّ بن الحسين المسعوديّ، اعتنى به: كمال حسن مرعي، الطبعة الأولى، شركة أبناء شريف الأنصاريّ للطباعة والنشر والتوزيع، صيدا، بيروت، ٢٠٠٥م.

٣٧. المسائل المنتخبة، عليّ الحسينيّ السيستانيّ، دار البذرة، النجف الأشرف، ١٤٢٢هـ.

٣٨. معجم اللغة العربيَّة المعاصرة، أحمد مختار عمر، الطبعة الأولى، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠٠٨م.

٣٩. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس، اعتنى به: الدكتور

محمَّد عوض مرعب، والآنسة فاطمة محمَّد أصلان، الطبعة الأولى، طبعة جديدة ومصحَّحة وملوَّنة، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م.

٤٠. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربيَّة الإدارة العامَّة للمعجمات وإحياء التراث، الطبعة الرابعة، مكتبة الشروق الدوليَّة، مصر، ٢٠٠٤م.

٤١. منهاج الصالحين، فتاوي السيِّد عليّ الحسينيّ السيستانيّ، دار البذرة، النجف، العراق، ٢٠٠٩ م.

٤٢. الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزَّهراء عليها السلام، إسماعيل الأنصاريّ الزنجانيّ الخوئيّ، الطبعة الثانية، مطبعة نكارش، قم، إيران، ١٤٢٩هـ.

٤٣. موسوعة كلمات سيِّدتنا فاطمة الزَّهراء عليها السلام، معهد باقر العلوم عليه السلام، منظَّمة الإعلام الإسلاميّ، الطبعة الأولى، مطبعة معهد باقر العلوم عليه السلام، طهران، ٢٠١٤م.

٤٤. النحو وبناء الشِّعر في ضوء معايير النيَّة شعر الجواهري نموذجًا، الدكتور صالح عبد العظيم الشاعر، الطبعة الأولى، الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربيَّة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٤م.

٤٥. النصّ والخطاب والاتِّصال، الدكتور محمَّد العبد، الأكاديميَّة الحديثة للكتاب الجامعيّ، القاهرة، مصر، ٢٠١٤م.

٤٦. النصّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة: د. تمَّام حسَّان، الطبعة الأولى، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.

٤٧. النصُّ والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلاليّ والتداوليّ، فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.

٤٨. نقد الشِّعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق: محمَّد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلميَّة بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

٤٩. نهج الإيمان، زين الدين عليّ بن يوسف بن جبر، تحقيق: السيِّد أحمد الحسينيّ، الطبعة الأولى، مجتمع الإمام الهادي عليه السلام، مشهد، ١٤١٨هـ.

٥٠. الوساطة بين المتنبِّي وخصومه، القاضي عليّ عبد العزيز الجرجانيّ، تحقيق وشرح: محمَّد أبي الفضل إبراهيم، عليّ محمَّد البجاويّ، طبع في مطبعة عيسى البابي الحلبيّ وشركاه، شعبان ١٣٨٦هـ/ نوفمبر ١٩٦٦م.

الأطاريح والرسائل:

٥١. المعايير النصيَّة في ديوان محمَّد العيد آل خليفة، أطروحة دكتوراه للطيِّب العزَّاليّ قواوة، إشراف: بلقاسم دفَّة، قسم اللغة والأدب العربيّ، كليَّة اللغة والأدب والفنون، جامعة باتنة الحاج لخضر، الجمهورية الجزائريَّة، ٢٠١٧-٢٠١٨م.

البحوث:

٥٢. البديع بين البلاغة العربيّة واللسانيَّات النصيَّة، الدكتور جميل عبد المجيد، مجلَّة دراسات أدبيَّة، الهيأة المصريَّة العامَّة للكتاب، ١٩٩٨م.

٥٣. مصطلحا البنية الكبرى والبنية العليا عند فان دايك مقاربة في المفهوم والمعيار والوظيفة، الدكتور خالد توفيق مزعل، مجلَّة كليَّة التربية للبنات للعلوم الإنسانيَّة، جامعة الكوفة، مجلَّة علميَّة محكَّمة نصف سنويَّة، تصدر عن كليَّة التربية للبنات بجامعة الكوفة، العدد١٨، الطبعة الأولى، السنة العاشرة، ٢٠١٦م.

لمحاتٌ بيانيَّةٌ في أدعيَّةِ السيِّدةِ الزَّهراء عليها السلام

أ.د. هاشم جعفر الموسويّ

جامعة بابل/ كليَّة التربية للعلوم الإنسانيَّة

ملخَّص البحث

يدرس هذا البحث لمحات بيانيَّة في أدعية السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، ومن المعلوم أنَّها كانت تُكثر الدعاء للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، وكانت تستشفع برسول الله صلى الله عليه وآله، وبآل بيتها (صلوات الله عليهم)، وتتوسَّل بهم لقبول دعائها، وكانت تُعلِّمُ مَن حولَها طريقة الدعاء، وأساليب التفنُّن في خطاب الباري عزَّ وجلَّ لقضاء الحوائج؛ ذلك أنَّ الدعاء عدَّة المؤمن وسلاحه الذي لا يخيب أبدًا.

وقد رصد الباحث لمحات بيانيَّة في مجموعة من أدعيتها المتفرِّقة في مصادر عديدة، فحاول أن يكشف عن مضامينها وتراكيبها اللغويَّة، وقصديَّة استعمال ألفاظها لمناسبة دلالاتها. وبعد استقراء مادَّة البحث، قُسِّم على ثلاثة مطالب:

المطلب الأوَّل: افتتاح الدعاء بتراكيب مفخَّمة (اللَّهُمَّ، سُبحانَ).

المطلب الثاني: تداخل الأساليب في الدعاء.

المطلب الثالث: دلالة التقديم والتأخير والحذف في الدعاء.

الكلمات المفتاحية: السيدة الزَّهراء، الدعاء، لمحات بيانيَّة، الدلالة.

توطئة

يدرس هذا البحث لمحات بيانيَّة في أدعية السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، ومن المعلوم أنَّها كانت تُكثر الدعاء للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، وكانت تستشفع برسول الله صلى الله عليه وآله، وبآل بيتها (صلوات الله عليهم)، وتتوسَّل بهم لقبول دعائها، وكانت تُعلِّمُ مَن حولَها طريقة الدعاء، وأساليب التفنُّن في خطاب الباري عزَّ وجلَّ لقضاء الحوائج؛ ذلك أنَّ الدعاء عدَّة المؤمن وسلاحه الذي لا يخيب أبدًا.

وقد رصد الباحث لمحات بيانيَّة في مجموعة من أدعيتها المتفرِّقة في مصادر عديدة، فحاول أن يكشف عن مضامينها وتراكيبها اللغويَّة، وقصديَّة استعمال ألفاظها لمناسبة دلالاتها. وبعد استقراء مادَّة البحث، قُسِّم على ثلاثة مطالب:

المطلب الأوَّل: افتتاح الدعاء بتراكيب مفخَّمة (اللَّهُمَّ، سُبحانَ).

المطلب الثاني: تداخل الأساليب في الدعاء.

المطلب الثالث: دلالة التقديم والتأخير والحذف في الدعاء.

نسأل الله شفاعة الزَّهراء عليها السلام في قضاء الحوائج في الدنيا والآخرة، وأن تتقبَّل منِّي هذه المحاولة، على ما فيها من نقصٍ في الأداء، وزلَلٍ في الفهم، ودليلي إلى القبول توسُّلي بأهل بيتها المُكرَّمين، وثقتي بشمول رعايتها للمُقصِّرين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

المطلب الأوَّل

افتتاح الدعاء بالتفخيم والتنزيه

لا شكَّ في أنَّ افتتاح الدعاء بما يدلُّ على عظمة الله سبحانه وتعالى، وعُلُوِّ شأنه وفخامةِ صفاتِ قُدرتِه، وتنزيهِهِ عن كلِّ ما يخطرُ على الأذهان من خواطرَ وأوهامٍ لا ترقى إلى جلال صفاته وأفعاله، يُعدُّ وسيلةً ناجعةً يستعملها الداعي لنيل غرضه واستجابة طلبه، وقد رصد الباحثُ في أدعية السيدة الزَّهراء عليها السلام أنَّها تُكثِرُ عند افتتاح دعائها من استعمال (اللَّهُمَّ)، و(سُبحانَ)، وهما تركيبان لغويَّان دالَّان على التفخيم والتنزيه، ممَّا يشكِّل لمحةً أُسلوبيَّةً بيانيَّةً ظاهرةً في كلامها، ومن أمثلة ما ورد من ذلك، دعاؤها عليها السلام للخلاص من الشدائد، ومنها الحبس: «**اللَّهُمَّ بِحَقِّ الْعَرْشِ وَمَنْ عَلاهُ، وَبِحَقِّ الْوَحْيِ وَمَنْ اَوْحاهُ، وَبِحَقِّ النَّبِيِّ وَمَنْ نَبَّاهُ، وَبِحَقِّ الْبَيْتِ وَمَنْ بَناهُ، يا سامِعَ كُلِّ صَوْت، يا جامِعَ كُلِّ فَوْت، يا بارِئَ النُّفُوسِ بَعْدَ الْمَوْتِ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد واَهْلِ بَيْتِهِ، وآتِنا وَجَميعَ الْمُؤْمِنينَ وَالْمُؤْمِناتِ فِي مَشارِقِ الاَرْضِ وَمَغارِبِها فَرَجًا مِنْ عِنْدِكَ عاجِلًا بِشَهادَةِ اَنْ لَا اِلهَ اِلَّا اللهُ، واَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ صلى الله عليه وآله وَعَلى ذُرِّيَّتِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وسلِّمَ تَسْليمًا كَثيرًا**»[1].

لفظ (اللَّهُمَّ) عند جمهور النحويين، من حيث البنية يقابل(يا اللهُ)، وقد عُوِّض عن (يا) النداء في أوَّل الاسم بـ(ميم مشدَّدة) في (اللهمَّ)، وأنَّ ضمَّة (الهاء) في (اللهُمَّ)

(١) الصحيفة الفاطميَّة الجامعة، جمعها ونشرها السيِّد محمَّد باقر موحد الأبطحيّ، مطبعة الاعتماد، قم المقدَّسة، ط١، ١٤٢١هـ: ٣٠.

بمنزلة ضمة (الهاء) في (يا الله)[1]. أمَّا من حيث المعنى، فاستعمال اللَّهمَّ له مورد خاص يناسب ما في معناه من تفخيم وتعظيم، لذا يقتصر النداء به ويختصُّ في موارد الجلال والعظمة، ومصداقُ ذلك استعمالُه في القرآن الكريم مع عظائم الأمور، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله عليه السلام: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقوله جلَّ جلاله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

فهذه الأسماء التي استشفعت بحقِّها السيِّدةُ الزَّهراءُ (العرش، والوحي، والنبيّ، وبيت الله)، لها أسرار ملكوتيَّة لا يعلم كُنه حقِّها عند الله إلَّا هو والذين استحقُّوا أن يَعلموه بمنَّةٍ منه سبحانه، ولا شكَّ في أنَّ السيِّدة الزَّهراء ممَّن استحقَّ هذا المنّ العظيم، فحقُّ الداعي أن يَعلَم بمكنونات الأشياء التي يستشفع بها، وهي عليها السلام إنَّما تتبِّع أُسلوب تعليمنا أن نفتتح الدعاء بهذه النداء المُفخَّم وبهذه الأسماء المقدَّسة التي استمدت قدسيَّتها بما عُطف عليها (بِحَقِّ الْعَرْشِ وَمنْ عَلاهُ، وَبِحَقِّ الْوَحْي وَمَنْ اَوْحاهُ، وَبِحَقِّ النَّبِيِّ وَمَنْ نَبَّاهُ، وَبِحَقِّ الْبَيْتِ وَمَنْ بَناهُ).

(١) ينظر: كتاب سيبويه: سيبويه (عمرو بن عثمان بن قنبر ت١٨٠هـ)، تحقيق عبد السلام محمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م: ١/ ٣١٠، والمقتضب: المبرد (أبو العبَّاس محمَّد بن يزيد ت٢٨٥هـ)، عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، (د.ت): ٤/ ٢٣٩، والإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويِّين البصريِّين والكوفيِّين: أبو البركات الأنباريّ (كمال الدين عبد الرحمن بن محمَّد ت ٥٧٧هـ)، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجاريَّة الكبرى، مصر، (د.ت)، (المسألة ٤٧): ١/ ٣٤٣-٣٤٧.

ولا جرمَ أنَّ الاستشفاع بموارد العظمة والتفخيم أقربُ لقبول الدعاء، مهما عَظُمَ مطلبُه وجلَّ تَحقُّقُه، إذ هو قبالةُ عطاء العظيم الوهَّاب.

ثمَّ نجد النداء بـ(اللَّهُمَّ) يتداخل مع النداء بـ(يا) النداء في نصِّ الدعاء: «**يا سامِعَ كُلِّ صَوْت، يا جامِعَ كُلِّ فَوْت، يا بارِئَ النُّفُوسِ بَعْدَ الْمَوْتِ**»، فهنا نلحظ الانتقالة من الدعاء المعظَّم المفخَّم إلى الدعاء بجوامع القدرة الإلهيَّة التي لا يخفى عليها أصوات المستغيثين لحوائجهم، وهي القادرةُ على جمع كلِّ ما فاتهم من خيرٍ لهم في الدنيا والآخرة، المتحكِّمةُ في أحوالهم وتبديلها وتغيير سنخها، لذا كان استعمالُ أداةِ النداءِ المألوفةِ في دعاء الداعين، المتأصِّلةِ في استغاثة الملهوفين لكثرة إيرادها في تلك المواضع، قد ناسب المألوفَ في طباع الداعين المُرتكِزَ في أذهانهم باقتصار القدرة في امتلاك تلك الجوامع على الذات المقدَّسة، فضلًا عمَّا فيها من مدٍّ للصوت الذي يشي بالحاجة الملحَّة لاستجابة الدعاء.

ثمَّ تبدأ السيِّدة الزَّهراء، بعد هذا الاستهلال المهيب، بطلباتها المُؤدَّاة بأفعال الأمر الخارجة إلى الدعاء: «**صَلِّ عَلى مُحَمَّد وأَهْلِ بَيْتِهِ، وآتِنا وَجَميعَ الْمُؤْمِنينَ وَالْمُؤْمِناتِ فِي مَشارِقِ الأَرْضِ وَمَغارِبِها فَرَجًا مِنْ عِنْدِكَ عاجِلًا، بِشَهادَةِ أَنْ لا إِلـهَ إِلَّا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ صلى الله عليه وآله وَعَلى ذُرِّيَّتِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وَسَلِّم تَسْليمًا كَثيرًا**».

فالطلب الأوَّل هو الصلاة على محمَّدٍ وأهلِ بيته الطيِّبين الطاهرين، الذين هم مفتاحُ الفرج لكلِّ كربةٍ، وبابُ النجاة لكلِّ شدَّةٍ، ووسيلةُ النجاحِ لكلِّ طَلِبَةٍ، لذا يُعلَّقُ الدعاءُ إنْ لم يُصَلَّ عليهم، كما ورد في حديث مولانا الصادق عليه السلام: «**لا يزالُ الدعاءُ مَحجُوبًا حتَّى يُصلَّى على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ**»[1]. ثمَ طلبت السيِّدةُ الزَّهراءُ ما عُقِدَ له الدعاءُ، وهو الفرج العاجل لجميع المؤمنين والمؤمنات في مشارق الأرض ومغاربها،

(١) ميزان الحكمة: محمَّد الريشهري، دار الحديث للطباعة والنشر، قم المقدَّسة، ط١، ١٤٢٢هـ: ٢/ ٣٢.

فهذا الطلب المنيف والاستحقاق الواسع والهبة الشاسعة تتطلَّب مثل هذا الافتتاح المفخَّم، وما استتبعه من التوسُّل بجوامع الملكات الإلهيَّة، ثمَّ تذييل الطلب بالشهادة الكبرى للتوحيد، التي هي الأمانُ والملجأُ من كلِّ مَخُوفٍ، والمطلَبُ عن كلِّ حاجةٍ، كما ورد في أحاديثهم عليهم السلام: «**لا إله إلا الله حِصني فمَنْ دخلَه أمِنَ مِن عَذابي**»(١)، وإتمام الشهادة بالإقرار بنبوَّة محمَّدٍ ورسالته، ففيها الخضوعُ لأمر الله وتطبيقُ شريعته، والمولاةُ للمبعوثِ برسالتِه، ثمَّ خَتَمت الزَّهراءُ عليها السلام دعاءها بطلبِ الصلاةِ على محمَّد وآله أجمعين، والسلام عليهم تسليمًا كثيرًا.

وفي ذلك الإشارة منها إلينا بافتتاح المطلب وختمه بالصلاة على محمَّد وآله الطيِّبين الطاهرين، إذ في ذلك الإذنُ باستجابة الطلب، وضمان قبوله، فقد ورد عن صادق العترة قوله: «**مَنْ كانت له حاجةٌ إلى الله عزَّ وجلَّ فليبدأْ بالصلاة على محمَّد وآله، ثمَّ يسألْ حاجتَه، ثمَّ يَختِمْ بالصلاة على محمَّدٍ وآلِ محمَّدٍ، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ أكرمُ مِن أنْ يقبلَ الطَّرَفينِ ويدعَ الوسطَ إذا كانت الصلاةُ على محمَّدٍ وآلِ محمَّدٍ لا تحجبُ عنه**»(٢).

ومن افتتاح الدعاء بألفاظٍ مختصَّةٍ بالله سبحانه وتعالى، دعاءُ الزَّهراءِ عليها السلام في تسبيح الباري عزَّ وجلَّ: «**سُبحانَ ذِي الْعِزِّ الشَّامِخِ الْمُنيفِ، سُبحانَ ذِي الْجَلالِ الْباذِخِ الْعَظيمِ، سُبحانَ ذِي الْمُلْكِ الْفاخِرِ الْقَديمِ، سُبحانَ مَنْ لَبِسَ الْبَهْجَةَ وَالْجَمالَ، سُبحانَ مَنْ تَرَدَّى بِالنُّورِ وَالْوَقارِ، سُبحانَ مَنْ يَرى أَثَرَ النَّمْلِ في الصَّفا، سُبحانَ مَنْ يَرى وَقْعَ الطَّيْرِ فِي الْهَواءِ، سُبحانَ مَنْ هُوَ هكَذا، ولا هكَذا غَيْرُهُ**»(٣).

لفظ (سُبحان) من ألفاظ الدعاء المختصَّة به (جلَّ جلاله)، وفي معناه يقول الخليل (ت١٧٠هـ): «سُبْحانَ اللهِ: تنزيهٌ للهِ عن كلِّ ما لا ينبغي أن يُوصَفَ به، ونَصبُه في موضع

(١) بحار الأنوار: محمَّد تقي المجلسّي (ت١٠٧٠هـ)، مؤسَّسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣هـ: ٣/ ٥.
(٢) ميزان الحكمة: ٢/ ٣٢.
(٣) بحار الأنوار: ٨٨/ ١٠٨، والصحيفة الفاطميَّة: ١٧.

فعلٍ على معنى: تَسبيحًا لله، تُريدُ: سَبَّحْتُ تَسبيحًا للهِ، أي: نزَّهتُه تنزيهًا»[1]. واستشف سيبويه (ت١٨٠هـ) مِمَّا ذكره الخليلُ معنى البراءة في (سُبحان)، ناقلًا قول أبي الخطَّاب الأخفش الكبير (ت١٧٧هـ) في معناه قال: «زعم أبو الخَطَّاب أنَّ (سُبْحانَ اللهِ) كقولك: بَرَاءَةَ اللهِ من السُّوءِ، كأنَّه يقول: أُبَرِّئُ براءةَ اللهِ من السُّوء»[2]. ثمَّ بيَّن ما ذكره الخليل في حكم إعراب (سُبحان اللهِ) بالإضافة، وأنَّه مصدر منصوب على أنَّه مفعول مطلق لفعل محذوف وجوبًا متروك إظهاره، تقديره: أُسبِّحُ الله سبحانَ، ثمَّ نزل (سبحان) منزلة الفعل فسدَّ مسدَّه، معلِّلًا ذلك بقوله: «وخُزِلَ الفعلُ ههنا؛ لأنَّه بدلٌ من اللفظ بقوله: سَبَّحَكَ»[3]، فإن أُفرد (سُبحانَ)، فإنَّه يَلزمُ الفتحَ؛ لأنَّه صار عَلَمًا للتسبيح[4]. على حين بيَّن ابنُ فارس (ت٣٩٥هـ) أنَّ سُبحانَ فيه معنى البُعْد في الأصل، قال: «التَّسْبِيحُ، وَهُوَ تَنْزِيهُ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ. وَالتَّنْزِيهُ: التَّبْعِيدُ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: سُبْحَانَ مِنْ كَذَا، أَيْ مَا أَبْعَدَهُ»[5]. وبينَّ آخرون أنَّ في (سُبحانَ) معنى التعجُّب من القدرة، فإنْ صدرَ من الله، كقوله تعالى: ﴿سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١]، كان بمعنى تعجيبَ الناسِ من قدرته[6].

(١) العين: الخليل (الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيديّ ت ١٧٠هـ) تحقيق د. مهدي المخزوميّ، ود. إبراهيم السامرَّائيّ، مكتبة الهلال، بيروت، (د.ت)، (حسب): ٣/ ١٥١.

(٢) كتاب سيبويه: ١/ ٣٢٤.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ٣٢٢.

(٤) ينظر: المصدر نفسه:١/ ٣٢٤، والكشَّاف عن خصائص غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشريّ (جار الله محمود بن عمر ت٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٤٧م: ٢/ ٢٤٦، وفتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبيّ على الكشَّاف): الطيبيّ (الحسين بن عبد الله ت٧٤٣هـ)، مقدِّمة التحقيق: إياد محمَّد الغوج، القسم الدراسي: د. جميل بني عطا، نشر جائزة دبي الدوليَّة للقرآن الكريم، ط١، ٢٠١٣م: ٩/ ٢٢٣.

(٥) مقاييس اللغة: ابن فارس(أحمد بن فارس بن زكريَّا ت٣٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمَّد هارون، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٩م، (سبح): ٣/ ١٢٥.

(٦) ينظر: الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): الجوهري (إسماعيل بن حماد ت٣٩٣هـ)، تحقيق=

وفي نصِّ الزَّهراء عليها السلام، نجدُ افتتاحَ الدعاء بهذا اللفظ المختصِّ، الدالِّ على تنزيه الله عن كلِّ ما يخطر في الذهن من النقص، مع أنَّ الكلام قبله لم يُسبَق بما يستوجبُ التنزيه، وفي ذلك الإشارةُ إلى العناية بما ستذكره من أوصافٍ بعد هذا التنزيه، فكأنَّها تُهيِّئُ أذهانَ المتلقِّين لتلقِّي أوصافٍ عظيمةٍ ستُمليها عليهم، وجبَ لها أن تكونَ عقولُهم وقلوبُهم صافيةً سليمةً لِتقبُّل هذه الفيوضات الإلهيَّة والتعجُّب من قدرته وأوصافه، فهو عزَّ وجلَّ، صاحبُ العزِّ العالي المرتبةِ، المرتفع في عُلاه، وهو صاحبُ المهابةِ الساميةِ العظيمةِ، وهو صاحبُ المُلْكِ المعظَّمِ الكبيرِ الأزليِّ. فالبهجةُ والجمالُ لباسُه، والنورُ والوَقارُ رداؤُه، وهو المحيطُ بدقائقِ الأمورِ يعلم أثرَ النَّمل في الحجرِ الأملسِ، ووقعَ الطيرِ المُعتاد عليه في الهواء.

ثمَّ تختم الزَّهراءُ عليها السلام بلفظ (سبحان)، كما افتتحت الدعاءَ به، دلالةً على تخصيصه تعالى بهذا التنزيه، فهو المُتفرِّد بهذه الأوصاف والأفعال، ولا قدرةَ لغيره على مثلها، فكان الأحقَّ بالدعاء، والأوفى في استجابة الطلب، والأقدرَ على تحقيق مراد السَّائِلين.

=أحمد عبد الغفور عطَّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٨م، (سبح): ١/ ٣٧٢، ولباب التأويل في معاني التنزيل: الخازن (عليّ بن محمَّد بن إبراهيم ت٧٤١هـ)، تصحيح محمَّد عليّ شاهين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ: ٣/ ٥٨.

المطلب الثاني

تداخل الأساليب في الدعاء

إنَّ المُتتبِّعَ لنصوص الدعاءِ عند السيِّدة الزَّهراءعليها السلام، يجدُ مزيَّةً بيِّنةً فيها، مفادُها تداخلُ الأساليب الكلاميَّة، وأنَّ هذا التداخل يتكرَّرُ مرَّاتٍ عدَّة، ومعه يمكنُ أن تبرزَ سِمةٌ أُسلوبيَّةٌ جليَّةٌ تستحقُّ أنْ يُنبَّه عليها وعلى الـدلالاتِ المترتِّبةِ على ذلك التداخل.

ومن أمثلة ذلك ما قالتهعليها السلام في تعقيب صلاة المغرب: «**سُبْحَانَكَ يَا ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ، مَا فَعَلْتَ بِالْغَرِيبِ الْفَقِيرِ إِذَا أَتَاكَ مُسْتَجِيرًا مُسْتَغِيثًا، مَا فَعَلْتَ بِمَنْ أَنَاخَ بِفِنَائِكَ وَتَعَرَّضَ لِرِضَاكَ، وَغَدَا إِلَيْكَ فَجَثَا بَيْنَ يَدَيْكَ يَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، فَلا يَكُونَنَّ - يَا رَبِّ- حَظِّي مِنْ دُعَائِي الْحِرْمَان، وَلا نَصِيبِي مِمَّا أَرْجُو مِنْ مَنِّكَ الخِذْلان**»[1].

تبدأُ الزَّهراءُعليها السلام دعاءها بتنزيه الله عن كلِّ ما يخطر في الذهن من وهمٍ، ثمَّ يبرزُ أُسلوبُ النداء بعد التنزيه، ذلك أنَّ الداعي- بلا شكٍّ- به حاجة إلى إقبال المَدعوِّ، لذا نرى أُسلوبَ النداء يشغل حيِّزًا مهمًّا في الأدعية، وكان النداء هنا بأداة النداء الرئيسة (يا)، والمنادى المعظَّم بصفتَي الهيبة والجود غير المتناهيَتَين المناسبَتَين لمقام التنزيه قبلهما،

(١) فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة: ابن طاووس (رضيّ الدين عليّ بن موسى ت٦٦٤هـ)، تحقيق غلام حسين المجيديّ، مطبعة مكتب الإعلام الإسلاميّ، مركز انتشارات، قم المقدَّسة، ط١، ١٣٧٧هـ: ١٧/ ٢٠، والصحيفة الفاطميَّة: ٦٠.

ثمَّ يتداخلُ أُسلوبُ النداء بأُسلوبٍ آخرَ هو الاستفهام، ذلك أنَّ الداعي يخاطبُ قوَّةً عظمى غائبةً عن مداركه الحسيَّة، في محاولةٍ منه للتواصل معها بإقامة حوارٍ مباشرٍ بين العبد وربِّه، والمتأمِّلُ في النصِّ الكريم يجد أنَّ الاستفهام فيه لم يكن لغرض طلب الإجابة، فهو ليس استفهامًا حقيقيًّا، فالسيِّدةُ الزَّهراءُ لا تنتظر الجواب، لأنَّها عارفة به، إنَّما كان الغرض من الاستفهام أمرَين، أحدهما: نفي القدرة عن إدراك النعمة الإلهيَّة التي تنتظر مَنْ يَرِدُ على صاحب الجلال والإكرام مُسْتَجِيرًا مُسْتَغِيثًا، مُتوسِّلًا يطلب الرِّضا، شاكيًا حالَه المعلومَ عند المدعوِّ. والآخر: الإشارة إلى عِظم نعمته في عفوه عن عباده على عِظم ذنوبهم وغفلتهم عن التوبة عنها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، فيستلزم ذلك منهم استلزامًا واجبًا أن يُفرغوا طاقتهم في الدعاء لشكر المُنعِم، ويعضد ذلك ما ذُكر من أنَّ الاستفهام يستلزم فراغًا زمنيًّا بين السؤال والجواب، وقد وظَّفته الزَّهراء هنا لتمنح فسحةً لـمُتَلَقِّي الدعاءِ بأنْ يتأمَّلوا فيه ويتدبَّروا ويتذكَّروا، فيتراكم عندهم الشعورُ بوجوب شُكر النعمة.

إذًا: هذا الاستفهام وجَّهته الزَّهراء عليها السلام وهي عالمةٌ بالإجابة، ثمَّ أتْبَعَتْهُ بأُسلوبَين متداخلَين ممتزجَين، هما: أُسلوبُ النهي المؤكَّد بالنون الثقيلة «**فَلا يَكُونَنَّ حَظِّي مِنْ دُعَائِي الْـحِرْمَان، وَلا نَصِيبِي مِمَّا أَرْجُو مِنْ مَنِّكَ الخِذْلان**»، وهو نهيٌ مجازيٌّ خارجٌ إلى الدعاء والتوسُّلِ الشَّديدِ والاستشفاعِ المديدِ لتحقيق مطلب الدعاء الرئيس، وهو نيلُ العطاء الإلهيّ، وأُسلوبُ النداء المعترِض (يَا رَبِّ)، المكوَّن من حرف النداء الرئيس والمنادى المشتمل على الإضافة التشريفيَّة إلى صفة الربوبيَّة بياء المتكلِّم، وفيه الدلالةُ على إرادة إظهار التحنُّن والرحمة بعد نداء العظمة والجلال والإكرام في أوَّل الدعاء، فقد وقف الطالبُ في هذا الموقف مستشفعًا برحمة ربِّه، راجيًا منَّه القبول.

وممَّا تقدَّم يتَّضح أنَّها عليها السلام تُوجِّهُنا عند الدعاء إلى أن نستيقنَ بأنَّ إظهار العجز في ساحة الرحمة من أشدِّ النِّعَم المستوجبةِ لثناء الباري (جلَّ جلالُه)، وعطائِه الجزيل.

وممَّا ورد من تداخل الأساليب أيضًا، دعاؤها عليها السلام في يوم السبت: «**وهَبْ لَنَا اللَّهُمَّ رَحمَةً لا تُعَذِّبُنا بَعدَها فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ**»(١).

فقد تداخلَ أُسلوبُ الأمر بفعل الأمر (هَبْ)، الخارج إلى معنى الدعاء، لأنَّه صادر إلى مَن هو في الرُّتبة الأعلى، بأُسلوب النداء المعترض (اللَّهُمَّ)، وهو نداء مُفخَّم يُنادَى به للأمور العِظام، ولا شكَّ في أنَّ طلبَ الرحمةِ المُستدامَةِ التي لا تستتبعُ عذابًا في الدنيا والآخرة هو مطلبٌ قَمينٌ جديرٌ باستعمال هذا النداء المُعظَّم، وأنَّ اعتراض أُسلوب النداء بين فعل الأمر ومعمولاته، وإنْ فصلَ بين الإسناد الأصليّ للجملة، قد زاد المعنى توكيدًا وإثباتًا، على ما قُرِّر عند النحويِّين في دلالة الكلام المعترض(٢)، وأنَّ تداخلَ هذَين الأُسلوبين- بما فيهما من معنى التوسُّلِ بالمراتب العُلى، وطلبِ الهِبة الكبرى، وهي الرحمة الإلهيَّة الشاملة في الدَّارَين- كفيلٌ بقبول الدعاء، وإنجاز المطلب.

ومن أمثلة تداخل الأساليب أيضًا، دعاؤها في تعقيب صلاة العشاء: «**اللَّهُمَّ إِذَا فَنِي عُمْري وَتَصَرَّمَتْ أَيَّامَ حَيَاتِي وَكَانَ لاَ بُدَّ لِي مِن لِقَائِكَ، فَأَسْأَلُكَ- يَا لَطِيفُ- أَنْ تُوجِبَ لِيَ الجَنَّةَ مَنْزِلًا يَغْبِطُنِي بِهِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ**»(٣).

نجدُ في النصِّ الشريف تداخلَ أكثر من أُسلوبٍ كلاميٍّ لتحقيق الغاية من الدعاء،

(١) البلد الأمين والدرع الحصين: الكفعميّ (تقي الدين إبراهيم بن عليّ بن الحسن العامليّ ت٩٠٠هـ)، منشورات مؤسَّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ١٤١٨هـ: ١٤٥، والصحيفة الفاطميَّة:٤٧.

(٢) ينظر: أمالي ابن الحاجب: ابن الحاجب (عثمان بن عمر بن أبي بكر ت٦٤٦هـ)، تحقيق د. فخر صالح سليمان قدارة، دار عمار، الأردن، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٩م: ٢/ ٦٨٥، وشرح الرضيّ على الكافية: الرضيّ الاستراباديّ (رضي الدين محمَّد بن الحسن ت ٦٨٦هـ)، تحقيق وتعليق د. يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط٢، ١٩٩٦م: ٤/ ١٠٥، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام الأنصاريّ (عبد الله بن يوسف بن أحمد ت٧٦١هـ)، تحقيق د. مازن المبارك، ومحمَّد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٩٨٥م: ٢/ ٤٤.

(٣) فلاح السائل ونجاح المسائل: ١٨/ ١٢، والصحيفة الفاطميَّة: ٦٦.

فقد افتُتح النصُّ بالنداء المُفخّم، ثُمَّ قُرنَ بأُسلوب الشرط القائم على السبب والنتيجة، والرابط بينهما الأداة (إذا)، وهي أداةٌ لزمانٍ مستقبل فيه معنى الشرط-غالبًا- ومع تضمُّنها معنى الشرط لم يجزم بها، وعند النحويِّين أنَّ الشرط معها مقطوع بوقوعه، وقد كثُر مجيءُ الماضي بعدها، مرادًا به الاستقبال، ولربَّما يعود ذلك إلى أنَّ الماضي حدثٌ مضى فلا يحتمل الحدوث أو يُظَنُّ فيه خلاف ذلك، فدلالتُه ناسبت دلالة (إذا) التي تكون للشرط المقطوع بحصوله، أو لكثير الحصول[1]، وهذه الدلالة تنطبق على بِنَى فعلِ الشرط في الدعاء المكوَنة من أكثر من تركيب «**فَنِي عُمْري، تَصَرَّمَتْ أَيَّامَ حَيَاتِي، كَانَ لاَ بُدَّ لِي مِن لِقَائِكَ**»، ثمَّ يأتي جوابُ الشرط لهذه التراكيب معًا جملةً إنشائيةً مؤدَّاةً بفعلِ أمرٍ خارجٍ إلى الدعاء، مقرونٍ بفاء الجزاء الرابطة، ويتداخلُ الشرطُ بأُسلوبِ نداءٍ آخر (يَا لَطِيفُ)، بلفظٍ يُناسبُ مقام الضعف والاستعطاف لفناء العمر وانقضاء مدَّته وقرب الحساب، فكان اختيارُ اللطيف من بين أسمائه تعالى، لما فيه من معنى المبالغة في تدبير دقائق الأمور، للعلم بخفاياها وما استكنَّ منها وما ظهرَ، فهو يُحسِنُ إلى عباده من حيث لا يحتسبون، ويرفقُ بهم من حيث لا يشعرون، ويوفقُهم حين يسألونه وحين لا يسألون[2].

(١) ينظر: شرح الكافية الشافية: ابن مالك (محمَّد بن عبد الله بن مالك ت٦٧٢هـ)، تحقيق عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أمِّ القرى، دار المأمون للتراث، دمشق، (د.ت): ٢/ ٩٤٤، والجنى الداني في حروف المعاني: بدر الدين المراديّ (حسن بن قاسم بن عبد الله ت٧٤٩هـ)، تحقيق د. فخر الدين قباوة والأستاذ محمَّد نديم فاضل، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م: ٣٦٨، والإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين القزوينيّ (محمَّد بن عبد الرحمن بن عمر ت٧٣٩هـ)، تحقيق محمَّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣، (د.ت): ٨٨.

(٢) ينظر: تفسير أسماء الله الحسنى: الزَّجَّاج (إبراهيم بن السريّ بن سهل ت٣١١هـ)، تحقيق أحمد يوسف الدقَّاق، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٩٧٩م: ٤٤، ومجمع البيان في تفسير القرآن: الطبرسيّ (الفضل بن الحسن ت٥٤٨هـ) تقديم السيِّد محسن الأمين العامليّ، مؤسَّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٩٩٥م: ١٠/ ٦٥.

وهذا التداخل في نصِّ دعائها عليها السلام بين أُسلوب النداء وأُسلوب الشرط، واعتراض نداء آخر بين فعل الجزاء وما تعلَّق به، يشي بأنَّ الشرط والجزاء منعقدٌ بين العبد ومولاه، ويُنبِئُ بلطفِ المولى في تقبُّلِ شرطِ مَنْ دعاه، ومجازاتِه بأحسنِ الجزاء، من وجوبِ الجنَّة منزلًا، وغبطةِ الأوَّلين والآخِرين لرِفعة المقام.

المطلب الثالث

دلالة التقديم والتأخير في الدعاء

من المعلوم أنَّ انتظام التراكيب النحويَّة معقودٌ على مقتضى حال الكلام، فإنْ تعلَّقتْ حاجةُ المتكلِّم بتقديم رتبة بعضِ الكلامِ على بعض، كان ذلك هو الغاية والمطلب الذي يُبتغَى في عملية التواصل بين المتكلِّم والمخاطَب، لذا قال سيبويه: «كأنَّهم إنَّما يُقَدِّمون الذي بيانُه أهمُّ لهم، وهم بِبيانِه أعنى، وإنْ كانا جميعًا يُهِمَّانِهم ويَعنيانِهم»(١).

ونبَّه عبد القاهر الجرجانيّ (ت٤٧١هـ) على وجوب ذِكر العلَّة للتقديم والتأخير، وما يترتَّب على ذلك من دلالة العناية بالمتقدِّم، قال: «وقدْ وَقَعَ في ظُنونِ النَّاس أنَّه يكفي أنْ يُقال: إنَّه قُدِّمَ للعناية، ولأنَّ ذِكْرَه أهمُّ، مِن غيرِ أنْ يَذْكُرَ منْ أينَ كانت تلك العناية؟ وبِمَ كان أهمَّ؟»(٢).

وسأذكرُ هنا بعضَ الأمثلة على التقديم والتأخير الوارد في أدعية السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، مع محاولة بيانِ الغرضِ من ذلك التقديم، والدلالةِ المُتحصَّلَة منه بحسب ما يتوافر لي من قرائنَ لغويَّةٍ، فمن ذلك ما ورد عنها عليها السلام في تعقيب فريضة المغرب: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ القَائِلُونَ، وَالحَمْدُ للهِ لَا يُحْصِي نَعْمَاءَهُ العَادُّونَ**»(٣).

(١) كتاب سيبويه: ١/ ٣٤.

(٢) دلائل الإعجاز، الجرجانيّ (عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمَّد ت٤٧١هـ)، تحقيق محمود محمَّد شاكر، مطبعة المدنيّ، القاهرة، دار المدنيّ، جدَّة، ط٣، ١٩٩٢م: ١٠٨.

(٣) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٢٨٣.

هذه القطعة النفيسة المأثورة عنها (صلوات الله عليها)، قد ذُكرتْ عند أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، حيث يقول: «**الحَمْدُ للهِ اَلَّذِي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ اَلْقَائِلُونَ، وَلَا يُحْصِي نَعْمَاءَهُ اَلْعَادُّونَ**»(١)، والفرق بينهما تكرار (الحمد لله) في نصِّ السيِّدة الزَّهراء، ولا غرابة أن نجد مثل هذا التلاقي في النصوص عند آل البيت عليهم السلام، ذلك أنَّ المنبع الذي يستقون منه كلامهم المُعبِّر عن علمهم واحد.

وفي النصِّ تقدَّمَ المفعولُ به (مِدْحَتَهُ، ونَعْمَاءَهُ) على الفاعل (الْقَائِلُونَ، والْعَادُّونَ)، لغرض العناية بالمتقدِّم، فحمدُ الله لا يمكن أن يبلغه القائلون، وكيف يبلغون الوصفَ! وهم عاجزون عن إدراكه عزَّ وجلَّ، فقد «انْحَسَرَتِ الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ اَلْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغًا إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ»(٢)، ذلك أنَّ مَنْ صفتُه النقصُ «لا يقدرُ أنْ يصفَ علمَ العالم، ولا يمكنُ الإحاطةُ بكمالاته (تعالى) لغيره عزَّ وجلَّ، فينحصرُ مدحُه تعالى- كما ينبغي- بذاته المقدَّسة»(٣).

ففي التعبير بـ«**لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ القَائِلُونَ**»، «إشارةٌ إلى العجز عن القيام بحمده (سُبحانه) كما هو أهلُه ومُستَحَقُّه»(٤)، وفي التقديم والتأخير دلالةٌ على أنَّه لا مادحَ له في الأصل، فكان اختيار لفظ (القَائِلُونَ) مقصودًا، «لأنَّ فيه إشعارًا بأنَّ مَنْ صدرَ عنه مَدْحٌ، فهو قولٌ يليقُ بقائِلِه، وليس بمدحٍ حقيقيّ يليقُ به تعالى كما لا يخفى»(٥). وفي التعبير بالجمع (القَائِلُونَ) مزيَّةُ المبالغةِ بالوصف، إذ هم بمجموعهم قد عجزوا عن

(١) نهج البلاغة: تحقيق د. صبحي الصالح، مطبعة وفا، إيران، قم،١٤٢٩هـ، (الخطبة ١): ٣٩.
(٢) نهج البلاغة، (الخطبة ١٥٣): ٧٦٢.
(٣) بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، التستريّ (محمَّد تقي بن كاظم ت١٤١٥هـ)، منشورات مكتبة الصدر، طهران، (د.ت): ١١/ ٤.
(٤) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، الخوئيّ (حبيب الله بن السيِّد محمَّد الموسويّ ت١٣٢٤هـ)، تصحيح إبراهيم الميانجيّ، منشورات المكتبة الإسلاميَّة، طهران، ط٤، (د.ت): ١/ ١٨٧.
(٥) المصدر نفسه: ١/ ١٨٧.

البلوغ، فلم يُشرفوا على إدراك المدح، فما حيلتُهم للأخذ به والتمكُّن منه! مع انقطاع طريق الوصول إلى المعرفة الكاملة.

وفي التعبير بـ«**لاَ يُحْصِي نَعْمَاءَهُ العَادُّونَ**»، إشارةٌ إلى الوصف غير المتناهي، ذلك أنَّ الإحصاءَ إنَّما يصِحُّ في ما له حدٌّ، ولا حدَّ لنَعمائه عز وجل، وقد تقدَّم المفعول به هنا على الفاعل (العَادُّونَ) عنايةً بالمتقدِّم، وتفخيمًا لشأنه، فقد جلَّت نَعماؤُهُ عن عدِّ العادِّين؛ لكثرتها غير المتناهية، والقولُ في اختيار (العَادُّونَ) بلفظ الجمع كالقول في(القائلون)، فقد عجزَ الجمعُ عن أن يطيقوا الإحصاء، فكيف بالمفرد وهو أقلُّ طاقةً وأكثر عجزًا!.

وهذا النصُّ المذكور قد اقتبسته الزَّهراء عليها السلام من القرآن الكريم، إذ قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٧-١٨]، إلَّا أنَّ تأدية المعنى اختلف بين أُسلوبٍ شرطيّ في الآية الكريمة المذكورة، والإخبار في دعاء السيِّدة الزَّهراء: «**وَالحَمْدُ للهِ الذي لاَ يُحْصِي نَعْمَاءَهُ العَادُّونَ**»، ولعلَّ الفرقَ بينهما يرجع إلى اختلاف السياق الخارجيّ في النصِّين، فالآية الكريمة في مقام تذكير اللاهين عن نعمة الله، المنشغلين عن وجوب حمده عليها، فكان استعمالُ الأُسلوب الشرطيّ- بعد ذِكر عدَّة تفضُّلات للهِ على عباده، ثمَّ تبكيتهم على غفلتهم عن مدح القادرِ الوحيدِ على خلق تلك النعم، المُوجِدِ لها بلا استحقاقٍ منهم عليه[1]- مناسبًا لهذا المقام، لِما فيه من حجاجٍ وإقناعٍ وترتّبِ نتيجةِ الجزاء على سببها وهو الشرط، وربطٍ للجواب بالشرط بأداة الشرط (إنْ) بعد أن كانا مُنفصلَينِ في المعنى، إذ لا صلة بينهما بادئ ذي بدء، فـ: ﴿تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا

(١) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): فخر الدين الرازي (محمَّد بن عمر بن الحسن ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ: ٢٠/ ١٩٥، والبحر المحيط: أبو حيَّان النحويّ (محمَّد بن يوسف ت٧٤٥هـ)، تحقيق صدقي محمَّد جميل، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ: ٦/ ٤٤١.

﴿تُحۡصُوهَآ﴾، ليس كلامًا تامًّا يحسن السكوت عليه، لانفصال الجملتين، فإن دخلَ عليهما حرفُ الشرط تمَّ الربطُ بينهما وصار الكلام مفيدًا، ومنه يُفهَمُ شدَّةُ الصلة بين الأداة وضميميها[1].

أمَّا الإخبارُ في دعاء السيِّدة الزَّهراء، فهو إقرارٌ مِن مُقرٍّ عارفٍ بأنَّ جنسَ نِعَمِ الله لا تُحصَى، فكيف بمجملها وتفاصيلها، ومصداقُ ذلك نجدُه في دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة: «**لو حاولتُ واجتهدتُ مدى الأعصارِ والأحقابِ لو عُمِّرْتُها أنْ أُؤدِّيَ شُكرَ واحدةٍ مِن أنْعُمِكَ ما استطعتُ ذلك إلا بِمنِّكَ المُوجِبِ عليَّ شُكرًا آنفًا جديدًا وثناءً طارفًا عتيدًا، أجَلْ، ولو حَرَصْتُ والعادُّونَ مِن أنامِكَ أن نُحصي مدى إنعامِك سالفِهِ وآنفِهِ لَمَا حصرناهُ عَدَدًا ولا أحصيناهُ أبَدًا، هيهات، أنّى ذلك وأنتَ المُخبِرُ عن نفسِكَ في كتابِكَ الناطقِ والنبأ الصادقِ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾**»[2]، فكان الإخبارُ وسيلةً للإقرار بالأمر، وذريعةً لاستجابة الدعاء، فمَنْ لا تُحصَى نَعماؤه على عباده مع عدم استحقاقهم لها، وانشغالهم عن تأدية واجب مدحه عليها، ألطفُ بعبده السائلِ لطلبته، المتوسِّلِ لها بافتتاح كلامه بـ(الحمد لله).

ثمَّ إنَّ أُسلوب التقديم والتأخير، بما كشف عن عناية الداعي بتقديم المفعول به (نعمائه) على الفاعل (العادُّون)، يُؤذِن بشدَّة تعلُّق الداعي بإظهار صفة العجز عن تأدية شكر المُنعِم، فكان الافتقارُ إلى تحقيق ذلك سبيلًا لإنجاح المطلوب، كما ورد في دعاء الرسول الأكرم: «**يا غِنَائِي عِندَ افْتِقارِي**»[3].

ومن أمثلة التقديم والتأخير في أدعية السيِّدة الزَّهراء أيضًا، قولها في تعقيب صلاة العصر: «**اللَّهُمَّ إلى رحمتِكَ رفعتُ بَصَري، وإلى جُودِكَ بسطتُ كَفِّي، فلا تَحرمني وأنا**

(١) ينظر: شرح المفصَّل: ابن يعيش (يعيش بن عليّ بن يعيش ت٦٤٣هـ)، قَدَّمَ له د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ٢٠٠١م: ٥/ ١٠٦.

(٢) بحار الأنوار: ٩٥/ ٢١٨.

(٣) بحار الأنوار: ٩١/ ٣٨٥.

أسألُكَ، ولا تُعذبني وأنا أستغفرُكَ»[1].

فقد تقدّمَ الجارُّ والمجرور (إلى رحمتِكَ، وإلى جُودِكَ) على الجملة الفعليَّة بتمام أجزائها (رفعتُ بَصَري، وبسطتُ كَفِّي)، والجار والمجرور متعلِّقان بالفعل المؤخَّر عنهما، وفي هذا التقديم الدلالةُ على الاختصاص، ذلك أنَّ عناية المتكلِّم قد تعلَّقت بالجزء المتقدِّم، فهو يطمعُ بالرحمة ويستشعرُ وجودَها في كلِّ شيء، وتمتلئُ روحُه بنفحاتها العاطرة، فينطقُ بها أوَّلًا ويشخصُ ببصره إلى مقامها الرفيع ومكانتها السامية عند المدعوِّ المعظَّم المُفخَّم، ويلتمسُ جودَه، فيراه في كلِّ شيء وفي كلِّ وقتٍ وزمانٍ، فيقدِّمه بين يدي طلبته، ويبسط كفَّ التضرُّع والتوسُّل، لينال مطلبه.

فالزَّهراء عليها السلام ترشدنا بهذا النسق الكلاميّ المميَّز القائم على الاختصاص بالتقديم والتأخير إلى أنَّ الداعي عليه أن يتَّخذَ تقديمَ الصفات الإلهيَّة المعظَّمة وسيلةً للثقة بنجاح الطَّلِبَة، فرحمةُ الله الواسعة وجُودُه غيرُ المتناهي كفيلان بقطع الحرمان في حال السؤال، ونهي العذاب في حال الاستغفار. فضلًا عن أنَّ تحقُّقَ الثِّقةِ بمقام إجابةِ الداعي في حال تلبُّسِه بالسؤال مُوجبٌ لحصول المراد، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وأنَّ التلبُّسَ بحال الاستغفار موجبٌ للتوبة عن الذنب، ومعها يرتفعُ العذابُ، قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

ومن الأمثلة الأُخَر للتقديم والتأخير، قولها عليها السلام لطلب مكارم الأخلاق: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لِي**»[2].

في النصِّ الفاطميّ تقديم لجواب الشرط (أَحْيِنِي، و تَوَفَّنِي) على أداة الشرط وفعل الشرط وما تعلَّق بهما (مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وإِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لِي)، وقد قدَّمت

(١) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٢٠٥.
(٢) بحار الأنوار: ٩١/ ٢٢٥، وميزان الحكمة: ٧/ ١٤٤، والصحيفة الفاطميَّة: ٢٣.

الزَّهراءُ قبل الطلب بهذين التركيبين، مقدمةً مُمهِّدةً لنوع الطلب، مُوجِبَةً لقبوله، اشتملت على نداءٍ مفخَّمٍ لمدعوٍّ له صفاتٌ عظيمةٌ يناسبها افتتاحُ الدعاء بـ(اللَّهُمَّ)، والتوسُّلُ والاستشفاعُ بالعلم الباطن الذي استأثر به سبحانه وتعالى، وغيَّبَه عن مخلوقاته، والتوسُّل والاستشفاع بالقدرة المهيمنة على الخلق، ثمَّ صياغة الطلب بأُسلوبٍ شرطيٍّ، مفادُه تفويضُ الداعي شؤونَه كلَّها إلى الله العليم الحكيم، فهو المتصرِّفُ فيها بما يُحقِّق الخيرَ للعبد في حياته ومماته.

ولربَّما ينفع هنا ذكرُ تحقيقٍ نحويٍّ في مثل هذا التقديم الوارد في الدعاء، إذ من المعلوم أنَّ الشرط تركيب نحوي، مفاده «وقوع الشيء لوقوع غيره»[1]، أو: «تعليقُ شيءٍ بشيءٍ، بحيث إذا وُجِدَ الأوَّلُ وُجِدَ الثاني»[2]، وتتكوَّن جملةُ الشرط في الكلام من ثلاثة عناصر أساسيَّة، فضلًا عن الروابط التي تربط تلك العناصر المكونة لها، فتتركَّب تلك العناصر مع بعضٍ، لتشكِّل هذا الأُسلوب وتميِّزه من غيره، وهي لا تستقلّ عن بعضها، بل تتَّحد هذه الجملة المتكوِّنة من الأداة وفعل الشرط وجوابه، لتكوِّن فكرةً، أو معنًى تامًّا.

غير أنَّه يُمكِنُ تقريرُ أنَّ ترتيبَ (الأداةِ ففعلِ الشرطِ)، من الرتب المحفوظة في النظام النحويّ التركيبيّ، فإن اختلت يختلُّ التركيب[3]، أمَّا الجواب فليس كذلك، بل قد تتغيرَّ رتبته بتقدُّمه على الأداة، ومستندُ هذا التقرير الاحتكام إلى كثرة السماع الذي ورد بتقديم الجواب على الأداة[4]. وهذا التقديم كأنَّه يؤدِّي إلى «ولادةٍ جديدةٍ للأسلوب الشرطيّ،

(١) المقتضب: ٢ / ٤٦ .

(٢) التعريفات: الشريف الجرجانيّ (عليّ بن محمَّد بن عليّ ت٨١٦هـ)، ضبطه وصحَّحه جماعة من العلماء، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م: ١٢٥ .

(٣) ينظر: اللغة العربيَّة معناها ومبناها: د. تمَّام حسَّان، عالم الكتب، بيروت، ط٥، ٢٠٠٦م: ٢٠٧ .

(٤) ينظر: المقتضب: ٢/ ٦٨، والإنصاف في مسائل الخلاف، (م٨٧): ٢/ ٥١٧ .

وذلك لأنَّ دلالتَه تختلفُ عن دلالة النمطِ الذي تكونُ عناصرُه محفوظةَ الرُّتب»[1].

وقد اختلف النحويُّون في أحكام هذا التقديم، أ يُعدَّ المتقدّم هو الجواب، أم إنَّ الجواب قد حُذِفَ ودلَّ عليه شيء؟ فالبصريُّون لا يجيزون تقدُّمَ الجواب على الأداة وفعل الشرط، ذلك أنَّ جواب الشرط يكون محذوفًا إنْ تقدَّم على أداة الشرط وفعل الشرط، كما في: «أنت ظالمٌ إنْ فعلْتَ»، وأنَّ المذكور المتقدِّم دليلٌ عليه، ذلك أنَّ أدوات الشرط عندهم لها الصدارة في الكلام، وأنَّ رتبة الجزاء تأتي بعد رتبة الشَّرط، لأنَّ الشرط سببٌ في الجزاء، وأنَّ الجوازم من العوامل الضعيفة، والعامل الضعيف لا يقوى على العمل وهو متأخِّر عن معموله، واشترطوا صحَّة التقديم في حال كون فعل الشرط ماضيًا في اللفظ أو في المعنى، إذ يجوز أنْ يقال عندهم: «آتِيكَ إنْ أتيتَني»، ولا يجوز أنْ يقال: «آتيك إنْ تأتني»، والسبب في ذلك أنَّ فعل الشرط في الأُولى «أتيتني» ماضٍ، وفي الثانية «تأتني» مضارع، فَحُذِفَ الجواب، وما تقدم من شبه الجواب وهو «آتيك» ليس جوابًا إنَّما هو دالٌ عليه، أي «آتيك إن أتيتني آتيك»[2]. أمَّا الكوفيُّون فيرون أنَّه لا حذفَ لجواب الشرط، إنَّما هو عينُه المتقدِّمُ على الأداة[3]، ويرى بعض المحدثين أنَّه على الرغم من هذه الولادة الجديدة أو التغيير الذي طرأ على الجملة الشرطيَّة وما يترتب على ذلك من دلالة، يجب المحافظة على الرُّتب وإن تقديرًا[4]. ومنهم مَنْ يرى أنَّ هذا التقديم في

(١) أُسلوب الشرط في نهج البلاغة (دراسة نحويَّة تطبيقيَّة): رسالة ماجستير، الباحثة يُسرى خلف سمير، الجامعة المستنصريَّة، كليَّة الآداب، ٢٠٠٩ م: ١٨٨.

(٢) ينظر: كتاب سيبويه: ٣/ ٦٦، والمقتضب: ٢/ ٦٨، والخصائص: ابن جنِّي (أبو الفتح عثمان ابن جنّي ت٣٩٢هـ)، الهيأة المصريَّة العامَّة للكتاب، ط٤، (د.ت): ٢/ ٣٨٩-٣٩٠، والمفصَّل في صنعة الإعراب: الزمخشريّ (أبو القاسم محمود بن عمرو ت٥٣٨هـ) تحقيق د.عليّ بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٣م: ٤٤١، وهمع الهوامع: السيوطيّ (جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر ت٩١١هـ) تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقيَّة، مصر، (د.ت): ٢/ ٥٥٩.

(٣) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف، (م٨٧): ٢/ ٥١٤.

(٤) ينظر: في النحو العربيّ نقد وتوجيه: د. مهدي المخزوميّ، دار الرائد العربيّ، بيروت، ط٢،=

عناصر الجملة الشرطيَّة ولاسيما في الأدوات (مَنْ، ما، متى، أينما) يُحوِّل أداة الشرط إلى اسم موصول يُعرَبُ فاعلًا، ومعنى ذلك أنَّ الجملة تتحوَّل إلى جملة فعليَّة بعد أنْ كانت اسميَّة قبل التقديم، فيذهب بذلك معنى الشرط منها(١).

وأقول: إنَّ الثابت في الأحكام النحويَّة أنَّ العدول بالتراكيب عن الترتيب الأصليّ يوجِب تغيُّرًا في الأحكام وفي المعنى، ولنا أن نتساءل عن هذا التغيُّر في تركيب الشرط المعدول هذا، ولربَّما يكون الجواب عن تغيُّر الحكم بأنَّ الجملة الشرطيَّة التي تقدَّم فيها ما يُشعِرُ بجواب الشرط هي جملة ناقصة من حيث الصنعة النحويَّة، حُذف منها الجواب، لكنَّها تامَّة الفائدة، مكتفية بترتيبها الجديد، ذات دلالة مميَّزة مختصَّة بالعناية بالجواب المتقدِّم، فبالتقديم يحصلُ تخصيصٌ، أو اهتمامٌ بالمقدَّم أو عنايةٌ أكبر(٢)، وهذا يختلف عن معنى الجملة قبل التقديم.

نتائج البحث

وصل البحث إلى النتائج الآتية:

١. رصد الباحثُ في أدعية السيِّدة الزَّهراء عليها السلام أنَّها تُكثِرُ عند افتتاح دعائها من استعمال (اللَّهُمَّ)، و(سُبحانَ)، وهما تركيبان لغويَّان دالَّان على التفخيم والتنزيه، مِمَّا يشكِّل لمحةً أُسلوبيَّةً بيانيَّةً ظاهرةً في كلامها عليها السلام.

٢. كشف البحث عن أنَّ استعمال (اللَّهُمَّ)، له موردٌ خاصٌّ يناسبُ ما في معناه من تفخيم وتعظيم، لذا يقتصر النداء به ويختصُّ في موارد الجلال والعظمة، وفي عظائم الأمور، وهذا ما ثبتَ استعمالُه في القرآن الكريم، وعند السيِّدة

=١٩٨٦م: ٢٨٩.

(١) ينظر: من وظائف الصوت اللغويّ: أحمد كشك، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م: ٦٨.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ١/ ١٠٧، والإيضاح في علوم البلاغة: ٢/ ٥٠، ١٦٥.

الزَّهراء عليها السلام، إذ ورد في أدعيتها للتوسُّل والاستشفاع بموارد العظمة والتفخيم، استيقانًا منها بأنَّ ذلك أقربُ لقبول الدعاء مهما عَظُمَ.

٣. ورد في أدعية الزَّهراء عليها السلام استهلالُ طلب الدعاء وختمه بالصلاة على محمَّد وآله الطيِّبين الطاهرين، وفي ذلك إرشاد لنا إلى اتِّباع هذا الأُسلوب، لِما فيه من الإذنِ باستجابة الدعاء، وضمان قبوله، وقد ورد النصُّ بذلك في أحاديث العترة الطاهرة عليهم السلام.

٤. في نصوص أدعية الزَّهراء عليها السلام، نجد افتتاح الدعاء بلفظ (سُبحانَ) الدالِّ على تنزيه الله عن كلِّ ما يخطر في الذهن من النقص، مع أنَّ الكلام قبله لم يُسبَق بما يستوجب التنزيه، وفي ذلك الإشارةُ إلى العناية بما ستذكره من أوصاف بعد هذا التنزيه، فكأنَّها تُهيِّئُ أذهانَ المتلقِّين لتلقِّي أوصافٍ عظيمةٍ ستمليها عليهم، وجبَ لها أن تكون عقولُهم وقلوبُهم صافيةً سليمةً لِتقبُّل هذه الفيوضات الإلهيَّة، والتعجُّب من قدرته وأوصافه، فهو عزَّ وجلَّ صاحبُ العزِّ العالي المرتبةِ المرتفع في عُلاه، وهو صاحبُ المهابةِ الساميةِ العظيمةِ، وهو صاحبُ المُلْكِ المُعظَّمِ الكبيرِ الأزليِّ.

٥. كشف البحث عن مزيَّة جليَّة في أدعية السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، مفادُها تداخلُ الأساليب الكلاميَّة، وأنَّ هذا التداخلَ يتكرَّرُ مراتٍ عدَّةً، ومعه يمكنُ أن تبرزَ سِمةٌ أُسلوبيَّةٌ تستحقُّ أنْ يُنبَّه عليها، وعلى الدلالات المترتِّبةِ على ذلك التداخل، وقد حاولَ الباحثُ استقصاءَ الدلالاتِ المترتبة على تداخل أساليب النداء والاستفهام والنهي والشرط في نصوصٍ مختارةٍ من أدعيتها عليها السلام.

٦. حلَّلَ الباحثُ بعضَ التراكيب التي اشتملت على التقديم والتأخير في أدعية السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، وحاولَ بيانَ الغرضِ من ذلك التقديم، والدلالةِ المُتحصَّلَةِ منه، بحسب ما توافر له من أدلَّة لغويَّة معتبرة.

٧. وازنَ الباحثُ بين البنية التركيبيَّة لبعض أدعية السيِّدة الزَّهراءعليها السلام، والبنية التركيبيَّة للنصِّ القرآنيّ الذي اقتبست منه الزَّهراء دعاءها، وبيَّنَ الفرقَ بين التركيبَين من حيث انتظام الكلام واختلاف دلالته، بحسب الغرض المقصود في كلِّ تركيبٍ والسياق الخارجيّ الذي يَحكمُ كلَّ واحدٍ منهما.

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. أمالي ابن الحاجب: ابن الحاجب (عثمان بن عمر بن أبي بكر ت٦٤٦هـ)، تحقيق د. فخر صالح سليمان قدارة، دار عمار، الأردن، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٩م.

٢. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويِّين البصريِّين والكوفيِّين: أبو البركات الأنباريّ (كمال الدين عبد الرحمن بن محمَّد ت٥٧٧هـ)، تحقيق محمَّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجاريَّة الكبرى، مصر، (د.ت).

٣. الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين القزوينيّ (محمَّد بن عبد الرحمن بن عمر ت٧٣٩هـ)، تحقيق محمَّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣، (د.ت).

٤. بحار الأنوار: محمَّد تقي المجلسيّ (ت١٠٧٠هـ)، مؤسَّسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٥. البحر المحيط: أبو حيَّان النحويّ (محمَّد بن يوسف ت٧٤٥هـ) تحقيق صدقي محمَّد جميل، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

٦. البلد الأمين والدرع الحصين: الكفعمي(تقي الدين إبراهيم بن علي بن الحسن العاملي ت٩٠٠هـ) منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٧. بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة: التستريّ (محمَّد تقي بن كاظم ت١٤١٥هـ)، منشورات مكتبة الصدر، طهران، (د.ت).

٨. التعريفات: الشريف الجرجانيّ (عليّ بن محمَّد بن عليّ ت٨١٦هـ)، ضبطه وصحَّحه جماعة من العلماء، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

٩. تفسير أسماء الله الحسنى: الزَّجَّاج (إبراهيم بن السريّ بن سهل ت٣١١هـ)، تحقيق أحمد يوسف الدقَّاق، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٩٧٩م.

١٠. الجنى الداني في حروف المعاني: بدر الدين المراديّ (حسن بن قاسم بن عبد الله ت٧٤٩هـ)، تحقيق د. فخر الدين قباوة والأستاذ محمَّد نديم فاضل، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

١١. الخصائص: ابن جنِّي (أبو الفتح عثمان بن جنِّي ت٣٩٢هـ)، الهيأة المصريَّة العامَّة للكتاب، ط٤، (د.ت).

١٢. دلائل الإعجاز: الجرجانيّ (عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمَّد ت٤٧١هـ)، تحقيق محمود محمَّد شاكر، مطبعة المدنيّ، القاهرة، دار المدنيّ، جدَّة، ط٣، ١٩٩٢م.

١٣. شرح الرضيّ على الكافية: الرضيّ الاستراباديّ (رضيّ الدين محمَّد بن الحسن ت٦٨٦هـ)، تحقيق وتعليق د. يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط٢، ١٩٩٦م.

١٤. شرح الكافية الشافية: ابن مالك (محمَّد بن عبد الله بن مالك ت٦٧٢هـ)، تحقيق عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أمِّ القرى، دار المأمون للتراث، دمشق، (د. ت).

١٥. شرح المفصَّل: ابن يعيش (يعيش بن عليّ بن يعيش ت٦٤٣هـ)، قَدَّمَ له د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٦. الصِّحاح (تاج اللغة وصحاح العربيَّة): الجوهريّ (إسماعيل بن حمَّاد ت٣٩٣هـ)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطَّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٨م.

١٧. الصحيفة الفاطميَّة الجامعة: جمعها ونشرها السيِّد محمَّد باقر موحد الأبطحيّ، مطبعة الاعتماد، قم المقدَّسة، ط١، ١٤٢١هـ.

١٨. العين: الخليل (الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيديّ ت١٧٠هـ) تحقيق د. مهدي المخزوميّ، ود. إبراهيم السامرَّائيّ، مكتبة الهلال، بيروت، (د.ت).

١٩. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبيّ على الكشَّاف): الطيبيّ (الحسين بن عبد الله ت٧٤٣هـ) مقدِّمة التحقيق: إياد محمَّد الغوج، القسم الدراسيّ: د. جميل بني عطا، المشرف العام على الإخراج العلميّ للكتاب د. محمَّد عبد الرحيم، نشر جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط١، ٢٠١٣م.

٢٠. فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة: ابن طاووس (رضيّ الدين عليّ بن موسى ت٦٦٤هـ)، تحقيق غلام حسين المجيديّ، مطبعة مكتب الإعلام الإسلاميّ، مركز انتشارات، قم المقدَّسة، ط١، ١٣٧٧هـ.

٢١. في النحو العربيّ نقد وتوجيه: د. مهدي المخزوميّ، دار الرائد العربيّ، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.

٢٢. كتاب سيبويه: سيبويه (عمرو بن عثمان بن قنبر ت١٨٠هـ)، تحقيق عبد السلام محمَّد هارون، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.

٢٣. الكشَّاف عن خصائص غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشريّ (جار الله محمود بن عمر ت٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٤٧م.

٢٤. لباب التأويل في معاني التنزيل: الخازن (عليّ بن محمَّد بن إبراهيم ت٧٤١هـ)، تصحيح محمَّد عليّ شاهين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٢٥. اللغة العربيَّة معناها ومبناها: د. تمَّام حسَّان، عالم الكتب، بيروت، ط٥، ٢٠٠٦م.

٢٦. مجمع البيان في تفسير القرآن: الطبرسيّ (الفضل بن الحسن ت٥٤٨هـ)، تقديم السيِّد محسن الأمين العامليّ، مؤسَّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

٢٧. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام الأنصاريّ (عبد الله بن يوسف ابن أحمد ت٧٦١هـ)، تحقيق د. مازن المبارك، ومحمَّد عليّ حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٩٨٥م.

٢٨. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): فخر الدين الرازي (محمَّد بن عمر بن الحسن ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٢٩. المفصَّل في صنعة الإعراب: الزمخشريّ، تحقيق د. عليّ بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٣٠. مقاييس اللغة: ابن فارس (أحمد بن فارس بن زكريَّا ت٣٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمَّد هارون، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٩م.

٣١. المقتضب: المبرِّد (أبو العبَّاس محمَّد بن يزيد ت٢٨٥هـ)، تحقيق محمَّد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).

٣٢. من وظائف الصوت اللغويّ، أحمد كشك، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.

٣٣. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: الخوئيّ (حبيب الله بن السيِّد محمَّد الموسويّ ت١٣٢٤هـ)، تصحيح إبراهيم الميانجيّ، منشورات المكتبة الإسلاميَّة، طهران، ط٤، (د.ت).

٣٤. ميزان الحكمة: محمَّد الريشهريّ، دار الحديث للطباعة والنشر، قم المقدَّسة، ط١، ١٤٢٢هـ.

٣٥. نهج البلاغة: تحقيق د. صبحي الصالح، مطبعة وفا، إيران، قم، ١٤٢٩هـ.

٣٦. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: السيوطيّ (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت٩١١هـ)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقيَّة، مصر، (د.ت).

الأطاريح والرسائل:

١. أُسلوب الشرط في نهج البلاغة (دراسة نحويَّة تطبيقيَّة): رسالة ماجستير، الباحثة يُسرى خلف سمير، الجامعة المستنصريَّة، كليَّة الآداب، ٢٠٠٩م.

«اعلموا أنَّي فاطمة»
دراسة في عرفانيَّة اللغة وقصديَّة الخطاب

أ.د. سامي الماضي
الجامعة المستنصريَّة/ كليَّة الآداب

ملخَّص البحث

إنَّ البحث في خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام ليس باليسير؛ لانَّ كلامها يمثِّل بلاغة في كمال الانسجام والاتِّساق في المعاني، والتماسك في التراكيب، ولغة عالية في مصاديقها، لذلك تمثَّلت محاولة البحث المتواضع في الوقوف على اللغة العرفانيَّة، وقصديَّة الخطاب في الخطبة الفدكيَّة، التي تجسَّدت فيها الدلائل والمقاصد الخطابيَّة؛ للوقوف عند حقائق قد حاول بعضهم توجيهها نحو طريقٍ آخر، عِبر مجموعة مكوِّنات ثقافيَّة وأنساق دلاليَّة تنسجم مع طبيعة الانحرافات في مسار التاريخ، بحسب طبيعة البيئة الاجتماعيَّة في استغلال حالة ضعف في المجتمع.

وقد حاول البحث الولوج في ملفوظات خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام؛ ليبرز تلك الحقائق التي تتَّسم بتصويرها في ذلك الخطاب، عبر منهج تحليليّ اعتمد على مسارَين في ذلك، وهما: عرفانيَّة اللغة، وقصديَّة الخطاب، والأوَّل يبحث في إدراك المُخاطِب لمواقف المتلقِّي في الخطاب المفتَرض بين طرفَي الخطاب، عبر عمليَّة التواصل اللغويّ، محاولاً تصوير الملفوظات الكلامية لتحقيق المعاني وإيصالها بشكل مباشر أو غير مباشر للمتلقِّين عامَّة، ولطرف الخطاب المعنيّ خاصَّة.

وأمَّا المعيار الثاني، فقد حاول البحث أن يُظهر للقارئ الكريم قصديَّة الخطاب ودلالته عند المُخاطِب، بما يريد أن يبلِّغه للمتلقِّي، عبر استعماله لأساليب التراكيب العربيَّة، نحو أسلوب النداء، وأسلوب الاستفهام، والادلَّة الحجاجيَّة في تُدرج المعاني المفتَرض إيصالها الى المتلقِّين، فكان إبداع المتكلِّم فوق ما يتصوَّره الذِّهن؛ لأنَّ السيِّدة الزهراء عليها السلام، أي منبعه.

الكلمات المفتاحيَّة: السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، عرفانيَّة اللغة، قصديَّة الخطاب.

المقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين وأفضل الصلاة وأتمُّها على أبي القاسم محمَّد وعلى آله وصحبه الغرِّ المنتجبين ومن تبعهم بإحسانٍ الى يوم الدين. أمَّا بعدُ..

فتمثِّل اللغة وعاءً للفكر الذي هو محور عمليَّة التواصل اللغويّ بين طرفَي الخطاب؛ إذ يعتمد ذلك على قوَّة إدراك المخاطب في إيصال المعنى المنشود في خلجة أفكاره إلى المتلقِّي، عبر حوارٍ مباشرٍ، أو غير مباشر، متمثِّلًا بالكشف عن العلاقات التركيبيَّة في النشاط الذهنيّ والاستعمال اللغويّ، فهو يُبيِّن التصوُّر الذهنيّ لجواهر المعاني المراد نقلها من الأدراك الذهنيّ للمتكلِّم عبر مجموعة عناصر لغويَّة متضافرة؛ لتنتج كلامًا تواصليًّا للمتلقِّي، وبالتأكيد هذا يتمثَّل في المرجعيَّات المعرفية التي يمتلكها المتكلِّم، فهي التي تحدِّد طبيعة تلك العمليَّة التواصليَّة، مدعمة عبر منظومة معرفيَّة اتَّسمت بالإدراك، والفهم، والمعرفة، وقدرة الإبلاغيَّة، وهذا جلُّه يتعلَّق بالعرفان اللغويّ.

ولعلَّ قول الراغب الأصفهانيّ (ت٥٠٢هـ): «المعرفة والعرفان: إدراك الشيء بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثرِهِ، وهو أخصُّ من العلم، ويضادّه الإنكار، ويُقال فلان يعرفُ الله، ولا يقالُ يعلمُ الله متعدِّيًا إلى مفعولٍ واحد، لـمَّا كان معرفة البشر لله هي بتدبُّرِ آثاره دون إدراك ذاته»[1].

فالإدراك هو عمليَّة ذهنيَّة، والعرفان هو تلك العمليَّة الذهنيَّة المتجلِّية عبر ذلك الأثر الملحوظ بالفكر والتدبُّر، وما ينتج عن تلك الملحوظتَين يتجلَّى بتصوُّرات ورموز

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهانيّ (ت٥٠٢هـ) ضبطه وراجعه محمَّد خليل، دار المعرفة، بيروت، ط٦، ٢٠١٠: ٣٣٤.

تسمَّى اللغة.

ولم يبتعد ابن منظور(ت٧١١هـ) عن ذلك التصوُّر اللغويّ العرفانيّ، إذ يقول: «العرفان: العلمُ.. ورجل عروفٌ وعروفةٌ: عارف يَعْرِفُ الأمور، ولا يُنكر أحدًا رآه مرَّة.. والعارف بمعنى مثل عليم وعالم، ومنه قول الشاعر:

أَوَ كُلَّما وَرَدَت عُكاظَ قَبيلةٌ
بَعَثُوا إليَّ عَرِيفَهُم يَتَوَسَّمُ

أيْ عارفهم»[١].

ويمكن القول إنَّ العلاقة بين ما يتصوّر في الذهن من معانٍ وما ينطق به من لفظٍ، هي علاقة الجزء بالكلِّ؛ لانَّ المعاني الكامنة في الذهن تترجمها مجموعة من الألفاظ اللامتناهية بحسب سياق الموقف، إذ هو من يبرز لفظة دون أخرى، فيكون اللفظ هو المقابل الحسِّيّ المنطوق للتعبير عن المعنى، وعليه يتمثَّل بكونه فكرة ذهنيَّة مجرَّدة عن الجانب الحسِّيّ، فيكون اللفظ هو المنطوق الذي يتكلَّم به اللسان أيًّا كان قدرهُ وكمَّهُ، ولذلك فإنَّ اللفظ هو الأداة الإشاريَّة إلى تلك الفكرة الذهنيَّة التي يُراد لها التعبير عن فكرةٍ ما[٢].

وهذا يستدعي أنْ يكون الاستعمال معيارًا للعرفانيَّة اللغويَّة في تحديد تلك المعاني الذهنيَّة، والتي ينبغي أنْ يكون بين المخاطب والمتلقِّي تعاقدًا ذهنيًّا في عمليَّة التواصل اللغويّ تبعًا لسياق الموقف الذي يحدِّد تلك العمليَّة التواصليَّة[٣].

(١) لسان العرب، ابن منظور (ت٧١١هـ)، حقَّقه وعلَّق عليه عامر أحمد، دار الكتب العلميَّة، ط٢، بيروت، ٢٠٠٩، مادَّة عرف: ٩/ ٢٨٢.

(٢) ينظر: الشكل والدلالة دراسة نحويَّة للفظ والمعنى، د. عبد السلام السيِّد حامد، دار كنوز المعرفة، عمَّان، ط١، ٢٠١٦: ٢١.

(٣) ينظر: أثر المعنى العرفانيّ في التفكير النحويّ عند سيبويه، د. سامي الماضي، مجلَّة المجمع العلميّ العراقيّ، ج٤، م٦٧، بغداد، ٢٠١١: ١٥١.

المحور الأوَّل

مرجعيَّات المعرفة وعرفانيَّة اللغة

إنَّ مرجعيَّة المعرفة هي أساس محوريّ في التعبير عن أيِّ فكرة ذهنيَّة تتجلَّى في الخطاب للتعبير عن تلك المكامن اللغويَّة المتمثِّلة في الحوار المعرفيّ في عمليَّة التواصل اللغويّ، ومن هذا المنطق فقد تمثَّلت العرفانيَّة اللغويَّة في الإدراك الذهنيّ لمعرفة آليَّات الخطاب التي جاءت في خطبة السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام عندما بدأت بالحمد والثناء لله تعالى قائلةً:

«**الْحَمْدُ للهِ عَلى ما أَنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ على ما أَلْهَمَ، وَالثَّناءُ بِما قَدَّمَ، مِنْ عُمومِ نِعَمٍ ابْتَدَأها، وَسُبُوغِ آلاءٍ أَسْداها، وَتَمامِ مِنَنٍ والاها، جَمَّ عَنِ الإحْصاءِ عَدَدُها، وَنأى عَنِ الْجَزاءِ أَمَدُها، وَتَفاوَتَ عَنِ الْإدْراكِ أَبَدُها، وَنَدَبَهُمْ لِاسْتِزادَتِها بالشُّكْرِ لِاتِّصالِها، وَاسْتَحْمَدَ إلَى الخلائق بِإجْزالِها، وَثَنَّى بِالنَّدْبِ إلى أَمْثالِها**»[1].

إنَّ الحمد على نِعم الله لا يكون من دون قوَّة دلاليَّة تُدرَك بالذِّهن أوَّلًا؛ ليعبِّر عنها اللسان باللفظ، فهي قائمة على تجاذب العناصر الذهنيَّة الداخليَّة الكامنة في ذهن المتكلِّم، مع عناصر سياقيَّة تمثِّل دلالات لذلك الحسِّ اللغويّ؛ لأنَّها تمثِّل حركيَّة للمعاني المراد إيصالها للمخاطَب[2]، إذ تتمثَّل في تلك المعارف في معرفة الله عزَّ وجلَّ، ويمكن أنْ نلحظ

(١) شرح الخطبة الفدكيَّة، إعداد قسم الشؤون الدينيَّة، شعبة التبليغ الإسلاميّ، العتبة العلويَّة المقدَّسة، النجف الاشرف، ط١، ٢٠٢٠: ٩-١١.

(٢) ينظر: حركيَّة المعنى النحويّ مقاربة عرفانيَّة لمقولة الربط، د. منجي العمريّ، دار كنوز المعرفة،=

الآتي: «**الحمد للهِ على ما أنعم**» جملة ابتدائيَّة فيها تعالق نصّيّ قرآنيّ مع ما حمد الله، حكاية على لسان حال المؤمن في سورة الفاتحة قوله ﷻ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]، إذ وردت معاني الحمد ما يقرب من أحدى وعشرين مرَّة في القرآن، وهذا دليل على معرفة السيِّدة الزَّهراء بالقرآن الكريم معرفة تامَّة، وهي تستلهم معاني الحمد، ثمَّ نجد تكرار مرجعيَّة النصِّ، ولكن عبر أسلوب عود الضمير بمدارجه المتباينة بين (الضمير المتَّصل، والضمير المستتر) موظفًا توظيفًا نحويًّا دلاليًّا بين مواقع الإسناد من الرفع والنَّصب والجرِّ، نحو: «أنعم، وله، ألهم، قدَّم، ابتدأها، أسداها، والاها».

وممَّا يُلفت النظر في دلالات الحمد أنَّ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام قد استعملت ملفوظات تدل على العرفانيَّة اللغويَّة في عبارة «وتفاوت الادراك أبَدُها»، وهذا يدلُّ على التصوُّرات الذهنيَّة المتفاوت في إدراك الحمد لتلك النعم المعطاة من الله ﷻ للإنسان بصورة عامَّة. وهذا يرتبط بحركيَّة التبعيد في الزمان والمكان.. ويجعله بنيَّة تركيبيَّة في الملفوظات قابلة للملأ بما يحتاجه المُخاطِب فيأتي باستعمالات اللغة في سياقات جمع العناصر اللغويَّة[2]، في موقف لغويّ متعدِّد لبيان فضائل الحمد.

ومن دلائل العرفانيَّة اللغويَّة العمل بما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدَأُ فيه بالحمد أقْطَعُ**»[3]، فنلحظ أنَّ جملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ هي جملة اسميَّة خبرها شبه جملة وفيها دلالة ثبوت الحمد له لا لغيره، فضلًا عن كونها مطلقة غير مقيَّدة[4]، وبلحاظ ذلك، فقد أشار السيِّد الطباطبائيّ إلى المخلصين من عباد الله، إذ يقول: «فقد

=عمان، ط١، ٢٠١٨: ١٧١.

(١) الفاتحة: ١/ ٢.

(٢) ينظر: حركيَّة المعنى النحويّ مقاربة عرفانيَّة لمقولة الربط: ٣٢٨.

(٣) سنن ابن ماجه، محمَّد بن يزيد القزوينيّ (ت٢٧٥هـ)، تحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، د.ت: ١/ ٦١٠.

(٤) ينظر: أساليب الإنشاء في كلام السيِّدة الزَّهراء دراسة نحويَّة بلاغيَّة، عامر سعيد الدليميّ، العتبة العلويَّة المقدَّسة، النجف الأشرف، ٢٠١١: ٢٣٤.

جعل حمدهم حمده، ووصفهم وصفه، حيث جعلهم مخلصين له، فقد بان أنَّ الذي يقتضيه أدب العبوديَّة أنْ يحمد العبد ربَّه بما حمد به نفسه.. فقوله: (الحمد لله) تأديب بأدب عبوديّ ما كان للعبد أنْ يقوله: أنَّ الله تعالى قاله نيابةً وتعليمًا لما ينبغي الثناء به»[1]، وقيل إنَّ الحمد مجمل معارف القرآن[2].

وبلحاظ الأحاديث الواردة في الزَّهراء عليها السلام نجد أنَّ ادراكها لمعاني (الحمد لله) ليس بما يدركه سائر البشر، بدليل ما ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**فاطمة حوراء إنسيّة**»[3]؛ وبذلك يكون من أحد درجات ذات الزَّهراء عليها السلام في كونها ذاتًا حوريَّة متَّصلة بذاتها البشريَّة، وعليه كانت تظهر لها جملة من الآثار والصفات المميَّزة عن الذات البشريَّة، نحو تحدُّث الملائكة لها، وإنْ لم يكن بوحي، بل بعلم لـدُنِّي، نظير ما وقع لمريم العذراء عليها السلام[4].

إنَّ تحشيد معاني الحمد لم يكن اعتباطيًا، وإنَّما كان يرتبط بسياق الموقف الذي تحدَّثت فيه السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، إذ «روى زيد بن عليّ عليه السلام عن عمَّته زينب عليها السلام أنَّه لَـمَّا أجْمَعَ أبو بكر عَلى مَنْعِ فاطمةَ عليها السلام فَدَكَ، وبَلَغَها ذلك، لاثَتْ خِمارَها على رأسِها، واشْتَمَلَتْ بِجِلْبابِها، وأَقْبَلَتْ في لُـمَّةٍ مِنْ حَفَدتِها ونساءِ قَوْمِها، تَطأ ذُيُولَها، ما تَخْرِمُ مِشْيَتُها مِشْيَةَ رَسولِ الله صلى الله عليه وآله، حَتَّى دَخَلَتْ عَلى أَبي بَكْر، وَهُو في حَشْدٍ مِنَ المهاجِرين والأَنصارِ وَغَيْرِهِمْ، فَنيطَتْ دونَها مُلاءَةٌ، فَجَلَسَتْ، ثُمَّ أَنَّتْ أَنَّةً أَجْهَشَ القومُ لها بِالْبُكاءِ، فَارْتَجَّ الْـمَجلِسُ.

(١) الميزان في تفسير القرآن، السيِّد محمَّد حسين الطباطبائيّ، مؤسَّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٧: ١/ ٢٤.

(٢) ينظر: من هُدى القرآن، السيِّد محمَّد تقي المدرِّسيّ، دار القارئ، بيروت، ٢٠٠٨: ١/ ١٤٣.

(٣) بحار الأنوار، السيِّد محمَّد باقر المجلسيّ (ت١١١١هـ)، مؤسَّسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٤٠٣: ١٨/ ٣١٥.

(٤) الوراثة الاصطفائيَّة لفاطمة الزَّهراء عليها السلام، السيِّد محمَّد صالح الموسويّ، الأميرة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١١: ٣٨٤.

ثُمَّ أمْهَلَتْ هَنِيَّةً حَتَّى إذا سَكَنَ نَشيجُ القومِ، وهَدَأَتْ فَوْرَتُهُمْ، افْتَتَحَتِ الْكَلامَ بِحَمدِ اللهِ وَالثناءِ عليه، والصلاةِ على رسولِ الله، فعادَ القومُ في بُكائِهِمْ، فَلَمَّا أمْسَكُوا عادَتْ فِي كلامِها»[1].

وبلحاظ عناصر العمليَّة اللغويَّة بوجود طرَفَي الخطاب: المتكلِّم، وهي فاطمة الزَّهراء عليها السلام، والطرف الآخر المتلقِّي، وهو الخليفة الأوَّل، وحشد من المهاجرين والأنصار الذين كانوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، وعند جلوسها اشتدَّ المجلس بالبكاء، وعناصر السياق هذه تضافرت في مجموعة ملفوظات لغويَّة عبر تجسيد المعاني المتمثِّلة في الذهن لغرض تنبيه الغافلين، وألقاء الحجَّة على الجاحدين، فانبثقت تلك العرفانيَّة اللغويَّة في خطبة عصماء أذهلت كلَّ المجلس، ولـمَّا كان السياق أنْ يكون لفظيًّا أو غير لفظيّ، فقد استثمرت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام كِلَا الأمرَين، ولعلَّ سياق الحال كان أكثر في عرفانيَّة اللغة؛ لأنَّه يندرج تحته السياقات الأُخر، منها السياق الاجتماعيّ، فهي ابنة النبيّ صلى الله عليه وآله، والسياق التاريخيّ، إذ كان النبيّ صلى الله عليه وآله حديث عهد بالوفاة، والسياق الثقافيّ المتمثِّل بثقافتها المعرفيَّة التي لا ينافسها أحد في ذلك المجلس، والسياق العاطفيّ الذي تمثَّل بوجود حشد من الأنصار والمهاجرين، ومنهم مَن سمع فضائلها عن النبيّ صلى الله عليه وآله، فكلُّ هذه المقامات من السياقات أعطت حدثًا لغويًّا كبيرًا كان ينتظره الناس، ولذلك كان الخطاب الفدكيّ خطابًا أزال اللبس والوهم عند الحاضرين؛ لأنَّه اعتمد على الحدث الكلاميّ والظروف المحيطة أنتج بها الخطاب الفدكيّ[2].

ولعلَّ الإدراك والفهم المعرفيّ في إيصال خواصِّ دلائل الخطاب الفدكيّ تميَّز عبر العرفانيَّة اللغويَّة في إنتاج الملفوظات اللغويَّة التي تمثَّلت بعناصر التراكيب الجمليَّة

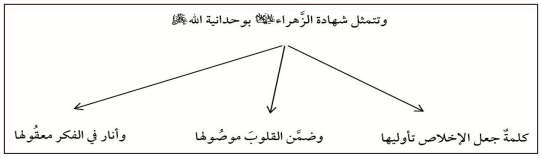
(١) خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، إعداد زَّهراء الخرسان، دار البذرة، بغداد، ط١، ٢٠٠٩، ٩.

(٢) ينظر: أثر السياق في توجيه دلالة الألفاظ دراسة في كتاب منَّة المنَّان، عبد الكاظم الحسينيّ، مؤسَّسة المنتظر، العراق، ط١، ٢٠١٧: ٢٥٤.

في الإبلاغيَّة عن ذلك الحدث الكلاميّ، ثمَّ قالت: «وَأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، كَلِمَةٌ جَعَلَ الإخْلاصَ تَأْويلَها، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَها، وَأَنارَ في الْفِكَرِ مَعْقُولَها. الْمُمْتَنِعُ مِنَ الإبْصارِ رُؤْيَتُهُ، وَمِنَ الأَلْسُنِ صِفَتُهُ، وَمِنَ الأَوْهامِ كَيْفِيَّتُهُ. اِبْتَدَعَ الأَشْياءَ لا مِنْ شَيْءٍ كانَ قَبْلَها، وَأَنْشَأَها بِلا احْتِذاءِ أَمْثِلَةٍ امْتَثَلَها، كَوَّنَها بِقُدْرَتِهِ، وَذَرَأَها بِمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حاجَةٍ مِنْهُ إلى تَكْوينِها، وَلا فائِدَةٍ لَهُ في تَصْويرِها إلَّا تَثْبيتًا لِحِكْمَتِهِ، وَتَنْبيهًا عَلى طاعَتِهِ، وَإظْهارًا لِقُدْرَتِهِ، وَتَعَبُّدًا لِبَرِيَّتِهِ، وإعزازًا لِدَعْوَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَ الثَّوابَ على طاعَتِهِ، وَوَضَعَ العِقابَ عَلى مَعْصِيَتِهِ، ذِيادَةً لِعِبادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ، وَحِياشَةً مِنْهُ إلى جَنَّتِهِ»(١).

إنَّ الشهادة بتوحيد الله ﷻ هي بحدِّ ذاتها ملفوظات عرفانيَّة فيها إقرار لما يدركه الإنسان في ذهنه، ويقرَّها في قلبه، فإذا كانت على ألسنة الناس هي عبارة عن العلم والادراك؛ لانَّهم يدركون ذلك بفطرتهم ووجدانهم وبعقولهم، وما ذكرته السيِّدة الزَّهراء عليها السلام هو فوق الإدراك، فضلًا عن التصوُّر؛ لأنَّها من خاصَّة الله وممَّن اصطفاها على نساء العالمين، فلذلك يكون في أعلى درجات الكمال(٢).

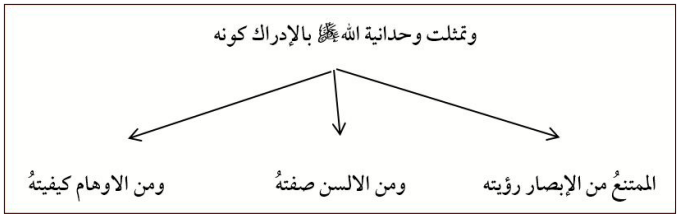
ويمكن القول إنَّ كلمة التوحيد هي مركزيَّة في التعاقد الذهنيّ بين طرفَي الخطاب، على اعتبار أنَّها تخاطب مَن يؤمنون بالله ﷻ، بدليل المكان، وهو مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، والزمان هو حضور الموقف الذي ينطوي تحت مظلَّة الحكم الإسلاميّ، وهي على الشكل الآتي:



(١) خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: ١١-١٣.

(٢) ينظر: الفكر الكلاميّ عند السيِّدة الزَّهراء الخطبة الفدكيَّة أنموذجًا، السيِّد سلام الخرسان، مجلَّة العقيدة، ع٨، جمادى الآخرة، ١٤٣٧هـ: ٢٠٧.

فهذه جملٌ تفسيريَّة لمعنى الوحدانيَّة في مفهوم السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، متمثِّلة في الإدراك الذهنيّ في التصوُّر العقليّ لما يشتمل عليه مفهوم الوحدانيَّة، لذلك مثَّلت الجمل التفسيريَّة تلك العرفانيَّة اللغويَّة في معرفة مصاديق الوحدانيَّة عبر الإحالة الجُمليَّة البعدية التي تضمَّنت توظيف الملفوظات اللغويَّة بما يتَّفق مع المعنى المراد، عبر استعمال (الـواو) بلحاظ أنَّ الوصل كان له الأثر في إكساب الخطاب دلائل خفيَّة ومعانٍ ضمنيَّة في الجمل التفسيريَّة لمفهوم الوحدانيَّة، فكان لمجيء الواو دلالة على قوَّة ترابط الخطاب وشدَّة تلاحمه، وتمثَّل ذلك في المعاني الدقيقة والأسرار اللطيفة(١).



وبلحاظ هذا التدرُّج في خطابها، إذ بدأت بالبصر، بمعنى أنَّه محدود الرؤية، ثمَّ انتقلت إلى اللسان، الذي هو أوسع من البصر، إذ يستطيع أنْ يصف ما يراه وما لا يراه، ثمَّ انتقلت إلى الأوهام، بمعنى حتَّى ذلك المقدار من الوهم والخيال لا يمكن وصف الله ﷻ؛ لأنَّ الإنسان مهما امتلك من قابليَّات وقدرات، يبقى محدودًا بقدرته، فكيف يستطيع أنْ يصف غير المحدود(٢).

وبعد ذلك الإدراك، تذكر السيِّدة الزَّهراء تفسيرًا ذهنيًّا في خطبتها، متمثِّلًا بمجموعة من الملفوظات الفعليَّة عبر تراكيب جُمليَّة تشير فيها إلى قدرة الله ﷻ في كونه ابتدع الأشياء من لا شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوَّنها بقدرته،

(١) ينظر: أثر التركيب في قراءة المعنى الضمنيّ من الخطاب القرآنيّ الإقناعيّ، محمَّد ياسين وحوراء كريم، مركز دراسات الكوفة، ع٥٦، ٢٠٢٠: ٢١٦.
(٢) ينظر: الفكر الكلاميّ عند السيِّدة الزَّهراء الخطبة الفدكيَّة أنموذجًا: ٢٠٩.

وذرأها بمشيئته من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها إلَّا تثبيتًا لحكمته.. وهذا الشحن من المعاني ما هو إلَّا دليل على قدرة الباري عزَّ وجلَّ في جعل كلِّ الأشياء محتاجة له من دون حاجة منه لها، وهذا أدراك عرفانيّ تمثَّل بالملفوظات اللغويَّة على لسان السيِّدة الزَّهراء عليها السلام.

ثمَّ قالت عليها السلام: «**وأَشْهَدُ أنَّ أبي مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله عبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اخْتارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ، وَسَمَّاهُ قَبْلَ أنِ اجْتَبَلَهُ، وَاصْطِفاهُ قَبْلَ أنِ ابْتَعَثَهُ، إذِ الْخَلائِقُ بالغَيْبِ مَكْنُونَةٌ، وَبِسِتْرِ الأَهاويل مَصُونَةٌ، وَبِنِهايَةِ الْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ، عِلْمًا مِنَ اللهِ تَعالى بِمآيِلِ الأُمُور، وَإحاطَةً بِحَوادِثِ الدُّهُورِ، وَمَعْرِفَةً بِمَواقِعِ الْمَقْدُورِ. ابْتَعَثَهُ اللهُ تعالى إتْمامًا لأمْرِهِ، وَعَزيمَةً على إمْضاءِ حُكْمِهِ، وَإنْفاذًا لِمَقادِيرِ حَتْمِهِ**»[1].

وبلحاظ هذا التفصيل بالشهادة للنبيّ صلى الله عليه وآله بالنبوَّة الخالصة لله، نرى أنَّ المضمون العرفانيّ في معرفة النبوَّة هي المحور الأساس في هذا الخطاب الذي بدأ بحشد معانٍ منذ الوهلة الأولى، بالإشارة المباشرة إلى أبوَّة محمَّد صلى الله عليه وآله لها، والتأكيد على تلك القضيَّة في مفتتح الشهادة له بالنبوَّة، وهذا يرتبط بالعرفانيَّة بشكل مباشر، حيث إنَّ الاشارة إلى تلك الأبوَّة هو المعلومة التي يعرفها المخاطب والمتلقِّي عبر الرجوع إلى السياق الاجتماعيّ بناءً على ملكته اللغويَّة بصورة ضمنيَّة، أنَّها هي موضوع التبليغ والإثبات عبر تلك الملفوظات التي بلَّغ بها النبيّ صلى الله عليه وآله إذ قال: «**إنَّما فاطمة بضعة منِّي يؤذيني ما آذاها وينصبني ما أنصبها**»[2]، وهذا ما يُعرَف بشموليَّة الخطاب، إذ المتكلِّم يُعطي المتلقي جلَّ المعلومات التي في ذهنه، والمتلقي بحاجة لها بخصوص موضوع معيَّن.. وإنَّ تقديم تلك المعلومات قائم على افتراض أنَّها من الأهميَّة الكبرى بالنسبة للمتلقِّي،

(١) خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: ١٣.

(٢) فضائل الخمسة من الصِّحاح الستَّة، السيِّد مرتضى القزوينيّ، منشورات الفيروزآباديّ، إيران، ط٢، ١٣٨٢هـ: ٣/ ١٥٢.

حسب اعتقاد المتكلِّم، ولا يمكن أنْ يحجبها عن المتلقِّي؛ لانَّ الأخير بحاجة للتذكير بها في سياق هذا الموقف[1].

وأنَّ الاشارة كانت مقصودة؛ لتحديد المعنى المراد إيصاله إلى المتلقِّي والتركيز على تلك القضيَّة الأساسيَّة عبر حرصها على تذكير المتلقِّي بما جاء على لسان النبيّ ﷺ من أحاديث تؤكِّد على مكانة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، ومنزلتها من أبيها ﷺ، ثمَّ بدأت بتفصيل أفعال الكلام المباشرة في تفضيل النبيّ ﷺ من قِبَل الله عزّ وجلّ على سائر الخلق أجمعين، ويمكن ملاحظة ذلك عبر توظيف الإحالة بالضمير العائد إلى مرجعيَّة النصِّ المحورية، وهي (لفظ الجلالة)، والإحالة القبلية بالضمير (اختارهُ، وانتجبهُ، وأرسلهُ، وسمَّاهُ، واجتبلهُ، واصطفاهُ، وابتعثهُ). وهذه الإحالات تمثِّل دلائل على عرفانيَّة معاني الاختيار من الله عزّ وجلّ للنبيّ محمَّد ﷺ، وهي معارف لدنيَّة من قبل السيِّدة الزَّهراء سلام الله عليها، أرادت الكشف بها إلى المتلقِّين بشكلٍ عامّ، ومن قبل كانت معارف ذهنيَّة ليست بحاجة إلى التلفُّظ بها؛ لانَّ النبيّ ﷺ أولى بها من حيث التبليغ للناس، لكونه مكلَّفًا من الباري سبحانه وتعالى.

وبلحاظ ذلك تأتي خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، لتحدِّث الناس بعرفانيَّة ذلك الاصطفاء، كيف ومتى؟ لانَّ الفكر البشريّ يتعامل مع المقولات، ويشتغل باستعماله لتلك المقولات، بيد أنَّ أغلب التصوُّرات والتمثيلات الذهنيَّة تستعمل مقولات لا موجودات بعينها.. وبناءً على ذلك، فمن الضروريّ أنْ يقدِّم المتكلِّم مقاربة للفكر والتفكير، وأنْ يقدِّم فرضيَّة واضحة تبيِّن الطريقة التي تمَّ بها ذلك التصنيف[2]، وفي ضوء هذا المنطلق، قدَّمت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام تصنيفات لذلك الاختيار الإلهيّ

(١) ينظر: تحليل الخطاب في كتاب سيبويه دراسة في المرجعيَّات والآليَّات، د رحيم مجيد، دار كنوز المعرفة، عمَّان، ط١، ٢٠٢٠: ١٩٨.

(٢) ينظر: مدخل إلى النحو العرفانيّ، عبد الجبَّار بن غريبة، الناشر كليَّة الآداب والفنون الإنسانيَّة بمنوبة، تونس، ط١، ٢٠١٠: ٦٤.

للنبيّ صلى الله عليه وآله، فاستعملت (إذ) الظرفيَّة الدالَّة على الزمن الماضي؛ لتؤكِّد تلك المسألة عبر استعمال دلالة الثبوت في الجملة الاسميَّة «**إذ الخلائقُ بالغيب مكنونةٌ، وبستر الأهاويل مصونةٌ، وبنهاية العدم مقرونةٌ**»، وهذه كلُّها كنايات عن عدم وجود المخلوقات، بل كلُّ ذلك تمَّ قبل خلقها، وأنَّ هذا الأمر علم من الباري سبحانه وتعالى.

ثمَّ تذكر عليها السلام «**ابتعثه الله تعالى**»، وهنا إحالة بعديَّة، وهي تفيد تفسير الابتعاث «**إتمامًا لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنقاذًا لمقادير حتمه**». وبلحاظ حركيَّة المعنى الذي تريد إيصاله للمتلقِّي، فتظهر تلك الحركيَّة في قدرة الذهن على تنظيم المعاني في أشكال متغيِّرة ومسترسلة، تنظر فيها إلى مراعاة ظروف التفاعل بين ما تخبر به من تغيِّر وتوسُّع في دلالة التراكيب النحويَّة في مختلف السياقات التركيبيَّة والمقاميَّة، وعلى ما يحدث في العرفان من عمليَّات تصوريَّة لتحقِّق الحركيَّة المتَّصلة بالمعنى المراد إيصاله[1].

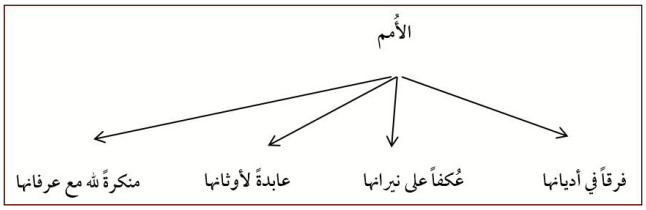
ويمكن القول: إنَّ مقاصد الخطاب عند السيِّدة الزَّهراء عليها السلام كانت في مسارات عدَّة تمثَّلت بالزمان (وهي قبل خلق المخلوقات)، ثمَّ التحوُّل لتحديد مسار الاهتمام بأمر الرسالة والمرسل، ولـمَّا كانت اللغة أداة التواصل والتفاعل الاجتماعيَّين، فإنَّها تعدُّ وسيلة التمثيل الذهنيّ للعالم، بما يحتويه من وقائع مختلفة تتمثَّل بالاجتماعيَّة، والثقافيَّة، والسياسيَّة، والمعرفيَّة[2]، ساعدت في إيصال معاني القصديَّة في الخطاب الفدكيّ.

ثمَّ تنقل بالخطاب لتصف حال الأمَّة قبل النبيّ صلى الله عليه وآله «**فَرَأى الأُمَمَ فِرَقًا في أدْيانِها، عُكَّفًا على نيرانِها، عابِدَةً لأَوثانِها، مُنْكِرَةً لله مَعَ عِرْفانِها. فَأَنارَ اللهُ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله ظُلَمَها، وكَشَفَ عَنِ القُلُوبِ بُهَمَها، وَجَلّى عَنِ الأَبْصارِ غُمَمَها، وَقَامَ في النّاسِ بِالهِدايَةِ، وأنقَذَهُمْ مِنَ الغَوايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ العَمايَةِ، وهَداهُمْ إلى الدِّينِ القَويمِ، وَدَعاهُمْ إلى**

(١) ينظر: حركيَّة المعنى النحويّ مقاربة عرفانيَّة لمقولة الربط: ٢١.

(٢) ينظر: إبستمولوجيا اللغة النحويَّة بحث في مقاييس العلميَّة ومرجعيَّات التأسيس، د. زكريَّاء أرسلان، دار كنوز المعرفة، عمَّان، ط١، ٢٠١٦: ٤٨١

الطَّريقِ المُستَقيم»[1]، بالاعتماد على مرجعيَّة النصِّ، والإشارة إليها بالإحالة المتمثِّلة بالضمير، وفقًا للمخطط الآتي:



إذ تمثَّلت مرجعيَّة النصِّ بـ(الأمم)، والحالة قبليَّة بالضمير المتَّصل لتمثُّل حركيَّة المعنى في الخطاب عبر مسار النصِّ.

وبلحاظ ذلك، فإنَّ الله قد أنار تلك الظلمات بنور محمَّدﷺ، مستعملة القصديَّة في ذكر ملفوظ «بأبي محمَّدﷺ»، عبر المقابلة في دلالة الملفوظات:

النور ← الظلمة «أنار ظلمها».

الكشف ← البهم «وكشف بُهمها».

الجلي ← الغمّ «وجلى غُممها».

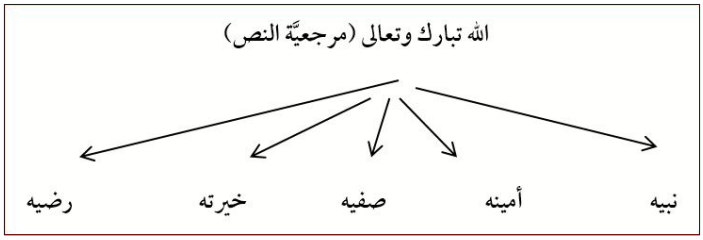
ثمَّ تذكر قيامه في الناس لهدايتهم، وإنقاذه لهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الصراط المستقيم.. وهذه هي إدراكات ذهنيَّة نقلَتها للمتلقِّين عبر عرفانيَّة اللغة.

ثمَّ تكمل خطبتهاعليها السلام بتذكيرهم بأنَّ الله سبحانه وتعالى هو الباقي، إذ تستدرك ذلك لإثارة المتلقِّين، «**ثُمَّ قَبَضَهُ اللهُ إلَيْهِ قَبْضَ رَأْفَةٍ وَاختِيارٍ، ورَغْبَةٍ وَإيثارٍ بِمُحَمَّدٍﷺ عَنْ تَعَبِ هذِهِ الدَّارِ في راحةٍ، قَدْ حُفَّ بالمَلائِكَةِ الأبْرارِ، وَرِضْوانِ الرَّبِّ الغَفارِ، ومُجاوَرَةِ المَلِكِ الجَبَّارِ. صلَّى الله على أبي نبيِّهِ وأَمينِهِ عَلى الوَحْيِ، وَصَفِيِّهِ وَخِيَرَتِهِ مِنَ الخَلْقِ وَرَضِيِّهِ، والسَّلامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ**»[2].

(١) خطبة السيِّدة الزَّهراءعليها السلام: ١٤.

(٢) خطبة السيِّدة الزَّهراءعليها السلام: ١٤-١٥.

وبلحاظ الملفوظات الفعليَّة، فإنَّها قدَّمتها على الملفوظات الاسميَّة نحو (قبضهُ، حُفَّ)، والرأفة أشد الرحمة، ولا تكاد تقع مع الكراهية، فالله رؤوف بالعباد، وعليه يكون المعنى بقرينة لفظة الرغبة وهو المتعيّن؛ لانَّ الرأفة من الله عزَّ وجلَّ، والرغبة من النبيّ صلى الله عليه وآله[1]. ثمَّ تؤكِّد على الصلاة والسلام على النبيّ بقصديَّة الملفوظ الاسميّ (أبي)؛ للدلالة على تأكيد القضيَّة التي تمثِّل المحور الأساس للخطاب، إذ وظَّفت الإحالة إلى مرجعيَّة النصِّ (الله تعالى وتبارك) بالضمير (نبيِّه، وأمينه، وصفيِّه، وخيرته، ورضيِّه)، لتكون الإحالة قبليَّة، ثمَّ تتدرَّج الإحالة بشكلٍ آخر إلى النبيّ صلى الله عليه وآله عبر الضمير المتَّصل بشبه الجملة (عليه). ويمكن إيضاح ذلك في المخطَّط الآتي:



(١) ينظر: الزَّهراء عليها السلام وخطبة فدك- شرح الخطبة الفدكيَّة، السيِّد محمَّد باقر المجلسيّ (ت١١١١هـ)، إيران، ط١، ١٣٨١هـ: ٥٤.

المحور الثاني

قصديَّة الخطاب بين أدراك المتكلِّم ووعي المُخاطَب

إنَّ عمليَّة التواصل اللغويّ بين طَرَفي الخطاب تعتمد على القصد في نيَّة المتكلِّم، إذ هي الأساس في طرح الحواريَّة اللغويَّة عبر مجموعة عناصر تتضافر فيما بينها، لتؤدِّي معاني مفهومة، أصلها المتكلِّم، يبثُّها إلى المُخاطب لكي يكون تواصلًا لغويًّا واجتماعيًّا؛ على اعتبار أنَّ اللغة هي تعبير عن حاجة في نفس المتكلِّم، ولذلك فهو يحاول أنْ يتدرَّج عبر مقاصده في الخطاب إلى مجموعة أفعال، منها تأثيرها يقع في المخاطب، وأخرى إنجازيَّة تتعلَّق بالمتكلِّم، يحاول جاهدًا أنْ يطرح ما في خلجه من مفاهيم عرفانيَّة متمثِّلة بإدراكه لحواريَّة ذلك الخطاب، وهذا الأمر يعتمد على تفسير الحدث اللغويّ وفق المعطيات اللغويَّة والاجتماعيَّة، عن طريق اختيار المتكلِّم لألفاظه، وتوظيفها في بنية التراكيب الجمليَّة[1].

وقد تميَّزت خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام بتلك السمة المميَّزة في قصديَّة الخطاب؛ لأنَّ عناصر السياق الاجتماعيّ والحدث اللغويّ كانت متَّسقة ومنسجمة في طرح تلك المعارف، إذ قالت: «**أَنْتُمْ عِبادَ اللهِ نُصْبُ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَحَمَلَةُ دينِهِ وَوَحْيِهِ، وَأُمَناءُ الله عَلى أَنْفُسِكُمْ، وَبُلَغاؤُهُ إلى الأُمَمِ، وَزَعَمْتُمْ حَقٌّ لَكُمْ لله فِيكُمْ، عَهْدٌ قَدَّمَهُ إِلَيْكُمْ، وَبَقِيَّةٌ استَخْلَفَها عَلَيْكُمْ. كِتابُ اللهِ النَّاطِقُ، والقُرْآنُ الصّادِقُ، وَالنُّورُ السَّاطِعُ، وَالضِّياءُ**

(١) ينظر: الوظيفيَّة في كتاب سيبويه، د. رجاء عجيل الحسناويّ، مكتبة العلَّامة ابن فهد الحِلِّيّ، كربلاء المقدَّسة، ط١، ٢٠١٥م: ١٢٣.

اللَّامِعُ، بَيِّنَةٌ بَصائِرُهُ، مُنْكَشِفَةٌ سَرائِرُهُ، مُتَجَلِّيَةٌ ظَواهِرُهُ، مُغْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْياعُهُ، قائِدٌ إلى الرِّضْوانِ اتِّباعُهُ، مُؤَدٍّ إلى النَّجاةِ إسْماعُهُ.بِهِ تُنالُ حُجَجُ اللهِ المُنَوَّرَةُ، وَعَزائِمُهُ المُفَسَّرَةُ، وَمَحارِمُهُ المُحَذَّرَةُ، وَبَيِّناتُهُ الجالِيَةُ، وَبَراهِينُهُ الكافِيَةُ، وَفَضائِلُهُ المَنْدوبَةُ، وَرُخَصُهُ المَوْهُوبَةُ، وَشَرايِعُهُ المَكْتُوبَةُ».

وبلحاظ بيان أدراك السيِّدة الزَّهراءعليها السلام لمقصديَّة الكلام، إذ استعملت ضمير المخاطَب الذي يشير إلى الجمع من المخاطَبين على اعتبار أنَّ الضمير المنفصل هو أحد الوسائل الإشاريَّة في بيان قصد المتكلِّم عبر الأحداث اللغويَّة التي تمثَّلت بالأفعال الإنجازيَّة (وزعمتم، قدَّمهُ، استخلفها، تنال) المتعلِّقة بالقصد الإخباريّ الذي تريد السيِّدة الزَّهراءعليها السلام أن تُخبِر عمَّا أدركته من سلوكيَّات أحوال الحاضرين في المسجد، وقد قدَّمت ضمير المخاطَب المنفصل على النداء، مع حذف الأداة، لتؤدِّي مقصديَّة الخطاب نسقيَّة واضحة في استعمال التراكيب المحكومة بجملة من المؤثِّرات الخارجيَّة، ومنها سياق الموقف.

مع بيان أنَّ النداء وإنْ اختلفت وظائفه بين التنبيه والتوجيه اللذَين يقتضيان الحضور والاستدعاء بوصفه إشارة تخاطبيَّة[1]، فإنَّ خطاب السيِّدة الزَّهراءعليها السلام كلُّه قصديَّة في تنبيه الحضور، بل وتوجيههم، وبلحاظ جملة النداء (عباد الله) فيها قصديَّة التنبيه على كونكم عباد لله عزَّ وجلَّ، نصبكم الله لأوامره ونواهيه، وبلحاظ ذلك يمكن استجلاء قصديَّة الخطاب وفقًا للمعطيات الآتية:

«عباد الله» تمثِّل محور القصديَّة الإخباريَّة من منظور المتكلِّم، وهي السيِّدة الزَّهراءعليها السلام، ثمَّ ينتقل الإخبار القصديّ للعباد عبر تفصيلات مجموعة من العناصر التي قصدت السيِّدةعليها السلام أنْ تُشير لها.

(١) ينظر: القصديَّة والإشاريَّات دراسة تداوليَّة، نورة سيِّد أبو المجد محمَّد، بحث منشور في مجلَّة كليَّة الآداب، جامعة بني سويف، ع٥٦، ٢٠٢٠: ١٤.

وهي تريد بيان معادلَتَين، الأولى تتمَّثل بكونكم تتَّسمون بالآتي:

نصبُ أمرهِ ونهيهِ ← وأمناءُ الله على أنفسكم ← وبلغاؤُهُ إلى الأمم.

وزعمتم حقٌّ لكم ← (لله فيكم، عهدٌ قدَّمهُ إليكم، وبقيَّةٌ استخلفها عليكم).

وبلحاظ المعادلة الثانية بيان قصديَّة العمل بكتاب الله، إذ هو الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع.. وهنا تسعى السيِّدة الزَّهراء عليها السلام بتوجيه قصديَّة الخطاب إلى توجيه دلاليّ عن طريق بيان قواعد الاستنتاج التي صيغت ملفوظاتها اللغويَّة بالطريقة الموافقة لها، التي تمكِّن من إدراك أبعاد المقاصد المتضمِّنة في الفعل الكلاميّ، وتتجلَّى القصديَّة في خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام عبر الانتقال بالبنية المنجزة للموضوعات المطروحة إلى أفعال منجزة لها علاقة بمقام الاستعمال، وتأتي هذه العلاقة بين قصد المخُاطِب من جهة، والسياق من جهة أخرى، في عمليَّة الكلام بصفة خاصَّة، ووظائف الملفوظات اللغويَّة وخصائصها عبر إجراءات العمليَّة التواصليَّة، ووصف تلك العلاقة عن طريق النظام اللغويّ بالاستعمال، وفقًا للعمليَّات الذهنيَّة ومستويات إنتاجها(١).

ثُمَّ قالت: «**أيُّها النَّاسُ! اعْلَمُوا أنِّي فاطِمَةُ، وَأبي مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله، أَقُولُ عَوْدًا وَبَدْءًا، وَلا أقُولُ ما أقُولُ غَلَطًا، وَلا أفْعَلُ مَا أفْعَلُ شَطَطًا**: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، **فَإنْ تَعْزُوه وَتَعْرِفُوهُ تَجِدُوهُ أبي دُونَ نِسائِكُمْ، وَأخا ابْنِ عَمِّي دُونَ رِجالِكُمْ، وَلَنِعْمَ الْـمَعْزِيُّ إلَيْهِ صلى الله عليه وآله**»(٢).

وبلحاظ النصِّ المتقدِّم للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام نجد قصديَّة الخطاب في توظيف أسلوب

(١) ينظر: القصديَّة في الموروث اللسانيّ العربيّ/ دراسة في الأسس النظريَّة والإجرائيَّة للبلاغة العربيَّة، دلال وشن، أطروحة دكتوراه، جامعة بسكره، ٢٠١٦: ٢٣.

(٢) خطبة الزَّهراء عليها السلام: ١٨.

النداء عبر دلالة حذف الاداة؛ لكونه يمثل أبرز الإشاريَّات الشخصيَّة في الإستراتيجيَّة التضامنيَّة، على اعتبار العلاقة بين المخُاطِب والمُخاطَب التي يلتزم بوضوح الرؤية؛ لأنَّ الأصل من ذلك هو إيصال قضيَّة محدَّدة في ذهن المتكلِّم إلى المتلقِّي، ممَّا يجعل اهتمام المتلقي بالأمر بسبب قصديَّة التنبيه[1]، في أسلوب النداء، وهذا توظيف فيه جنبة سياقيَّة فيها تقريب للخطاب لعظم الأمر عبر حذف تلك الأداة، ثمَّ تنتقل قصديَّة النداء إلى الأسلوب الخبريّ الذي من أجله افتتح الكلام بالنداء؛ لتثير انتباه المخاطبين إلى أيِّ أمر جيء بالنداء، وهو الإخبار عن كونها بنت رسول الله ﷺ لقصد تنبيههم على غفلتهم وإعراضهم عن حقِّها في فدك، ولانَّ الأمر يحتاج إلى قرع أسماع المخاطَبين، وبيان شدَّة غفلتهم، فكان لزامًا على المُخاطِب أن يأتي بجملة تفيد التوكيد[2]، وأيَّ توكيد استعملت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام ؟ التوكيد بالجملة الاسميَّة المؤكَّدة بأنَّ «**أنَّي فاطمة وأبي محمَّد**»، وإنَّما هذه الحقيقة لا يمكن تجاهلها وإغفالها؛ لأنَّها حقيقة ثابتة، وإنَّما ألمُخاطبون مترددّون في الوقوف إلى جانب الحقيقة، لذلك بقوَّة خطابها لجأت إلى الاستدلال بالقرآن؛ لبيان مقاصد خطابها، وتوظيف النصِّ القرآنيّ عبر التأثير في المتلقِّين لبيان القصد الأساس في خطابها، وهو المظلوميَّة التي وقعت في اغتصاب إرثها، بعد الاستدلال على نبوَّة أبيها صلوات الله عليهما وسلامه؛ ليكون مدخلًا لقصديَّة خطابها.

إنَّ لأثر القصد في الخطاب دخلًا كبيرًا في توجيه دلالة النصِّ، فضلًا عن تحديدها من خلال مجموعة من القرائن اللفظيَّة وغير اللفظيَّة، بغضِّ النَّظر عن صور الألفاظ وطرائق ترتيبها، لذلك ينبغي النظر إلى دالِّ النصِّ بوصفه دالَّ القصد في رؤية تكامليَّة للنصِّ، ولـمَّا كانت القصديَّة إحدى المقوِّمات المركزيَّة للنصِّ، التي تتمثَّل في عمليَّة الإفهام والتواصل التي لا تتحقَّق إلَّا بوقوع المخاطب على قصد المتكلِّم، فهذا يعني

(١) ينظر: الإشاريات الشخصيَّة في إلياذة الجزائر دراسة في مفهوم المعنى، د. سامي الماضي، مجلَّة المجمع العلميّ العراقيّ، ج٢، م٦٨، ٢٠٢٠: ١٦١.

(٢) ينظر: النداء في القرآن الكريم، د. معن توفيق، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ٢٠٠٨: ١٤٠.

أنَّ أيَّ نصّ هو مجموعة أفكار ومعانٍ، يقصد المتكلِّم إيصالها إلى المتلقِّي عبر وسائل لفظيَّة أو غير لفظيَّة، القصد منها إفهام المتلقِّي مضمون نصِّ المتكلِّم(١). فكان فعل التأثير الإقناعيّ واضحًا لوجود أعلى نصّ في حوار الإقناع، وهو النصُّ القرآنيّ، ويعتمد هذا الأمر على الخطاب اللغويّ الشفويّ وقدرة المتكلِّم في بلاغة الإقناع من أجل استمالة القلوب، وفهم العقول، والتصديق؛ لأنَّها استثمرت سياق المقام في إحراز التفوُّق الخطابيّ عبر وضوح القصد في إيصال المعنى، فضلًا عن جمال بلاغة الملفوظات في خطابها عليها السلام، المتمثل بالحجَّة الدامغة والمعرفة بمواضع الكلم وتراكيبها(٢)، وتكثِّف السيِّدة الزَّهراء عليها السلام من الأسلوب الخبريّ مستثمرة مقاصد النداء عبر تنوُّع تركيبه من حيث حذف الأداة تارةً، وإظهارها تارةً أخرى، وممَّا جاء في خطبتها: «**أَيُّهَا الْمُسْلِمونَ أَأُغْلَبُ عَلى ارْثِيَهْ يَا ابْنَ أبي قُحافَةَ! أفي كِتابِ اللهِ أنْ تَرِثَ أباكَ، ولا أرِثَ أبي؟ ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، أفَعَلى عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتابَ اللهِ، وَنَبَذْتُمُوهُ وَراءَ ظُهُورِكُمْ، اذْ يَقُولُ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾، وَقالَ فيمَا اقْتَصَّ مِنْ خَبَرِ يَحْيَي بْنِ زَكَرِيّا عليهما السلام، اذْ قالَ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وزَعَمْتُمْ أَلَّا حِظوَةَ لي، وَلا إرْثَ مِنْ أبي لا رَحِمَ بَيْنَنَا! أفَخَصَّكُمُ اللهُ بِآيَةٍ أخْرَجَ مِنْها أبي؟ أمْ هَلْ تَقُولُونَ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ لا يَتَوارَثانِ، أَوَ لَسْتُ أنَا وَأبي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ واحِدَةٍ؟! أَمْ أنْتُمْ أعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أبي وَابْنِ عَمّي؟ فَدُونَكَها مَخْطُومَةً مَرْحُولَةً. تَلْقاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ، فَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ، وَالزَّعِيمُ مُحَمَّدٌ، وَالْمَوْعِدُ الْقِيامَةُ، وَعِنْدَ السّاعَةِ ما تَخْسِرُونَ، وَلا يَنْفَعُكُمْ إذْ تَنْدَمُونَ، ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن**

(١) ينظر: قصدية الخطاب في نهج البلاغة دراسة في مفهوم المعنى بين المتكلِّم والمخاطَب، د. سامي الماضي، ديوان الوقف الشيعيّ، ٢٠١٩: ٢٩٧.

(٢) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، د. عبد اللطيف عادل، دار ومكتبة عدنان، بغداد، ط١، ٢٠١٣: ٦٤.

يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾»[1].

وبلحاظ قصديَّة المتكلِّم على المنادى، نلمح حذف الأداة، وهذا فيه دلالة على أهميَّة الأمر في الخطاب، ثمَّ المجيء بـ(أيَّ) الاسم المبهم، وهذا له قصديَّة في الاستعمال، فضلًا عن استعمال لفظة (أيّ) الاسم المبهم الذي يتوصَّل به إلى نداء المعرَّف بأل، وذلك مفاد قول الرضيّ (ت٦٨٦هـ): «ولـمَّا قصدوا الفصل بين حرف النداء واللام بشيءٍ، طلبوا اسمًا غير دالٍّ على ماهيَّة معيَّنة؛ محتاجها بالوضع في الدلالة عليها إلى شيءٍ آخر؛ يقع النداء في الظاهر على هذا الاسم المبهم لشدَّة احتياجه إلى مُخصِّصه الذي هو ذو اللام»[2].

فالخطاب يبدأ بالإشارة العامَّة ليشمل قصدها كلَّ المسلمين، ثمَّ تنتقل للتدرُّج في تحديد القصد المعنيّ من الخطاب، ليكون الكلام من الإبهام إلى التوضيح في تحديد (يا ابن أبي قحافة)، وهذا ضربٌ من التأكيد على مقاصد المتكلِّم في تحديد المتلقِّي، وذلك من دون حذف لأركان طرَفَي النداء المتمثِّل بوجود الأداة والاسم المنادى[3].

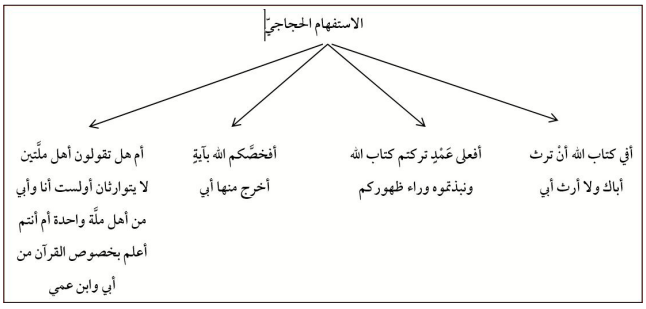
وبلحاظ ذلك، تنتقل إلى طريقة أخرى من طرائق القصديَّة المباشرة في توظيف الحجاج الاستفهاميّ عبر طرح سؤالات متعدِّدة قصدها الأساس الإجابة عنها من قِبَل المُخاطَب، فإنْ كان يجهلها فهنالك أبعاد تمنحها قصديَّة الخطاب، وتتمثَّل في التقرير، والانكار، والتعجُّب، والعرض، وهذا ما اتَّضح في قصديَّة الخطاب، إذ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام حدَّدت ذلك القصد بوجود القرائن اللفظيَّة، وهي توظيفها للشواهد القرآنيَّة التي تُبطل زعمهم في عدم إرثها فتذكر «**أفي كِتابِ اللهِ أنْ تَرِثَ أباكَ، ولا أرِثَ**

(١) خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: ٢٦-٢٨.

(٢) شرح الرضيّ على الكافية، الرضيّ الاستراباديّ (ت٦٨٦هـ)، تصحيح وتعليق يوسف حسن، مؤسَّسة الصادق، طهران، ط٢، ١٣٨٤هـ: ١/ ٣٧٤.

(٣) ينظر: أساليب الإنشاء في كلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: ٣٢.

أبي؟، وهذا يحتمل أكثر من قصد لعلَّ أبرزها التقرير، والتعجُّب، وتأتي بدليل قرآنيّ يعزِّز ذلك الحجاج القصديّ ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، وهكذا تستمرّ في عرض الأدلَّة القرآنيَّة، وقصدها التأكيد على كونها ابنة النبيّ صلوات الله عليها وسلامه، عبر توظيفها لدلالة التكرار للفظة (أبي) في النصِّ السابق خمس مرَّات، وعلى النحو الآتي:



وبلحاظ المخطَّط السابق، نلمح القصديَّة الحجاجيَّة في الملفوظات التركيبيَّة التي استعملتها السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، وبدلالة السياق، فلا بدَّ على المتلقِّي أنْ يأتي بالجواب، وهذا ما وراء القصد من استعمال الاستفهام الحجاجيّ الذي تريد منه السيِّدة الزَّهراء عليها السلام إيصال معانٍ مختلفة للمُخاطَب بشكلٍ خاصٍّ، وللمُخاطبين بشكلٍ عامٍّ بقصد التوبيخ على جهلهم بكتاب الله، عبر الحجج الدامغة المستشهَد بها من النصذِ القرآنيّ الذي لا يمكن للمخاطَبين إنكاره، ومن هنا يجد المُخاطَب نفسه مضطرًا للإجابة وفقًا للعلاقة الحجاجيَّة عبر قصديَّة الخطاب التي منحتها له مجموعة العناصر المتمثِّلة في استدراجه، وأخذ الإجابة منه وفق معطيات الآليَّات الحجاجيَّة[1]، الذي يشير إلى وجود تلازم بين الملفوظات القوليَّة المتمثِّلة بالقصديَّة الإدراكيَّة لمعاني الإبلاغ، وبين الحجَّة المطروحة في الخطاب وفق تدرُّج الحجج، عبر وعي المُخاطِب لها في السلالم الحجاجيَّة، ولـمَّا كان للمتلقِّي موقفًا معيَّنًا من قضيَّة فدك، فإنَّ من آليات القصديَّة هي زحزحة ذلك الموقف عبر طرح سؤالات يعلمُ المتكلمُ أجوبتها، ويعمدُ إلى تشكيك المتلقِّي بها من

(١) ينظر: آليَّات الحجاج القرآنيّ دراسة في نصوص الترغيب والترهيب، عبد الجليل العشراويّ، عالم الكتب، بيروت، ط١، ٢٠١٦: ٩٩.

أجل زحزحته وعدوله عن موقفه السابق من القضيَّة، وهذا ما تتوَّج في قصديَّة خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام.

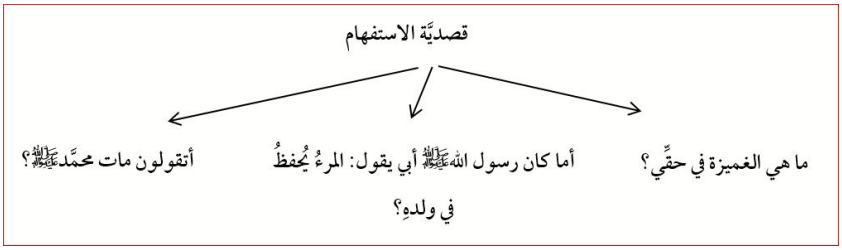
وتستثمر سياق الموقف عبر استعمالها القرائن الحاليَّة في توظيف الخطاب من أجل بيان قصديَّته وإيصال المعاني الحقيقيَّة إلى الناس بعد تظليلها من قِبَل طرف محدَّد، ولأجل إشراك البيئة الاجتماعيَّة في إفهامهم(١)، قالت عليها السلام بعد أنْ رمت بطرفها: «**يا مَعاشِرَ الْفِتْيَةِ، وَأَعْضادَ الْمِلَّةِ، وَأَنْصارَ الْإِسْلامِ! ما هذِهِ الْغَمِيزَةُ فِي حَقِّي؟ وَالسِّنَةُ عَنْ ظُلامَتِي؟ أما كانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله أَبِي يَقُولُ: «الْمَرْءُ يُحْفَظُ فِي وُلْدِهِ»؟ سَرْعانَ ما أَحْدَثْتُمْ، وَعَجْلانَ ذا إهالَةً، وَلَكُمْ طاقَةٌ بِما أُحاوِلُ، وَقُوَّةٌ عَلى ما أَطْلُبُ وَأُزاوِلُ! أَتَقُولُونَ ماتَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله؟! فَخَطْبٌ جَليلٌ اسْتَوْسَعَ وَهْيُهُ، وَاسْتَنْهَرَ فَتْقُهُ، وَانْفَتَقَ رَتْقُهُ، وَأَظْلَمَتِ الْأَرْضُ لِغَيْبَتِهِ، وَكُسِفَتِ النُّجُومُ لِمُصِيبَتِهِ**»(٢).

ونلحظ حال المشاهدة التي هي أحدى القرائن المقاميَّة المؤثِّرة في عمليَّة التواصل اللغويّ بين طَرَفي الخطاب المتمثِّل في المُخاطِب والمخاطَبين، وهم معاشر الفتية، أيْ الجماعة من الشباب والأعوان والنُّصرة، وهي تستفهم بقصديَّة عن الضعف الذي أصابهم عن نصرة الحقِّ، ولاسيما حقَّها في فدك.

وخرجت قصديَّة النداء إلى التعجُّب من هذا الضعف الذي وصفته السيِّدة الزَّهراء عليها السلام بالغميزة، وتشير إلى تأكيد قصديَّتها في استعمال لفظة (أبي) لتُظهر لهم أهميَّة ذلك القول الذي قاله النبيّ صلى الله عليه وآله «**المرء يُحفظ في ولْدِه**»، والإشارة هنا إلى الأبوَّة التي قصدتها في توبيخ معاشر القوم، إذ إنَّكم «**أتقولون مات محمَّد صلى الله عليه وآله؟**»، ويمكن القول إنَّ الاستفهام أخذ أنماطًا من القصديَّة في توبيخ المخاطبين وتنبيههم، وهو على النحو الآتي:

(١) ينظر: القرائن الحاليَّة في الخطاب الحسينيّ دراسة وتحليل، د. سامي الماضي، مجلَّة السِّبط، ع١، السنة الأولى، مركز كربلاء للدراسات، ٢٠١٥: ١١٨.

(٢) خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام ٢٩-٣٢.



وخلاصة القول: إنَّ معاني القصديَّة في خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام كانت مراميها واضحة في تقريع مَن تخاذل عن نصرة الحقِّ وتوبيخه، وقد حاولت إقناعهم عبر طرح الأدلَّة القرآنيَّة والحديث النبويّ الذي صرَّح به النبيّ ﷺ.

نتائج البحث والتوصيات

١. تمثَّل خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام باللغة العرفانيَّة عبر الإدراك المعرفيّ لحقائق الأمور؛ لكونها تتميَّز ببلاغة الخطاب، وجزالة اللغة، والدقَّة في التعبير عن المعاني، وقد استعملت لفظة (عرفانها، والإدراك) هذه من المفاهيم العرفانيَّة في طرح التصوُّرات الذهنيَّة.

٢. إنَّ التركيز على قصديَّة المعاني في خطابها، كان السمة الأبرز في استعمالها للتراكيب اللغويَّة في عمليَّة التواصل اللغويّ، وتوظيف سياق المقام في رصف الدلائل الإبلاغيَّة في توجيه الخطاب وحشدها، واستثمار الاستفهام الحجاجيّ في تدرُّج المعاني.

٣. يوصي الباحث بإنشاء مركز تخصُّصيّ يعنى بموروث خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام على غرار المراكز الخبريَّة، وجمع تراثها؛ ليكون مرجعًا لطلبة البحث العلميّ، وجمع محاولات الباحثين الكرام، سواء أكانت جماعيَّة عبر المؤتمرات، أم فرديَّة في دراسات منفصلة، تحت اسم(إشراقات فاطميَّة في مبانٍ معرفيَّة).

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

مظانُّ البحث

١. آليَّات الحجاج القرآنيّ دراسة في نصوص الترغيب والترهيب، عبد الجليل العشراويّ، عالم الكتب، بيروت، ط١، ٢٠١٦.

٢. إبستمولوجيا اللغة النحويَّة بحث في مقاييس العلميَّة ومرجعيَّات التأسيس، د. زكريَّاء أرسلان، دار كنوز المعرفة، عمان، ط١، ٢٠١٦.

٣. أثر التركيب في قراءة المعنى الضمنيّ من الخطاب القرآنيّ الإقناعيّ، محمَّد ياسين وحوراء كريم، مجلَّة مركز دراسات الكوفة، ع٥٦، لسنة ٢٠٢٠.

٤. أثر السياق في توجيه دلالة الألفاظ دراسة في كتاب منَّة المنَّان، عبد الكاظم الحسينيّ، مؤسَّسة المنتظر لأحياء تراث آل الصدر، العراق، ط١، ٢٠١٧.

٥. أثر المعنى العرفانيّ في التفكير النحويّ عند سيبويه، د. سامي الماضي، مجلَّة المجمع العلميّ العراقيّ، ج٤، م٦٧، بغداد، ٢٠٢٠.

٦. أساليب الإنشاء في كلام السيِّدة الزَّهراء دراسة نحويَّة بلاغيَّة، عامر سعيد الدليميّ، العتبة العلويَّة المقدَّسة، النجف الأشرف، ٢٠١١.

٧. الإشاريَّات الشخصيَّة في إلياذة الجزائر دراسة في مفهوم المعنى، د. سامي الماضي، مجلَّة المجمع العلميّ العراقيّ، ج٢، م٦٨، ٢٠٢٠.

٨. بحار الأنوار، السيِّد محمَّد باقر المجلسيّ (ت١١١١هـ)، مؤسَّسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٤٠٣.

٩. بلاغة الإقناع في المناظرة، د. عبد اللطيف عادل، دار ومكتبة عدنان، بغداد، ط١، ٢٠١٣.

١٠. تحليل الخطاب في كتاب سيبويه دراسة في المرجعيَّات والآليَّات، د. رحيم مجيد، دار كنوز المعرفة، عمَّان، ط١، ٢٠٢٠.

١١. حركيَّة المعنى النحويّ مقاربة عرفانيَّة لمقولة الربط، د. منجي العمريّ، دار كنوز المعرفة، عمَّان، ط١، ٢٠١٨.

١٢. خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، إعداد زهراء الخرسان، دار البذرة، بغداد، ط١، ٢٠٠٩.

١٣. الزَّهراء عليها السلام وخطبة فدك- شرح الخطبة الفدكيَّة، الشيخ محمَّد باقر المجلسيّ (ت١١١١هـ)، إيران، ط١، ١٣٨١هـ.

١٤. سنن ابن ماجه، محمَّد بن يزيد القزوينيّ (ت٢٧٥هـ)، تحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، د.ت.

١٥. شرح الخطبة الفدكيَّة، إعداد قسم الشؤون الدينيَّة، شعبة التبليغ الإسلاميّ، العتبة العلويَّة المقدَّسة، النجف الأشرف، ط١، ٢٠٢٠.

١٦. شرح الرضيّ على الكافية، الرضيّ الاستراباديّ (ت٦٨٦هـ)، تصحيح وتعليق يوسف حسن، مؤسَّسة الصادق، طهران، ط٢، ١٣٨٤هـ.

١٧. الشكل والدلالة دراسة نحويَّة للفظ والمعنى، د. عبد السلام السيِّد حامد، دار كنوز المعرفة، عمَّان، ط١، ٢٠١٦.

١٨. فضائل الخمسة من الصِّحاح الستَّة، السيِّد مرتضى القزوينيّ، منشورات الفيروزآباديّ، إيران، ط٢، ١٣٨٢هـ.

١٩. الفكر الكلاميّ عند السيِّدة الزَّهراء الخطبة الفدكيَّة أنموذجًا، السيِّد سلام الخرسان، مجلَّة العقيدة، ع٨، جمادى الآخرة، ١٤٣٧هـ.

٢٠. القرائن الحاليَّة في الخطاب الحسينيّ دراسة وتحليل، د. سامي الماضي، مجلَّة السِّبط، ع١، السنة الأولى، مركز كربلاء للدراسات، ٢٠١٥.

٢١. قصديَّة الخطاب في نهج البلاغة دراسة في مفهوم المعنى بين المتكلِّم والمخاطَب، د. سامي الماضي، ديوان الوقف الشيعيّ، ط١، ٢٠١٩.

٢٢. القصديَّة في الموروث اللسانيّ العربيّ/ دراسة في الأسس النظريَّة والاجرائيَّة للبلاغة العربيَّة، دلال وشن، أطروحة دكتوراه، جامعة بسكره، ٢٠١٦.

٢٣. القصديَّة والإشاريَّات دراسة تداوليَّة، نورة سيِّد أبو المجد محمَّد، بحث منشور في مجلَّة كليَّة الآداب، جامعة بني سويف، ع٥٦، ٢٠٢٠.

٢٤. لسان العرب، ابن منظور (ت٧١١هـ)، حقَّقه وعلَّق عليه: عامر أحمد، دار الكتب العلميَّة، ط٢، بيروت، ٢٠٠٩.

٢٥. مدخل إلى النحو العرفانيّ، عبد الجبَّار بن غريبة، نشر كليَّة الآداب والفنون الإنسانيَّة بمنوبة، تونس، ط١، ٢٠١٠.

٢٦. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهانيّ (ت٥٠٢هـ)، ضبطه وراجعه محمَّد خليل، دار المعرفة، بيروت، ط٦، ٢٠١٠.

٢٧. من هُدى القرآن، السيِّد محمَّد تقي المدرِّسي، دار القارئ، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨.

٢٨. الميزان في تفسير القرآن، السيِّد محمَّد حسين الطباطبائيّ، مؤسَّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٧.

٢٩. النداء في القرآن الكريم، د. معن توفيق، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.

٣٠. الوراثة الاصطفائيَّة لفاطمة الزَّهراء عليها السلام، السيِّد محمَّد صالح الموسويّ، الأميرة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١١.

٣١. الوظيفيَّة في كتاب سيبويه، د. رجاء عجيل الحسناويّ، مكتبة العلَّامة ابن فهد الحِلِّيّ، كربلاء المقدَّسة، ط١، ٢٠١٥م.

قصديَّة الخطاب الفاطميّ

أ.م.د. موفَّق مجيد ليلو

المديريَّة العامَّة لتربية ميسان

ملخَّص البحث

لكلِّ خطابٍ مقاصد ينشدها، وتعدُّ المقاصد والقصد صورة من صور القصديَّة، إذ فرَّق سيرل بين القصديَّة والقصد عن طريق معنى الكلمَتَين، فالأولى تعني التوجُّه، والثانية تعني إرادة عمل شيء معيَّن أو النيَّة، فهي نوع من أنواع القصديَّة، وقد أدَّى التركيز على القصديَّة والقصد إلى تصوُّر أنَّ المقاصد بالمعنى العادي لها دور خاصّ بالنظريَّة القصديَّة. والقصديَّة كما يراها فلاسفة اللغة تعدُّ توجُّهًا يطلقه الوعي تجاه موضوعٍ ما، فهي تمثِّل نمط العلاقة التي تربط الوعي بمضمون الظاهرة، وقد ربط الفلاسفة الوعي بالقصديَّة ربطًا وثيقًا؛ لأنَّ المقاصد تنبع من توجُّه الفرد نحو شيءٍ ما، وهذا التوجُّه نابعٌ عن وعيٍّ تامٍّ بالموضوعات التي يتوجَّه إليها.

تحاول هذه القراءة أن تستشرف الخطاب الفاطميّ بحثًا عن قصديَّته، فكلُّ خطاب يستبطن بلا شكّ جملة من المقاصد الواعية التي يتوخَّاها المخاطِب، ويخلقها بمقولاته، والقصديَّة بوصفها منهجًا جديدًا تلتقي فيه علوم النفس والوعي واللسان واللغة وغيرها، يسعى إلى الكشف عن مكنونات الخطاب ومضمراته عبر منطوقاته، التي تشي بمفهوماته الواعية للمخاطِب، وهي جوهر الخطاب وبؤرته. ستقف هذه القراءة على المقاصد الكبرى للخطاب، باستنطاقه والبحث في حفريَّاته، وبيان السلطة

التي مارسها الخطاب بإستراتيجيَّاته وتقنيَّاته اللغوية. ولعلَّ بؤرة الخطاب الفاطميّ تَرْتكِز على ترسيخ عقيدة التوحيد بوصفها القضيَّة المركزيَّة والأسمى، والأسُّ لكلِّ فلسفة كونيَّة، وعدم الإيمان بها يؤدِّي إلى انحراف الأمَّة عن مسارها، وخسرانها لقيادتها الحقَّة.

المقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على خير الأنام وآله الطيِّبين الكرام.

أمَّا بعد:

فتقدِّم هذه القراءة محاولة لفهم قصديَّة الخطاب الفاطميّ، فكلُّ خطاب يستبطن بلا شكّ جملة من المقاصد الواعية التي يتوخَّاها المخاطِب، ويخلقها بمقولاته، والقصديَّة بوصفها أداة جديدة تلتقي فيها علوم النفس والوعي واللسان واللغة وغيرها، تسعى إلى الكشف عن مكنونات الخطاب ومضمراته عبر منطوقاته التي تشي بمفهوماته الواعية للمخاطِب، وهي جوهر الخطاب وبؤرته، وستقف هذه القراءة على المقاصد الكبرى للخطاب باستنطاقه والبحث في حفريَّاته، وبيان السلطة التي مارسها الخطاب بإستراتيجيَّاته وتقنيَّاته اللغويَّة. ولعلَّ بؤرة الخطاب الفاطميّ ترتكز على ترسيخ عقيدة التوحيد بوصفها القضية المركزيَّة والأسمى، والأسُّ لكلِّ فلسفة كونيَّة إلهيَّة، وعدم الإيمان بها يؤدِّي إلى انحراف الأمَّة عن مسارها، وخسرانها لقيادتها الحقَّة.

ويرى سيرل أنَّ القصديَّة هي: «ذلك الملمح للحالات العقليَّة الذي عن طريقه تتَّجه إلى وتدور حول أشياء وحالات للواقع خلاف ذاتها»[1]. أو يمكن التعبير عنها بأنَّها: «ذلك الملمح من العقل الذي بواسطته يمثِّل الأشياء وحالات الواقع في العالم تمثيلًا جوهريًّا»[2].

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعيّ، جون سيرل، ترجمة: سعيد الغانميّ، المركز الثقافيّ العربيّ، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م: ١٣٤.

(٢) العقل واللغة والمجتمع: ١٤٠.

وإذا كان لكلِّ خطاب مقاصد ينشدها، فإنَّ المقاصد والقصد صورة من صور القصديَّة، إذ فرَّق سيرل بين القصديَّة والقصد عن طريق معنى الكلمَتَين، فالأولى تعني التوجُّه، والثانية تعني إرادة عمل شيء معيَّن أو النيَّة، فهي نوع من أنواع القصديَّة، وقد أدَّى التركيز على القصديَّة والقصد إلى تصوُّر أنَّ المقاصد بالمعنى العادي لها دور خاص بالنظريَّة القصديَّة. والقصديَّة، كما يراها فلاسفة اللغة، تعدُّ توجُّهًا يطلقه الوعي تجاه موضوعٍ ما، فهي تمثِّل نمط العلاقة التي تربط الوعي بمضمون الظاهرة، وقد ربط الفلاسفة الوعي بالقصديَّة ربطا وثيقًا؛ لأنَّ المقاصد تنبع من توجُّه الفرد نحو شيءٍ ما، وهذا التوجُّه نابع عن وعيٍّ تامٍّ بالموضوعات التي يتوجَّه إليها.

المبحث الأوَّل

القصديَّة- المفهوم والمستويات والأهداف

القصديَّة لغةً

يأتي القصد للدلالة على: استقامة الطريق، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾[1]، أي على الله تبيين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة، وهناك طريق جائر، أي غير قاصد، وطريق قاصد: سهل مستقيم، ويقال للسفر قاصد أي سفر سهل وقريب وغير شاقّ، والقصد العدل، وجاء في الحديث: كانت صلاته قصدًا وخطبته قصدًا.. وقصدتُ قصده: نحوتُ نحوه[2].

ونستنتج من ذلك بأنَّ القصد في المعنى اللغويّ هو إتيان الشيء لغاية في نفس المتكلِّم، وهو العدل والاستقامة، والبيان، ويستمدُّ القصد مفهومه من كلِّ فعل كلاميّ يفترض فيه وجود نيَّة التواصل والإبلاغ.

اصطلاحًا

ليست القصديَّة منهجًا ولا نظريَّة، بل هي فكرة تتعلَّق بالعقل والوعي والإدراك، ونجد أنَّ سيرل وهو أبو القصديَّة وموطدها لم يُطلق عليها لفظة منهج ونظريَّة، بل هي

(١) سورة النحل، آية: ٩.

(٢) ينظر: لسان العرب، جمال الدين محمَّد بن منظور الافريقيّ (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٧: ٣/ ٣٥٣.

فكرة ومشكلة وإشكاليَّة أو حالة، وربَّما جاءت في أكثر كلماته يتيمة غير مقترنة بأي من هذه الأوصاف.

وأمَّا أهدافها، فهي:

«الأوَّل: هو إثبات كيف ترتبط اللغة بالعقل، ذلك أنَّ الطريقة التي يرتبط بها العقل باللغة، هي أنَّهما يظهران القصديَّة معًا، ولكن لمن تكون الأسبقيَّة: قصديَّة اللغة أم قصديَّة العقل؟ جوابنا عن هذا السؤال: أنَّ سيرل يجعل قصديَّة العقل أسبق من قصديَّة اللغة، قصديَّة العقل أساسيَّة، وقصديَّة اللغة مشتقَّة.

والهدف الثاني: من وراء دراسة القصديَّة، هو رسم معالم الطريق لدراسة العقل دراسة صحيحة، تفيد من نتائج العلم..»[1].

ويعرِّف برنتانو (ت١٩١٧)[2] القصديَّة: بأنَّها «صفة للأفعال العقليَّة أو الذهنيَّة التي يتَّجه الوعي بها نحو شيء ما، بطريقة أو بأخرى، أو هي وصفٌ للأفعالِ العقليَّةِ والوجدانيَّة التي تتوسَّط بيننا وبين الأشياء»[3]، فالقصديَّة كما يرى تعدُّ سمة من سمات العقل.

ويعرَّف هوسرل (ت ١٩٣٨) القصديَّة بأنَّها: «تلك الخاصيَّة المتعلِّقة بالكثير من الحالات العقليَّة والأحداث، التي من خلالها تكون موجهة إلى، أو متعلِّقة بِـ، أو حول موضوعات بعينها، أو قضايا في العالم»[4].

(١) العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العلم الواقعي: ٣٤-٣٥.

(٢) برنتانو فرانز (١٨٣٨-١٩١٧)، وهو فيلسوف ألمانيّ، درس الفلسفة في برلين وميونخ، ومن مؤلَّفاته: (في مختلف دلالات الوجود حسب أرسطو عام ١٨٦٢، ومذهب أرسطو في أصل الذهن البشريّ عام ١٩١١، علم النفس المنظور الاختباريّ عام ١٨٧٤). ينظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت، ط٢، ١٩٩٧م: ١٦٩.

(٣) الفينومينولوجيا المنطق عند أدموند هوسرل، يوسف سلامة، دار حوران، ط١، ٢٠٠٢م: ١٢٤.

(٤) مفهوم القصديَّة في اللسانيَّات التداوليَّة، بن زحاف يوسف: ٢٣.

كما يرى بول ريكور (ت ٢٠٠٥)[١] أنَّ الفعل الأوَّل للوعي هو المعنى، والقصديَّة (Intentionality): هي فعل تحديد هذا المعنى بالعلامة التي تتوسَّط علاقة الوعي بالأشياء، كما تنقسم دلالة المقصد إلى شقَّين: الدلالة الأولى للقصد هي النيَّة، أو التصميم على القيام بشيءٍ ما، والدلالة الثانية هي غاية أو هدف يرمي المرء إلى بلوغه[٢].

ويرى (سيرل) أنَّ القصديَّة: «هي تلك السمة العقليَّة التي يتوجَّه بها العقل إلى أو حول أو عن الموضوعات وظروف العالم. وهي قبل كلِّ شيء ظاهرة بيولوجيَّة مشتركة بين البشر وبعض الحيوانات الأُخرى»[٣]، فهو يرى أنَّ للقصدية أشكالًا، وهي: الأشكال البدائيَّة بيولوجيًّا، مثل الوعي، والإدراك، والأفعال المتعدِّدة، والجوع، والعطش، والمشاعر، مثل الغضب والشهوة والخوف. وأشكال ثانويَّة: هي أشياء مثل الإيمان، والرغبة، والأمل[٤]، فيربط القصديَّة بالشعور، حيث لا يمكننا فهم القصديَّة إلَّا من خلال الشعور، فهي «ذلك الملمح للحالات العقليَّة الذي عن طريقه تتَّجه إلى، وتدور حول أشياء وحالات للواقع خلاف ذاتها»[٥]، أو يمكن التعبير عنها بأنَّها

(١) بول ريكور (١٩١٣-٢٠٠٥)، هو فيلسوف فرنسيّ، يمثِّل في الفلسفة الفرنسيَّة المعاصرة محاولة أصيلة تستلهم الوجوديَّة والفينومينولوجيا، من أهمِّ مؤلَّفاته (الإراديّ واللاإراديّ ١٩٥٠، في التناهي والإثم ١٩٦٠)، كما ينزع إلى إنشاء فلسفة في اللغة تقدِّم المعنى إلى المبنى في مؤلَّفاته: (في التأويل، ومحاولة في فكر فرويد ١٩٦٥، وتنازع التأويلات ١٩٦٩، والاستعارة الحيَّة ١٩٧٥، والزمان والسرد ١٩٨٣). ينظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي: ٣٣٨.

(٢) ينظر: نظريَّة جون سيرل في القصديَّة دارسة في فلسفة العقل، صلاح إسماعيل، قسم الفلسفة، كليَّة الآداب، جامعة القاهرة، مصر، حوليَّات الآداب والعلوم الاجتماعيَّة، الحوليَّة ٢٧، الرسالة ٢٦٢، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م: ٢٥.

(٣) رؤية الأشياء كما هي نظريَّة الإدراك، جون سيرل، ترجمة: إيهاب عبد الرحيم عليّ، عالم المعرفة، ٢٠١٨م: ٤٣.

(٤) ينظر: رؤية الأشياء كما هي نظرية الإدراك: ٤٣.

(٥) العقل واللغة والمجتمع: ١٣٤.

«ذلك الملمح من العقل الذي بواسطته يمثِّل الأشياء وحالات الواقع في العالم تمثيلًا جوهريًّا»[1].

فالقصديَّة تعدُّ صفة للأفكار العقليَّة التي تربط الوعي بالأشياء، أي تربط حالات الفرد الذهنيَّة بالعالم، والتي بموجبها يتمُّ اختيار موضوعات العالم الخارجيّ، لذلك فهي تحتلُّ مكانة متقدِّمة في اللسانيَّات التداوليَّة، ولا يمكن للتحليل التداوليّ أن يستغني عنها. وترتبط بمباحث العقل، و«الدور التطوريّ الأساسيّ للعقل هو ربطنا بطرق معيَّنة بالبيئة المحيطة، وبغيرنا من الناس على وجه الخصوص. إنَّ حالاتي الذاتيَّة التي تربطني ببقيَّة العالم، والاسم العام لهذه العلاقة هو القصديَّة (Intentionality)، وهذه الحالات الذاتيَّة تتضمَّن الاعتقادات والرغبات والمقاصد والإدراكات الحسيَّة، بالإضافة إلى مشاعر المحبَّة والكراهية والمخاوف والآمال، وأقول مرَّة أخرى إنَّ القصديَّة هي الاسم العام لكلِّ الصور المنوَّعة التي عن طريقها يستطيع العقل أن يتوجَّه تلقاء وحالات الواقع في العالم، أو يكون حولها، أو يرتبط بها»[2].

القصديَّة والمعنى

ثمَّة إشكاليَّة تؤدِّي في كثير من الأحيان إلى إساءة فهم القصديَّة وارتباطها بالمعنى، إذ يُفهَم منه أنَّ القصد يساوي المعنى، وهذا ليس بصحيح، فالقصد يقتضي النيَّة والرغبة والوعي بالفكرة، وليس اللفظ فقط، فيما يتعلَّق المعنى باللفظ ويرتبط به، بغضِّ النظر عن نيَّته أو ادراك المتكلِّم، فكلام النائم والغائب والساهي ربَّما يحمل معنى، ولكنَّه لا يحمل قصدًا.

(١) العقل واللغة والمجتمع: ١٤٠.

(٢) العقل واللغة والمجتمع: ١٢١.

أنواع القصديَّة

يرى سيرل أنَّ ثمَّة أنماطًا للقصديَّة يمكن تقسيمها على نوعَين: قصديَّة «مستقلَّة عن الملاحظ، فأنا أملك حالة الجوع بصرف النظر عمَّا يفكِّر فيه أي ملاحظ. والقصديَّة المشتقَّة معتمدة على الملاحظ، وهي لا توجد إلَّا في علاقة الملاحظين والمستعملين وهلمَّ جرًّا، الذين يملكون المعنى الذي تملكه الجملة الفرنسيَّة على سبيل المثال»[1]، أو القصديَّة المجازيَّة: القصديَّة كما لو كانت.

القصديَّة والاعتباطيَّة

ربَّما يتبادر إلى ذهن القارئ أنَّ القصديَّة في الضدِّ من الاعتباطيَّة التي تعني عدم وجود علاقة بين الدالِّ والمدلول، والقصديَّة وجود الارتباط بين الدالِّ والمدلول، ومنه خرج المنهج القصديّ الذي نادى به (عالم سبيط النيليّ)، وحاول تطبيقه على النصِّ القرآنيّ، وإن كانت له جذور في كتابات ابن جنِّي وابن فارس وغيرهما.

فالقصديَّة المرادة عند هؤلاء ترتبط بالمعنى والدلالة، بوصفها مفهومًا يعبِّر عن العلاقة بين الدالِّ والمدلول بغضِّ النظر عن الاستعمال، الذي هو مدار القصديَّة. فهي- كما يراها سيرل باختصار- إجابة عن سؤال: كيف يعمل العقل؟[2]، وثمَّة ترابط واضح بين القصديَّة والعقل، أو بعبارة أوضح قصديَّة العقل وقصديَّة اللغة، ذلك «أنَّ المشكلة هي أنَّنا لا نستطيع أن نفسِّر قصديَّة العقل عن طريق الاستعانة بقصديَّة اللغة؛ لأنَّ قصديَّة اللغة تعتمد بالفعل على قصديَّة العقل»[3].

(١) العقل واللغة والمجتمع: ١٢٩.
(٢) العقل واللغة والمجتمع: ١٢١.
(٣) العقل واللغة والمجتمع: ١٢٦.

القصديَّة والوعي

ربَّما رادف بعض الدارسين بين القصد والوعي، ولكنَّ سيرل يفرِّق بينهما قائلًا: «فالوعي والقصديَّة على الرغم من أنَّهما جانبان للعقل، فإنَّهما مستقلَّان عن الملاحظ، بمعنى إذا كنت واعيًا أو أملك حالة قصديَّة مثل الظمأ، فإنَّ هذه الجوانب لا تعتمد في وجودها على ما يفكِّر فيه أي شخص سواي، إنَّها ليست مثل جمل اللغة، فقط الأشياء التي توجد؛ لأنَّ الغرباء يفكِّرون فيما عساها أن تكون»[1]، ولذا فإنَّه ليست كلُّ الحالات القصديَّة واعية، ولا كلُّ الحالات الواعية[2] قصديَّة، فلكَ أن تعتقد بشيء من دون وعي، كما في المسلَّمات والامور التي تكون راسخة في الذِّهن.

القصديَّة فلسفيًّا

يعود الاهتمام بمفهوم القصديَّة إلى الفكر الفلسفيّ الأوربِّي، وربَّما أسبق، والقصد عندهم هو الفعل الذي يتَّجه فيه العقل نحو الموضوع ليدركه، وفعل القصد هو فعل التوجُّه نحو الموضوعات الخارجيَّة، أي إدراك العقل للموضوعات في العالم الخارجيّ، وتوجيه الأفكار نحوها.

ويعدُّ الفيلسوف (فرانز برنتانو) أوَّل من قدَّم فكرة القصديَّة إلى الفلسفة الحديثة، إذ تحدَّث في القرن التاسع عشر عن المقصديَّة في كتابه (علم النفس من وجهة نظر تجريبيَّة)، فقال: «إنَّ الموضوع الذي يتَّجه إليه العقل ليس في حاجة إلى أن يوجد، وزعم أيضًا أنَّ القصديَّة الموجودة في الظواهر العقليَّة هي التي تميِّزها عن الظواهر الفيزيائيَّة»[3]، حيث أراد أن يُدخِل القصديَّة في صلب النشاط النفسيّ، فقام بتركيز الوعي على بعض الظواهر النفسيَّة، فهو أوَّل مَن أدخل مفهوم القصديَّة إلى الفكر الحديث بقصد التمييز

(١) العقل واللغة والمجتمع: ١٣٠

(٢) العقل واللغة والمجتمع: ١٢٢

(٣) نظرية جون سيرل في القصديَّة: ٧٤.

بين الظاهرة الطبيعيَّة والظاهرة النفسيَّة، وانتهى إلى اعتبارها الصفة الأساسيَّة التي تميِّز الظواهر النفسيَّة.

وأشار إلى وجود فئتَين من العلاقات، علاقات أوليَّة وعلاقات ذهنيَّة، فأمَّا العلاقات الأوليَّة فعنده ترتبط بالظواهر الطبيعيَّة، أي العالم الخارجيّ، وأمَّا العلاقات الذهنيَّة فهي تستند إلى أفعال قصديَّة، كالتخيُّل والحكم والرغبة.. وتساعد هذه الأفعال على ترابط الموضوعات فيما بينها[1]، فيؤكِّد على أنَّ القصديَّة هي السمة المميِّزة للظواهر العقليَّة.

ويرى برنتانو أنَّ القصديَّة هي الخاصيَّة الأساسيَّة المميِّزة لكلِّ الخبرات أو الظواهر النفسيَّة، حيث ترتبط كلُّ ظاهرة بموضوعها ارتباطًا تلازميًّا، وهو الأمر الذي يعدَّه هوسرل اكتشافًا عظيمًا، بدونه ما كان يمكن للفينومينولوجيا أن تقوم على الإطلاق[2]، وبذلك يرى أنَّ القصديَّة تعدُّ سمة مميِّزة للظواهر العقليَّة.

ثمَّ جاء (هوسرل)، فأخذ فكرة القصديَّة عن أستاذه برنتانو، وتمثِّل القصديَّة عند هوسرل العنصر الذاتيّ، بل النفسيّ الخالص في المعرفة، فالقصد كما يقول هوسرل: «اتِّجاه الذات نحو موضوع متَّجه إليه»[3]، وبعضهم يرى بأنَّ هوسرل أوَّل من جاء بفكرة القصديَّة، فيقول جارودي: «الفكرة الجديدة التي أدخلها هوسرل في الفلسفة المعاصرة، هي فكرة الاتِّجاه القصديّ»[4].

(١) ينظر: الفينومينولوجيا المنطق عند إدموند هوسرل: ١٢٤.

(٢) ينظر: الخبرة الجمالية دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية، هيدجر، سارتر، ميرلوبونتي، دوفرين انجاردن، سعيد توفيق، المؤسَّسة الجامعيَّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٢م: ٣٠.

(٣) تأمُّلات ديكارتيَّة أو المدخل إلى الفينومينولوجيا، إدموند هوسرل، ترجمة تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٨م: ١٣٢.

(٤) نظرات حول الإنسان، روجيه جارودي، ترجمة د. يحيى هويدي، القاهرة، ١٩٨٣م: ٣٦.

لم يبقَ مفهوم القصديَّة على ما أراده برنتانو في تمييز الظواهر النفسيَّة، وإنَّما أدخل عليه هوسرل تعديلات، فقام بتحويله من مجرَّد مقولة نفسيَّة سيكولوجيَّة إلى مقولة منطقيَّة، فقد أصبحت عند هوسرل نظريَّة أساسيَّة في الفينومينولوجيا، وطوَّرها هوسرل عبر ثلاث مراحل: (المرحلة الرياضيَّة، والمرحلة المنطقيَّة، والمرحلة الفينومينولوجيا)[1]. حاول تفسير المشكلات الرياضيَّة والمنطقيَّة وتفسير المفاهيم والتصوُّرات الأساسيَّة الرياضيَّة تفسيرًا نفسيًّا، فاشتقَّ المفاهيم الأساسيَّة في الرياضة من أفعال نفسيَّة محدَّدة[2]، فأصبحت طبيعة القصديَّة في هذه المرحلة نفسيَّة محدودة.

ثمَّ تراجع هوسرل عن النتائج التي توصَّل إليها في التفسير النفسيّ التجريبيّ في المرحلة الرياضيَّة، وجعل القصديَّة للشعور الإدراكيّ في المرحلة المنطقيَّة، ودمجها بالمشكلات النفسيَّة، وأهمل الطابع التجريبيّ النفسيّ الجامد، فقام هوسرل بانتقاد أستاذه برنتانو في قصديَّته الشعوريَّة النفسيَّة[3]، فاشتق قوانين المنطق من قوانين علم النفس، وجعل القوانين المنطقيَّة قوانين نسبيَّة واحتمالية؛ لأنَّها تستند إلى الاستقراء[4]، فارتقى في هذه المرحلة إلى المعنى الخالص للمعرفة، وإدراك قيمة الماهيَّات، ثمَّ رأى أنَّه يجب تأسيس علم نفس فينومينولوجيّ جديد يكون هدفه الاختيار النَّسَقيّ المنظَّم لأنماط التجربة القصديَّة وأشكالها، وردِّ مكوِّناتها إلى مقاصدها الأوَّليَّة بوصفها الخلفيَّة الثابتة التي تؤسَّس عليها المعرفة اليقينيَّة المطلقة[5].

يُجمع الباحثون على أنَّ الظاهراتيَّة أو الفينومينولوجيا التي أوجدها هوسرل هي

(١) ينظر: الفينومينولوجيا عند هوسرل دراسة نقديَّة في التجديد الفلسفيّ المعاصر، سماح رافع محمَّد، دار الشؤون الثقافية العامَّة (آفاق عربيَّة)، العراق، بغداد، ط١، ١٩٩١م: ١٨٩.

(٢) ينظر: الفينومينولوجيا المنطق عند إدموند هوسرل: ١٣٨.

(٣) ينظر: الفينومينولوجيا المنطق عند إدموند هوسرل: ٨٨.

(٤) ينظر: الفينومينولوجيا المنطق عند إدموند هوسرل: ١١٩.

(٥) ينظر: الفينومينولوجيا عند هوسرل دراسة نقديَّة في التجديد الفلسفيّ المعاصر: ١٨٦.

تطوُّر لفلسفة برنتانو، الذي يرى أنَّ ماهية الوعي دائمًا وعيٌ بشيء، فقد استعمل هوسرل الفينومينولوجيا للدلالة على منهج فكريّ واضح، ففي علم النفس تدلُّ على الظواهر النفسيَّة (كالإدراك، والرغبة، ومظاهر الوعي..)، أمَّا في الفلسفة فاستعملها في معالجة مشكل الوجود لأيَّة ظاهرة واتِّصالها بالوعي، بقصد رصد تركيبات الظواهر الجوهريَّة الثابتة التي تتجلَّى للوعي[1]، وأهمّ ما يميِّزها هو الطابع القصديّ للوعي.

ثمَّ جاء سيرل ففسَّر قصديَّة اللغة بقصديَّة العقل وليس العكس، فالأصوات والعلامات تشير إلى أشياء وحوادث؛ لأنَّ العقل يفرض قصديَّة عليها، أي إنَّ معنى اللغة هو قصديَّة مستمدَّة من قصديَّة العقل[2]، فيقول في ذلك: «إنَّ الأشكال الأساسيَّة للوعي والقصديَّة يسبِّبها سلوك العصابات، وتتحقَّق بجهاز الدماغ الذي هو بدوره يتشكَّل من عصابات»[3]، فالعطش، والجوع، والخوف، والرغبة، والإدراك.. كلُّها ظواهر قصديَّة، وهي حالات ذهنيَّة تتشكَّل داخل الذهن البشريّ، ويقول سيرل: «القصديَّة تمتلك توجُّه تناسب عالميّ نحو العقل، أو مسؤوليَّة تناسب العالم نحو العقل»[4]، فهو يرى أنَّ القصديَّة تربط حالات الفرد الذهنيَّة بالعالم الواقعي، وأنَّ مصطلح (القصديَّة)، لم يكن دقيقًا، وأدَّى في معظم الحالات إلى نوع من الخلط داخل المذهب التقليديّ نفسه، فهو لا يلزم نفسه بالصفات التي ينسبها التراث الفلسفيّ لمصطلح القصديَّة، ويطرح وجهة نظره في مصطلح القصديَّة في ثلاث نقاط:

(١) ينظر: القصديَّة بحث في فلسفة العقل، جون سيرل، ترجمة: أحمد الأنصاريّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩م: ٧-٨.

(٢) ينظر: العقل مدخل موجز، جون سيرل، ترجمة: أ.د. ميشيل حنَّا متياس، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٧م: ١٤٠.

(٣) العقل مدخل موجز: ١٤٢.

(٤) العقل مدخل موجز: ١٤٥.

١. يرى بأنَّ هناك حالات تكون قصديَّة، وهناك حالات لا تكون قصديَّة، فالحالات التي تكون قصديَّة هي الحالات غير الموجَّهة، ويُطلق عليها سيرل الحالات غير المباشرة مثل: البهجة، والقلق، والاحباط، والانفعالات، والسعادة.. تأتي من غير تحسُّب مسبق لها، أمَّا الحالات التي يعدُّها سيرل قصديَّة، وهي الحالات الموجَّهة، أو التي يسمِّيها سيرل المباشرة، مثل: المعتقدات، والمخاوف، والرغبات.. فيميِّز سيرل بين هاتَين الحالتَين وفقًا للطريقة التي يتمُّ بها التعبير عن الكلام ومقاصده ووفقًا للقيود التي تخضع لها تلك الحالات[١].

٢. فرَّق سيرل بين القصديَّة والوعي، فهو يرى بأنَّ هناك العديد من الحالات الواعية ليست قصديَّة، مثل الفرح أو الشعور المفاجئ بالسعادة، وفي المقابل هناك حالات قصديَّة لكنَّها غير واعية، مثل المعتقدات الثابتة التي لم نفكِّر بها، فلا يوجد هناك داعي للتفكير بها[٢].

٣. تعدُّ المقاصد والقصد مجرَّد صورة من صور القصديَّة، فيفرِّق سيرل بين القصد والقصديَّة عن طريق المعنى العلميّ لكِلَا الكلمَتَين، فالقصديَّة تعني التوجُّه، والقصد يعني قصد عمل شيء معيَّن أو النيَّة، ويعدُّ القصد نوع من أنواع القصديَّة وصورة من صورها، فبحسب وجهة نظر سيرل، لا يكون القصد من القيام بفعل معيَّن إلَّا مجرَّد صورة من صور القصديَّة، وقد أدَّى التركيز على القصديَّة والقصد إلى تصوُّر أنَّ المقاصد بالمعنى العادي لها دور خاص بالنظريَّة القصديَّة[٣].

(١) ينظر: القصديَّة بحث في فلسفة العقل: ٢١-٢٢.
(٢) ينظر: القصديَّة بحث في فلسفة العقل: ٢٢.
(٣) ينظر: القصديَّة بحث في فلسفة العقل: ٢٣.

والقصديَّة كما يراها فلاسفة اللغة تعدُّ توجُّهًا يطلقه الوعي تجاه موضوع ما، فالقصديَّة تمثِّل نمط العلاقة التي تربط الوعي بمضمون الظاهرة، فقد ربط الفلاسفة الوعي بالقصديَّة ارتباطًا وثيقًا؛ وذلك لأنَّ المقاصد تنبع من توجُّه الفرد نحو شيء ما، وهذا التوجُّه نابع عن وعيٍ تامٍّ بالموضوعات التي يتوجَّه إليها.

القصديَّة وأفعال الكلام

تشكِّل نظريَّة أفعال الكلام محور التداوليَّة، وقد أرسى قواعدها أوستين، ثمَّ طوَّرها وعمَّقها تلميذه سيرل، وتعدُّ هذه النظريَّة من أهمِّ النظريَّات التي اهتمَّت بالمضامين والمقاصد التواصليَّة، واعتبر أوستين أنَّ كلَّ فعل كلاميّ يقوم على مبدأ القصديَّة، وكذلك للسياق أهميَّة كبيرة في فهم قصد المتكلِّم في الخطاب[1]، كما أنَّ اللغة العامل المهم في تعبير المتكلِّم عن قصده، فاللغة هي التي تحدِّد معنى الكلام أو الخطاب، وأنَّ غاية قصد المتكلِّم، إفهام السامع.

وتعدُّ نظرية أفعال الكلام أحدى أهمِّ مفاهيم القصديَّة، فهي تتَّسم بالاتِّصال اللغويّ والقوَّة الإنجازيَّة في ضوء قصديَّة المتكلِّم، وهذه النظريَّة لا تُشير فقط إلى مجرَّد استعمال اللغة، بل هي تُنجِز حدثًا اجتماعيًّا في آنٍ واحد، وهذا يعدُّ تأليف بين المقصد والعمل.

ويفرِّق أوستين بين نوعَين من الأفعال الكلاميَّة: الأفعال الوصفيَّة التي تخضع لمعيار الصدق والكذب، فتكون صادقة إذا طابقت قصديَّتها الواقع، وتكون كاذبة إذا خالفت قصديَّتها الواقع، والثاني هو: الأفعال الإنجازيَّة التي تخضع لمعيار النجاح والفشل، فإذا طابقت قصديَّتها شروط إنجازها، تكون ناجحة،

(١) ينظر: إستراتيجيَّة الخطاب، مقاربة لغويَّة تداوليَّة، عبد الهادي بن ظافر الشهريّ، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م: ١٨٢.

وإذا خالفت تكون فاشلة، فهنا يجعل أوستين القصديَّة مهمَّة في تحقيق الأفعال الإنجازيَّة[١].

يرى سيرل بأنَّ المضمون القضويّ أمر مهمٌّ في الحالات القصديَّة، فكلُّ كلامٍ يحتوي على مقاصد، فيه مضمون قضويّ، وأنَّ وجود القصديَّة أكثر أهميَّة من وجود المضمون القضويّ في نظريَّة أفعال الكلام، فأحيانًا توجد أفعال كلام لا تحتوي على مضمون قضويّ مثل: (آخ، وأهلا، ومع السلامة..)[٢]، حيث يقول: «إنَّنا عند تقديم فعل كلاميّ ذي مضمون لغويّ، نعبِّر عن حالة قصديَّة معيَّنة بهذا المضمون اللغويّ (القضيَّة)»[٣]، فيقصد سيرل أنَّ كلَّ فعلٍ كلاميٍّ نريد فيه طرح قضيَّة، أو توضيح مضمون، أو طلب، أو أمر، أو نهي، فلا بدَّ من أن يكون هناك قصد وراء هذا المضمون، فإذا أصدرت وعدًا بفعل شيء ما فإنِّي أعبِّر عن قصد أو نيَّة القيام بهذا الفعل، وإذا أعطيت أمرًا بفعل شيء ما فإنِّي أقصد التعبير عن رغبتي في القيام بهذا الفعل، ويذكر سيرل أنَّه يجب أن تكون المقاصد والنوايا صادقة، فإنَّك عندما تهنِّئ شخصًا بنجاحه، يجب أنْ يكون قصدك صادقًا في التعبير عن فرحتك له، ولا يكون في داخلك عدم السعادة لنجاح ذلك الشخص[٤].

ويستنتج لنا سيرل الصلات والروابط بين أفعال الكلام والقصديَّة[٥]:

١. كلُّ حالة قصديَّة تتكوَّن من مضمون تمثيليّ، وفي حالة نفسيَّة معيَّنة. أي إنَّ القصد يتعلَّق بحالة الشخص النفسيَّة وما يدور بها.

(١) ينظر: معايير النصِّ عند روبرت دي بوجراند وأثرها في فهم الخطاب النبويّ: ٢١٣.
(٢) ينظر: القصديَّة بحث في فلسفة العقل: ٢٨.
(٣) القصديَّة بحث في فلسفة العقل: ٣٠.
(٤) ينظر: القصديَّة بحث في فلسفة العقل: ٣٠.
(٥) ينظر: القصديَّة بحث في فلسفة العقل: ٣٢-٣٣.

٢. إنَّ الحالات القصديَّة تمثِّل أحوال الأشياء والموضوعات المختلفة بالمعنى نفسه الذي تمثِّل به نظريَّة أفعال الكلام للموضوعات وأحوال الأشياء.

٣. إنَّ الحالات القصديَّة التي تحتوي على مضمون لغويّ، ولها اتِّجاه للتطابق، فإنَّها تقدِّم شروط تحقيقها بنفس المعنى الذي تمثِّل به أفعال الكلام ذات المضمون اللغويَّ (القضيَّة)، ولها اتِّجاه للتطابق، وشروط لتحقيقها. فالقصديَّة مرتكز مهم لنظريَّة الفعل الكلاميّ؛ لأنَّ الأخير لا ينجح إلَّا إذا حقَّق مقاصده، وإذا لم يتحقَّق القصد من الكلام، فلا تكون النتيجة حقيقيَّة، ويتعيَّن على المخاطَب فهم قصد المخاطِب حتَّى يوفَّق في تحقيق قصديَّته.

المبحث الثاني

معالم القصديَّة في الخطاب الفاطميّ

ثمَّة مقاصد استبطنها الخطاب الفاطميّ، وتكمن مركزيَّة هذا الخطاب في (التوحيد) الذي يمثِّل قطب المقاصد وبؤرتها، ومنه تنبثق بقيَّة المقاصد، فالتوحيد هو القصد المهيمِن على الخطاب، وعدم الإيمان بهذه العقيدة الكونيَّة هو ما يقلب القيم، وبها تثبت العقائد الأخرى عقلًا ونقلًا.

وهذا القصد (الأكبر) الذي تطلبه الخطبة الفدكية، يأتي في كلِّ مفصل من مفاصل الخطاب، فالمقاصد تتعدَّد بشكلٍ تراتبيّ، بحيث يوصل كلُّ قصد إلى ما هو أعمق منه وأعلى مرتبة، وهو ما سنحاول الوقوف عليه- بقدرنا لا بقدره بكل تأكيد- فليست المطالبة بحقِّ الخلافة أو فدك إلَّا مسلكًا وطريقًا إلى المقاصد الكبرى التي تضمَّنتها الخطبة.

مراتب الخطاب القصديَّة

ينقسم القصد إلى قصد إخباريّ، وهو المفهوم من الظاهر ولفظ الكلام، وآخر يكون تواصليًّا يُفهَم من سياق الكلام وملابساته، فالخطاب اللغويّ هو إخبار يمثِّل قصدًا أوَّليًّا، ومتضمِّناته ومستلزماته تتضمَّن (قصودًا) أخرى.

ولو تأمَّلنا مراتب الخطاب ومستوياته القصديَّة، لوجدنا على سبيل المثال مقاصد تترتَّب عموديًّا، فظاهر الخطاب الفاطميّ ومنطوقه يشي بالحمد والثناء والتذكير بنِعَم

الله وفضله، ومنزلة النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته، ثمَّ التذكير بأهميَّة العبادات وعلل تشريعها و(جعلها)، ومن ثمَّ الاحتجاج لحقِّها وحقِّ ابن عمها، والاستدلال على ذلك بالنقل والعقل، ما هي إلَّا مقاصد أوَّليَّة تنبني عليها مقاصد أخرى، والصدِّيقة عليها السلام تعتقد بذلك، وهذا هو المستوى الثاني من القصد، وقصد ثالث بأنَّ اعتقادها بأنَّهم يعتقدون بأحقيَّتها، وتريد منهم أن يذعنوا لهذا الاعتقاد.

ويمكن ترتيبها كالآتي:

١. فهي تعتقد.

٢. أنَّهم يعتقدون.

٣. بأنَّها تريد أن تطالب بحقِّها.

٤. وأن يعتقدوا.

٥. بما هي تريد.

٦. ليُذعِنوا لمطالبها.

من هنا نفهم عمق المقاصد في الخطاب الفاطميّ، فهذه مستويات ستَّة للخطاب، فالحمد والثناء والتذكير بنعم الله قصد أوَّل.

ينبثق منه قصدٌ ثانٍ، هو أنَّهم يعتقدون بهذه الحقائق والنِّعم.

وهي تريد عليها السلام، وهو قصد ثالث، أن يعتقدوا بما يلازم هذه النِّعم.

وقصد رابع باعتقادها، وهو التوحيد التي لا ينجم عنه إلَّا القيادة الحقَّة.

وكذا الأمر مثلًا في مطالبتها بفدك:

تعتقد المطالبة بفدك.

يعتقدون بحقِّها.

في كونها تريد إرجاع فدك.

وأن يعتقدوا بهذا الحقِّ الذي يترتَّب عليه.

الاعتراف بخلافة الامير عليه السلام، وان يبايعوه على ذلك.

ومن هنا فإنَّنا يمكن أن نقسِّم الخطاب الفاطميّ إلى وحدات (قصديَّة)، أم مقاصد صغرويَّة أو ظاهرة، تؤلِّف بمجموعها قصدًا باطنيًّا تواصليًّا، وهو القصد الأسمى.

وهذه الوحدات هي:

١. قصديَّة المقام.
٢. قصديَّة الشهادة لله والحمد والثناء.
٣. قصديَّة الشهادة للرسول صلى الله عليه وآله.
٤. قصديَّة الوعظ والتذكير.
٥. قصديَّة العبادات.
٦. قصديَّة الأخلاق.
٧. قصديَّة بيان منزلة الزَّهراء عليها السلام.
٨. قصديَّة بيان منزلة الأمير عليه السلام.
٩. قصديَّة الاحتجاج والاستدلال.
١٠. قصديَّة الوعيد.
١١. قصديَّة الانتصار واستنهاض همم الأنصار.
١٢. قصديَّة إظهار الغضب والحزن.

فهذه اثنا عشر قصدًا في ضوء الوحدات التي تضمَّنتها الخطبة، وربَّما نجد غيرها في التأمُّل. وهي كما نرى تتسلسل بشكلٍ هرميّ وبنظامٍ مقصودٍ؛ للوصول إلى القصد المضمر، وهو القصد المركزيّ للخطاب الفاطمي، وهو امتداد لخطاب النبوَّة.

إنَّ الخطاب بمقاصده الفرعيَّة أو الصغرى يحقِّق باجتماعها المقصد الأكبر، فالوحدات الاثنتا عشرة تتواشج فيما بينها لإثبات حقِّ الإمامة الذي يمثِّل امتدادًا للنبوَّة وخلاصة رسالة الأنبياء عليهم السلام، التي جاءت لنشر عقيدة التوحيد.

قصديَّة المقام[1]

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ ماروته كتب التاريخ عن صورة خروج الزَّهراء عليها السلام بالصورة التي نُقلت، يُعطي الخطبة أبعادًا ومقاصد عميقة تتجاوز الجانب الظاهريّ من المطالبة بفدك، وهي عليها السلام أكبر من أن تتحمَّل كلَّ هذا العناء وهذا التحشيد والبيان العظيم في المسجد النبويّ المعظَّم لهذا الغرض، وقد تناولنا هذا الجانب في بحثٍ سابقٍ، ولكن لنا أن نلخِّص المقاصد التي ترتَّبت على هذا القيام الفاطميّ، كالآتي:

- الخروج بهذه الهيأة والمشية والدخول والنسوة وما إلى ذلك.
- المطالبة بفدك (الأرض).

(١) تناولنا في بحث سابق بعنوان (حجاجيَّة السياق المقاميّ في الخطبة الفدكيَّة) فاعليَّة السياق المقاميّ وأثره في التحشيد والإقناع للمطالبة بالحقوق، بعيدًا عن المؤثِّرات المقاليَّة، معتمدين في ذلك على ما روي في هيأة الزَّهراء عليها السلام ودخولها إلى المسجد وجلوسها ومشيتها، وما أحاط بذلك من ظروف زمانيَّة ومكانيَّة وملابسات وجمهور وما إلى ذلك. وهي الفقرة التي في صدر الخطبة: «روى عبد الله بنُ الحسن عليه السلام بإسنادِه عن آبائه عليهم السلام أَنَّه لَـمَّا أَجْمَعَ أبو بكر عَلى مَنْعِ فاطمةَ عليها السلام فَدَكَ، وبَلَغَها ذلك، لاثَتْ خِمارَها على رأسِها، واشْتَمَلَتْ بِجِلْبابِها، وأَقْبَلَتْ في لُـمَّةٍ مِنْ حَفَدتِها ونساءِ قَوْمِها، تَطأ ذُيُولَها، ما تَخْرِمُ مِشْيَتُها مِشْيَةَ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، حَتَّى دَخَلَتْ عَلى أَبي بَكْرٍ وَهُو في حَشْدٍ مِنَ المهاجِرين والأَنصارِ وَغَيْرِهِمْ، فَنيطَتْ دونَها مُلاءَةٌ، فَجَلَسَتْ، ثُمَّ أَنَّتْ أَنَّةً أَجْهَشَ القومُ لها بِالْبُكاءِ. فَارْتَجَّ الْـمَجلِسُ. ثُمَّ أَمْهَلَتْ هَنِيَّةً حَتَّى إذا سَكَنَ نَشيجُ القومِ، وهَدَأَتْ فَوْرَتُهُمْ، افْتَتَحَتِ الْكَلامَ بِحَمدِ اللهِ وَالثناءِ عليه والصلاةِ على رسولِ الله، فعادَ القومُ في بُكائِهِمْ، فَلَـمَّا أَمْسَكُوا عادَتْ فِي كلامِها، فَقَالَتْ عليها السلام:..». ينظر: حجاجيَّة السياق المقاميّ في الخطبة الفدكيَّة، د. موفق مجيد ليلو، بحث منشور في وقائع المؤتمر الأوَّل للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام دار الكفيل، كربلاء، ٢٠٢٣م.

- المطالبة بفدك (المعنويَّة) بحقِّ الخلافة لأمير المؤمنين عليه السلام.
- المطالبة بذلك كونها القيادة الحقيقيَّة.
- المطالبة بإقامة دين الله تعالى بتحقُّق خلافة الأمير عليه السلام.

وإثبات هذه المراحل لا يحتاج جهدًا بحثيًّا كبيرًا، إذ إنَّ هيأتَها ودخولَها بهذه الصورة، معزِّزات إقناعيَّة لترسيخ هذه الاعتقادات، فضلًا عن طبيعة الخطاب، والاحتجاج بخطاب المقدَّس من القرآن والسنَّة النبويَّة، فضلا عن استدلال العقل، فالخطاب الفاطميّ كان واعيًا بدرجات القصد ومؤثِّراته، واستطاع أن يحشد لذلك من السياق اللغويّ والمقاميّ ما يؤيِّد ذلك ويعزِّزه.

ومن هذا القصد انبثقت بقيَّة المقاصد، فهي ليست قضيَّة شخصيَّة أو ماديَّة بقدر ما هي قيمة وقضيَّة ترتبط بعقيدة التوحيد.

- فدك قصد، (القصد الظاهر).
- خلافة الإمام: قصد القصد (قصد باطن أوَّل).
- عقيدة التوحيد: قصد قصد القصد (قصد باطن ثانٍ).

قصديَّة الإقرار والشهادة لله والحمد والثناء والشهادة لله والرسول صلى الله عليه وآله

تقول عليها السلام في مطلع خطبتها: «**الْحَمْدُ للهِ عَلى ما أَنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ على ما أَلْهَمَ، وَالثَّناءُ بِما قَدَّمَ، مِنْ عُمومِ نِعَمٍ ابْتَدَأها، وَسُبُوغ آلاءٍ أَسْداها، وَتَمامِ مِنَنٍ والاها، جَمَّ عَنِ الإحْصاءِ عدَدُها، وَنأى عَنِ الْجَزاءِ أَمَدُها، وَتَفاوَتَ عَنِ الإدْراكِ أَبَدُها، وَنَدَبَهُمْ لِاسْتِزادَتِها بالشُّكْرِ لِاتِّصالِها، وَاسْتَحْمَدَ إلَى الْخَلايِقِ بِإجْزالِها، وَثَنَّى بِالنَّدْبِ إلى أَمْثالِها.**

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، كَلِمَةٌ جَعَلَ الإِخْلاصَ تَأْويلَها، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَها، وَأَنارَ في الْفِكَرِ مَعْقُولَها. الْمُمْتَنِعُ مِنَ الإِبْصارِ رُؤْيَتُهُ، وَمِنَ الأَلْسُنِ صِفَتُهُ، وَمِنَ الأَوْهامِ كَيْفِيَّتُهُ. اِبْتَدَعَ الأَشْياءَ لا مِنْ شَيْءٍ كانَ قَبْلَها، وَأَنْشَأَها بِلا احْتِذاءِ أَمْثِلَةٍ امْتَثَلَها، كَوَّنَها بِقُدْرَتِهِ، وَذَرَأَها بِمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حاجَةٍ مِنْهُ إلى تَكْوينِها، وَلا فائِدَةٍ لَهُ في تَصْويرِها إلَّا تَثْبيتًا لِحِكْمَتِهِ، وَتَنْبيهًا عَلى طاعَتِهِ، وَإِظْهارًا لِقُدْرَتِهِ، وَتَعَبُّدًا لِبَرِيَّتِهِ، وإعزازًا لِدَعْوَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَ الثَّوابَ على طاعَتِهِ، وَوَضَعَ العِقابَ عَلى مَعْصِيَتِهِ، ذِيادَةً لِعِبادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ، وَحِياشَةً مِنْهُ إلى جَنَّتِهِ»[1].

ففي هذه الوحدة النصيَّة ثناء وتحميد لله سبحانه، وإقرار بالنِّعم الجمَّة التي لا تُحصى، والتي تستدعي الشكر والثناء، وفيها توجيه للمخاطَبين للاعتراف بهذه النِّعم وتقديرها، ثمَّ يليها الفعل الإقراريّ (الإعلان) بالشهادة لله تعالى، وبيان لبعض صفاته الجلاليَّة والجماليَّة، مع بيان علَّة الخلق، وهي: «**تَثْبيتًا لِحِكْمَتِهِ، وَتَنْبيهًا عَلى طاعَتِهِ، وَإِظْهارًا لِقُدْرَتِهِ، وَتَعَبُّدًا لِبَرِيَّتِهِ، وإعزازًا لِدَعْوَتِهِ**»، وهذه هي المقاصد التي خلق الله بني آدم لأجلها، وهذا ما أوضحته عليها السلام منذ افتتاح الخطبة وحتَّى خواتيمها، فمن يُدرك أنَّه عبد لله، ويُدرك نِعمه، ويُقرُّ بالشهادة، لا بدَّ أن يشكر المنعِم عليه.

فمقصديَّة المخاطِب تتجلَّى في البدء بالحوار في ضوء المسلَّمات والمشتركات وفق أرضيَّة واحدة لا يختلف فيها الطرفان، بل يسلِّم ويذعن لذلك، وبهذا يتحقَّق القصد الأوَّلي تمهيدًا لإلقاء المقاصد الأخرى، وصولًا إلى اعتراف المخاطَب وإذعانه للمتكلِّم، فالحجج المقدَّسة، التي يؤمن بها الآخر، يمكن أن تحقِّق قصديَّة المخاطِب، أو ما أسميناه بالقصد الأوَّلي.

(١) شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام: العلَّامة المجلسيّ، القاضي النعمان المغربيّ، الأنصاريّ التبريزيّ، تحقيق وإعداد السيِّد باقر الكيشوان الموسويّ، مؤسَّسة البلاغ، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠١٢م: ٤٤.

ثمَّ تتلو تلك الوحدة ما يتعلَّق بذِكر النبيِّ الأعظم محمَّدﷺ، في إشارة إلى مقصودة بقولهاعليها السلام: «**وَأَشْهَدُ أنّ أبي مُحَمَّدًاﷺ عبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اخْتارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ.. فَأَنارَ اللهُ بِمُحَمَّدٍﷺ ظُلَمَها، وكَشَفَ عَنِ القُلُوبِ بُهَمَها، وَجَلَّى عَنِ الأَبْصارِ غُمَمَها، وَقَامَ في النَّاسِ بِالهِدايَةِ، وأنقَذَهُمْ مِنَ الغَوايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ العَمايَةِ، وهَداهُمْ إلى الدِّينِ القَويمِ، وَدَعاهُمْ إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ**».

فإشارة الصدِّيقةعليها السلام بقولها: «**أبي محمَّدﷺ**» تحمل قصديَّة لإشعار المخاطَب بمنزلة النبيّ الأعظم أوَّلًا، ومنزلتهاعليها السلام، ولكي تستنطق القوم في إثبات حقِّها وما جرى عليها من الظلم، وهي مَن هي بتلك المنزلة العظيمة، في الوقت الذي تبيِّن فيه ما قدَّمه النبيّﷺ في سبيل الدين؛ لاستنقاذ الناس من الضلالة.

وحقيقٌ لمن كانت هذه منزلته العظيمة أن يُحفظ في ولدِه وأهل بيته، فالقصد الأوَّل هو بيان عِظَم منزلة النبيّﷺ، والإقرار بفضله وأهل بيته، ولكن هذا القصد يستبطن قصدًا باطنيًّا، وهو: إنَّهم مع اعتقادهم بمنزلة الرسولﷺ، وعلمهم بأنَّها ابنته، غير أنَّ ذلك لم يمنعهم من ظلمها وسلب حقِّها، فهي تنتزع منهم إقرارًا بحقِّها وما جرى عليها من الظلم، مع عِظم منزلتها ومنزلة أبيها.

قصديَّة الوعظ والتَّذكير

الوحدة الرابعة تتضمَّن الوعظ والإرشاد الممزوج بلغة العتاب والتأنيب، تقول الصدِّيقةعليها السلام: «**أَنْتُمْ عِبادَ اللهِ نُصْبُ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحَمَلَةُ دينِهِ وَوَحْيِهِ، وَأُمَناءُ اللهِ عَلى أَنْفُسِكُمْ، وَبُلَغاؤُهُ إلى الأُمَمِ، وَزَعَمْتُمْ حَقٌّ لَكُمْ للهِ فِيكُمْ، عَهْدٌ قَدَّمَهُ إِلَيْكُمْ، وَبَقِيَّةٌ استَخْلَفَها عَلَيْكُمْ. كِتابُ اللهِ النَّاطِقُ، والقُرْآنُ الصَّادِقُ، وَالنُّورُ السَّاطِعُ، وَالضِّياءُ اللَّامِعُ، بَيِّنَةٌ بَصائِرُهُ، مُنْكَشِفَةٌ سَرائِرُهُ، مُتَجَلِّيَةٌ ظَواهِرُهُ، مُغْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْياعُهُ، قائِدٌ إلى الرِّضْوانِ اتِّباعُهُ، مُؤَدٍّ إلى النَّجاةِ إسْماعُهُ. بِهِ تُنالُ حُجَجُ اللهِ المُنَوَّرَةُ، وَعَزائِمُهُ المُفَسَّرَةُ،**

وَمَحارِمُهُ المُحَذَّرَةُ، وَبَيِّناتُهُ الجالِيَةُ، وَبَراهِينُهُ الكافِيَةُ، وَفَضائِلُهُ المَنْدوبَةُ، وَرُخَصُهُ المَوْهُوبَةُ، وَشَرايِعُهُ المَكْتُوبَةُ»[1].

فالخطاب تضمَّن تذكيرًا لهم بمهمَّتهم الكبيرة، بوصفهم حَمَلة لدين الله ومبلِّغيه إلى الأمم، وهو حجَّة عليهم؛ لأنَّ مَن كانت هذه مهمَّتهم ودورهم، فليس لهم أن يخونوا تلك الأمانة، أو أن يتنصَّلوا عن مهمَّتهم، فالقصد في بيان دورهم ومهمَّتهم في حمل الرسالة وتبليغها، وهم الرعيل الأوَّل من الصحابة وسفراء الدين. غير أنَّ القصد يستبطن قصدًا، وهو أنَّ من كانت هذه مهمَّتهم، فهم أَولَى من غيرهم بنصرة دين الله المتمثِّل بنصرة أهل بيته، وإقامة دين الله. فكلُّ ما ذكرته الصدِّيقة عليها السلام يندرج في مسار المقاصد الأوَّليَّة التي تهدي إلى المقاصد الكبرى للخطاب، وهي في الوقت ذاته لإقامة للحجَّة، وإلجام للأفواه.

قصديَّة العقائد والعبادات والأخلاق

يمكن أن نلحظ هذ الأمر في العقائد[2] والعبادات والأخلاق، ويتجلَّ في هذه الوحدة النصيَّة:

فَجَعَلَ اللهُ..

الإيمانَ تَطْهيرًا لَكُمْ مِنَ الشِّرْكِ،

وَالصَّلاةَ تَنْزيهًا لَكُمْ عَنِ الكِبْرِ،

والزَّكاةَ تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ وَنَماءً في الرِّزْقِ،

والصِّيامَ تَثْبيتًا للإِخْلاصِ،

والحَجَّ تَشْييدًا لِلدِّينِ،

(١) شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام: ١٩٣.

(٢) ينظر: القصديَّة في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، د. كريم حسين ناصح الخالديّ، مجلَّة العميد، السنة الرابعة، المجلَّد الرابع، العدد الرابع، ٢٠١٥م: ٢١-٢٤.

وَالعَدْلَ تَنْسيقًا لِلْقُلوبِ،

وَطاعَتَنا نِظامًا لِلْمِلَّةِ،

وَإمامَتَنا أمانًا مِنَ الْفُرْقَةِ،

وَالْجِهادَ عِزًا لِلْإِسْلامِ،

وَالصَّبْرَ مَعُونَةً عَلَى اسْتِيجابِ الْأَجْرِ،

وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعامَّةِ،

وَبِرَّ الْوالِدَيْنِ وِقايَةً مِنَ السَّخَطِ،

وَصِلَةَ الأَرْحامِ مَنْماةً لِلْعَدَدِ،

وَالْقِصاصَ حِقْنًا لِلدِّماءِ،

وَالْوَفاءَ بِالنَّذْرِ تَعْريضًا لِلْمَغْفِرَةِ،

وَتَوْفِيَةَ الْمَكاييلِ وَالْمَوازينِ تَغْيِيرًا لِلْبَخْسِ،

وَالنَّهْيَ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِ تَنْزِيهًا عَنِ الرِّجْسِ،

وَاجْتِنابَ الْقَذْفِ حِجابًا عَنِ اللَّعْنَةِ،

وَتَرْكَ السَّرِقَةِ إيجابًا لِلْعِفَّةِ.

وَحَرَّمَ اللهُ الشِّرْكَ إخلاصًا لَهُ بالرُّبُوبِيَّةِ،

فـ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1]، وَأطيعُوا اللهَ فيما أمَرَكُمْ بِهِ وَنَهاكُمْ عَنْهُ، فَإِنَّه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2].

هذا دستور تشريعيّ إلهيّ متكامل، يغطّي كلَّ جوانب الحياة، وهو جعل إلهيّ وعلل حقيقيَّة لما ذكر، وما يستوقف القارئ هنا هو قولها عليها السلام: «**فَجَعَلَ اللهُ.. وَطاعَتَنا**

(١) آل عمران: ١٠٢

(٢) فاطر: ٢٨

نِظامًا لِلْمِلَّةِ، وَإمامَتَنا أمانًا مِنَ الْفُرْقَةِ.. وَحَرَّمَ اللهُ الشِّرْكَ إخلاصًا لَهُ بالرُّبُوبِيَّةِ، فـ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وَأطيعُوا اللهَ فيما أمَرَكُمْ بِهِ وَنَهاكُمْ عَنْهُ، فَإنَّه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾»[1].

فطاعتهم عليهم السلام نظامٌ للملَّة، وإمامتهم رمزُ الوحدة، وأمانٌ من الفرقة، ثمَّ ربط ذلك كلُّه بطاعة الله تعالى، وهذه صفة العلماء الذين يخشون الله تعالى.

فالمقاصد تترتب على النحو الآتي وبتسلسل:

- بيان علل الأصول والفروع والعبادات والأخلاق (والطاعة والإمامة منها).
- وهذا يقتضي التقوى والالتزام بها.
- ومن يلتزم بها، فهو من العلماء الذين يخشون ربَّهم.
- وعليه: لا بدَّ من إرجاع فدك لأهلها.
- وهذا يقتضي الاعتراف ضمنًا بخلافة أمير المؤمنين عليه السلام.
- لأنَّه من يقيم أمر الله تعالى، وهو أحقُّ بذلك.

قصديَّة بيان منزلتها عليها السلام ومنزلة أبيها صلى الله عليه وآله

لايخفى على كلِّ مسلم المنزلة العظيمة التي خصَّ الله ونبيَّه بها الصدِّيقة الزَّهراء عليها السلام، وكانت تبيِّن للناس الذين اجتمعوا في المسجد ذلك بأكثر من وسيلة، قاصدة إلى ذلك الأمر، فتقول: «**أيُّها النّاسُ! اعْلَمُوا أنِّي فاطِمَةُ، وَأبي مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله، أَقُولُ عَوْدًا وَبَدْءًا، وَلا أَقُولُ ما أَقُولُ غَلَطًا، وَلا أَفْعَلُ ما أَفْعَلُ شَطَطًا**: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]،

(١) شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام: ٢٢٠.

(٢) التوبة: ١٢٨.

فَإِنْ تَعْزُوه وَتَعْرِفُوهُ تَجِدُوهُ أبي دُونَ نِسائِكُمْ، وَأخا ابْنِ عَمِّي دُونَ رِجالِكُمْ، وَلَنِعْمَ الْمَعْزِيُّ إِلَيْهِ صلى الله عليه وآله»[1].

وهذا ممَّا لا مجال لإنكاره وردِّه، هي ترسِّخ هذه الفكرة وتؤكِّدها؛ لتبيِّن عظيم الخطب، وفداحة ما وقع بحقِّها، مع أنَّ كلَّ الحاضرين يعلمون بذلك، ولكنَّها قصدت البدء بالمقدِّمات، وبيان فضلها وعظيم منزلتها ومنزلة أبيها من قبلها، ليُقرَّ المخاطَبون بما جرى عليها، ولتنتزع منهم اعترافًا ضمنيًّا وصريحًا بحقِّها.

قصديَّة بيان منزلة أمير المؤمنين عليه السلام

تقول عليها السلام: **«فَأَنْقَذَكُمُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله بَعْدَ اللُّتَيَّا وَالَّتِي، وَبَعْدَ أَنْ مُنِيَ بِبُهَمِ الرِّجالِ وَذُؤْبانِ الْعَرَبِ وَمَرَدَةِ أَهْلِ الْكِتابِ، ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾، أَوْ نَجَمَ قَرْنٌ لِلشَّيْطانِ، وَفَغَرَتْ فَاغِرَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَذَفَ أخاهُ في لَهَواتِها، فَلا يَنْكَفِئُ حَتَّى يَطَأَ صِماخَها بِأَخْمَصِهِ، وَيُخْمِدَ لَهَبَهَا بِسَيْفِهِ، مَكْدُودًا في ذاتِ اللهِ، مُجْتَهِدًا في أَمْرِ اللهِ، قَرِيبًا مِنْ رَسُولِ اللهِ سَيِّدَ أَوْلياءِ اللهِ، مُشَمِّرًا ناصِحًا، مُجِدًّا كادِحًا وأَنْتُمْ فِي رَفاهِيَةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَادِعُونَ فاكِهُونَ آمِنُونَ، تَتَرَبَّصُونَ بِنا الدَّوائِرَ، وتَتَوَكَّفُونَ الأَخْبارَ، وَتَنْكُصُونَ عِنْدَ النِّزالِ، وَتَفِرُّونَ عِنْدَ القِتالِ»**[2].

فهي تشير إلى مواقف أخي رسول الله وابن عمِّه، وزوجها، وسيِّد اولياء الله، وهذه المناقب ممَّا لا ينكرها منكِر، ولا تغيب عن أذهانهم، ولاسيما أنَّ العهد لا يزال قريبًا، فالقصد من بيان فضلهم ظاهر، ولكن ما يستبطنه القصد، هو أهليَّة الإمام عليّ عليه السلام وأحقيَّته في الخلافة، وإدارة شؤون البلاد والعباد، وإلَّا فإنَّ الإمامة ثابتة له بالتنصيب الإلهيّ، لا ينزع عنه بخلافةٍ أو إمرة.

(١) شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام: ٢٨٠.

(٢) شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام: ٣٠٤.

قصديَّة الاحتجاج

يظهر الحجاج في كلِّ مفصل من مفاصل الخطاب، ولسنا هنا بصدد دراسة الحجاج، وقد خُصِّصت له الرسائل والبحوث الكثيرة، ولكنَّنا نُشير إشارة عابرة إلى بعض صور الحجاج، ومنها السياق الحجاجيّ والهيأة وحجَّة المقدَّس والاستدلال العقليّ والنقليّ، فضلًا عن وسائله اللغويَّة، كالاستفهام الإنكاريّ والمؤكِّدات والروابط والعوامل الحجاجيَّة، فهو في الأصل خطاب حجاجيّ بامتياز، وظَّف كلَّ إمكانات اللغة وحشدها لبيان مظلوميَّتها وحقِّها المغصوب. يقول القاضي النعمان: «وأرادت بذلك صلوات الله عليها ما قد ذكرته في كلامها من إقامة الحجَّة على الأمَّة، وإبلاغ المعذرة إليهم، وإيضاح الحقِّ، والبيان فيما فيها اهتضموه، وتغلب عليهم واستأثر من حقِّهم به، لئلَّا يقولوا كما قالوا: أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله سلَّموا ذلك طائعين..»[1].

قصديَّة الوعيد

ومن قصديَّة الخطاب الفاطميّ أيضًا الوعيد أو الوعديَّات كما تسمَّى في نظريَّة الفعل الكلاميّ، ما نطقت به الصدِّيقة عليها السلام أفعال متحقِّقة ووعود أثبتها التاريخ والروايات، تقول: «**فَدُونَكَها مَخْطُومَةً مَرْحُولَةً، تَلْقاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ، فَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ، وَالزَّعِيمُ مُحَمَّدٌ، وَالْمَوْعِدُ الْقِيامَةُ، وَعِنْدَ السّاعَةِ يخسَرُ المبطلون، وَلايَنْفَعُكُمْ إِذْ تَنْدَمُونَ، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾**»[2][3]، ثمَّ تلتفت إلى الأنصار وتقول بعد حديث:

« **فَدُونَكُمُوها فَاحْتَقِبُوها دَبِرَةَ الظَّهْرِ، نَقِبَةَ الْخُفِّ، باقِيَةَ الْعارِ، مَوْسُومَةً بِغَضَبِ اللهِ وَشَنارِ الْأَبَدِ، مَوْصُولَةً بِنارِ اللهِ الْمُوقَدَةِ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ. فَبَعَيْنِ اللهِ ما تَفْعَلُونَ**

(١) شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام: ١٧.

(٢) الأنعام: ٦٧- ٦٨.

(٣) شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام: ٣٥٥-٣٥٦.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1]، وَأَنَا ابْنَةُ نَذِيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ، فـ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[2]»[3].

فالفعل يرتبط بالقصد، ويكتسب منه شرعيَّته، ويرى أوستين أنَّ المقاصد تتعلَّق بالفعل، وخاصَّة بالفعل الإنجازيّ وما يحمله من إشباع يمثِّل مقصد المتكلِّم، ويقول محمود نحلة: «إنَّ الفعل الإنجازيّ يرتبط عند أوستين ارتباطًا وثيقًا بمقصد المتكلِّم، وعلى السامع أن يبذل الجهد الكافي للوصول إليه»[4]. فعندما نحلِّل خطابًا معيَّنًا أو كلامًا موجَّهًا، يجب أن نعرف مقاصد هذا الكلام، حتَّى يتسنَّى لنا فهمه. فتعدُّ القصديَّة إحدى المقوِّمات الأساسيَّة للنصِّ، باعتبار أنَّ لكلِّ منتِج خطاب غاية يسعى إلى بلوغها، أو نيَّة يريد تجسيدها[5].

ركَّز جون سيرل على مفهوم القصديَّة، فرأى «أنَّ فعل الكلام يعدُّ مظهرًا من مظاهر القصديَّة، وذلك لأنَّ معرفة الرسالة أو القول لا تنحصر في فهم نظام اللغة وحده، بل يتطلَّب الأمر معرفة مسبقة بالسياقات التي تتجاوز حدود الدلالة اللسانيَّة التقليديَّة إلى خلق دلالات تنسجم وتتلاءم وفعل الكلام باعتباره مظهرًا للقصديَّة..»[6].

ومن هذا نرى أنَّ كلَّ عمليَّة قولٍ معيَّنة، هي تقصد شيئًا بعينه.

(١) الشعراء: ٢٢٧.

(٢) هود: ١٢١-١٢٢.

(٣) شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام: ٣٨٦-٣٨٧.

(٤) آفاق جديدة في البحث اللغويّ المعاصر، د. محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعيَّة، كليَّة الآداب، جامعة الاسكندريَّة، ٢٠٠٢م: ٦٩.

(٥) ينظر: مدخل إلى علم النصِّ ومجالات تطبيقه: ٩٦.

(٦) عندما نتواصل نغيِّر مقاربة تداوليَّة معرفيَّة لآليَّات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، افريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٦م: ٧١.

وما جرى بعد شهادتها على هؤلاء المانعين لحقِّها وثَّقته كتب التاريخ، وهو تصديق لنبوءة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، فهي ابنة أبيها الذي لا ينطق عن الهوى، وقولها عليها السلام منجَز ومتحقِّق في الدنيا قبل الآخرة.

قصديَّة الانتصار واستنهاض همم الأنصار (الثورة على الظالمين)

ثمَّة إستراتيجيَّة خطابيَّة تضمَّنها الخطاب الفاطميّ، تتعلَّق باستنهاض المسلمين من المهاجرين والأنصار، وتذكيرهم بمنزلتهم ونصرتهم للدِّين، وهي دعوة صريحة للثورة والانتفاض بوجه الظلم الذي سيعمُّ البلاد لو صارت الخلافة لغير أمير المؤمنين عليه السلام، وما الذي ستخسره الأمَّة من إضاعة القيادة الحقَّة، تقول عليها السلام: **«يا مَعاشِرَ الْفِتْيَةِ، وَأَعْضادَ الْمِلَّةِ، وَأَنْصارَ الْإِسْلامِ! ما هذِهِ الْغَمِيزَةُ فِي حَقِّي؟ وَالسِّنَةُ عَنْ ظُلامَتِي؟ أما كانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله أَبِي يَقُولُ: «اَلْمَرْءُ يُحْفَظُ فِي وُلْدِهِ»؟ سَرْعانَ ما أَحْدَثْتُمْ، وَعَجْلانَ ذا إهالَةً، وَلَكُمْ طاقَةٌ بِما اُحاوِلُ، وَقُوَّةٌ عَلى ما أَطْلُبُ وَأُزاوِلُ!..**

أَيْهًا بَنِي قَيْلَةَ! أَ أُهْضَمُ تُراثَ أَبِيَهْ وَأَنْتُمْ بِمَرْأى مِنِّي وَمَسْمَعٍ، ومُبْتَدأٍ وَمَجْمَعٍ؟! تَلْبَسُكُمُ الدَّعْوَةُ، وتَشْمُلُكُمُ الْخَبْرَةُ، وَأَنْتُمْ ذَوُو الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَالأَداةِ وَالْقُوَّةِ، وَعِنْدَكُمُ السِّلاحُ وَالْجُنَّةُ؛ تُوافيكُمُ الدَّعْوَةُ فَلا تُجِيبُونَ، وَتَأْتيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلا تُغيثُونَ، وَأَنْتُمْ مَوْصُوفُونَ بِالْكِفاحِ، مَعْرُفُونَ بِالْخَيْرِ وَالصَّلاحِ، وَالنُّجَبَةُ الَّتي انْتُجِبَتْ، وَالْخِيَرَةُ الَّتِي اخْتيرَتْ! قاتَلْتُمُ الْعَرَبَ، وَتَحَمَّلْتُمُ الْكَدَّ وَالتَّعَبَ، وَناطَحْتُمُ الاُمَمَ، وَكافَحْتُمُ الْبُهَمَ، فَلا نَبْرَحُ أو تَبْرَحُونَ، نَأْمُرُكُمْ فَتَأْتَمِرُونَ حَتَّى دارَتْ بِنا رَحَى الإِسْلامِ، وَدَرَّ حَلَبُ الأَيّامِ، وَخَضَعَتْ نُعَرَةُ الشِّرْكِ، وَسَكَنَتْ فَوْرَةُ الإِفْكِ، وَخَمَدَتْ نيرانُ الْكُفْرِ، وهَدَأَتْ دَعْوَةُ الْهَرْجِ، وَاسْتَوْسَقَ نِظامُ الدِّينِ؛ فَأَنّى جُرْتُمْ بَعْدَ الْبَيانِ، وَأَسْرَرْتُمْ بَعْدَ الإِعْلانِ، وَنَكَصْتُمْ بَعْدَ الإِقْدامِ، وَأَشْرَكْتُم بَعْدَ الإِيمانِ؟ ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن

كُنتُم مُّؤمِنِينَ ﴾[1]، أَلا قَدْ أرى أنْ قَدْ أَخْلَدْتُمْ إلىَ الخَفْضِ، وَأبْعَدْتُمْ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالْبَسْطِ وَالْقَبْضِ، وَخَلَوْتُمْ بِالدَّعَةِ، وَنَجَوْتُمْ مِنَ الضِّيقِ بِالسَّعَةِ، فَمَجَجْتُمْ ما وَعَيْتُمْ، وَدَسَعْتُمُ الَّذِي تَسَوَّغْتُمْ، فـ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[2]أَلا وَقَدْ قُلْتُ ما قُلْتُ عَلى مَعْرِفَةٍ مِنّي بِالْخَذْلَةِ الَّتِي خامَرَتْكُمْ، وَالغَدْرَةِ التِي اسْتَشْعَرَتْها قُلُوبُكُمْ، وَلكِنَّها فَيْضَةُ النَّفْسِ، وَنَفْثَةُ الْغَيْظِ، وَخَوَرُ الْقَنا، وَبَثَّةُ الصُّدُورِ، وَتَقْدِمَةُ الْحُجَّة[3].

هل هناك خطاب استنهاض وثورة أشدُّ وقعًا من هذا الخطاب؟ وهل ثمَّة حجَّة أو عذر بقي للقوم حتَّى يتقاعسوا عن نصرة دينهم وبنت نبيهم (صلوات الله عليها وآلها)؟.

ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.

الخاتمة

أسفرت هذا القراءة لقصديَّة الخطاب الفاطميّ عن مجموعة من النتائج على قدر فهمِ الباحث للخطاب، لا على قدر الخطاب، ويمكن إيجازها بما يأتي:

١. فكرة القصديَّة ليست جديدة، فلها جذورها في الحضارات القديمة، ولكنَّها أخذت تتبلور على يد برنانتو وهوسرل وسيرل وكرايس.

٢. ليست القصديَّة منهجًا ولا نظريَّة، بل هي فكرة تتعلَّق بالعقل والوعي والادراك. ولا يخلو خطاب منها؛ لأنَّها غاية كلِّ مخاطِبٍ ومتلَقٍّ وخِطاب.

٣. ثمَّة فرق بين القصديَّة والمقاصد والمعنى والدلالة والوعي، وهي ليست مصطلحات مترادفة.

(١) التوبة: ١٣.

(٢) إبراهيم: ٨.

(٣) شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام: ٣٨٦.

٤. القصديَّة ترتبط ارتباطًا واضحًا بالسببيَّة، ولكنَّها ليست مرادفة لها، فالمقاصد قد تكون لأسباب وربَّما لغايات أو أهداف يتوخَّاها المخاطِب.

٥. مثَّل سياق الخطبة الفدكيَّة بما يحتويه من ملابسات وظروف وزمان ومكان بُعدًا قصديًّا مهمًّا في الخطاب الفاطميّ.

٦. تضمَّن الخطاب الفاطميّ مقاصد أوَّليَّة ظاهرة ومقاصد باطنة، استندت إلى فكرة مركزيَّة، هي التوحيد؛ لأنَّه بؤرة المقاصد وأصلها، وأسمى الغايات وأعلاها، لذا نراها عليها السلام لا تنفكُّ تذكِّرهم وتعظُهم؛ لأنَّ المعرفة الحقيقيَّة هي معرفة الله التي تتجلَّى بها كلُّ معرفة.

٧. تميَّز الخطاب الفاطميّ بمركزيَّة القصد، وهو القصد الأسمى الذي يتجاوز المقاصد الفرعيَّة.

٨. المقاصد الإقناعيَّة كانت واضحة في كلِّ بنية من الخطاب، فالخطاب الفاطميّ خطاب إقناعيّ بامتياز استند إلى حجج عقليَّة ونقليَّة لإفحام الخصم، فضلًا عن اتِّكائه على إستراتيجيَّات اللغة كالاستفهام الإنكاريّ والروابط والتعليل والعوامل الحجاجيَّة.

٩. ثمَّة تراتبيَّة واستدراج للمخاطَب عبر آليَّات الخطاب وبيان المقاصد الأوليَّة التي تتدرَّج وتترتَّب لتصل إلى القصد الحقيقيّ والتواصليّ للخطاب.

١٠. توزَّعت المقاصد في الخطاب، وبحسب البناء اللغويّ والأسلوبيّ إلى وحدات: (قصديَّة المقام، قصديَّة الشهادة لله والحمد والثناء، قصديَّة الشهادة للرسول صلى الله عليه وآله، قصديَّة الوعظ والتذكير، قصديَّة العبادات، قصديَّة الاخلاق، قصديَّة بيان منزلة الزَّهراء عليها السلام، قصديَّة بيان منزلة الأمير عليه السلام، قصديَّة الاحتجاج والاستدلال، قصديَّة الوعيد، قصديَّة الانتصار واستنهاض همم الأنصار، قصديَّة إظهار الغضب والحزن).

المصادر

* القرآن الكريم.

١. إستراتيجيَّة الخطاب، مقاربة لغويَّة تداوليَّة، عبد الهادي بن ظافر الشهريّ، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.

٢. آفاق جديدة في البحث اللغويّ المعاصر، د.محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعيَّة، كليَّة الآداب، جامعة الإسكندريَّة، ٢٠٠٢م.

٣. تأمُّلات ديكارتيَّة أو المدخل إلى الفينومينولوجيا، إدموند هوسرل، ترجمة تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٨م.

٤. حجاجيَّة السياق المقاميّ في الخطبة الفدكيَّة، د.موفَّق مجيد ليلو، بحث منشور في وقائع المؤتمر الأول للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام، دار الكفيل، كربلاء ٢٠٢٣م.

٥. الخبرة الجماليَّة دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتيَّة، هيدجر سارتر، ميرلوبونتي، دوفرين انجاردن، سعيد توفيق، المؤسَّسة الجامعيَّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٦. رؤية الأشياء كما هي نظريَّة الإدراك، جون سيرل، ترجمة: إيهاب عبد الرحيم عليّ، عالم المعرفة، ٢٠١٨م.

٧. شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام، العلامة المجلسيّ، القاضي النعمان المغربيّ، الأنصاريّ التبريزيّ، تحقيق وإعداد: السيِّد باقر الكيشوان الموسويّ، مؤسَّسة البلاغ، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠١٢م.

٨. العقل مدخل موجز، جون سيرل، ترجمة: أ.د. ميشيل حنَّا متياس، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٧م.

٩. العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعيّ، جون سيرل، ترجمة: سعيد الغانميّ، المركز الثقافي العربيّ، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

١٠. عندما نتواصل نغيِّر، مقاربة تداوليَّة معرفيَّة لآليَّات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، افريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٦م.

١١. الفينومينولوجيا المنطق عند إدموند هوسرل، يوسف سليم سلامة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٧م.

١٢. الفينومينولوجيا عند هوسرل دراسة نقديَّة في التجديد الفلسفيّ المعاصر، سماح رافع محمَّد، دار الشؤون الثقافيَّة العامَّة (آفاق عربية)، العراق، بغداد، ط١، ١٩٩١م.

١٣. القصديَّة بحث في فلسفة العقل، جون سيرل، ترجمة: أحمد الأنصاريّ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩م.

١٤. القصديَّة في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، د. كريم حسين ناصح الخالديّ، مجلَّة العميِّد، السنة الرابعة المجلَّد الرابع، العدد الرابع، ٢٠١٥م.

١٥. القصديَّة من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، وسن دلال، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م.

١٦. لسان العرب، جمال الدين محمَّد بن منظور الإفريقيّ (ت٧١١هـ)، دار صادر بيروت، ط٢، ١٩٩٧.

١٧. مدخل إلى علم النصِّ مشكلات بناء النصِّ، زتسيلاف واورزنياك، ترجمة أ.د. سعيد حسن بحيري، مؤسَّسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٨. مدخل إلى علم النصِّ ومجالات تطبيقه، محمَّد الأخضر الصبيحيّ، منشورات الاختلاف، بيروت.

١٩. معايير النصِّ عند روبرت دي بوجراند وأثرها في فهم الخطاب النبويّ، محمَّد عبد الغني، أسيم شهايدة عليّ، مجلَّة الثقافة الإسلاميَّة والإنسانيَّة، جامعة ماليزيا، مج٢٦، ع١، ٢٠٢٢.

٢٠. معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م.

٢١. المنطق عند أدموند هوسرل، يوسف سلَّامة، دار حوران، ط١، ٢٠٠٢م.

٢٢. نظرات حول الإنسان، روجيه جارودي، ترجمة د. يحيى هويدي، القاهرة، ١٩٨٣م.

٢٣. نظرية أفعال الكلام العامَّة «كيف ننجز الأشياء بالكلام؟»، أوستين، ترجمة عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق، ١٩٩١م.

٢٤. نظريَّة الأفعال الكلاميَّة بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيِّين العرب، طالب سيِّد هشام الطباطبائيّ، مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٩٤م.

٢٥. نظريَّة جون سيرل في القصديَّة دارسة في فلسفة العقل، صلاح إسماعيل، قسم الفلسفة، كليَّة الآداب، جامعة القاهرة، مصر، حوليَّات الآداب والعلوم الاجتماعيَّة، الحوليَّة ٢٧، الرسالة ٢٦٢، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

السِّمات الموضوعيَّة في خِطاب السَّيدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام

أ.م.د. إيمان عبد الحسن عليّ
جامعة بابل/ كليَّة العلوم الإسلاميَّة

ملخَّص البحث

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خير الأنام أجمعين محمَّد وآله الطيِّبين الطاهرين، أمراء الكلام، وأصحاب البيان المبين.

أمَّا بعد:

فيعدُّ قول الرسول محمَّد صلى الله عليه وآله وخطابه في قمَّة النصوص الأدبيَّة المرويَّة في عهد النبوَّة بعد القرآن الكريم، فصاحةً وبلاغةً وأسلوبًا وموضوعاتٍ؛ لما عُرِفَ به الرسول صلى الله عليه وآله من أنَّه أفصح العرب قاطبةً، وأبلغهم منطقًا، وممَّا لا شكَّ فيه فإنَّ السَّيدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، التي من تربَّت في حضن النبوَّة، وارتوت من نميرها العذب، كان لها نصيبٌ وافرٌ من ذلك البحر الزاخر، ففصاحتها وبلاغتها عليها السلام هي امتداد لفصاحة الرسول صلى الله عليه وآله وبلاغته، فكلُّ موضوع من موضوعات الخطاب الفاطميّ يستند إلى القرآن الكريم، ويمثِّل رؤية تحليليَّة للأفكار والمواقف؛ لأنَّه خطابٌ يستمدُّ أصوله من تعاليم القرآن الكريم والسنَّة النبويَّة الشريفة، فالخطاب بوصفه فنًّا من فنون القول قد برعت به الزَّهراء عليها السلام، إذ كان سلاحها الفكريّ، وأداتها البلاغيَّة التي تدافع بها عن مبادئ الإسلام الحنيف، وتعاليم رسوله الكريم صلى الله عليه وآله، وفي الوقت نفسه يحمل هذا الخطاب الرساليّ مبادئ سماويَّة ومقاصد

سامية تتَّجه صوب الإنسان؛ لتحقيق غاياته بأسلوبٍ منطقيٍّ يُحكِّم العقل، ويدعو إلى التوصُّل إلى المعرفة الحقَّة التي لا يشوبها شكٌّ أو مغالطة.

وعليه، فإنَّ هذا البحث يستنطقُ الخطابَ الفاطميّ، ويتابعُ نصوصَه؛ للوقوف على أهمِّ السِّمات الموضوعيَّة التي اختصَّ بها ذلك الخطاب الرساليّ، وتتمثَّلُ هذه السمات في (السِّمة العقلانيَّة، والسِّمة العقائديَّة، والسِّمة النَّقديَّة) التي توافرت في خطاب السَّيدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، انطلاقًا من استقراء النصوص ودراستها دراسةً موضوعيَّةً تحليليَّة.

ومِن السمات الموضوعيَّة للخطاب عند السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام ما يأتي:

- إنَّهَ خطاب يستمدُّ أصوله من القرآن الكريم، بتعاليمه القائمة على إعمال العقل، وإطالة التفكير في كلِّ جزئيَّة من جزئيَّاته، للوصول الى الحقيقة.
- سمة الخطاب العقلانيَّة؛ لأنَّه يسعى إلى تحكيم العقل، وتغليب الحوار على الأساليب المتشدِّدة التي تدعو إلى المغالطة والتشكيك.
- خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام يتَّسم بعرض الأفكار بأسلوبٍ منطقيٍّ متسلسل؛ للوصول إلى الإقناع، والوقوف على الحقيقة.
- إنَّه خطاب يتَّسم بالصدق والبُعد عن التحريف، وهو ما لمسناه بالقول الصريح من تلازم ثنائيَّة القول والفعل، التي مثَّلت مهيمنة أسلوبيَّة في خطابها عليها السلام.

المقدِّمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على خير الأنام أجمعين محمَّد وآله الطيِّبين الطاهرين، أمراء الكلام، وأصحاب البيان.

أمَّا بعد:

فيعدُّ قولُ الرسول الأكرم محمَّدﷺ وخطابُه في قمَّة النصوص الأدبيَّة المرويَّة في عهد النبوَّة بعد القرآن الكريم، فصاحةً وبلاغةً وأسلوبًا وموضوعاتٍ؛ لما عُرِفَ به الرسولﷺ من أنَّه أفصح العرب قاطبةً، وأبلغهم منطقًا، وممَّا لا شكَّ فيه فإنَّ السَّيدة فاطمة الزَّهراءعليها السلام التي من تربَّت في حضن النبوَّة وارتوت من نميرها العذب، كان لها نصيبٌ وافرٌ من ذلك البحر الزاخر، ففصاحتها وبلاغتهاعليها السلام هي امتداد لفصاحة الرسولﷺ وبلاغته، فعندما نتصفَّح الكتب نجد أنَّ للسيِّدة فاطمة الزَّهراء خُطبًا ومواعظ وكلمات قِصار تتواجد هنا وهناك بين صفحات التأريخ النبويّ وما بعده، ويجب علينا كباحثين أنَّ نفكِّر بها ونتأمَّلها جيدًا؛ لأنَّ كلام المعصوم في غاية الدقَّة إتقانًا وبلاغةً، فهو فوق كلام المخلوق، ودون كلام الخالق، وفي الوقت نفسه هو حجَّة على الخلق، وكيف لا؟ وهم أولياء الله في أرضة وحجَّته على عباده، وعلينا الأخذ بكلامهم، فالزَّهراءعليها السلام من أهل بيت النبوَّة ومعدن الرسالة الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الأحزاب/ ٣٣، وقول النبيّ محمَّدﷺ: «**مَثَل أهل بيتي فيكم كمَثَل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلَّف عنها غرق، ومثل باب حطَّة، من دخله نجا، ومن لم يدخله**

هلك»[1]، فكلُّ موضوع من موضوعات الخطاب الفاطميّ يستند إلى القرآن الكريم، ويمثِّل رؤيةً تحليليَّةً للأفكار والمواقف؛ لأنَّه خطاب يستمدُّ أصولَه من تعاليم القرآن الكريم والسُّنة النبويَّة الشريفة.

فالخطاب بوصفه فنًّا من فنون القول، قد برعت به الزَّهراء عليها السلام، إذ كان سلاحَها الفكريّ وأداتَها البلاغيَّة التي تدافعُ بها عن مبادئ الإسلام الحنيف وتعاليم رسوله الكريم صلى الله عليه وآله، وفي الوقت نفسه يحمل هذا الخطاب الرساليّ مبادئ سماويَّة ومقاصد سامية تتَّجه صوب الإنسان لتحقيق غاياته بأسلوبٍ منطقيٍ يُحكِّم العقلَ، ويدعو إلى التوصُّلِ إلى المعرفة الحقَّة التي لا يشوبها شكٌّ أو مغالطة.

وعليه فإنَّ هذا البحث يستنطقُ الخِطابَ الفاطميّ، ويتابعُ نصوصَه؛ للوقوف على أهمِّ السِّمات الموضوعيَّة التي اختصَّ بها ذلك الخطاب الرساليّ، وتتمثَّلُ هذه السمات في (السِّمة العقائديَّة، والسِّمة العقلانيَّة، والسِّمة النّقديَّة) التي توافرت في خطاب السَّيدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام انطلاقًا من استقراء النصوص ودراستها دراسةً موضوعيَّةً تحليليَّة.

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ المقصود بالموضوعيَّة في بحثنا هذا هي النظرة التحليليَّة التركيبيَّة التي تُحلِّل الأشياء إلى عناصرها الأساسيَّة، بغية إعادة بنائها بشكلٍ يُبرِّزُ ما هو جوهريّ منها[2].

ومن السِّمات الموضوعيَّة للخِطَاب عند السَّيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام ما يأتي:

(١) الاحتجاج، أحمد بن عليّ الطبرسيّ (ت٥٦٠هـ)، تحقيق: إبراهيم البهادريّ ومحمَّد هادي، إشراف: جعفر السبحانيّ، دار الأسوة للطباعة والنشر، قم المقدَّسة، ط٤، ١٤٢٤هـ: ٦٠.

(٢) ينظر: تكوين العقل العربيّ، محمَّد عابد الجابريّ، مركز دراسات الوحدة العربيَّة، بيروت، لبنان، ط٥، ٢٠١٠م: ٣٢.

١. السِّمة العقائديَّة

لعلَّ الغاية الأسمى التي انطوت عليها الخطابات جميعها هي الغاية العقائديَّة التي دعت فيهاعليها السلام إلى تثبيت ركائز الدين الإسلاميّ الحنيف، ورفض الظلم والباطل واغتصاب الحقوق، ونلحظ أنَّ الخطاب القرآنيّ حاضرًا في كلامهاعليها السلام، بالنصِّ تارةً، وبالمضمون تارةً أخرى، إذ كان له أثر كبير في تثبيت تلك الركائز وترسيخها؛ لأنَّه ذو تأثير عميق في نفس المتلقِّي بصورة خاصَّة والمجتمع الإسلاميّ، بصورة عامَّة، وما يعكسه من نتائج إيجابيَّة؛ لأنَّه كلام الخالق جلَّ وعلا، وتتمثَّل ذلك في مسائل مهمَّة وخاصَّة (توحيد الله)، وهو ما لمسناه في خطاب السيِّدة الزَّهراءعليها السلام لاسيما هو خطاب يستند أساسًا- كما قلنا- إلى القرآن الكريم والسُّنة النبويَّة المباركة، وما تأكيدها على هذه السمة إلَّا تأكيدٌ نابعٌ من أنَّ «بناء عقيدة التوحيد ضروريَّة لاستقامة الحياة البشريَّة وصلاحها، وبدونها تصبح الحياة فوضى لا معنى لها، وجاهليَّة عمياء، وأنَّه لا نجاة في الآخرة إلَّا بالتوحيد»(١).

ففي قولهاعليها السلام في خطبة لها تفتتحها بالحمد والثناء: «**الحمدُ لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن أولاها، جمَّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتِّصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالندب إلى أمثالها، وأشهد أنَّ لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص**

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمَّد أحمد محمَّد عبد القادر خليل ملكاوي، منشورات مكتبة دار الزمان، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م: ٣٥٦.

تأويلها، وضمَّن القلوب موصولها، وأنار في التفكُّر معقولها. الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيَّته، ابتدع الأشياء لا من شيءٍ كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاءِ أمثلةٍ امتثلها، كوَّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته، من غير حاجةٍ منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلَّا تثبيتًا لحكمته، وتنبيهًا على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادةً لعباده عن نقمته، وحياشةً لهم إلى جنَّته»[1].

فالسيِّدة الزَّهراء عليها السلام لـمَّا رأت أنَّ العقيدة بدأت تضعف عند المسلمين، وكأنَّهم اكتفوا بما قدَّموا للدين في زمن النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله، فجاءت مقدِّمة الخطبة مرتكزة على أساس العقيدة[2]، لهذا فالسيِّدة الزَّهراء عليها السلام في بداية الخطبة ذكرت الجوانب التوحيديَّة، فسلامة العقيدة وإصلاحها مقدَّمةٌ على بقية الأحكام؛ لأنَّها الأساس التي تُبنى عليه الأحكام ويؤسَّس عليها الفكر، فإذا صَلحُت عقيدةُ الإنسان صلُح ما سواها[3]، وخصوصًا أنَّ التوحيد هو أوَّل ما يدعو له الأنبياء المرسَلون، وهو رأس العبادات وأساسها، فإن أوجب ما يجب على العبد معرفته، والتسليم له، والإيمان به، هو توحيد الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، وألَّا يشرك بها شيئًا، والتصديق بما يستلزم ذلك من إيمانٍ بملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والبعث والنشور؛ ولأجل تحقيق ذلك في حياة البشريَّة، فقد أخذ الله عليها العهد والميثاق على أن تؤمن به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ الأعراف/ ١٧٢؛ لذلك جاء الخطاب الفاطميّ

(١) مسند فاطمة الزَّهراء عليها السلام، حسين التويسركانيّ، مراجعة وتعليق: محمَّد جواد الحسينيّ، دار الصفوة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

(٢) ينظر: فدك أبعادها. دلالاتها. وامتداداتها، عبد المجيد فرج الله، دار المحبِّين للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م: ١٢٤.

(٣) ينظر: أسس المنهج النبويّ في البناء الفكريّ دراسة موضوعيَّة في ضوء السُّنَّة النبويَّة، شهاب الدين محمَّد أبو زهو، حوليَّة كليَّة الدراسات الإسلاميَّة والعربيَّة للبنات، الإسكندريَّة، بحث منشور على الشبكة المعلوماتيَّة: ١٢٢٢.

منسجمًا مع تلكم المضامين القرآنيَّة، منساقًا مع مقاصد الآيات الكريمة، فهي عليها السلام تُذكِّر بنِعم الله جلَّ وعلا، وبآلائه التي أسبغها على العباد ظاهرةً وباطنة، مذكِّرة بقدرته تعالى وبجبروته، وأنَّه ذو الجلال والمهابة، وأنَّه عالِم الغيب الذي لا يطَّلع عليه سواه ومن ارتضى من عباده أُولي النُّهى.

وجاء ذلك في قولها عليها السلام: «**الحمد لله ذي الملك والملكوت، والعظمة والجبروت، والكبرياء والجلال، والبهاء، والمهابة، والجمال، والعزَّة، والقدرة والحلول، والقوَّة والمنَّة والغلبة، والفضل والطول والعدل والحقّ والخلق والعلى والرفعة والمجد والفضيلة والحكمة والغناء والسِّعة والبسط والقبض والحلم والعلم، والحجَّة البالغة، والنِّعمة السابغة، والثناء الحسن الجميل والآلاء الكريمة، ملك الدنيا والآخرة والجنَّة والنار وما فيهنَّ تبارك وتعالى. والحمد لله الذي علم أسرارَ الغيوب وأطَّلع على ما تجني القلوب، فليس عنه مذهبٌ ولا مهربٌ. الحَمدُ لله المُتكبِّرُ في سُلطانِه، العزيزُ في أَمانِه، المُتجبِّرُ في مُلكِه، القويُّ في بطشِه، الرفيعُ فوقَ عرشِه، المطّلعُ على خلقِه، والبالغُ لِمَا أرادَ من علمِه**»[1]، فالنص يقفُ على جملة الصفات التي يتَّصف بها الله تبارك وتعالى، إذ تعرض بأسلوب متسلسل يؤكِّد لنا سمة التخاطب المتَّسمة بروح الأدب في تخاطب العبد مع ربِّه.

وفي قولها عليها السلام: «**فجعل اللهُ الإيمانَ تطهيرًا لكم من الشرك، والصلاةَ تنزيهًا لكم عن الكبر، والزكاةَ تزكيةً للنفس ونماءً في الرزق، والصيامَ تثبيتًا للإخلاص، والحجَّ تشييدًا للدين، والعدلَ تنسيقًا للقلوب، وطاعتنا نظامًا للملَّة، وإمامتنا أمانًا من الفرقة، والجهادَ عزًّا للإسلام، والصبرَ معونةً على استيجاب الأجر، والأمرَ بالمعروف مصلحةً للعامَّة، وبرَّ الوالدين وقايةً من السخط، وصلةَ الأرحام منماة لِلعَدَد، والقصاصَ حقنًا للدماء،**

(١) صحيفة الزَّهراء عليها السلام، جمع جواد القيُّوميّ، مؤسَّسة النشر الإسلاميّ، قم المقدَّسة، ط١، ١٣٧٣ش: ٧٢.

والوفاء بالنذر تعريضًا للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييرًا للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهًا عن الرجس، واجتناب القذف حجابًا عن اللعنة، وتركَ السرقة إيجابًا للعفَّة، وحرَّم الله الشِّركَ إخلاصًا له بالربوبيَّة»[1]. فالمتمعِّن في النصِّ المتقدَّم يُدرك أنَّ السَّيدة الزَّهراء عليها السلام لا تأمرُ الإنسانَ بأداءِ الفروض والواجبات، بالقدر الذي تقدِّمُ صورةً واضحةً عنها بأسلوب علميّ يُعطي الحكمةَ من فرضها، موضحةً عللها[2]، وكأنَّنا أمام صورة توضِّح لنا الأسبابَ ومسبِّباتها بأسلوبٍ منطقيٍّ يسعى إلى استمالة المخاطب والتأثير فيه، ثمَّ إقناعه بعيدًا عن الفرض والقوَّة، معتمدة على الحجَّة والعقل في طرح الدليل، من عرض للفضائل الإسلاميَّة والواجبات العباديَّة، وفي قبالها ما ينتج من عدم الالتزام بها على النفس البشريَّة من أمراض تصيب القلب والنُّهى، وتبعد العبد عن مكارم الأخلاق وفضائلها.

وفي قولها عليها السلام: «**الحمدُ لله الذي احتجَبَ عن كُلِّ مخلوقٍ يراهُ بحقيقةِ الربوبيَّة، وقُدرةِ الوَحدانيَّة، فلم تُدركهُ الابصارُ، ولم تُحِط به الأخبارُ، ولم يُعيِّنه مِقدَار، ولم يتوهَّمهُ اعتبَار، لأنَّه المَلكُ الجبَّارُ**»[3]، فالملاحَظ على النصِّ أنَّ الزَّهراء عليها السلام قد وظَّفت أسلوب النفي لنفي الصفات السلبيَّة التي لا تقيَّد بزمان ولا مكان ولا حال[4]؛ فالنفي بـ(لم) أبلغ في الاستعمال؛ لتخصُّصها لنفي وجود الفعل لا حدوثه[5]، وأنَّ النفي لم تجعل

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٥٨

(٢) ينظر: القصديَّة في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، كريم حسين ناصح الخالديّ، جامعة بغداد، كليَّة التربية للبنات، قسم اللغة العربيَّة، مجلَّة العميد، السنة الرابعة، المجلَّد الرابع، العدد الرابع، ربيع الأوَّل ١٤٣٧هـ/ كانون الأول ٢٠١٥م: ٣٦.

(٣) ينظر: مسند فاطمة الزَّهراء عليها السلام: ١/ ٤٠٢.

(٤) ينظر: إشراقات غرَّاء في خطاب السيِّدة الزَّهراء: ٢٣٥.

(٥) ينظر: شرحُ المفصَّل، موفق الدين يعيش (ت٦٤٣هـ)، الطباعة المنيريَّة، مصر، د.ت: ٤/ ٨٥، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاريّ (ت٧٦١هـ)، تعليق أبو عاشور الجنوبيّ، دار إحياء التراث العربيّ، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م: ١/ ٢٦٢.

المخبر نفسه بالعرض متكلِّما في الأزمنة الماضية، ولأنَّه يقول في كلِّ زمان في تلك الأزمنة أنا أخبرك بحاله[1]، فضلاً عن وجود أسلوب النفي في الخطاب يُنبئ عن «الاعتقاد الخالص ليكشف عن وعي عميق، وتمازج عجيب بين اعتقاد المنشئ العميق في نفسه وكلامه بوصفه مظهرًا تعبيريًّا عنه»[2]. ففي خطابها عليها السلام استعملت النفي بـ(لم)؛ لأنَّ المقام مقام تنزيه للخالق جلَّ وعلا من أن تلحظه الأنظار، وإنَّما تراه القلوب العامرة بالإيمان بعين اليقين.

٢. السّمة العَقلانيَّة

إنَّ المتتبعَ لِخطَاب السَّيدة الزَّهراء عليها السلام يلحظُ أنَّ خطابَها يتَّسمُ بالعقلانيَّة في ضوء ما تورده من أساليب المنطق والاستدلال والتدرُّج في الوصول إلى الموضوع المراد توضيحه، وعرض المقدِّمات وربطها بالنتائج، وتتجلَّى هذه السمة أيضًا في خطاب السَّيِّدة الزَّهراء عليها السلام في ضوء إيراد الكثير من الألفاظ الدَّالة عليها، ومنها (العقل، التفكُّر، معقول، لحكمته، ومن الأوهام كيفيَّته، والَّا تثبيتًا لحكمته..)، فتوظِّفها لخدمة المعاني، إذ وُضِعت في السياق اللغويّ الملائم، ليؤدِّي الخطاب وظيفته على أكمل وجه.

ولـمَّا كان الخطاب الفاطميّ منسجمًا مع الخطاب القرآنيّ شكلًا ومضمونًا، وبما أنَّ الخطاب في القرآن الكريم قد نبَّه على أهميَّة العقل في آيات كثيرة، وكان يصف الكفَّار بأنَّهم «لا يعقلون ولا يفقهون»[3]، كما في قوله جلَّ وعلا: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ البقرة/ ١٧١، وقوله عزَّ شأنه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖۚ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشيّ (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيَّة، ط٣، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م: ٢/ ٣٧٩.

(٢) أدب التوحيد في نهج البلاغة دراسة أسلوبيَّة، حسن حميد الفيَّاض: ٦٩.

(٣) ينظر: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمَّد أحمد محمَّد عبد القادر خليل ملكاوي: ٢٨٥.

﴿ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ المائدة/ ١٠٣، وكذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ الأعراف/ ١٧٩، وكان ينبِّه على أنَّ آياته لا يستفيد منها إلَّا أولو النُّهى والألباب، وهي العقول السليمة. ولـمَّا كان الخطابُ القرآنيّ خطابًا يدعو إلى التفكُّر والتأمُّل، ومن ذلك ما نلاحظه في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ الروم/ ٨، وفي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الجاثية/ ١٣، والتفكُّر هو التأمُّلُ، وإعمالُ الخاطر والعقل[١].

فلا ريب في أنَّ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام لم تخرج عن روح النصِّ القرآنيّ، بل كانت تتكلَّم بمعاني القرآن وألفاظه، ففي قولها: «**وأشهد أنَّ لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في التَّفكُر معقولها**»[٢]، فالمقصود هو أنَّ «الذي يُتَعقَّلُ منها، ولمعناها نور واضح، وبرهان لائح في الأذهان عند التفكُّر فيه؛ إذ لكلِّ حقٍّ حقيقة، ولكلِّ صواب نور، والمعنى أنَّ الله تعالى قد جعل لمعنى هذه الكلمة في علم التفكُّر المتعلِّق به نورًا به يتنوَّر القلب، ويتَّضح سبيلُ الحقِّ لما هو ظاهر من مطابقة معناها للواقع مع جبلة القلوب على التوحيد من حيث فطرتها»[٣].

فضلًا عن ظهور كسر أفق التوقُّع الأسلوبيّ في خطابها، وتحديدًا في جملة «**وأنارَ في**

(١) ينظر: مختار الصِّحاح، زين الدين محمَّد بن أبي بكر الرازي (ت٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمَّد، منشورات المكتبة العصريَّة، الدار النموذجيَّة، بيروت، ط٥، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٠م: ١/ ٢٤٢ (فكر).

(٢) الاحتجاج: ١/ ٢٥٥.

(٣) اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام، محمَّد عليّ التبريزيّ الأنصاريّ (ت١٣١٠هـ)، تحقيق: هاشم الميلانيّ، دار التبليغ الإسلاميّ، بيروت، لبنان، ط١٤٣٢،هـ/ ٢٠١١م: ٣٨٥.

التفكر معقولَها»، «فالمتلقي يتوقَّع أن تقولَ: وأنار معقولها في التفكُّر، إلَّا أنَّها عليها السلام قدَّمت الجار والمجرور على المفعول به؛ لتقوِّي أواصر التفاعل بين المتلقِّي والنَّص، ولكي تحفِّز ذهنَه وتبعثه على التساؤل عن سبب هذا التقديم والتأخير، وبسؤالها هذا يصبح عنصرًا مفعِّلًا لدينامية النص، ومتلقِّيًا إيجابيًّا يسعى إلى فهمه فهمًا صحيحًا»[١].

إنَّ أهميَّةَ العقل والعنايةَ به في الخِطَاب تَتضِحُ مِن «بيان أَثره في قدرته على تصريف الأمور، والبصر في مقدِّماتها ونتائجها»[٢]، فالعقل السمة الخطابيَّة المبرَّزة في الخطاب الفاطميّ التي كانت أداتها في عرض الدليل ومناقشته في ضوء التفكُّر في قدرة الله، وأنَّه جلَّ وعلا لا شبيه له ولا نظير، تفرَّد بالوحدانيَّة، وجعل العقلَ مرآة لرؤيته جلَّ وعلا.

٣. السَّمة النَّقديَّة

لـمَّا كان الخِطَابُ هو فعلٌ من أفعال التواصل يهدفُ إلى تحقيق هدفٍ معيَّن، فلا ينتج المتكلِّمُ خطابَه بصورةٍ عبثيَّةٍ، بل عن وعيٍ وقصد، لتحقيق ما يصبو إليه سواء أنجح في تحقيقه أم لا[٣]، فإنَّ الهدف الرئيس الذي يطالعنا من وراء خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام هو «إصلاح الأمَّة وهدايتها وإرشادها إلى الطريق المستقيم»[٤]، إذ رأت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام أنَّ السبيل إلى ذلك هو الحجاج الذي يعدُّ من أهمِّ الآليَّات الاستدلاليَّة للوصول إلى إقناع الخصم «بالأدلَّة والبراهين الساطعة المحكمة»[٥].

(١) كسر أفق التوقُّع في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، طلال خليفة سلمان، مجلَّة العميد، مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات، السنة الرابعة، المجلَّد الرابع، ربيع الأوَّل ١٤٣٧هـ/ كانون الثاني ٢٠١٥م: ١٩٠.

(٢) موضوعيَّة المنظومة الخطابيَّة عند الإمام الحسن (عليه السلام) مقاربة تداوليَّة: رحيم كريم علي، مجلَّة مركز جامعة بابل للدراسات الإنسانيَّة ٢٠١٧، المجلَّد ٧، العدد، ٤: ٧٤.

(٣) ينظر: استراتيجيَّات الخطاب مقاربة لغويَّة تداوليَّة، عبد الهادي ظافر الشهريّ، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م: ١٥٠.

(٤) ينظر: إشراقات غرَّاء من خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: ٣٥.

(٥) ينظر: أعلام الهداية فاطمة الزَّهراء عليها السلام سيِّدة النساء، ابن عاشور، منشورات دار الأسرة،=

ومن هنا يتَّضح لنا أنَّ الإقناع «مقصدٌ أساسيٌ في الخطب والنصوص ذات المنزع التأثيريّ قد شكَّل نواة البحث الحجاجيّ، والقلب الرابط بين البلاغة القديمة والأرسطيَّة في صيغتها العربيَّة القديمة والبلاغة الجديدة (نظريَّات الحجاج والتداوليَّة ونظرية الأعمال اللغويَّة)»[1].

وفي ضوء تفحُّصنا لخطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، نلمح السمة التشخيصيَّة (النقديَّة) بارزة عليه والتي تعني القدرة على نقد الواقع وتشخيص الأمراض والأخطاء في المجتمع وطرق معالجتها بطريقة موضوعيَّة بعيدة عن التطرُّف والأهواء الذاتيَّة والتعصُّب، ففي قولها عليها السلام في إحدى خطبها في المسجد النبويّ: «**فلمَّا اختار اللهُ لنبيه صلى الله عليه وآله دارَ أنبيائه ومأوى أصفيائه ظهر فيكم حسكة النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظمُ الغاوين، ونبغ خاملُ الأقلِّينَ، وهدرَ فنيقُ المبطلين، فَخَطَرَ في عرصاتِكم، وأطلَعَ الشيطانُ رأسه من مغرِزِه هاتفًا بكم، فألفاكم لدعوته مُستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، ثمَّ استنهَضَكُم فوجدكم خفافًا، وأحشمكم فألفاكم غضابًا، فوسمتُم غيرَ إبلكُم، وَوَرَدتُم غيرَ مَشربكُم، هذا والعهدُ قريبٌ، والكلمُ رحيبٌ، والجُرح لمَّا يندمِل، والرسول لمَّا يُقبَر ابتدارًا زعمتُم خوف الفتنة ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾** التوبة/ ٤٩..»[2]، ففي قولها عليها السلام: «**كاظم الغاوين**» إشارة منها إلى تشخيص القوم ودخولهم في دائرة الشيطان[3]، وفي هذا إشارة إلى النصِّ القرآني: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾

=بيروت، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م: ١٤٦.

(١) محاولات في تحليل الخطاب، صابر الحباشة، المؤسَّسة الجامعيَّة للدراسات والنشر، ط١، ٢٠١٠م: ١١٧.

(٢) ينظر: الاحتجاج: ١/ ٢٣٤.

(٣) ينظر: مكوِّنات خطاب السيِّدة الزَّهراء في الخطبة الفدكيَّة، قراءة ملامحها الحجاجيَّة وعلاقتها الأُسلوبيَّة، حيدر محمود شاكر الجديع، بحث منشور على الشبكة المعلوماتيَّة: ٢١.

الأعـراف/ ١٧٥، ففي النصِّ المتقدِّم نلحظ الاستشهاد بالنصِّ القرآنيّ، ممَّا يُسهم في تقوية المعنى بعد أن ذكرت السَّيِّدة الزّهراء «خارطة التحوُّل في التوجُّهات، والانقلاب في النفوس، والذي ظهر على من كانت في صدورهم الضغينة والعداوة والنفاق حال ما اختار الله تعالى نبيَّه إلى جواره»(١).

فلم يأتِ النقد لذاته في الخطاب من أجل تحقيق غايات شخصيَّة، بل جاء النقد من أجل تقويم المظاهر المنحرفة وتصحيحها في المجتمع، وفي قولٍ آخر لها عليها السلام: «**فرأى الأمم فرقًا في أديانها، عكَّفًا على نيرانها، عابدةً لأوثانها، منكرةً لله مع عرفانها، فأنار اللهُ بمحمَّدٍ صلى الله عليه وآله ظُلمها، وكشفَ عن القلوب بُهمَها، وجلى عن الأبصار غُممَها، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الصراط المستقيم**»(٢).

تتجلَّى قيمةُ النَّصِّ من دقَّة التشخيص للواقع بأسلوبٍ علميٍّ موضوعيٍّ قائمٍ على التدرُّج في الاستدلال وذِكر الأسباب وربطها بالمسبِّبات والوصول إلى الحقيقة، قبل بعثة الرسول الأعظم محمَّد صلى الله عليه وآله، حيث كان الناس فرقًا في عبادة الأوثان، فضلًا عن الدقَّة في اختيار الألفاظ المعبِّرة عن المعاني، فنلحظ: فأنار الظلم.. وكشف البهم.. وجلى الغمم، فالفارق الدلاليّ واضح بين الألفاظ (أنار، كشف، جلى)، وما لها من تـأثير في المعنى داخل السياق النصِّيّ.

وفي قولها عليها السلام: «**كُنتُم على شفَا حُفرةٍ مِنَ النَّار، مُذقَةَ الشَّارب، ونُهزَة الطامِع، وقَبسة العجلانِ، وموطئ الأقدام، تشربون الطَّرق، وتقتاتون القدَّ، أذلةً خاسئين**»(٣).

تتَّجه السَّيدة الزَّهراء عليها السلام في خطابها بصورة مباشرة في تشخيصها لحال الناس على

(١) آيات الوعيد في خطبة الزَّهراء عليها السلام الفدكيَّة دراسة تفسيريَّة، عدي جواد عليّ الحجَّار، مجلَّة العقيدة، العدد الثامن، السنة الثالثة، جمادي الآخرة، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م: ١٨٠-١٨١.

(٢) ينظر: الاحتجاج: ١/ ٢٥٦-٢٥٧.

(٣) الاحتجاج: ١/ ٢٦١.

ما كانوا عليه قبل البعثة النبويَّة.

وعندما ترك القومُ مبايعةَ الإمام عليّ (سلام الله عليه)، قالت عليها السلام: «**ليتَ شِعري إلى أيِّ سناد استندوا؟ وإلى أيِّ عماد اعتمدوا؟ وبأيَّة عروة تمسَّكوا؟ استبدلوا والله الذنابى بالقوادم**»[1]، ونلحظ في قولها عليها السلام: «**فهيهات منكم وكيف بكم؟ وأنَّى تؤفكون؟ وكتاب الله بين أظهركم أموره ظاهره وأحكامه زاهرة وأعلامه باهرة وقد خلَّفتموه وراء ظهوركم، أرغبةً عنه تُريدون أم بغيره تحكمون؟**»[2]. قد شكَّل أسلوب الاستفهام قوَّة ضاغطة على المعنى، من أجل تأييد الحجَّة ودعمها بالدليل، فالسيِّدة الزَّهراء عليها السلام توجِّه لومَها إلى القوم الذين غَصَبُوا حقَّها بفدك، وحقِّ أمير المؤمنين عليه السلام بالخلافة، على الرغم من وجود القرآن بينهم، وهذا ممَّا يؤدِّي إلى إلقاء الحجَّة عليهم[3].

وفي قولها عليها السلام: «**ألا وقد أرى أن أخلدتم إلى الخفض، وأبعدتُم من هو أحقُّ بالبسط والقبض، وخلوتُم بالدعة، ونحوتُم بالضيق من السعة، فمججتُم ما وعيتُم، ودسعتُم الذي تسوَّغتُم**»[4]، فالخطابُ «رسم صورةً جليَّة لواقعهم المنحط بتركهم من هو أحقُّ بالخلافة»[5]، فالناس أغرَّتهم الدنيا وزينتها، وتركوا وصايا الرسول صلى الله عليه وآله وراء ظهورهم، لاهثين لمكاسب دنيويَّة زائلة، ومتاع قليل، وخالفوا قول رسول الله صلى الله عليه وآله بعد رحيله عن دار الدنيا، فكانوا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا**

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٩٠.
(٢) الاحتجاج: ١/ ٢٦٥.
(٣) ينظر: إشراقات غرَّاء في خطاب السَّيِّدة الزَّهراء عليها السلام، عبد الحسن عليّ حبيب الناصر، مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة، ط١، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م: ١٦٩.
(٤) ينظر الاحتجاج: ١/ ٢٧٢.
(٥) إشراقات غرَّاء في خِطَاب السَّيِّدة الزَّهراء: ٣١.

وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ آل عمران/ ١٤٤، فالسيِّدة الزَّهراء عليها السلام ذكَّرت القوم بما كانوا عليه قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وآله من ذلَّة ومهانة وصغار، وكأنَّها تذكِّرهم بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الأنفال/ ٢٦، فنصرهم الله تعالى برسول الله صلى الله عليه وآله، أعزَّهم بالإسلام، فما كان منهم إلَّا أن يخالفوا رسول الله في وصيَّته، والخليفة من بعده، فجاء الخطاب الفاطميّ الناقد ليذكِّرهم بحالهم قبلًا، وما آل له بعدًا، وكيف قابلوا ذلك بالجفاء والنكران، والابتعاد عن أوامر رسول الله ونواهيه، التي هي أوامر الله ونواهيه، فهو القائل جلَّ وعلا: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ النجم/ ٣-٤، وقوله عزَّ شأنه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ الحشر/ ٧.

إنَّ النظرةَ المتأنِّية والفاحصة لِخطَاب الزَّهراء عليها السلام تكشفُ عن السِّمات الموضوعيَّة متمثِّلةً في النتائج المتناسبة مع المقدِّمات، والعلل المتساوقة مع المعلولات في ضوء التبصُّر في الأمور والحكمة في معالجتها بأسلوبٍ واعٍ بعيدٍ عن الأهواء المضلِّلة للفكر والتشكيك والمغالطة.

الخاتمة والنتائج

وقد خلص البحث إلى جملة من النتائج:

- إنَّهَ خطاب يستمدُّ أصولَه من القرآن الكريم، بتعاليمه القائمة على إعمال العقل وإطالة التفكير في كلِّ جزئيَّة من جزئيَّاته، للوصول الى الحقيقة.
- كانت شخصيَّة السيِّدة الزَّهراء بمثابة نبراس الأمَّة الإسلاميَّة على كافَّة الأصعدة الدينيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة، لأنَّ من مهام أهل البيت عليهم السلام تربية الأمَّة وتهذيبها على مبادئ الرسالة الإلهيَّة وقيمها الحقَّة.

- وسِم الخطاب الفاطميّ بالعقلانيَّة؛ لأنَّه يسعى إلى تحكيم العقل وتغليب الحوار على الأساليب المتشدِّدة التي تدعو إلى المغالطة والتشكيك.
- إنَّ تمتُّع السَّيِّدة الزَّهراء عليها السلام بالقدرة البلاغيَّة واللغويَّة الفائقة الملموسة في مأثورها، كان على مستوى عالٍ من البلاغة والخطابة والفصاحة والبيان من جهة، ويحمل في طيَّاته أسمى معاني الإنسانيَّة والرحمة والعطف من جهة أخرى، فكان خير مأثور يساند الإنسان في دنياه وآخرته.
- تميَّز المأثور الخطابيّ الفاطميّ بالتعدُّد والتنوُّع، حيث نجده تارةً يخاطب العقول وينبِّهها على الغفلة، وتارةً أخرى يخاطب القلوب ويحرِّك مشاعرها، وأحيانًا أخرى يخاطب الضمائر ويذكِّرها بالحقِّ.
- كان همُّ الزَّهراء عليها السلام هو الحفاظ على الدين الإسلاميّ من التحريف والتغيير، والالتزام بوصايا رسول الله صلى الله عليه وآله، لذا نجد لها عليها السلام صولات وجولات في توعية الناس وتذكيرهم بحالهم قبل البعثة وما آل إليه بفضل الإسلام ورسوله صلى الله عليه وآله.
- خطابُ السَّيِّدة الزَّهراء عليها السلام يتَّسم بعرض الأفكار بأسلوبٍ منطقيّ متسلسل؛ للوصول إلى الإقناع، والوقوف على الحقيقة.
- إنَّ الخطاب الفاطميّ خطابٌ يتَّسم بالصدق والواقعيَّة والبُعد عن التحريف، وهو ما لمسناه بالقول الصريح من تلازم ثنائيَّة القول والفعل التي مثَّلت مهيمنةً أسلوبيَّةً في خطابها عليها السلام.
- تميَّزت لغة خطاب الخطاب الفاطميّ بالرُّقي، فكان على مستوًى عالٍ من الذوق الرفيع والتهذيب حتَّى مع أعدائها، على الرغم من استعمالها بعض

المفردات القاسية التي كانت من باب التذكير بحالهم قبل الإسلام، وكذلك كانت الأساليب التأثريَّة في المتلقِّي واضحة في خطابها، كالاستفهام والنفي والتكرار.

- استعملت الزَّهراءعليها السلام الخطاب القرآنيّ والمضامين والدلالات القرآنيَّة أيضًا بدقَّة متناهية، إذ كانت تضمِّن كلامها بالخطاب القرآنيّ، فتستعمل النصَّ مضمَّنًا أو صريحًا في كلامهاعليها السلام، وهذا يدل على ملازمة الزَّهراءعليها السلام للقرآن الكريم، وتطبيقها لسنَّة رسول اللهصلى الله عليه وآله، أمَّا المضامين والدلالات القرآنيَّة فكانت أكثر استعمالًا في كلامهاعليها السلام، وهذا يدلُّ على مدى تمكُّن السيِّدة الزَّهراءعليها السلام من الاستشهاد بها، وفهمها وإدراكها، ووضعها في المكان المناسب لها.

مصادر البحث ومراجعه

* القرآن الكريم.

أوَّلًا: الكتب المطبوعة

١. الاحتجاج، أحمد بن عليّ الطبرسيّ (ت٥٦٠هـ)، تحقيق: إبراهيم البهادريّ ومحمَّد هادي، إشراف: جعفر السبحانيّ، دار الأسوة للطباعة والنشر، قم المقدَّسة، ط٤، ١٤٢٤هـ.

٢. إستراتيجيَّات الخطاب مقاربة لغويَّة تداوليَّة، عبد الهادي ظافر الشهريّ، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.

٣. إشراقات غرَّاء في خطاب السَّيِّدة الزَّهراءعليها السلام، عبد الحسن عليّ حبيب الناصر، مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة، ط١، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

٤. أعلام الهداية فاطمة الزَّهراء عليها السلام سيِّدة النساء، ابن عاشور، منشورات دار الأسرة، بيروت، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٥. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشيّ (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيَّة، ط٣، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م.

٦. تكوين العقل العربيّ، محمَّد عابد الجابريّ، مركز دراسات الوحدة العربيَّة، بيروت، لبنان، ط٥، ٢٠١٠م.

٧. شرح المفصَّل، موفَّق الدين يعيش بن عليّ النحويّ (ت٦٤٣هـ)، المطبعة المنيريَّة، مصر، د.ت.

٨. صحيفة الزَّهراء عليها السلام، جمع جواد القيُّوميّ، مؤسَّسة النشر الإسلاميّ، قم المقدَّسة، ط١، ١٣٧٣ش.

٩. عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمَّد أحمد محمَّد عبد القادر خليل ملكاوي، منشورات مكتبة دار الزمان، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٠. فدك أبعادها. دلالاتها. وامتداداتها، عبد المجيد فرج الله، دار المحبِّين للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

١١. اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام، محمَّد عليّ التبريزيّ الأنصاريّ (ت١٣١٠هـ)، تحقيق: هاشم الميلانيّ، دار التبليغ الإسلاميّ، بيروت، لبنان، ط، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

١٢. محاولات في تحليل الخطاب، صابر الحباشة، المؤسَّسة الجامعيَّة للدراسات والنشر، ط١، ٢٠١٠م.

١٣. مختار الصِّحاح، زين الدين محمَّد بن أبي بكر الرازيّ (ت٦٦٦هـ)، تحقيق:

يوسف الشيخ محمَّد، منشورات المكتبة العصريَّة، الدار النموذجيَّة، بيروت، ط٥، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٤. مسند فاطمة الزَّهراء عليها السلام، حسين التويسركانيّ، مراجعة وتعليق: محمَّد جواد الحسينيّ، دار الصفوة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

١٥. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، عبد الله بن هشام الأنصاريّ (ت٧٦١هـ)، تعليق أبو عاشور الجنوبيّ، دار إحياء التراث العربيّ للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م.

ثانيًا: البحوث المنشورة

١٦. آيات الوعيد في خطبة الزَّهراء عليها السلام الفدكيَّة دراسة تفسيريَّة، عدي جواد عليّ الحجَّار، مجلَّة العقيدة، العدد الثامن، السنة الثالثة، جمادى الآخرة، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

١٧. أسس المنهج النبويّ في البناء الفكريّ دراسة موضوعيَّة في ضوء السُّنَّة النبويَّة، شهاب الدين محمَّد أبو زهو، حوليَّة كليَّة الدراسات الإسلاميَّة والعربيَّة للبنات، الإسكندريَّة، بحث منشور على الشبكة المعلوماتيَّة.

١٨. القصديَّة في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، كريم حسين ناصح الخالديّ، جامعة بغداد، كليَّة التربية للبنات، قسم اللغة العربيَّة، مجلَّة العميد، السنة الرابعة، المجلَّد الرابع، العدد الرابع، ربيع الأوَّل ١٤٣٧هـ/ كانون الأوَّل ٢٠١٥م.

١٩. كسر أفق التوقُّع في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، طلال خليفة سلمان، مجلَّة العميد، مركز العميد الولي للبحوث والدراسات، السنة الرابعة، المجلَّد الرابع، ربيع الأوَّل ١٤٣٧هـ/ كانون الثاني ٢٠١٥م

٢٠. مكوِّنات خطاب السيِّدة الزَّهراء في الخطبة الفدكيَّة، قراءة ملامحها الحجاجيَّة وعلاقتها الأسلوبيَّة، حيدر محمود شاكر الجديع، بحث منشور على الشبكة المعلوماتيَّة.

٢١. موضوعيَّة المنظومة الخطابيَّة عند الإمام الحسن عليه السلام مقاربة تداوليَّة، رحيم كريم عليّ، مجلَّة مركز جامعة بابل للدراسات الإنسانيَّة، المجلَّد ٧، العدد، ٤، ٢٠١٧.

سير الخطبة الفدكيَّة بين التعبير والدلالة

أ.م.د. محمَّد إسماعيل عبد الله سعيد النبهانيّ

ملخَّص البحث

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمَّد وآله الأطهار، أمَّا بعد.. فإنَّ السيِّدة فاطمة الزهَّراء ألقت الخطبة الفدكيَّة أمام حشود المهاجرين والأنصار، بعد أن سمعت أن رئاسة الحكومة الجديدة أمرت بمصادرة (فدك)، وضمّها إلى الوقف العام، وأن تكون بتصرُّف الحاكم الجديد، ومنع فاطمة من الاستيلاء عليها، فضلًا عن الاستفادة منها، فقالت مقالها، وصدحت حنجرتها بقول الحقِّ المبين أمام جمع المسلمين، وقد أشاد اللغويُّون والبلاغيُّون بهذه الخطبة العصماء؛ لما تضمَّنته من فصاحة عالية، وتعبيرٍ راقٍ، وبلاغة لم تظهر عند امرأة غيرها سلام الله عليها، وقد رأيت أنَّ أُظهِر ما في هذه الخطبة من جوانب لغويَّة، مركِّزًا على دلالات التعبير فيها، وما خرج من التعبير الجزيل إلى حقل الدلالة الواضحة البينة، وجاءت خطَّة البحث على النحو الآتي:

التمهيد: مضمون الخطبة، وسبب إلقائها، ومؤهِّلات ملقيها.

المبحث الأوَّل: التعبير بالجمل.

أوَّلًا: التعبير بالجمل الاسميَّة.

ثانيًا: التعبير بالجمل الفعليَّة.

ثالثًا: التعبير بالجمل النسخيَّة.

المبحث الثاني: التعبير بالأساليب.

أوَّلا: التعبير بأسلوب النداء.

ثانيًا: التعبير بأسلوب الاستفهام.

ثالثًا: التعبير بأسلوب النسق الممتد.

الخاتمة.

والحمد لله أوَّلًا وآخرًا، وصلَّى الله على رسوله الكريم، وآله الأطهار.

المقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمَّد وآله الطيِّبين الطاهرين، أمَّا بعد..

فقد تميَّزت خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام بفصاحة الكلام، كما أشاد بها جمع من العلماء، وأخذ بتلاوتها جمع من الشرفاء، وتناولها بالبحث والدارسة جمع من الأتقياء؛ لفهم ما فيها من عِبَر ومضامين، وما تضمَّنته من صور التعبير والإجادة والإبداع.

وأردت مرَّة أن أستقري صور التعبير ودلالاته في الخطبة الفدكيَّة، فهالني، وأنا أقرأ فيها، ما أسمع من عبارات التوبيخ والتبكيت، وعبارات الإجادة في التوقيع والتهوين بالخصم، كلُّ ذلك ليس انتصارًا منها عليهم، بل تحفيزًا لعقولهم أن تفهم، وأيديهم أن تعمل، وأرجلهم أن تسعى، في نصرة أمير المؤمنين عليه السلام، وصيِّ رسول ربِّ الأنام.

وعلى الدارس للنصوص التي تحمل صفة الخطابة أن يفهم أنَّ الخطابة تعبير النَّاصِّ بلا حفظٍ مسبقٍ أو تحضيرٍ سابق، وإنَّما يعبِّر المعبِّر مباشرةً من عقله، بكلِّ أريحيَّةٍ، ما يشاء من التعابير التي يريد إيصال المعاني بها، مع لحاظ الوقوف أمام الناس، وإرغامهم على الاستماع، والتصديق بما يُلقى، وإيصال الأذهان للتأثُّر بما يُلقى، والانذهال به، كلُّ تلك عوامل تقوية للخطبة، أو عوامل إفشال لها، خصوصًا إذا علمنا أنَّ الخطيب هنا هو سيِّدة، امرأة جليلة من البيت المحمَّديّ بكامل خفرها، وحيائها، وإنَّما ألجأها لذلك، رعايتها المصلحة المهمَّة في نصرة أمير المؤمنين، التي تؤدِّي بالنتيجة إلى نصرة دين أبيها الكريم.

وعلينا عندها أن نحتكم للنصِّ، فندرسه ونستخرج ما فيه من معانٍ ودلالاتٍ مهمَّة، وكيف وظَّفت السيِّدة الزَّهراء هذا النصَّ بهذه الصياغات؛ لتوضيح المعاني التي أرادت إلقاءها في محضر المهاجرين والأنصار، وعلينا استشفاف ما في البنية اللغويَّة للنصِّ من علائق ومتعلَّقات وظِّفت بشكل سليم؛ لاستكناه المعاني المراد طرحها أمام الحاضرين، واستظهار تلك الصور المعبِّرة التي أطلقتها السيِّدة الزَّهراء في وسط هذا الجمع الكبير الذي ضمَّ المهاجرين والأنصار، في حديثٍ أقلّ ما يُقال عنه إنَّه في مستوى البلاغة العالية، والتعبير اللغويّ الراقي، وكأنَّ الألفاظ النازلة على الأسماع طلقات الرحمة التي تنزل على المحتضِرين أمام رحلتهم الطويلة والقاسية، لملاقاة ربِّ العالمين، الذي سيسأل الجميع عن الحقِّ فيما طرحت، والباطل فيما فعلوا، وعن السكوت المطبق الذي حلَّ عليهم، على الرغم من كلِّ تلك التقريعات التي أطلقتها السيِّدة الزَّهراء، كأنَّها السهام التي لا تُخطئ.

التمهيد

مضمون الخطبة، وسبب إلقائها

تعدُّ الخطبة الفدكيَّة من أشهر خُطب السيِّدة الزَّهراءعليها السلام، بل من أشهر خُطب النساء العرب، قديمًا وحديثًا، ولا يساورنا شكٌّ في ذلك؛ لامتلاك السيِّدة الزَّهراء لآليات نجاح الخطبة، من صوتٍ مؤثِّرٍ، وكلامٍ بليغٍ، ومعانٍ مهمَّة، وهذه الأمور من أهمِّ أمور نجاح الخطبة، وبروزها على أنَّها حدثٌ جليل.

فقد ذكرها ابن طيفور، فقال: «كلام فاطمةعليها السلام عند منع أبي بكر إيَّاها فدك»[1]، أمَّا (فدك) أو أرض فدك، فهي قرية بخيبر، فيها عينٌ ونخلٌ كثير، بينها وبين المدينة يومان، أفاءها الله على رسولهصلى الله عليه وآله سنة سبعٍ صُلحًا، بينه وبين أهل خيبر، فكانت خالصةً له، يُنفق ما يأتيه منها في أبناء السبيل، ثمَّ وهبها لفاطمة ابنته، فلمَّا قُبِض عليه الصلاة والسلام، جاءت فاطمة سلام الله عليها أبا بكر تطلب ميراثها من أبيها، وهو أرضه من فدك، وسهمه من خيبر، فقال لها أبو بكر: أمَا إنِّي سمعت رسول الله يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نوِّرث ما تركنا، فهو صدقة، إنَّما يأكل آل محمَّد من هذا المال، وإنِّي والله لا أدع أمرًا رأيت رسول الله يصنعه إلَّا صنعته. فهجرته فاطمة، فلم تكلِّمه في ذلك حتَّى ماتت، وقد أثبت بعض حكَّام المسلمين هذا الحقَّ لفاطمة، فلمَّا «ولي عمر بن عبد العزيز قال: إنَّ فدك كانت ممَّا أفاه الله على رسوله، فسألتها فاطمة رسول الله، فقال لها: ما لك أن تسأليني، ولا لي أن أعطيك! فكان رسول اللهصلى الله عليه وآله يصنع فيها حيث أمره الله،

(١) بلاغات النساء: أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور (ت٢٨٠هـ)، صحَّحه وشرحه: أحمد الألفيّ، مطبعة مدرسة والدة عبَّاس الأوَّل، القاهرة، ١٩٠٨: ١٦.

ثمَّ أبو بكر وعمر وعثمان، كانوا يضعونها المواضع التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمَّ ولي معاوية، فأقطعها مروان، ووهبها مروان لعبد الملك وعبد العزيز، فقسَّمناها بيننا أثلاثًا: أنا والوليد وسليمان؛ فلمَّا ولي الوليد سألته نصيبه فوهبه لي، وما كان لي مالٌ أحبُّ إليَّ منها؛ وأنا أُشهِدكم أنِّي قد رددتها إلى ما كانت عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله»[1].

ومثله ما قاله العسكريّ: «عن الجوهريّ عن محمَّد بن زكريا عن ابن عائشة، وعن أبيه عن عمِّه، قال: شهد عليّ وأمُّ أيمن عند أبي بكر أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله وهب فدكًا لفاطمة، وشهد عمر وعبد الرحمن بن عوف أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقسِّمها، فقال أبو بكر: صدقوا وصدقت، كان مالًا لأبيك، وكان يأخذ منها قوته، ويقسِّم الباقي، فما تصنعين بها؟ قالت: صنيع أبي. قال: فلكِ عَلَيَّ أن أصنع فيها صنيع أبيك عليه الصلاة والسلام. فكان يدفع إليهم ما يكفيهم، ويقسِّم الباقي، وكذلك فعل عمر وعثمان وعليّ، فلمَّا ولي معاوية، وذلك بعد الحسن، تداولوها حتَّى ولي مروان، فوهبها لعبد العزيز بن مروان، فتخلَّصها عمر ابنه في حياة أبيه، فلمَّا ولي كانت أوَّل مظلمة ردَّها على بني عليّ عليه السلام، ثمَّ قبضها يزيد بن عبد الملك، فلمَّا ولي أبو العبَّاس ردَّها إلى عبد الله بن الحسن، ثمَّ قبضها أبو جعفر، ثمَّ ردَّها المهدي على ولدِ فاطمة، ثمَّ قبضها موسى وهارون، ثمَّ ردَّها عليهم المأمون»[2]، قال الدميريّ: «وفيها كانت قصَّة فدك، وهي مشهورة، وكانت فدك لرسول الله صلى الله عليه وآله خالصة»[3].

(١) العقد الفريد: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمَّد بن عبد ربِّه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربِّه الأندلسيّ (ت٣٢٨هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ: ٥/ ١٨٢.

(٢) الأوائل: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكريّ (ت نحو ٣٩٥هـ)، دار البشير، طنطا، مصر، ط١، ١٤٠٨هـ: ٢٥٨.

(٣) حياة الحيوان الكبرى: محمَّد بن موسى بن عيسى بن عليّ الدميريّ، أبو البقاء، كمال الدين الشافعيّ (ت٨٠٨هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ: ١/ ١٧٢.

تضمَّنت خطبة السيِّدة الزَّهراء مواضيع مهمَّة، تكاملت لتشكِّل بناءً لغويًّا قلَّ مثيله عند النساء، بل عند الرجال أيضًا؛ لأنَّ من أهمِّ صور نجاح الخطبة التأثير في الجمهور، وتقبُّلها على أنَّها ذات أهميَّة بالغة.

وسارت الخطبة بعد الحمد والثناء لربِّ العزَّة ربِّ العالمين بما هو أهلهُ للمدح والثناء، ثمَّ التعرُّض لذِكر النبي الكريم الذي يدَّعي المسلمون الحاضرون وقتها أنَّهم من أتباعه ومحبِّيه، وكان هذا التعرُّض تنويهًا لذِكر فضائله ومحاسنه التي اتَّصف بها، مع تذكير الحاضرين جميعًا أنَّها ابنته الوحيدة، ووريثته الشرعيَّة، التي لا يدانيها في هذا الفضل وهذه الخصيصة أحد، ثمَّ مخاطبة الجميع أنَّهم من عباد الله وأنَّ المؤمن منهم مَن اتَّبع هدي النبيِّ الكريم، وسار على وفق سيرته الغرَّاء، ثمَّ التصريح بأنَّها فاطمة بنت محمَّد، لا ابنة للنبيِّ اليوم غيرها، فهي قد ورثت الكمالات منه عليه الصلاة والسلام، ثمَّ تذكيرهم بأنَّها قد سُلِب حقَّها في ميراثها من أبيها، وأنَّ على المسلمين العمل على مساندتها لإرجاع حقِّها عليها، وأن يكونوا رهن قولها وقول زوجها وليُّ الله في أرضه، الذي اختاره الله ونبيُّه لهذا المنصب العظيم، وأنَّ المسلمين إن لم يفعلوا ذلك سيبوؤون بغضبٍ منها، وغضبٍ من زوجها، وغضبٍ من أبيها، وغضبٍ من ربِّ العالمين؛ لغضب هؤلاء عليهم. كلُّ ذلك والناس واقفون مبهوتون لا يقولون شيئًا، ولا يفعلون فعلًا، قَسَت القلوب، وتغيَّرت العقول، وجنحت السواعد إلى الضدِّ منها ومن زوجها، فما كان منها إلَّا أن تعلن البراءة من كلِّ من سمع كلامها، ولم يساندها فيما تريد وتنادي.

المبحث الأوَّل

التعبير بالجُمل

إنَّ التعبير العربيّ قائم بأنواع كثيرة، فكما يمكن تحقيق المعنى باللغة، يمكن تحقيقها بالإشارة، أو بغيرها من الأمور التعبيريَّة، واللغة لسان المتكلِّم، بها يُفصح عن ما يقول ويريد، وما يحاول إيصاله من أفكارٍ ومعانٍ إلى السامعين، فيغدو بذلك معبِّرًا عن ما خلج في نفسه، وقرَّ في عقله، ليظهره للناس لأجل التواصل معهم، وإبداء الآراء.

ولعلَّ التعبير بالجمل هو الأساس في الفهم والتفاهم بين الناس، لما تحمله الجمل في التعبير من معانٍ كاملة بيِّنة واضحة، مفهومة في التواصل والتبليغ، وأهمُّ الجمل وضوحًا وقدرةً على التعبير، وحمل المعاني الواضحة المهمَّة، هي الجمل الاسميَّة؛ لما فيها من معنى الدوام والاستمرار والتقرير للخبر المطروح بها، وتوضيح شيء في المبتدأ المنصوص عليه، والجمل الفعليَّة؛ لما فيها من معنى التتابع في الفعل، والتجدُّد في الزمن، مع لحاظ التداخل بين الجملَتين الاسميَّة والفعليَّة في مواضع.

وهناك جمل أخرى يأتي التعبير بها لدلالات على حسب صياغتها، وما يتبع تلك الصياغات من تقديمٍ وتأخيرٍ وحذفٍ وتعليقٍ، وغير ذلك بما يجدِّد في الدلالات ويجعلها تساوق الحدث المراد التعبير عنه.

التعبير بالجُمل الاسميَّة

الجملة الاسميَّة هي التي تبدأ باسم يكون مبتدأها، ومخبرًا عنه بخبرٍ ملائم، وهي

بدلالة التقرير والثبات، بمعنى ثبات معنى الخبر لذات المبتدأ، وأفادنا الرازي «أنَّ صيغة الفعل مُشعرة بالتجدُّد والحدوث حالًا بعد حال، وصيغة الاسم مُشعرة بالدوام والثبات والاستمرار»[1]، والاعتماد في التركيب على الصيغة واللفظ، والاعتماد في الدلالة على المعنى المخبوء في الصيغة، أو الذي يحمله اللفظ، فالجملة الاسميَّة تدلُّ على الثبات والدوام، والفعليَّة تدلُّ على الحدوث والتقلُّب، قال الجرجاني في (الفروق في الخبر: الاسم والفعل في الإثبات): «وبيانه، أنَّ موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء، من غير أن يقتضي تجدُّده شيئًا بعد شيء.. وأمَّا الفعل فموضوعه على أنَّه يقتضي تجدُّد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء»[2]؛ لذا فإنَّ لكلِّ وجه تعبير دلالةً دقيقةً تناسبُ مقامًا لغويًّا خاصًّا[3]، من هذا لا بدَّ أن نفهم الصيغة، ونركِّز على اللفظ على أيَّة صيغة بُني اللفظ، ولأيَّةِ مهمَّة أُلقيَ بيانًا.

وقد جاءت الجملة الاسميَّة في الخطبة الفدكيَّة بمساحة كبيرة نوعًا ما، شملت بداية الخطبة إلى نهايتها؛ لما للتعبير بالجمل من أهميَّة كبرى في إظهار الكلام سليمًا محمَّلًا بكلِّ ما يريده المتكلِّم من معانٍ ودلالات.

تعدَّدت الجمل الاسميَّة في الخطبة الفدكيَّة المباركة، وتنوَّعت ما بين جمل اسميَّة مؤلَّفة من مبتدأ اسم من المعارف الستَّة، وخبر منها، أو خبر جملة فعليَّة، أو خبر شبه

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيميّ الرازي الملقَّب بفخر الدين الرازي، خطيب الري (ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط/ ٣، ١٤٢٠هـ: ١٥/ ٤٣١.

(٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمَّد، الفارسيّ الأصل، الجرجانيّ الدار (ت٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمَّد شاكر أبو فهر، مطبعة المدنيّ بالقاهرة، دار المدنيّ بجدَّة، ط٣، ١٩٩٢: ١٧٤.

(٣) ينظر: الجمل المحتملة للاسميَّة والفعليَّة، د. محمَّد رزق شعير، مكتبة جزيرة الورد، مصر: ٤٧-٥٧.

جملة، وكانت صياغاتها ودلالاتها معروفة على التعبير العربيّ الرصين، من غير الخروج على قاعدة تعبيرية مقرورة أو صيغ تركيبية معروفة.

التعبير بالجمل الفعليَّة

إذا كان التعبير مع النسج اللغويّ للكلمات، فإن الجمل هي التي تحدِّد نمطيَّة هذا النسج، ومن ثمَّ لو كان التعبير بالجمل الاسميَّة دالًّا على الثبات والاستمرار في غالب تشكيله، فإنَّ بنية الجمل الفعليَّة في أغلبها دالَّة على التجديد والمطاوعة والاستمرار، ممَّا يجعل التعبير بها يُعطي أريحيَّة أكثر، ومداومة في الإنشاء على غرارها، بما يخدم الفكرة وتبيينها بشكلٍ كاملٍ تامٍّ، وكلُّ جملة بمثابة لبنة في كيان النصِّ بطوله، وهي مفيدة في حمل جزء من المعنى الكبير المراد التعبير عنه.

وردت الجمل الفعليَّة في خطبة الزَّهراء بكميَّة كبيرة وكثافة واضحة، كلُّ ذلك لبيان قوَّة التعبير الفعليّ في الخطبة، وفتح مجالات التعبير الدالِّ على التجدُّد والمطاوعة.

عدد الأفعال التي استعملتها السيِّدة الزَّهراء في خطبتها كبير جدًّا، أخذت مساحة واسعة وكبيرة في الخطبة؛ ممَّا يعني أنَّها شكَّلت مساحة تعبيريَّة في النصِّ، وهو أمرٌ طبيعيٌّ في التعبير العربيّ، أن يتشكَّل الكلام من جمل فعليَّة كثيرة، فهي أصل التعبير، ومدار الفهم.

المبحث الثاني

التعبير بالجمل النسخيَّة

التعبير بالجمل المنسوخة له دلالته، وإن تعدَّدت هذه الدلالات على وفق أنواع الناسخ الداخل على الجملة الاسميَّة، إلَّا أنَّ ضابطًا واحدًا يمكن أن يجمعها جميعًا، وهو تبدُّد الثبات وتحوُّله إلى معانٍ متغيِّرة، على حسب الناسخ القادم، ودلالته في التعبير.

جاء في خطبة الزَّهراء من النواسخ، على حسب أنواعها، أفعال وحروف عديدة، فقد جاء من:

كان وأخواتها

وردت الأفعال (كان) و(ليس)، وكلاها جاء ناقصًا؛ لاحتياج الكلام لخبرٍ متمِّمٍ للمعنى، قالت السيِّدة: «**اِبْتَدَعَ الأَشْياءَ لا مِنْ شَيْءٍ كانَ قَبْلَها**»[1]، قد اختفى اسم كان لدلالة ما قبله عليه، وجاء خبرها ظرفًا (قَبْلَها)، وقالت السيِّدة: «**أَوَ لَسْتُ أَنَا وَأَبِي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ واحِدَةٍ؟!**»[2]، جاءت الجملة النسخيَّة بالفعل الناقص (ليس) واسمه الضمير المتّصل به وهو تاء الفاعل، وخبره شبه الجملة المتأخِّرة، وجاءت السيِّدة مع اسم (ليس) باسم معطوف عطفته بطريقة لغويَّة سليمة، أن جاءت بضمير فصل يشبه الضمير

(١) الاحتجاج: أبو منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ (ت حوالي عام ٦٢٠هـ)، تعليقات وملاحظات: السيِّد محمَّد باقر الخرسان، مركز الأبحاث العقائديَّة، مطابع النعمان، النجف الأشرف، ١٩٦٦: ١/ ١٣٤.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ١٣٩.

المتَّصل بالفعل الناقص، وعطفت عليه الاسم المعطوف، قال ابن جنّي في باب (العَطف على الضَّمِير): «فإن كَانَ الْـمُضمرُ مَرْفُوعًا مُتَّصِلًا، لم تعطف عَلَيْهِ حَتَّى تؤكِّده، تَقول: قُم أَنْت وَزيدٌ، وَلَو قلت: قُم وَزيدٌ من غير توكيد، لم يحسن»[1]، فوجب إعادة الضمير بالمعنى؛ ليحسن العطف عليه، وقالت السيِّدة: «**أما كانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله أَبِي يَقُولُ: الْـمَرْءُ يُحْفَظُ فِي وُلْدِهِ؟**»[2]، جاءت بالفعل (كان) للدلالة على الزمن الماضي، لتفهيمهم معنى قد جهلوه، وجاءت بـ(أبي) التي لم يستطع غير السيِّدة الزَّهراء نطقها للنبيِّ الكريم؛ لتوثيق الصلة القديمة بينها وبينه صلى الله عليه وآله.

قالت السيِّدة: «**ما كانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله عَنْ كِتابِ اللهِ صادِفًا، وَلا لِأَحْكامِهِ مُخالِفًا، بَلْ كانَ يَتَّبِعُ أَثَرَهُ**»[3]، استعملت (كان) الناقصة ثلاث مرَّات؛ لتوثيق المعنى وتثبيته في عقول المخاطَبين، وللسيِّدة الزَّهراء في التعبير بـ(كان وأخواتها) في المنظوم التركيبيّ مساحة كبيرة أيضًا، من ذلك ما قالته السيِّدة في كلامها المنظوم:

قَدْ كانَ بَعْدَكَ أَنْباءٌ وَهَنْبَثَةٌ
لَوْ كُنْتَ شاهِدَها لَمْ تَكْبُرِ الخَطْبُ

وَكُنْتَ بَدْرًا وَنُورًا يُسْتَضاءُ بِهِ..
وَكانَ جِبْرِيلُ بِالآياتِ يونِسُنا..
فَلَيْتَ قَبْلَكَ كانَ المَوْتُ صادَفَنا..

فاستعملت (كان) في نظمها للغرض نفسه، من تثبيت حقائق جليلة عن صلتها بأبيها النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وعلى آله الكرام.

(١) اللمع في العربية: أبو الفتح عثمان بن جنِّي الموصلِّيّ (ت٣٩٢هـ)، تحقيق: فائز فارس، دار الكتب الثقافيَّة، الكويت، ط١: ٩٦.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٤٠.
(٣) المصدر نفسه: ١/ ١٤٤.

إنَّ وأخواتها

استعملت السيِّدة في كلامها (إنَّ وأخواتها)، فاستعملت (أنَّ) في مساحة تعبيريَّة كبيرة؛ لتداخله مع أفعال القلوب، فكثر مع كثرتها، قالت السيِّدة: «**وَأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ**»(١)، وفي إعراب (وَأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ): أشهد: فعل مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره (أنا)، (أن) المخفَّفة من الثقيلة (أنَّ)، وتبقى عاملة واسمها ضمير الشأن المحذوف، والتقدير: أشهد أنَّه، وخبرها الجملة الاسميَّة بعدها (لا إله إلَّا الله)، (لا): نافية للجنس (إلهَ): اسم لا النافية، والخبر محذوف تقديره موجودٌ، (إلَّا): أداة حصر، (الله): خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمَّة الظاهرة على آخره.

ثمَّ قالت السيِّدة: «**وَأَشْهَدُ أَنَّ أبي مُحَمَّدًا ﷺ عبْدُهُ وَرَسُولُهُ**»(٢)، فظهر هنا اسم (أنَّ)، وهو قولها (أبي)، أعادت ذِكره هنا لتذكيرهم بهذه الحقيقة المرَّة في قلوبهم، وقالت السيِّدة: «**وَأَنْتُمْ الآنَ تزْعُمُونَ ألَّا إرْثَ لَنا**»(٣)، فإعراب (ألّا إرْثَ لَنا)، هو إعراب (أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ) نفسه، وقالت السيِّدة: «**أفَلا تَعْلَمُونَ؟ بَلى قدْ تَجَلَّى لَكُمْ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ أَنِّي ابْنَتُهُ**»(٤)، فقولها: (أنِّي ابْنَتُهُ) أمَّا أن يكون في تقدير مفعول به للفعل (تعلمون)، أو هو مفعول به للفعل (تَجَلَّى).

وقالت السيِّدة: «**وزَعَمْتُمْ أَلَا حِظوَةَ لِي، وَلَا إرْثَ مِنْ أبي، ولَا رَحِمَ بَيْنَنَا!**»(٥)، فإعراب (أَلَا حِظوَةَ لِي)، و(ألَّا إرْثَ من أبي) هو إعراب (أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ) نفسه. كثَّرت من استعمال هذه التعابير؛ لقوَّتها وتأثيرها في المخاطبين، كونها تشتمل

(١) الاحتجاج: ١/ ١٣٤.
(٢) المصدر نفسه: ١/ ١٤٤.
(٣) المصدر نفسه: ١/ ١٣٩.
(٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٥) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

على التوكيد والدقَّة في العرض. وقالت السيِّدة: «**أَلا قَدْ أرى أنْ قَدْ أَخْلَدْتُمْ إلَى الْخَفْضِ**»[1]، فجاءت جملة (أنْ قَدْ أَخْلَدْتُمْ) على الإعراب المتقدِّم مفعولاً به للفعل (أرى).

في حين استعملت من (أخوات إنَّ) الفعل (ليت) الدالّ على التمنِّي، في موضعَين هما، قول السيِّدة: «**لَيْتَني مِتُّ قَبلَ هَنِيَّتِي**»[2]، وقولها: «**فَلَيْتَ قَبْلَكَ كانَ المَوْتُ صادَفَنا**»[3].

لا التي لنفي الجنس

قالت السيِّدة: «**وَأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَريكَ لَهُ**»[4]، وقالت السيِّدة: «**اِبْتَدَعَ الأَشْياءَ لا مِنْ شَيْءٍ كانَ قَبْلَها**»[5]، وقالت السيِّدة: «**وَأَنْتُمْ تزْعُمُونَ أَلَّا إرْثَ لَنا**»[6]، وقالت السيِّدة: «**وزَعَمْتُمْ أَلَّا حظوَةَ لِي، وَلا إرْثَ مِنْ أبي، ولا رَحِمَ بَيْنَنَا!**»[7]، وقالت السيِّدة: «**فَلا دافِعَ وَلا مانِعَ**»[8]، وقالت السيِّدة: «**وَلا خِيارَ لي**»[9]، قولها: (لا إلهَ)، و(لا شَريكَ)، و(لا مِنْ شَيْءٍ)، و(أَلَّا إرْثَ)، و(أَلَّا حظوَةَ)، و(وَلا إرْثَ)، و(فَلا دافِعَ)، و(وَلا مانِعَ)، و(وَلا خِيارَ) كلُّها لا التبرئة أو لا التي تنفي الجنس، وإعرابها أنَّ ما بعدها اسم لها، وخبرها محذوف، فمصدر نفسي الغالب، بمعنى موجود أو كائن، أو غير لك بما يلائم السياق والمعنى. وإنَّما أكثرت السيِّدة من استعمال (لا التبرئة) في

(١) الاحتجاج: : ١/ ١٤١.
(٢) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٣٤.
(٣) الاحتجاج: ١/ ١٤٦.
(٤) المصدر نفسه: ١/ ١٣٤.
(٥) الاحتجاج: ١/ ١٣٤.
(٦) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٦.
(٧) المصدر نفسه: ٢٩/ ٢٢٧.
(٨) الاحتجاج: ١/ ١٤٦.
(٩) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٣٤.

تعبيرها؛ لدلالة هذه الـ(لا) على نفي كامل الجنس من دون استثناء شيءٍ منه، فاحتاجت لتوثيق ذلك هذا الاستعمال المهمِّ في التعبير العربيّ.

ظنَّ وأخواتها

استعملت السيِّدة الفعل (رأى) في تعبيرها، قالت: «**فَرَأى الأُمَمَ فِرَقًا في أدْيانِها، عُكَّفًا على نيرانِها، عابِدَةً لأَوثانِها، مُنْكِرَةً للهِ مَعَ عِرْفانِها**»[1]، وقد استوفت أشياء كثيرة بسياق كلامٍ متَّصلٍ بالعطف، مع بقاء الفعل ثابتًا في أوَّل الجملة، وحذفه في ما بعدها، لتدلَّ على تتابع ما رأى النبيُّ الكريم منهم ومن أحوالهم، فاستوفتها في كلامٍ واحد.

وقالت السيِّدة: «**فَجَعَلَ اللهُ الإيمانَ تَطْهيرًا لَكُمْ مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلاةَ تَنْزيهًا لَكُمْ عَنِ الكِبْرِ، والزَّكاةَ تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ وَنَماءً في الرِّزْق، والصِّيامَ تَثْبيتًا للإِخْلاصِ، والحَجَّ تَشْييدًا لِلدِّينِ، وَالعَدْلَ تَنْسيقًا لِلْقُلوبِ، وَطاعَتَنا نِظامًا لِلْمِلَّةِ، وَإِمامَتَنا أمانًا مِنَ الْفُرْقَةِ، وَالْجِهادَ عِزًّا لِلإِسْلام، وَالصَّبْرَ مَعُونَةً عَلَى اسْتِيجابِ الأَجْرِ، وَالأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعامَّةِ، وَبِرَّ الْوالِدَيْنِ وِقايَةً مِنَ السَّخَطِ، وَصِلَةَ الأَرْحامِ مَنْماةً لِلْعَدَدِ، وَالْقِصاصَ حِصْنًا لِلدِّماءِ، وَالْوَفاءَ بِالنَّذْرِ تَعْريضًا لِلْمَغْفِرَةِ، وَتَوْفِيَةَ الْمَكاييلِ وَالْمَوازينِ تَغْيِيرًا لِلْبَخْسِ، وَالنَّهْيَ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِ تَنْزيهًا عَنِ الرِّجْسِ، وَاجْتِنابَ الْقَذْفِ حِجابًا عَنِ اللَّعْنَةِ، وَتَرْكَ السَّرِقَةِ إيجابًا لِلْعِفَّةِ. وَحَرَّمَ اللهُ الشِّرْكَ إخلاصًا لَهُ بالرُّبُوبِيَّةِ**»[2]، وفعلت هنا الشيء نفسه الذي فعلته في الكلام السابق من تثبيت فعل التحويل (جعل) في أوَّل الكلام، واضماره في ما بعد ذلك من جمل، مع حاجة الجمل إليه عاملًا فاعلًا في صياغاتها التشكيليَّة التي تألَّفت من الفعل (جعل)، و(الله) الفاعل، وتنوُّع المفعولَين الأوَّل والثاني بما يُغني الكلام، ويفيد السامع.

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٢.

(٢) الاحتجاج: ١/ ١٣٤.

قالت السيِّدة: «**أَيُّها النَّاسُ! اعْلَمُوا أَنِّي فاطِمَةُ، وَأبي مُحَمَّدٌ**ﷺ»[1]، استعملت الفعل (علم) الذي يحتاج في تشكيله إلى مفعول به تأتي في الغالب مؤلَّفة من (أنَّ) ومعمولَيها. وقالت السيِّدة: «**ثُمَّ اسْتَنْهَضَكُمْ فَوَجَدَكُمْ خِفافًا، وَأَمْحَشَكُمْ فَأَلْفاكَمْ غِضابًا**»[2]، استعملت الفعلَين (وجد) و(ألفى) المحتاجَين بعدهما منصوبَين؛ ليتمَّ معناهما بدقَّة، وقالت السيِّدة: «**ابْتِدارًا زَعَمْتُمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ**»[3]، استعملت الفعل (زعم) بمعناه العامل عمل (رأى) و(ظنَّ)، وجاء فاعله الضمير المتَّصل به، وباستعمال مفعولٍ واحدٍ (خَوْفَ الْفِتْنَةِ)، وحفّ الثاني، وتقديره: همَّكم، أو أي تقدير آخر ملائم للكلام وسير التعبير. وقالت السيِّدة: «**وَأَنْتُمْ تزْعُمُونَ أَلَّا إِرْثَ لَنا**»[4]، استعملت الفعل (زعم)، وجاء مفعولاه بتعبير (أنَّ) ومعمولَيها، إذ أغنى هذا التعبير عنهما. وقالت السيِّدة: «**أفَلا تَعْلَمُونَ؟ بَلى تَجَلَّى لَكُمْ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ أَنِّي ابْنَتُهُ**»، استعملت الفعل (علم)، وجاء مفعولاه محذوفَين؛ لإمكان معرفتهما من المخاطب بسهولة. وقالت السيِّدة: «**وزَعَمْتُمْ أَلَا حِظوَةَ لِي، وَلا إِرْثَ مِنْ أبي، ولا رَحِمَ بَيْنَنَا!**»[5]، فاستعملت الفعل (زعم)، وجاء مفعولاه الجملة التي بعده أغنت عن المفعولَين، وقالت السيِّدة: «**أَلا قَدْ أرى أَنْ قَدْ أَخْلَدْتُمْ إِلَى الْخَفْضِ**»[6]، استعملت الفعل (أرى)، وأغنت الجملة التي بعده عن مفعولاه، وقالت السيِّدة: «**لَتَجِدَنَّ وَاللهِ مَحْمِلَهُ ثَقيلًا، وَغِبَّهُ وَبيلًا**»[7]، استعملت الفعل (وجد) المؤكَّد بنون التوكيد الثقيلة المتَّصلة به، والقَسَم الذي لحقه، وجاء المفعولان صريحين ظاهرين، وجاءت بعد ذلك جملة نسخيَّة أخرى بمفعولَين ظاهرَين، وحذف

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٣.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٣٨.
(٣) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٥.
(٤) المصدر نفسه: ٢٩/ ٢٢٦.
(٥) المصدر نفسه: ٢٩/ ٢٢٧.
(٦) الاحتجاج: ١/ ١٤١.
(٧) المصدر نفسه: ١/ ١٤٥.

الفعل وفاعله لدلالة ما قبله عليه، وتقديره الفعل (وجد) أيضًا لتحقِّق العطف هنا.

واستعملت الفعل (ألفى) بمعنى (وجد)، قالت السيِّدة: «**فَأَلْفاكُمْ لِدَعْوَتِهِ مُسْتَجيبينَ، وَلِلْغِرَّةِ فِيهِ مُلاحِظِينَ**»(١)، جاءت الجملة النسخيَّة بالفعل (ألفى) وفاعله المستتر فيه، ومفعوله الأوَّل الضمير المتَّصل به (كم)، ومفعوله الثاني (مُسْتَجيبينَ)، وعقَّبت بجملة مقابلة لها مفعوله الثاني (مُلاحِظِينَ). وقالت السيِّدة: «**وَأَلفَيْتُهُ أَلَدَّ فِي كَلامِي**»(٢)، استعملت الفعل (ألفى) الذي يدلُّ على الإيجاد، وفاعله الضمير المتَّصل به تاء الفاعل، ومفعوله الأوَّل الضمير المتَّصل به الضمير الهاء، ومفعوله الثاني (أَلَدَّ).

(١) الاحتجاج: ١/ ١٣٨.
(٢) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٣٤.

المبحث الثالث

التعبير بالأساليب

استعملت السيِّدة الزَّهراء سلام الله عليها أساليب كثيرة في خطبتها، ولعلَّنا قد اخترنا أهمَّها، وأكثرها ورودًا، وما كان بارز التعبير، ومهم الفائدة، من مثل:

التعبير بأسلوب الاستفهام

التعبير بالجمل الاستفهاميَّة مهمَّة جدًّا في البيان العربي، وقد تكاثرت هذه الجمل في الشعر والنثر الفنِّيّ كثيرًا، وهي في مجموعها إمَّا تدلُّ على الاستفهام الحقيقيّ المراد الجواب من المسؤول، وهي الأقلّ طبعًا في ما نفهم من حقيقة الخطاب التعبيريّ، أنَّه خطابٌ عامٌّ في حينه، غير موجَّهٍ لشخصٍ بعينه، فهو ليس كلُّه خطب، وإلقاءات، بل الغالب عليه التأليف، ثمَّ العرض والإلقاء، أو الطباعة والنشر فيما بعد، وهذا النوع طبعًا لا يريد الإجابة عن التساؤلات المطروحة؛ لعدم القدرة حينها على التواصل بين الباثِّ والمتلقِّي.

أو تدلُّ على الاستفهام الخبريّ المجازيّ، الذي لا يراد منه الإجابة، بل يخرج ما ألقي بأسلوب الاستفهام إلى مرادات كثيرة على حسب إلقاء الجملة الاستفهاميَّة وتأليفها.

والاستفهام كما هو معروف طلب الفهم من السائل إلى المسؤول، إمَّا السؤال بحاجة إلى جواب، أو هو على التقرير بلا جواب، أو على سبيل آخر، أو مجاز لما يخرج عنه، وقد يعادل السؤال بـ(أم)، أو يخيَّر بـ(أو)، أو يُهمل للمبالغة في التبكيت والحيرة.

فإذا كان الاستفهام يعني طلب الفَهم أو (طلب الإفهام)[١]، فقد خلت كتب النحو الأولى من تعريفٍ صريحٍ له، وقد اتَّفق أكثر البلاغيِّين على تعريف الاستفهام بهذا القول: «هو طلب العلم بشيءٍ لم يكن معلومًا من قَبل بأداةٍ خاصَّة»[٢]، أو هو: «طلب الحصول على شيء في الذهن بأدوات مخصوصة»[٣]، والاستفهام ضدَّ الإخبار، أو هو الاستخبار كما قال ابن فارس في باب الاستخبار: «الاستخبارُ طلب خُبْر ما ليس عن المستخبر، وهو الاستفهام»[٤]، وقال ابن الأثير: «وهذا باب مفرد، وهو باب الاستفهام في الخطاب، وإذا كان الشاعر فطنًا عالمًا بما يضعه من الألفاظ والمعاني تصرَّف في هذا الباب بضروب التصرفات، واستخرج من ذات نفسه شيئًا لم يسبقه إليه أحد»[٥]، وقال المخزوميّ: «ولا استفهام دون أن يُراعى فيه مقتضيات الأحوال، ومتطلَّبات القول»[٦]؛ لأنَّ الكلام بأسلوب الاستفهام يُراد منه أمرَين، الأوَّل: صيغة السؤال، والآخر: بيان المسؤول عنه، فهو أسلوبٌ مهمٌّ لذلك، «والاستفهام، بوصفه أسلوبًا حواريًّا، يَستدعي أطرافًا عِدَّة، وهي: الملفوظ ومعناه، والمتكلِّم والسامع»[٧]، بمعنى أنَّ المستفهِم مخاطِبٌ

(١) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطيّ (ت٩١١هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقيَّة، مصر: ٢/ ٥٨٢.

(٢) علم المعاني: عبد العزيز عتيق، دار الآفاق العربيَّة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦: ٦٩.

(٣) البلاغة الاصطلاحيَّة: د. عبده عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ١٩٨٩: ١٦٣.

(٤) الصاحبيّ في فقه اللغة العربيَّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها: أحمد بن فارس بن زكريَّاء القزوينيّ الرازي، أبو الحسين (ت٣٩٥هـ)، مطبعة محمَّد عليّ بيضون، ط١، ١٩٩٧: ١٣٤.

(٥) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: نصر الله بن محمَّد بن محمَّد بن عبد الكريم الشيبانيّ، الجزريّ، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (ت٦٣٧هـ)، تحقيق: محمَّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريَّة للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠هـ: ٢/ ٣١٢.

(٦) في النحو العربيّ نقد وتوجيه: د. مهدي المخزوميّ (ت١٩٩٣م)، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٦: ٢٢٨-٢٢٩.

(٧) بنية الجملة العربيَّة بين النظريَّة والتطبيق: المنصف عاشور، سلسلة اللسانيَّات، منشورات كليَّة الآداب (منوبة)، تونس، ط١، ١٩٩١: ٢٠٦.

لسامعين، يريد منهم جوابًا على سؤاله.

وقد استفهمت السيِّدة الزَّهراء كثيرًا في خطبتها الفدكيَّة، بما شكَّلت هذه الكثرة أسلوبًا بارزًا تمتَّعت به الخطبة بشكلٍ واضحٍ، وقبل الخوض في بيان معاني الاستفهام في الخطبة، أوضِّح أمورًا انبنى عليها كلام الزَّهراء فيما قلنا سابقًا ونعيده للتأكيد: إنَّ لوعة السيِّدة الزَّهراء كانت في أوجها، وحرقة قلبها كانت في منتهاها، ترى تراثها نهبًا، وحقَّها مضيَّعًا، وحقَّ زوجها مهتضَمًا، وما لها من حيلة سوى البكاء والكلام، فكان كلامها أشدَّ على القوم من نبل السهام وحدِّ المدى، فكان بعض كلامها موجَّهًا للقوم من غير انتظار منها على الإجابة، وإنَّما هو تقريع لهم، ولوم شديد، وتبكيت لهم؛ لما فعله كبراؤهم، ورضي به صغراؤهم.

قالت في بداية الخطبة: «**فَهَيْهاتَ مِنْكُمْ، وَكَيْفَ بِكُمْ، وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟ وَكِتابُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ**»[1]، وقولها: (كَيْفَ بِكُمْ) سؤال بـ(كيف) وجاءت الباء زائدة بعدها «الباء تزاد اطرادًا في الخبر المنفي.. وتزاد بعد ناهيك.. وبعد كيف: كيف بكم»[2]، ولم أقرأ لأحد من النحويِّين أو من اللغويِّين من قال بمعناها، ويبدو أنَّ إغفالهم لها حاصل من وضوح دلالتها ربَّما، ومعناها أنَّها تبع لجملة سابقة ذُكِر فيها فعل تعلَّقت الباء به، فإن لم يُذكر قبلها فعل مناسب لها، قدِّر الفعل بـ(تفعل)، أو أي فعل مناسب مثله، فلو قلت: كيف بزيد؟ فإنَّ معناه كيف تفعل بزيد؟ أو هي على الزيادة، قال المرادي: «قلت: جعل بعض المتأخِّرين الباء في قولهم: كيف بك، وكيف بنا، زائدة مع المبتدأ، والأصل: كيف أنت، وكيف نحن»[3]، أمَّا قولها: (وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)، فهي آية قرآنيَّة تمثَّلت بها، ومعناها

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٥.

(٢) الموجز في قواعد اللغة العربيَّة: سعيد بن محمَّد بن أحمد الأفغانيّ (ت١٤١٧هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣: ٣٣٥.

(٣) الجنى الداني في حروف المعاني: أبو محمَّد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المراديّ المصريّ المالكيّ (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، وأ. محمَّد نديم فاضل، دار الكتب=

الصرف، قال: «أي: يصرفون عن الحقِّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح»[1]، فهي تأنِّبهم بهذا القول، وإن جاء بأسلوب الاستفهام.

وقال السيِّدة فاطمة: «**أَرَغْبَةً عَنْهُ تُرِيدُونَ، أَمْ بِغَيْرِهِ تَحْكُمُونَ؟** ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٠)»[2]، السؤال بالهمزة له دلالتان، هما التصوُّر أو التصديق، قال المراديّ: «فأمَّا همزة الاستفهام، فهي حرف مشترك يدخل على الأسماء والأفعال، لطلب تصديق، نحو: أزيد قائم؟ أو تصوُّر، نحو: أزيد عندك أم عمرو؟ وتساويها هل في طلب التصديق الموجب، لا غير»[3]، فالتصوُّر مع (أم) المعادلة، وإنَّما تريد السيِّدة هنا أن تُظهر حدَّين لا ثالث لهما، إمَّا أنَّكم لا تريدون حكم الله العظيم، ونبيِّه الأمين، وكتابه الكريم، أو أنَّكم تريدون أن تبتدعوا الأحكام من عقولكم.

قال الشريف الجرجانيّ: «الاستفهام: استعلام ما في ضمير المخاطَب، وقيل: هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشيئَين، أو لا وقوعها، فحصولها هو التصديق، وإلَّا فهو التصوُّر»[4]، وقد عُرِّف التصوُّر بتعريفَين، قال: «التصوُّر: حصول صورة الشيء في العقل. التصوُّر: هو إدراك الماهيَّة من غير أن يحكم عليها بنفي أو إثبات»[5]، وإنَّما السائل إذا سأل بالهمزة و(أم) قصد

=العلميَّة، بيروت، ط١، ١٩٩٢: ٥٣.

(١) المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمَّد المعروف بالراغب الأصفهانيّ (ت٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداوديّ، دار القلم، بيروت، والدار الشاميَّة، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ: ٧٩.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٥.

(٣) الجنى الداني في حروف المعاني: ٣٠.

(٤) التعريفات: عليّ بن محمَّد بن عليّ الزين الشريف الجرجانيّ (ت٨١٦هـ)، ضبطه وصحَّحه: جماعة من العلماء، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٩٨٣: ١٨.

(٥) المصدر نفسه: ٥٩.

التصوُّر، حتَّى لا يحير المسؤول بالجواب؛ لأنَّ السيِّدة في معرض الخطبة لا في معرض السؤال والجواب، فهي لا تريد منهم الجواب بقدر ما تريد منهم أن يفكِّروا فيه ويقرَّ في أذهانهم. ثمَّ سألت بعد سؤال التصوُّر بسؤال التصديق، وأجابت هي توافقًا مع جوابهم المؤكَّد، قالت: «.. **أَفَلا تَعْلَمُونَ؟ بَلى تَجَلَّى لَكُمْ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ أَنِّي ابْنَتُهُ**»[1]، فقولها: (أَفَلا تَعْلَمُونَ) بحاجة إلى جوابٍ منهم، تكفَّلت السيِّدة بإذاعته علانية أمامهم، حتَّى يقرَّ في عقولهم، ويظهر فتتسمَّعه أسماعهم، ولا يكون مخبوءًا غير معلوم. وقد أجابت السيِّدة بـ(بلى)؛ لأنَّ السؤال كان بالنفي، فيكون الجواب تثبيتًا بـ(بلى) المؤكَّدة للجواب.

وقالت السيِّدة: «**أَيُهَا الْمُسْلِمونَ أَأُغْلَبُ عَلى ارْثِيَهْ يَا ابْنَ أَبي قُحافَةَ! أَفي كِتابِ اللهِ أَنْ تَرِثَ أَباكَ، وَلا أَرِثَ أَبي؟** ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ (مريم: ٢٧)، **أَفَعَلى عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتابَ اللهِ**»[2]، فخاطبت بالنداء والاستفهام أوَّلًا المسلمين، ثمَّ خاطبت الحاكم الجديد بمثل ذلك، ثمَّ خاطبت في ثالثة الجميع بالاستفهام الأخير، فقد سألت هنا بالهمزة في المواضع الثلاثة، وهي في جميعها تريد جوابًا، ولأنَّ حالها، وهي في غضبٍ شديد، وحالهم وهم في حيرة شديدة، لم تنتظر الجواب منهم، وإنما وقعت أسئلتها بالسهام القاتلة في أكبادهم، لا يحرون جوابًا، ولا يقولون قولًا.

ولعل سؤالها: «**أَفي كِتابِ اللهِ أَنْ تَرِثَ أَباكَ، وَلا أَرِثَ أَبي؟**» كان من أعظم الأسئلة التي وجَّهتها السيِّدة للحاكم الجديد، وهي تحاول بثقة العالمة بكتاب الله، وهو الجاهل به، أن توضِّح له ما في الكتاب من حكم الوراثة بين الأبناء والآباء، وأنَّ الشرع أمر المسلمين بالأخذ بنصِّ القرآن الكريم في الإرث، أنَّ الابن يرث أباه بلا استثناء، وارث أو مورِّث له.

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٦.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٣٩.

وإتمامًا لكلامها وتحصيل مضمونه، قالت السيِّدة: «**أَفَخَصَّكُمُ اللهُ بِآيَةٍ أَخْرَجَ مِنْها أَبِي؟ أَمْ هَلْ تَقُولونَ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ لا يَتَوارَثانِ، أَوَ لَسْتُ أَنَا وَأَبِي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ واحِدَةٍ؟! أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أَبِي وَابْنِ عَمّي؟**»[1]، ففي هذا المقطع جمعت الأسئلة بكلِّ فنون السؤال، فسألت بالهمزة و(أم) المعادلة مرَّتين، وبـ(هل) مرَّة أخرى؛ لتوضيح مقتضى قولها الأوَّل في سؤالها المركزيّ «**أفي كِتابِ اللهِ أنْ تَرِثَ أباكَ، ولا أرِثَ أبي؟**».

قالت السيِّدة: «**يا مَعاشِرَ الْفِتْيَةِ، وَأَعْضادَ الْمِلَّةِ، وَأَنْصارَ الْإِسْلامِ! ما هذِهِ الْغَمِيزَةُ فِي حَقِّي؟ وَالسِّنَةُ عَنْ ظُلامَتِي؟ أما كانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله أَبِي يَقُولُ: (الْمَرْءُ يُحْفَظُ فِي وُلْدِهِ)؟ سَرْعانَ ما أَحْدَثْتُمْ، وَعَجْلانَ ذا إهالَةً، وَلَكُمْ طاقَةٌ بِما أُحاوِلُ، وَقُوَّةٌ عَلى ما أَطْلُبُ وَأُزاوِلُ!**»[2]، وجَّهت سؤالها هنا إلى الأنصار حصرًا، فقدَّمت المدح المستحقَّ لهم، ثمَّ سألتهم: «**ما هذِهِ الْغَمِيزَةُ فِي حَقِّي؟**» فهو سؤال يحمل ثلاثة أمور مصيريَّة تقرِّر حكم الدين في الأنصار، وهي: أنَّ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام لها (حقٌّ) واضح بيِّن، وأنَّها تعرَّضت لـ(ظلامة) كبيرة، و(ظلم) كبير، وأن هناك (غميزة) و(سِنَة) عن الدفاع عنها، تمثَّلت (الغميزة) في الطعن بها، وتأييد الحاكم الجديد فيما ادَّعى، وأنَّ هناك (سِنة) وفتورًا كبيرَين عن الدفاع عنها وتأييدها فيما تقول في حقِّ (فدك).

قالت السيِّدة: «**أَتَقُولُونَ ماتَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله؟!**»[3]، ثمَّ لـمَّا استيأست منهم أن تظهر فيهم الحميَّة لبنت نبيِّهم الكريم، سألتهم عن موت نبيِّهم، والجواب واضح أنَّ هذه حقيقة لا مراء عنها، ولا محيص عن القبول بها، ولكن بعد ذلك ليس فراغ ساحتهم من الوحي والاتِّصال المباشر بالله تعالى، وهي رزيَّة عظيمة. بل تريد أن تؤكِّد حقيقة ذَكَرها

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٧.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٤٠.
(٣) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٨٨.

الله تعالى أن بعد موت نبيِّهم سوف ينقلبون على أعقابهم، ويخسرون أعمالهم الحسنة التي عملوها معه، وقد ختمت حديثها بقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(آل عمران: ١٤٤) لتوكيد ذلك.

قالت السيِّدة: «**إِيْهًا بَنِي قَيْلَةَ! أُأْهْضَمُ تُراثَ أَبِيَهْ وَأَنْتُمْ بِمَرْأى مِنِّي وَمَسْمَعٍ؟**»[١]، فقد وجَّهت كلامها هنا للأنصار خاصَّة، سمَّتهم أبناء قيلة؛ لأنَّها أمُّهم الأولى التي ينتسبون لها، وفي الصِّحاح: «الأوس والخزرج ابنا قيلة، وهي أمُّهما، نُسِبا إليها. وهما ابنا حارثة بن ثعلبة، من اليمن»[٢]، وربَّما كان خطابها لهم بهذه التسمية تحفيزًا لهممهم أنَّهم من أصلاء العرب الأوائل، أو قولها ذمٌّ لهم وتبكيت بهم؛ لأنَّ أحدًا لم يكن يناديهم بهذه التسمية، فهي تريد منهم أن يساندوها في قولها ويناصروها، كما ناصروا أباها في الزمن الفائت. ومعنى التراث إرثها من أبيها الذي استحقَّته في زمانه، وإن قيل إنَّ «التراث بالضمِّ: ما يخلِّفه الرجل لورثته، وأصله الواو أي الوراث، فقلبت الواو تاء»[٣]، فإنَّ السيِّدة الزَّهراء استوفت إرثها في زمن حياة أبيها، فوراثتها متحقِّقة على عهد النبيّ الكريم، رضي بها وأقرَّها، وهي لا تطالب بما بقي من إرثه بعد موته، وإنَّما بما استوفته في حياته.

قالت السيِّدة: «**فَأَنَّى جُرْتُمْ بَعْدَ الْبَيانِ، وَأَسْرَرْتُمْ بَعْدَ الإِعْلانِ، وَنَكَصْتُمْ بَعْدَ الإِقْدامِ، وَأَشْرَكْتُم بَعْدَ الإِيمانِ؟**»[٤]، في بيان أحقيَّة كفرهم وجورهم عليها، وهي بنت

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٨٨.
(٢) تاج اللغة وصحاح العربيَّة: أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد الجوهريّ الفارابيّ (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطَّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧: ١/ ٣١٠.
(٣) مجمع البحرين ومطلع النيِّرين: فخر الدين الطريحيّ (ت١٠٨٥هـ)، تحقيق: السيِّد أحمد الحسينيّ، مكتبة المرتضويّ، طهران، ط٢، ١٣٦٥هـ: ٢/ ٢٦٧.
(٤) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٤٤.

نبيِّهم ومستحقُّها الخير العميم منهم، لا أن يسلبوها ما أعطاها النبيّ في حياته. فسألت بـ(أنَّى)، قال الزجَّاجيّ: «أنَّى تكون بمعنى (كيف)، كقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ (آل عمران: ٣٧)، تأويله: من أين لك هذا؟ وقد يجازى بها، وتكون بمعنى (من أين) نحو قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ (الأنعام: ١٠١)، والمعنَيان متقاربان، يجوز أن يتأول كلُّ واحد منهما للآخر»[١]، فقولها: «فَأَنَّى جُرْتُمْ بَعْدَ الْبَيانِ»، معناه كيف جرتم بعد البيان والوضوح صدفًا منكم عن الحقيقة، وما جاء بعدها من كلام تأكيد منها بمآل القوم إلى الكفر الصريح بعد خذلانها.

قالت السيِّدة: «**أَفَتَجْمَعُونَ إلى الْغَدْرِ اغتِلالًا عَلَيْهِ بِالزُّورِ؟**»[٢]، وهذا كلامها فيه سؤال عظيم من الاستحالة الجواب عنه؛ لأنَّهم إن أجابوها بالرَّفض فحالهم وهم واقفون مع أعدائها وعدم نصرتها يدلُّ على صدق كلامها، وإن أجابوا بالموافقة، فقولها يدلُّ على كفرهم وتقاعسهم عن نصرة فلذة كبد نبيِّهم الكريم، وقد أوصى بأهل بيته خيرًا، فقال: «**أوصيكم بأهل بيتي خيرًا**»[٣]، وقد ذكر ذلك الله سبحانه في كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى: ٢٣).

على أنَّنا يجب أن نفهم أنَّ أسلوب الاستفهام في العربيَّة قائم على السؤال والجواب، هذا هو الأصل فيه، وإن عرفه من عرفه على أنَّه طلب الفهم، فإنَّ حصول هذا الفهم من حصول الجواب حصرًا، ولكن لو استقرينا النصَّ القرآني بما فيه من استفهامات متعدِّدة، والنصّ الحديثي أيضًا، والنصّ الشعري بكلِّ ما فيه من استفهامات، فإنَّنا

(١) حروف المعاني والصفات: عبد الرحمن بن إسحاق البغداديّ النهاونديّ الزجَّاجيّ، أبو القاسم (ت٣٣٧هـ)، تحقيق: عليّ توفيق الحمد، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٤: ٦١.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٣٢.

(٣) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: محمَّد بن محمَّد بن النعمان المفيد (ت٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، دار المفيد للطباعة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ: ١٧٥.

بالتأكيد سنعرف أنَّ هذه النصوص طرحت استفهاماتها من غير الانتظار الجواب، فالله تعالى في النصِّ القرآني الكريم يقول لنبيِّه الكريم: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (القلم: ٤٠-٤١)، والقرآن لم ينتظر أَيُجيب من يريد الإجابة، بل ذهب كلامه هذا على سبيل التعنيف والتبكيت لهم.

وهكذا بقيَّة النصوص، والخطبة من بين هذه النصوص المتعارف عليها، يلقي الخطيب كلامه مسترسلًا من غير التوقُّف لمشاركة الجمهور لكلامه، وقطعه لخطبته، بل يُلقى الكلام كاملًا متَّصلًا من غير توقُّف لسماع الإجابات.

التعبير بأسلوب النداء

النداء إحداث صوتٍ ما لأجل التنبيه، وعرَّفه النحويُّون أنَّه: «طلب الإقبال بحرف نائب مناب أدعو ملفوظ به أو مقدَّر»[1]، أو هو: «طَلَب الإقبال من المُخاطَب بحرف من أحرف النِّداء؛ لتَنْبيهه، أو لأهدافٍ أخرى»[2]، وغالبًا ما يكون النداء لتنبيه المنادى الالتفات إلى المنادي؛ ثمَّ يستمع إلى ما يلقيه المنادي من كلام أو إشارة متعارَف عليها بينهم.

وقد جاءت النداءات في الخطبة الفدكيَّة كثيرة، تنمُّ عن رغبة السيِّدة بجذب انتباه المخاطَبين إليها؛ لفهم كلامها، والاطِّلاع على فحوى ما تقول وتصرِّح به.

قالت السيِّدة: «**أَنْتُمْ عِبادَ الله نُصْبُ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ**»[3]، نادت الحاضرين بأنهَّم (عِبادَ الله)؛ جذبًا لعاطفتهم أن يستمعوا لها، وقالت أيضًا: «**أَيُّها النَّاسُ! اعْلَمُوا أَنِّي فاطِمَةُ،**

(١) حاشية الصبَّان على شرح الأشمونيّ لألفيَّة ابن مالك: أبو العرفان محمَّد بن عليّ الصبَّان الشافعيّ (ت١٢٠٦هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٩٩٧: ٣/ ١٩٧.

(٢) المنجد الوسيط في العربيَّة المعاصرة: صبحي حموي، دار المشرق، بيروت، ط١، ٢٠٠٣: ١٠١٠.

(٣) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٢.

وَأبي مُحَمَّدٌصلى الله عليه وآله»[1]، وهنا بان كلامها الدقيق، بعد أن نادتهم بنداء عامّ لا تلحظ فيه العاطفة منهم، ولا تريد إلَّا القسوة في الخطاب بقولها «أيُّها النّاسُ»، فإنَّه نداء لا لين فيه ولا تودُّد، وإنَّما هو نداء لكلِّ من يسمع بلا لحاظ مزيَّة أو منزلة، ثمَّ بادرتهم بحقيقة لا يردُّونها ولا يقدرون أن يحيدوا عن ثباتها، قالت أوَّلًا: «**اعْلَمُوا أنِّي فاطِمَةُ**» في تنبيهٍ لهم أنَّ اسمها فاطمة في الاسم والشرف؛ لأنَّ اسم (فاطمة) في ذلك الزمان لا ينصرف إلَّا لسيِّدة نساء العالمين، ثمَّ أعقبت بكلامٍ لا يقوله حيٌّ إلَّا هي، تذكِّر الناس بنسبها من رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو نسبٌ شريفٌ لا يبزُّه نسب، ولا يقرب منه سبب.

قالت السيِّدة: «**يا مَعاشِرَ الْفِتْيَةِ، وَأَعْضادَ الْمِلَّةِ، وَأَنْصارَ الْإِسْلامِ! ما هذِهِ الْغَمِيزَةُ فِي حَقِّي؟**»[2]، ثمَّ خاطبتهم بقولها: «**يا مَعاشِرَ الْفِتْيَةِ، وَأَعْضادَ الْمِلَّةِ، وَأَنْصارَ الْإِسْلامِ**» تُظهر في ندائها هذا اللين لهم، وتمدحهم بما هم فيه حقًّا، يوم كان الأنصار بهذه المواصفات، وهي (معاشر الفتية)، و(أَعْضادَ الْمِلَّةِ)، و(أَنْصارَ الْإِسْلامِ)، تسترضيهم وتستدرُّ عطفهم تجاهها، ليلينوا لها ويناصروها على عدوِّها وغريمها والسارق منها حقَّها، وخاطبتهم بذلك باللين والرفق بسؤال محيِّر لهم بقولها استفهامًا: «**ما هذِهِ الْغَمِيزَةُ فِي حَقِّي؟**»، وكأنَّ حال مقالها يُنبئ عن تكذيب هذه الغميزة التي توجَّه إليها من بعض المحسوبين على الإسلام.

قالت السيِّدة: «**إيْهًا بَنِي قَيْلَةَ! أُهْضَمُ تُراثَ أَبِيَهْ وَأَنْتُمْ بِمَرْأى مِنِّي وَمَسْمَعٍ**»[3]، ثمَّ قالت قولًا لم يُسمَع من غيرها إلَّا في القليل النادر، إذ كان حيَّا الأنصار (الأوس والخزرج) تجمعهم أمٌّ واحدة هي (قيلة)، وكانوا قبل العداء المستميت بينهم قبل الإسلام يتفاخرون بهذا اللقب، حتَّى حصل العداء القاتل بينهم، فتُرِك هذا اللقب ولم

(١) الاحتجاج: ١/ ١٣٥.
(٢) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٧.
(٣) المصدر نفسه: ٢٩/ ٢٨٨.

يُسمَع من أحد، فذكَّرتهم به السيِّدة فاطمة الزَّهراء، تريد ميلهم إلى الأخوَّة الجامعة بينهم، حتَّى يتَّحدوا بينهم، فيتناسوا العداء الجديد الذي أحدثه الخلاف في السقيفة.

قالت السيِّدة: «**مَعاشِرَ النَّاسِ المُسْرِعَةِ إلى قِيلِ الباطِلِ**»[1]، ثمَّ خاطبت السيِّدة الزَّهراء جموع الناس بلا استثناء، تستقبح فعلهم وتحثُّهم لتذكر ما كانوا فيه من الإيمان في زمن النبيِّ الكريم، وما هم عليه الآن، فقالت لهم: (مَعاشِرَ النَّاسِ) من غير تخصيص فئة منهم، ومن غير تعظيمٍ لشأنهم، استفزازًا لهم وتحقيرًا لمقامهم الذي هم عليه الآن.

ولعلَّ آخر ما نادت السيِّدة الزَّهراء، هو نداؤها لأمير المؤمنين تخاطبه: «قالتْ لأميرِ المُؤمنينَ عليه السلام: **يا ابْنَ أبِي طالِب**»[2]، قالت هذا النداء بعد الحرقة الشديدة التي تحمَّلتها من نفور القوم منها، واهتضام المسلمين لحقِّها، وجلوس الأنصار عن نصرتها، فقالت تخاطب أمير المؤمنين في كلامٍ يوجع القلب، ويُدمي العين، حزنًا على ما أصابها من خذلان الناس لها.

التعبير بأسلوبَي النَّفي والنَّهي

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الخطبة يجب أن تتنوَّع في الخطاب، وتتوزع فيها الأساليب المهمَّة في التعبير؛ لاستكمال شؤون الخطاب، وإتمام شروط الخطبة، من تعدُّد أوجه الخطاب؛ للتأثير في المخاطَبين بسلوك كلِّ السُّبل في التعبير، وطروق كلِّ أنواع الكلام، فجاء تعبير السيِّدة الزَّهراء في خطبتها بأسلوب النفي واسعًا في مساحة تعبيريَّة كبيرة؛ كلُّ ذلك لتحقيق التوازن الخطابيّ في الخطبة، واستمالة القوم من جهة، وتوضيح الأمر لهم؛ حتَّى يفهموا ما هم مُقدمون عليه، إمَّا نصرتها وترك الحكومة الجديدة، أو التقاعس عن نصرتها، وتأييد الحكومة الجديدة فيما تقول وتدَّعي وتفعل، وإن كان فعلهم بما

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٣٢.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٤٦.

لا يُرضي السيِّدة الزَّهراء، والناس مأمورة بإرضائها وعدم إغضابها، فإن مُرضيها وناصرها مؤمن متَّبع لقول النبيِّ الكريم، وإنَّ مغضبها والمتقاعس عن نصرتها كافر مُغضِب للنبيِّ وربِّ العالمين في صريح كلام سيِّد المرسلين، في قوله: «**يؤذيني ما يؤذيها، ويغضبني ما يغضبها، وإنَّها بضعة منِّي، يُريبني ما رابها**»(١)، وقد ذكرت سيِّدة النساء في خطبتها من النفي قولها: «**وَأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ**»(٢)، فقد استعملت (لا) التي لنفي الجنس لنفي جنس الإلهيَّة عن غير الله تعالى، ونفي الشريك عنه بالمرَّة، ثمَّ قالت: «**اِبْتَدَعَ الأَشْياءَ لا مِنْ شَيْءٍ كانَ قَبْلَها، وَأَنْشَأَها بِلا احْتِذاءِ أَمْثِلَةٍ أَمْتَثَلَها**»(٣)، وهنا استعملت (لا) النافية غير العاملة لم تنفِ الفعل بها، وإنَّما نفت المتعلِّق بعد الفعل. وقالت: «**وَذَرَأَها بِمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حاجَةٍ مِنْهُ إلى تَكْوينِها، وَلا فائِدَةٍ لَهُ في تَصْويرِها**»(٤)، إذ استعملت (غير) للنفي، وعادت واستعملت (لا) النافية لتأكيد النفي، وقالت: «**أَقُولُ عَوْدًا وَبَدْءًا، وَلا أَقُولُ ما أَقُولُ غَلَطًا، وَلا أَفْعَلُ ما أَفْعَلُ شَطَطًا**»(٥)، أظهرت النفي هنا بعد أن قالت: «**أَقُولُ عَوْدًا وَبَدْءًا**»، واثقة ممَّا تقول، ومحقَّة فيما تقول، قالت بعدها (وَلا أَقُولُ) بالنفي، تريد أن تضع أمام المستمع قاعدة ثابتة حقيقة محقَّقة، وهي: أنَّها لا تقول غلطًا، ولا تفعل شططًا؛ لتكون هذه القاعدة بمثابة ترسيخ لما ستقول بعد ذلك من كلام.

قالت السيِّدة: «**قَذَفَ أخاهُ في لَهَواتِها، فَلا يَنْكَفِئُ حَتَّى يَطَأَ صِماخَها بِأَخْمَصِهِ**»(٦)، حصل النفي بأسلوب (لا- حتَّى) المشابه لأسلوب (ما- إلَّا)، فتحقَّقَ النفي بـ(لا)

(١) بحار الأنوار: ٢٢/ ٢٣٦.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٣٤.
(٣) المصدر نفسه: ١/ ١٣٤.
(٤) المصدر نفسه: ١/ ١٣٤.
(٥) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٣.
(٦) الاحتجاج: ١/ ١٣٧.

النافية غير العاملة لدخولها على الفعل المضارع، و(حتَّى) حرف غاية، وجرّ (يَطَأَ) مضارع منصوب بـ(أن) مضمرة بعد (حتَّى).

قالت السيِّدة: «**فَوَسَمْتُمْ غَيْرَ إِبِلِكُمْ**»(١)، وقالت السيِّدة: «**وَأَوْرَدْتُمْ غَيْرَ شِرِبِكُمْ**»(٢)، استعملت مرَّة أخرى النفي بـ(غير) وهي في الجملَتين مفعول به للفعل المتقدِّم عليها، وفي الكلام تعبير مجازي مؤدَّاه: إنَّ المخاطَبين فعلوا أشياء لم يكن من اللازم لهم فعلها، فإنَّ هذه الأفعال تدلُّ على قباحة رأيهم، وسوء تدبيرهم في الحياة.

قالت السيِّدة: «**وَالْجُرْحُ لَمَّا يَنْدَمِلْ، وَالرَّسُولُ لَمَّا يُقْبَرْ**»(٣)، استعملت هنا (لـمَّا) للنفي، وهي تختصُّ بنفي الفعل المضارع، تنفي وقوع الفعل في الزمن الماضي المستمر المتَّصل بالحال، ومعناها تقريبًا (ما زال لم)، والمعنى هنا: والجرح ما زال لم يندمل بعد. والرسول ما زال لم يقبر بعد. وفيها إخبار لسوء صنيعهم معها، فإنَّهم اغتصبوا حقَّها مع قرب وفاة النبيِّ مباشرة، من غير أن يكون ذلك بعد مدَّة زمنيَّة طويلة، كأن ينسون فيه نبيَّهم.

قالت السيِّدة: «**ثُمَّ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا رَيْثَ أَنْ تَسْكُنَ نَفْرَتُهَا**»(٤)، حصل النفي بأسلوب (لم- إلَّا) المشابه لأسلوب (ما- إلَّا)، فتحقَّقَ النفي بـ(لا) النافية المنتقض نفيها بـ(إلَّا)، وهنا ما بعد (إلَّا) متعلِّق بما قبلها؛ لعدم استيفاء الفعل السابق معموله، فـ(رَيْثَ) مفعول فيه للفعل (تلبث) المتقدِّم، وكلامها هذا شبيه بقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ (يونس: ٤٥)، وأمثاله، يحدِّث ما بعد أداة الاستثناء عن زمن ما قبل الأداة، أي زمن وقوع الفعل.

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٥.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣) الاحتجاج: ١/ ١٣٨.
(٤) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٥.

قالت السيِّدة: «**أفي كِتابِ اللهِ أنْ تَرِثَ أباكَ، ولا أرِثَ أبي؟**»[1]، في هذا الكلام حذف حصل لـ(أنْ) الثانية لدلالة ما قبلها عليها، والكلام كاملًا: (أنْ تَرِثَ أباكَ، وأنْ لا أرِثَ أبي)، حتَّى تكون (أرِثَ) فعلًا مضارعًا منصوبًا بـ(أنْ) المضمرة، وفي كلامها تجريح بحكم الحاكم الجديد المنبني على قولٍ لم يُسمَع قبل هذا الموقف، أو سُمِع وأريد به غير ما وُجِّهَ إليه، فإنَّ النبي بشرٌ من عامَّة البشر، وله إرث تركه، ولو كان قليلًا، وأهله أحقُّ بوراثته من غيرهم، ولا يوجد نصٌّ شرعيٌّ يلغي وراثة الأنبياء بعضهم من بعض، أو من أرحامهم، أو يرثهم أرحامهم إذا ماتوا.

قالت السيِّدة: «**أوَ لَسْتُ أنَا وَأَبِي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ واحِدَةٍ؟**»[2]، حصل النفي هنا بـ(ليس) الفعل الناقص الدال على مطلق النفي، ويعمل على نفي اتِّصاف الخبر بالمبتدأ، أو باسمه الذي هو (تاء الفاعل) في كلام السيِّدة، وقد جاء كلامها على سبيل الاستغراب، من قرارهم، أنَّها لا ترث أباها، فقالت كلامها هذا تريد به سؤالهم عن حالها، وعن صدق قرارهم الذي قرَّروه، وقد جاء في كلامها أن عطفت اسمًا ظاهرًا (أبي) على مُضمَر وهو (تاء الفاعل)، فذكرت ضميرًا ظاهرًا ملائمًا لـ(تاء الفاعل) حتَّى يصحّ عطف الظاهر على المضمر في هذا الموضع، فقالت: (لَسْتُ أَنَا وَأَبِي)، فـ(أنا) ضمير شأن استُجلِب لتحقيق العطف الصحيح.

قالت السيِّدة: «**فَتِلْكِ وَاللهِ النَّازلَةُ الْكُبْرى، وَالْمُصيبَةُ الْعُظْمى، لا مِثْلُها نازِلَةٌ، وَلا بائِقَةٌ عاجِلَةٌ**»[3]، جاءت جملة النفي هنا (لا مِثْلُها نازِلَةٌ) في محلِّ صفة للجملة التي قبلها، أو لنقل متمِّمة للجملة المتقدِّمة، أو استئنافًا لكلام جديد، والجملة المتقدِّمة: (تِلْكِ النَّازلَةُ الْكُبْرى)، كلام فيه تقرير واضح من السيِّدة، لتأكُّده بكلامٍ منفيٍّ فيه هذا التقرير والتوكيد المهمِّ في التعبير.

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٦.
(٢) المصدر نفسه: ٢٩/ ٢٢٧.
(٣) المصدر نفسه: ٢٩/ ٢٢٨.

قالت السيِّدة: «**تُوافيكُمُ الدَّعْوَةُ فَلا تُجِيبُونَ، وَتَأْتيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلا تُغيثُونَ**»[1]، استعملت السيِّدة أسلوب المقابلة البلاغيَّة في هذا الكلام، وهو أسلوب يعمد إليه المتكلِّم لتطويل الكلام؛ لاستيفاء ما به من معانٍ مرادة، استعملت في كِلتا الجملتين النفي قبل الفعل المضارع، واستعملت السيِّدة هنا أسلوبًا نثريًّا جميلًا فيه من الإبداع في التعبير والطرح الشيء الجليل القدر؛ لأنَّ صياغات الكلام متعدِّدة، ولا بدَّ للخطيب المتمكِّن من تنوُّع الخطاب وتنوُّع التعبير وتنوُّع الدلالة، بلا هذه الأمور الثلاثة، فالخطيب ضعيف غير متمكِّن، وجامد غير متفنِّن في التعبير والصياغة، وهناك فرق بين التعبير والإلقاء، فإنَّ كثيرًا من الخطباء يعتمد فكرة تحسين الإلقاء على حساب جودة التعبير، فيُعجَب به السامعون، أمَّا الباحثون وأهل النقد والنحو والدلالة، فإنَّ السمع لا يهمُّهم في شيء، وإنَّما يركِّزون همَّهم على جودة التعبير، وجمال الصياغة، والتفنُّن في الدلالة، حتَّى يصلوا بالخطيب إلى درجة الرِّضا أو الرُّقيّ.

ويبدو أنَّ صياغتها هنا قد جاءت بعد فاء الاستئناف التي معناها أنَّ ما بعدها غير متَّصل بما قبلها اتِّصالَ سببٍ أو علَّةٍ، فقولها: «تُوافيكُمُ الدَّعْوَةُ» جملة فعليَّة مفتوحة الآفاق، غير مقيَّدة، فما بعدها هنا متعلِّق بها بنسبة، لا نسبة سبب أو علَّة، فهو ابتداء أو استئناف لما قيل. ومثلها الجملة التي بعدها على الترتيب التعبيريّ نفسه، والدلاليّ نفسه أيضًا.

قالت السيِّدة: «**فَلا نَبْرَحُ أو تَبْرَحُونَ**»[2]، معنى (برح) زال، ولا برح لا زال، فمعنى قولها: لا نزال أو تزالون، ومعنى (زال) ذهب وغادر، والمعنى هنا على التمام، وليس على النقص، وقد ذكرت السيِّدة نفي هذا التحوُّل والزوال من مكان إلى مكان، بما فيه من تأكيد الثبات على الموقف، وعدم الزوال عنه.

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٨.
(٢) المصدر نفسه: ٢٩/ ٢٢٩.

قالت السيِّدة: «**ما كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ كِتابِ اللهِ صادِفًا، وَلا لِأَحْكامِهِ مُخالِفًا، بَلْ كانَ يَتَّبِعُ أَثَرَهُ**»(١)، جاء النفي بـ(ما) التي تشارك (لا) في النفي المطلق، فهي لا تحدِّد مدخولها، فتدخل على الأسماء والأفعال، وفي التعبير بها مرونة عالية فيحقُّ للمعبِّر أن يقدِّم ما يشاء من مفردات الجملة، من غير لحاظ خلل قد يصيب الجملة الجديدة، ولذلك لِقوَّة هذه الأداة في التعبير اللغويّ المسموح به.

جاءت الجملة هنا مؤلَّفة من النفي المقدَّم على جملة نسخيَّة مؤلَّفة مِن كان واسمها (رَسُولُ اللهِ)، وخبرها (صادِفًا)، أرادت بها السيِّدة إبلاغ الحاضرين حقيقة ربانيَّة دينيَّة، شهد بها الجميع، أنَّ رسول الله ﷺ عاش مواظبًا على تبليغ الدين، ولم يصدف، أي يعدل، أو يحيد أو يُعرِض، عن أداء الحقِّ، وبيان الصدق الموكَل به من الله سبحانه وتعالى.

ثمَّ جاءت بعد ذلك بجملة أخرى لحقتها بالأولى، لتتمِّم معناها، وتستوفي الكلام في بيانها، وركَّبتها على العطف بتوكيد النفي بـ(ولا)، ويحقُّ لنا في حال تكرُّر النفي أن نعرف ما تكرَّر على الزيادة، وإعراب ما بعدها على حاله في النصِّ، أو إعرابه على التكرُّر؛ لإفادة توكيد النفي، أو على حالها وما تفيده، من غير لحاظ الزيادة أو التوكيد، بل نعربها حرف نفي، وما بعدها نعربه إعرابًا وافيًا، على تأليفه الحاصل في الجملة.

وهنا احتجنا أن نفهم أنَّ في الكلام محذوفًا، كان يشكِّل في الجملة السابقة أساس الجملة، المؤلَّف من كان واسمها، وهنا حُذِف لتساوق الجملة التالية مع الجملة اللاحقة، فجاز الاستغناء عنه اختصارًا، واتمامًا لجماليَّة الكلام. وأصل الجملة: وَلا (كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ) لِأَحْكامِهِ مُخالِفًا، فـ(مخالفًا) خبر كان المحذوفة مع اسمها.

الخاتمة

اعتنى البحث بإظهار سير الخطبة الفدكيَّة بين التعبير والتأويل، وقد أظهر البحث

(١) الاحتجاج: ١/ ١٤٤.

في فقراته بعض النتائج المهمَّة الخاصَّة بهذه الخطبة المباركة، وتعدُّ من متمِّمات فهمها فهمًا لغويًّا منبنيًا على تحليلٍ لغويٍّ متخصِّص، من مثل:

١. تعدُّ الخطبة الفدكيَّة من أشهر نتاجات النساء في الجاهليَّة والإسلام، أنتجتها عقليَّة نسائيَّة غاية في العلميَّة والبلاغة والإبداع؛ لتخرج بهذه الكيفيَّة التي خرجت بها مذهلة المعاني وجزيلة السبك والتركيب.

٢. تضمَّنت الخطبة الفدكيَّة محاور الخطب المشهورة، وأركان نجاحها، بما احتوته من ألفاظٍ جزلةٍ ومعانٍ قيِّمةٍ وتراكيبَ صحيحةٍ، جميلة السَّبك والترتيب، ومؤثِّرة جدًّا في المخاطَبين.

٣. تضمَّنت الخطبة الفدكيَّة على أساليب برزت بها، وجعلتها أكثر تأثيرًا وتقبُّلًا من غيرها، فبعد التراكيب الإبداعيَّة في الجملَتين الاسميَّة والفعليَّة، جاء أسلوبا النداء والاستفهام، وأسلوبا النفي والنهي؛ ليشكِّلوا بمجموعهم تلك الصورة البلاغيَّة الرائعة التي تحلِّي الخطبة من جهة، وتبرزها على أنَّها نتاج مميَّز ومهم في المتلِّقين.

٤. من أهمِّ صور التعبير في الخطبة الفدكيَّة التعبير بالجمل، وكان من أهمِّ ذلك التعبير بالجمل الاسميَّة، والتعبير بالجمل الفعليَّة، والتعبير بالجمل النسخيَّة، وكان لكلِّ تعبيرٍ أهميَّته في إظهار المعاني المرادة، بشكل تركيبٍ بارعٍ ومفيدٍ في إظهار الحقِّ وبيانه، وتوكيد الادِّعاء وتدعيمه بصورٍ من التحقُّق والتقرير والثبات والتجدُّد.

٥. جاء التعبير بالأساليب في الخطبة الفدكيَّة بمساحة جيِّدة ومميَّزة، تنوَّعت بين التعبير بأسلوب النداء المهمِّ في تنبيه الحاضرين وتهيأتهم للاستماع للخطبة،

وفهم ما فيها من مضامين عالية وادِّعاءات شريفة ادَّعتها السيِّدة الزَّهراء على الحكومة الجديدة التي سلبتها حقَّ إرثها من أبيها نبيّ الله صلى الله عليه وآله.

٦. جاء التعبير بأسلوب الاستفهام في الخطبة الفدكيَّة بمساحة جيِّدة عبَّرت فيه السيِّدة الزَّهراء عن بعض ما يدور في ذهنها، وهي حقائق لكلِّ لبيبٍ شريف، فدوَّنت أمامهم شفاهًا مجموعة من الأسئلة التي تحتاج إلى قلبٍ رحيمٍ ليجيب عليها، ويتعرَّف على مضامينها، وهي خلاصة ما في الدين من عقائد واجبة من المسلمين تجاه نبيِّهم الكريم وآله الأطهار.

٧. جاء التعبير بأسلوبَي النفي والنهي في الخطبة الفدكيَّة؛ لتجويد النصِّ وترتيبه بشكلٍ لغويٍّ رصين، يحتوي على مقوِّمات التعبير العربيّ الذي دأب على استعمال مثل هذه الأساليب؛ لتمكين النصِّ، وجعله على مستوًى لغويٍّ عالٍ.

٨. لم تكتفِ الخطبة الفدكيَّة بالصور اللغويَّة الكلاميَّة، وإنَّما احتوت على كثيرٍ من صور التعبير المعنويَّة، وإن كان البحث قد تكفَّل البحث عن الصور اللغويَّة اللفظيَّة التشكيليَّة بصورة مباشرة؛ إلَّا أنَّ البحث قد خاض في غمار المعنى، وأظهر ما أظهر من صور التعبير المعنويَّة المرتبطة بالصور الكلاميَّة اللفظيَّة، وكانت كلُّها مأخوذة بفهم النصِّ الشريف فهمًا لغويًّا أصيلًا، حتَّى يكون لظهور المعاني منها شكلًا مهمًّا من أشكال التعبير العربيّ الرصين.

وآخر دعوانا أن الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم وعليّ الأمين وفاطمة الزَّهراء البتول والحسنَين السِّبطَين الكريمَين وآلهم الأطهار الأطياب.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. الاحتجاج: أبو منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ (ت حوالي ٦٢٠هـ)، تعليقات وملاحظات: السيِّد محمَّد باقر الخرسان، مركز الأبحاث العقائديَّة، مطابع النعمان، النجف الأشرف، ١٩٦٦.

٢. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: محمَّد بن محمَّد بن النعمان المفيد (ت٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، دار المفيد للطباعة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ.

٣. الأوائل: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكريّ (ت نحو ٣٩٥هـ)، دار البشير، طنطا، مصر، ط١، ١٤٠٨ هـ.

٤. بحار الأنوار: الشيخ محمَّد باقر المجلسيّ (ت١١١١هـ)، مؤسَّسة الوفاء، بيروت، ط٢ المصحَّحة، ١٩٨٣.

٥. بلاغات النساء: أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور (ت٢٨٠هـ)، صحَّحه وشرحه: أحمد الألفيّ، مطبعة مدرسة والدة عبَّاس الأوَّل، القاهرة، ١٩٠٨.

٦. البلاغة الاصطلاحيَّة: د. عبده عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ١٩٨٩.

٧. بنية الجملة العربيَّة بين النظريَّة والتطبيق: المنصف عاشور، سلسلة اللسانيَّات، منشورات كليَّة الآداب (منوبة)، تونس، ط١، ١٩٩١.

٨. تاج اللغة وصحاح العربيَّة: أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد الجوهريّ الفارابيّ (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطَّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧.

٩. التعريفات: عليّ بن محمَّد بن عليّ الزين الشريف الجرجانيّ (ت٨١٦هـ)، ضبطه وصحَّحه: جماعة من العلماء، دار الكتب العلميَّة بيروت، ط١، ١٩٨٣.

١٠. الجمل المحتملة للاسميَّة والفعلية، د. محمَّد رزق شعير، مكتبة جزيرة الورد، مصر.

١١. الجنى الداني في حروف المعاني: أبو محمَّد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المراديّ المصريّ المالكيّ (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، وأ. محمَّد نديم فاضل، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٩٩٢.

١٢. حاشية الصبَّان على شرح الأشمونيّ لألفيَّة ابن مالك: أبو العرفان محمَّد بن عليّ الصبَّان الشافعيّ (ت١٢٠٦هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

١٣. حروف المعاني والصفات: عبد الرحمن بن إسحاق البغداديّ النهاونديّ الزجَّاجيّ، أبو القاسم (ت٣٣٧هـ)، تحقيق: عليّ توفيق الحمد، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٤.

١٤. حياة الحيوان الكبرى: محمَّد بن موسى بن عيسى بن عليّ الدميريّ، أبو البقاء، كمال الدين الشافعيّ (ت٨٠٨هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ.

١٥. دلائل الإعجاز في علم المعاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمَّد الفارسيّ الأصل، الجرجانيّ الدار (ت٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمَّد شاكر أبو فهر، مطبعة المدنيّ بالقاهرة، دار المدنيّ بجدَّة، ط٣، ١٩٩٢.

١٦. الصاحبيّ في فقه اللغة العربيَّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها: أحمد بن فارس بن زكريَّاء القزوينيّ الرازيّ، أبو الحسين (ت٩٥هـ)، مطبعة محمَّد عليّ بيضون، ط١، ١٩٩٧.

١٧. العقد الفريد: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمَّد بن عبد ربَّه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربَّه الأندلسيّ (ت٣٢٨هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

١٨. علم المعاني: عبد العزيز عتيق، دار الآفاق العربيَّة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦.

١٩. في النحو العربيّ نقد وتوجيه: د. مهدي المخزوميّ (ت١٩٩٣م)، دار الرائد العربيّ، بيروت، ط٢، ١٩٨٦.

٢٠. اللمع في العربيَّة: أبو الفتح عثمان بن جنِّي الموصلِّيّ (ت٣٩٢هـ)، تحقيق: فائز فارس، دار الكتب الثقافيَّة، الكويت، ط١.

٢١. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: نصر الله بن محمَّد بن محمَّد بن عبد الكريم الشيبانيّ، الجزريّ، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (ت٦٣٧هـ)، تحقيق: محمَّد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريَّة للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٢٢. مجمع البحرين ومطلع النيِّرين: فخر الدين الطريحيّ (ت١٠٨٥هـ)، تحقيق: السيِّد أحمد الحسينيّ، مكتبة المرتضويّ، طهران، ط٢، ١٣٦٥هـ.

٢٣. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيميّ الرازي الملقَّب بفخر الدين الرازي، خطيب الري (ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٢٤. المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمَّد المعروف بالراغب الأصفهانيّ (ت٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداوديّ، دار القلم، بيروت، والدار الشاميَّة، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ.

٢٥. المنجد الوسيط في العربيَّة المعاصرة: صبحي حموي، دار المشرق، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.

٢٦. الموجز في قواعد اللغة العربيَّة: سعيد بن محمَّد بن أحمد الأفغانيّ (ت١٤١٧هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.

٢٧. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطيّ (ت٩١١هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقيَّة، مصر.

تشكيلات الصورة البديعيَّة في الخطبة الفدكيَّة

م.د. فاطمة عبد زيد شوين الخزاعيّ
جامعة الكوفة/ كليَّة التربية الأساسيَّة

الملخَّص

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسَّلامُ على سيِّد الأنام، النبيِّ المصطفى محمَّد وعلى آله الطيِّبين وأصحابه الغرِّ الميامين.

تعدُّ الصورة من أهمِّ المكونات التي يعتمد عليها الفنَّان المبدع في رسم أفكاره على شكل لوحة أدبيَّة فنيَّة، فهي تشكيل لغويّ لعوالم ذهنيَّة يكون الخيال مصدرها الأوَّل؛ لأنَّها تمتلك إمكانيَّة تأثير واسعة تحرِّك الذهن وتشدُّ المتلقي لتتبُّع إنتاج المبدع، خصوصًا إذا تطبَّق هذا الفن الإبداعيّ في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، التي أثبتت فيها اعتراضها على من انتزع فدكًا منها، باستعمالها لمجموعة من التشكيلات الفنيَّة التي تُلفت انتباه المتلقِّي وتؤثِّر في ذهنه.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج الجماليّ البلاغيّ في تحقيق أهداف الدراسة، وعليه فقد قسَّمت البحث على:

- تمهيد، تحدَّثت فيه عن مفهوم الصورة.
- فقرات، تناولت في الفقرة الأولى الجناس، وفي الثانية الطباق، وفي الثالثة السجع، وفي الرابعة المقابلة، وفي الخامسة الاقتباس.

ثمَّ أنهيت البحث بخاتمة لخَّصت فيها أهـمَّ نتائج البحث، وثبت للمصادر والمراجع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

الكلمات المفتاحيَّة: السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، الخطبة الفدكيَّة، الصورة البديعيَّة، التشكيلات الفنيَّة، إثبات الحقِّ، التأثير في المتلقِّي وجذب انتباهه.

المقدِّمة

الحمدُ للهِ حقَّ حمده كما يستحقُّ جلال وجهه الكريم، والصلاة والسلام على خيرته من خلقه أجمعين، نبيِّه الأمين وعلى آله الطيِّبين الطاهرين.

أمَّا بعد:

فتعدُّ الصورة من أهمِّ المكونات التي يعتمد عليها الفنَّان المبدع في رسم أفكاره على شكل لوحة أدبيَّة فنيَّة، فهي تشكيل لغويّ لعوالم ذهنيَّة يكون الخيال مصدرها الأوَّل؛ لأنَّها تمتلك إمكانيَّة تأثير واسعة تحرِّك الذهن وتشدُّ المتلقي لتتبُّع إنتاج المبدع، خصوصًا إذا تطبَّق هذا الفن الإبداعيّ في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، التي أثبتت فيها اعتراضها على من انتزع فدكًا منها، باستعمالها لمجموعة من التشكيلات الفنيَّة التي تُلفت انتباه المتلقِّي وتؤثِّر في ذهنه.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج الجماليّ البلاغيّ في تحقيق أهداف الدراسة، وعليه فقد قسَّمت البحث على:

- تمهيد، تحدَّثت فيه عن مفهوم الصورة.
- فقرات، تناولت في الفقرة الأولى الجناس، وفي الثانية الطباق، وفي الثالثة السجع، وفي الرابعة المقابلة، وفي الخامسة الاقتباس.

ثمَّ أنهيت البحث بخاتمة لخَّصت فيها أهمَّ نتائج البحث، وثبت للمصادر والمراجع.

وآخر دعوانا أن الحمد للهِ ربِّ العالمين.

التمهيد

الصورة لغةً

«الصورة في الشكل، والجمع صور، وقد صوَّره فتصوَّر، وتصوَّرت الشيء توهَّمت صورته، فتصوَّر لي، والتصاوير، التماثيل»[1].

الصورة اصطلاحًا

مفهوم الصورة الشعريَّة ليس من المفاهيم البسيطة السريعة التحديد، بل لا بدَّ للدارس من معرفة عوامل عدَّة تدخل في صنع الصورة، ومن هذه العوامل: التجربة والشعور والفكر والمجاز والإدراك والتشابه والدقَّة، فهي قضيَّة أدبيَّة معقَّدة؛ لأنَّ دراستها تُوقِع الدارس في مزالق العناية بالشكل، أو بدور الخيال، أو بدور موسيقى الشعر، كما هو في المدارس الأدبيَّة[2].

إذن الصورة مركبَّة ومعقَّدة، وتستعصي على الدارس، للوقوف على مفهوم الصورة الشعريَّة، وأهمِّ عناصرها التركيبيَّة[3].

الصورة عند القدامى

ترتقي الصورة عن باقي الأساليب الأدبيَّة عند أرسطو، حين يقول: «ولكنَّ أعظم

(١) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، مادة (ص.و.ر): ٢/ ٤٩٢.
(٢) ينظر: الصورة البلاغيَّة عند عبد القاهر الجرجانيّ منهجًا وتطبيقًا، أحمد عليّ دهمان، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، دمشق، ط١، ١٩٨٦: ٢٦٩-٢٧٠.
(٣) ينظر: جماليَّات الأسلوب- الصورة الفنيَّة في الأدب العربيّ، فايز الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٢، ١٩٩٦: ١٥.

الأساليب حقًّا هو أسلوب الاستعارة وهو آية الموهبة»[1].

أي يريد أن يربط الصورة بإحدى طرائق المحاكاة الثلاث، فضلًا عن ارتباطها بالخيال؛ لأنَّ الخيال هو الذي يحلِّق بالقارئ في الآفاق الرَّحبة، ويخلق له دنيا جديدة، وعوامل لا مرئيَّة تخرجه من العزلة والتقوقع.

والخيال عند أرسطو نوع من الجنون العلويّ، كذلك هو عند أفلاطون «الذي كان يعتقد أنَّ الشعراء مسكونون بالأرواح، وهذه الأرواح من الممكن أن تكون خيِّرة، كما يمكن أن تكون أرواحًا شرِّيرة»[2].

أمَّا أبو هلال العسكريّ فيقول: الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، بينما الجاحظ يرى: «أنَّ المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجميّ والعربيّ، والبدويّ والقرويّ، وإنَّما الشأن في إقامة الوزن وتخيُّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحَّة الطبع وجودة السبك، وإنَّما الشعر صياغة وضرب من التصوير»[3]. أمَّا السكاكيّ فقد اهتمَّ كثيرًا بالتفريعات، وأهمل الأصول، وكذا النصوص الإبداعيَّة، فأصبحت جهوده عبارة عن تقنين وتقعيد بعيدًا عن جوهر البلاغة وروحها[4].

وبعد هذا السِّجال العقيم في القيم النقديَّة، جاء عبد القاهر الجرجانيّ؛ ليضع القواعد الأساسيَّة في البناء النقديّ العربيّ، من فهمه لطبيعة الصورة، التي هي عنده مرادفة للنظم أو الصياغة، فنظريَّة النظم عنده لا تعني رصف الألفاظ بعضها بجانب بعض، بقدر ما تعني تَوَخِّي معاني النحو التي تخلق التفاعل والنماء داخل السياق.

(١) فن الشعر، أرسطو، ترجمة محمَّد شكري عيَّاد، دار الكتاب العربيّ، القاهرة، ١٩٦٧: ١٢٨.

(٢) فن الشعر، إحسان عبَّاس، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٥٩: ١٤١.

(٣) الحيوان، الجاحظ، عمرو بن بحر، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، (د.ط)، (د.ت): ١٣١-١٣٢.

(٤) ينظر: جماليَّات الأسلوب: ١٣.

وهنا نختم القول برأي شيخ البلاغيِّين عبد القاهر الجرجانيّ، الذي يربط الصورة بنظريَّة النظم والصياغة، وترتيب الأحداث بشكل سلسلة متواصلة؛ لينتج عنها صورة فنيَّة.

الصورة عند الغربيِّين

أوَّل من عرَّف الصورة من الغربيِّين الشاعر الفرنسي بيار ريفاردي (١٩٦٠)، قائلًا: «هي إبداع ذهنيّ صِرف، وهي لا يمكن أن تنبثق من المقارنة، وإنَّما تنبثق من الجمع بين حقيقَتَين واقعيَّتَين تتفاوتان في البُعد قلَّة وكثرة، ولا يمكن إحداث صورة المقارنة بين حقيقَتين واقعيَّتين بعيدَتين لم يَدْرِكُ ما بينهما من علاقات سوى العقل»(١).

أمَّا كولريدج فيربط الصورة بالخيال، فبواسطة فاعليَّة الخيال ونشاطه: «تنفذ الصورة إلى مُخيَّلة المتلقِّي فتنطبع فيها بشكلٍ معيَّن وهيئة مخصوصة، ناقلةً إحساس الشاعر تجاه الأشياء، وانفعاله بِها، وتفاعله معها»(٢).

وعليه يمكننا القول إنَّ الصورة الشعريَّة تشكيل فنِّي مترابط بعضه مع بعض، أساسه الخيال والحواس.

الصورة عند العرب المحدثين

اتَّسع مفهوم الصورة، وأصبح أكثر انتشارًا، وأكثر تفرُّعات ممَّا كان عليه سابقًا، «فأصبح يشمل كلَّ الأدوات التعبيريَّة ممَّا تَعوَّدنا على دراسته ضمن علم البيان والبديع والمعاني والعَروض والقافية والسَّرد وغيرها من وسائل التعبير الفنِّيّ»(٣)، و«الشكل

(١) معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، (د.ط)، ١٩٧٤: ٢٣٧.
(٢) الخيال الشعريّ وعلاقته بالصورة الشعريَّة، الأخضر عيكوس، مجلَّة الآداب، عدد ١، ١٩٩٤: ٧٧
(٣) الصورة الشعريَّة في الخطاب البلاغيّ والنقديّ، الولي محمَّد، المركز الثقافّي العربيّ، بيروت، ط١، ١٩٩٠: ١٠.

الفنِّيّ الذي تتَّخذه الألفاظ والعبارات، يَنظِمها الشاعر في سياق بيانيّ خاصّ؛ ليُعَبِّر عن جانب من جوانب التجربة الشعريَّة الكامنة في القصيدة، مستخدمًا طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفنيّ.. والألفاظ والعبارات هي مادَّة الشاعر الأولى التي يَصُوغ منها ذلك الشكل الفنِّيّ، أو يرسم بها صوره الشعريَّة»[1].

فالصورة عند المحدثين لم تكن قاصرة على الفنون البلاغيَّة، بل تشمل الجانبين الشعوريّ والوجدانيّ، وتُستعمل: «عادةً للدلالة على كلِّ ما له صلة بالتعبير الحسِّيّ، وتطلق أحيانًا مرادفة للاستعمال الاستعاريّ للكلمات، فيقول مصطفي ناصيف: «إنَّ لفظ الاستعارة إذا أُحسِن إدراكه قد يكون أَهْدَى من لفظ الصورة»[2]، وهذا ما أكَّده أحمد عليّ دهمان قائلًا: «إنَّه قَصَرَ الدِّلالة على الاستعمال المجازيّ، مع أنَّ كثيرًا من الصور لا نصيب للمجاز فيها، وهي مع ذلك صور رائعة، خِصبة الخيال، ثَرَّة العاطفة، وتدلُّ على قدرة الأديب على الخلق أيضًا»[3].

فتعريف الصورة هنا لا يبتعد كثيرًا عن تعاريف القدامى، ألَّا أنَّها اتَّسعت أفقيًّا، فاشتملت الجوانب الشعوريَّة والخياليَّة، فهي: «واسطة الشعر وجوهره، وكلُّ قصيدة من القصائد وحدة كاملة، تَنْتَظِمُ في داخلها وحدات متعدِّدة هي لَبِنَات بنائها العام، وكلُّ لَبِنَة من هذه اللبنات تشكِّل مع أخواتها الصورة الكليَّة التي هي العمل الفنِّيّ نفسه»[4].

(١) الاتِّجاه الوجدانيّ في الشعر العربيّ المعاصر، عبد القادر القط، دار النهضة العربيَّة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨١: ٣٩١.

(٢) الصورة الأدبيَّة، مصطفى ناصف، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٩٨٣: ٣-٥.

(٣) الصورة البلاغيَّة عند عبد القاهر الجرجانيّ: ٢٦٩-٢٧٠.

(٤) مقدِّمة لدراسة الصورة الفنيَّة، نعيم اليافي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ، دمشق، (د.ط)، ١٩٨٢: ٣٩-٤٠.

المبحث الأوَّل

الصور البيانيَّة

قبل الولوج في الفنون البيانيَّة التي استعملتها الزَّهراء عليها السلام في خطبتها، لا بدَّ من معرفة أنَّ البيان يعدُّ من الطرق التي توصل إلى دلالة النصوص، وتشرح عباراتها شرحًا بلاغيًّا، يتمكَّن فيها الملقي من توصيل غرَضه للمتلقِّي بطرق مختلفة، مرَّة تكون عن طريق التشبيه، ومرَّة أخرى عن طريق الاستعارة، أو عن طريق الكناية.

الصورة التشبيهيَّة في خطبة الزَّهراء عليها السلام

التشبيه لغةً:

التمثيل أو المماثلة، يُقال شبَّهت هذا بهذا تشبيهًا، أي مثَّلته بـه[1]، فـ«الشبه والشِّبه والشبيه: المثل، والجمع أشباه، وأشبه الشيء ماثله..»[2]، والتشابه المقصود به الاستواء[3]، وهو في الاصطلاح عقد مقارنة بين أمرَين أو أكثر، قصد اشتراكهما في صفة أو أكثر[4].

(١) ينظر: لسان العرب، مادَّة (شبه): ٨/ ٤٢١.
(٢) المصدر نفسه: ٨/ ٤٢٢.
(٣) ينظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي، تحقيق: التراث في مؤسَّسة الرسالة، مؤسَّسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د.ط)، ٢٠٠٥، مادَّة (شبه): ٤/ ٢٨٦.
(٤) ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبديع والبيان، أحمد الهاشميّ، تحقيق: محمَّد رضوان مهنَّا، مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط١، ١٩٩٩: ٢٠٥.

ويعدُّ التشبيه أحد فنون علم البيان الذي يعدُّ بدوره أحد علوم البلاغة؛ إذ من المعروف أنَّ البلاغة العربيَّة مقسَّمة على ثلاثة علوم، هي علم البيان وعلم البديع وعلم المعاني، وإنَّ: «أغلب الأساليب البلاغيَّة ولاسيما فنون البيان، ما هي إلَّا إستراتيجيَّات وآليات وميكانيزمات ذهنيَّة بها يدرك الإنسان معنى الأشياء من حوله»(١). وتعمل هذه الإستراتيجيَّات على تقريب المعنى الذي يطلقه المرسل إلى المتلقِّي، أي إنَّه آلية يشترك في إنتاجها طرفَا الخطاب، وذلك عندما يكون المشبّه مجهولًا نوعًا ما، فيقوم المرسل بتشبيه بما هو معروف لدى أغلب المخاطَبين، فتكون المشابهة «من الآليات التي ينظِّم الذهن إدراكه للموضوعات»(٢). فالتشبيه يمكِّن المرسل من إيصال ما يشعر به إلى المتلقِّي، إذ إنَّ «المشابهة ليست قائمة في الأشياء، بل في تفاعلنا مع هذه الأشياء»(٣)؛ لأنَّ الأشياء في العالم «ليست معزولة أو مستقلَّة بعضها عن بعض، بل هي مشابهة لأشياء أخرى»(٤)، وهنا «ينطلق المتلقِّي في صياغة افتراضاته من خلال البنية التي تعتمد مبدأ المشابهة، الذي يسمح بتشكيل صورة عن الإنتاج الإبداعيّ في سياقٍ ما، هذه البنى المتشابهة تصبح فضاءً لبناء افتراضات مسبقة تتعلَّق بالمحتوى المنتج أو الموضوع»(٥).

ومن الصور التشبيهيَّة التي وردت في الخطبة، قولها: «**وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ، مُذْقَةَ الشَّارِبِ، وَنُهْزَةَ الطَّامِعِ، وَقُبْسَةَ العَجْلَانِ، وَمَوْطِئَ الأَقْدَامِ، تَشرَبُونَ الطَّرَقَ،**

(١) علم الدلالة الإدراكيّ المبادئ والتطبيقات، دلخوش جار الله حسين دزهيي، مجلَّة الآداب، العدد ١١٠، ٢٠١٤: ٢٠٥.

(٢) بنيات المشابهة في اللغة العربيَّة، مقاربة معرفيَّة، عبد الإله سليم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠١: ٧.

(٣) دراسات نظريَّة وتطبيقيَّة في علم الدلالة العرفانيّ، محمَّد صالح البو عمران، دار نهى، صفاقس، ط١، ٢٠٠٩: ١٢٤.

(٤) المصدر نفسه: ١٣

(٥) تداوليَّة النصِّ الشعريّ جمهرة أشعار العرب إنموذجًا، شيتر رحيمة، أطروحة دكتوراه، أشرف عبد القادر دامخي، جامعة الحاج الخضر باتنة، (د.ط)، ٢٠٠٨-٢٠٠٩: ٢٦٠.

وَتَقتَاتُونَ الوَرَقَ، أَذِلَّةً خَاسِئِينَ، تَخَافُونَ أنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسَ مِنْ حَوْلَكُمْ، فَأَنْقَذَكُم اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالتِي»[1]، في هذا النصِّ وصفت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام العرب بثلاثة تشبيهات، وهي: «**مذقة الشارب، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام**»، حذفت فيها الأداة ووجه الشبه، وهذا النوع يسمَّى بالتشبيه البليغ، وهو تشبيه مفرد بمفرد، حسيٍّ لِحسيٍّ، ووجه الشبه عقليّ، والصورة بصريَّة، ففي المقطع الأوَّل: وصفتهم بـ: مذقة الشارب، وهي «شربة من اللبن الذي خلط بماء»[2]، فهم من الضعف والوهن لا يستطيعون ردَّ أي اعتداء، بل هم في موضع ذلَّة، وهذا يمكِّن منهم أعداءهم بسهولة كشربة اللبن، أمَّا التشبيه الثاني أيضًا فتحدَّثت فيه عن ضعفهم وهوانهم، وشبَّهتهم هنا بـ«قبسة يأخذها العجلان بسرعة وسهولة»، وفي التشبيه الثالث شبَّهتهم بـ(موطئ الأقدام)، الذي يعني الوضاعة والدنوِّ بمراتب الشرف والعزَّة والغلبة، وهم بهذه الصفات لم يرتقوا إلى الأقوام الأخرى، كالروم والفرس، الذي كانوا أصحاب ملك ونفوذ، فضلًا عن قوَّتهم المشهودة وحضارتهم، أمَّا العرب فقد كانوا يعتمدون على قطع الطرق والنهب واحتكار القبائل الفقيرة، وهي بهذا التشبيه والوصف أرجعتهم إلى ما كانوا عليه قبل أن يأتي الرسول صلى الله عليه وآله وينقذهم من طرقهم غير المنظَّمة. وفي صورة تشبيهيَّة أخرى تقول: «**وَنَصبِرُ مِنْكُم عَلَى مِثلِ حَزِّ المُدَى**»، وهو تشبيه عقليّ، والصورة بصريَّة[3]، هنا رسمت لنا الزَّهراء عليها السلام صورة تشبيهيَّة مؤثِّرة، تبيِّن فيها ما تعرَّضت له مع آل بيتها عليهم السلام من آذى وظلم واضطهاد على إيدي أمَّة أبيها صلى الله عليه وآله، فشبَّهت الأذى بـ(ألم حزِّ السكاكين)، وفي الحقيقة الألم غير محسوس، ولا يمكن أن نشاهده بالعين، لكن يمكن مشاهدة أثاره وأدراكه بعين البصيرة. وفي صورة تشبيهيَّة أخرى تقول عليها السلام: «**وَطَاعَتُنَا**

(١) أنوار الزَّهراء، حسن الأبطحيّ، ترجمة: ناصر النجفيّ، مؤسَّسة النبراس، العراق، النجف الأشرف، ط١، ٢٠٠٣.
(٢) لسان العرب، مادَّة مذق: ١٠/ ٣٤٠.
(٣) أنوار الزَّهراء: ٥٢.

نِظَامًا لِلمِلَّةِ»[1]، وهي صورة عقليَّة والتشبيه بليغ، بيَّنت فيها طاعة أهل البيت عليهم السلام، وشبهتها بالنظام، فطاعتهم واجبة لا يمكن أن نساويها بطاعة غيرهم، إذ إنَّها أصبحت دستورًا تسير به الأمَّة حتَّى لا تخرج عمَّا رسمه لها القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وآله.

الصورة الاستعاريَّة في خطبة الزَّهراء عليها السلام

الاستعارة لغةً:

مأخوذة من العارية[2]: وهو اسم من الإعارة، أي نقل الشيء من شخص إلى آخر، لتصبح تلك العارية من خصائص المعار إليه[3]، واستعرنا الشيء واعتورناه وتعاورناه بمعنى واحد[4]، وهي في الاصطلاح استعمال اللفظ في غير ما وُضِع له لعلاقة (المشابهة) بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصليّ، والاستعارة ليست إلَّا تشبيهًا مختصرًا، لكنَّها أبلغ منه. وتتألَّف الاستعارة من ثلاثة أركان، هي: مستعار منه، ومستعار له، ومستعار، فأصل الاستعارة: تشبيه حذف أحد طرفيه[5]، فإذا حُذف المشبَّه سمِّيت تصريحيَّة، وإذا حُذف المشبَّه به سمِّيت مكنيَّة، وفي الاستعارة يتجلَّى التفاعل بين المرسل والمرسل إليه، ففي الاستعارة تتوالد الألفاظ وتتكاثر عن طريق تغيير علاقات الألفاظ مع بعضها في داخل السياقات[6]، إذ إنَّ «المتلفِّظ بالاستعارة يجمع في ذات التركيب بين عالمي ثقافتَين مختلفَتين: عالم ثقافة

(١) أنوار الزَّهراء: ٥٢.

(٢) ينظر: القاموس المحيط، مادَّة (عور): ٣/ ١٧٨.

(٣) ينظر: تاج العروس، مرتضى الزبيديّ، جماعة من المختصِّين، وزارة الإرشاد، الكويت، دار إحياء التراث، (د.ط)، ٢٠٠١، مادَّة (عور): ٧/ ٢٧٥٠.

(٤) ينظر: لسان العرب، مادَّة (عور): ١٠/ ٦١٤.

(٥) ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبديع والبيان: ٥٨.

(٦) ينظر: النظريَّة الإدراكيَّة وأثرها في الدرس البلاغيّ الاستعارة أنموذجًا، الصالح بن الهادي رمضان، (د.ط)، ١٤٣٩: ٨٢٨

المستعار وعالم ثقافة المستعار له»[1]، فعند استعارة لفظ من موضوع لموضوع آخر، فإنَّنا نقوم بإرادة الموضوعَين معًا، وكأنَّنا نرسم لوحة سوريالِيَّة تتضمَّن الموضوعَين معًا، وتحتاج إلى إعمال الذِّهن، أو قارئ جيِّد لفهمها، والتلذُّذ بتركيب الموضوعَين.

ومن الاستعارات التي جاءت في خطبة الزَّهراء عليها السلام قولها: «**أَسْفَرَ الحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ**»[2]، هنا استعارة مكنيَّة، إذ شبَّهت الحقَّ المعنويّ بالصبح إذا أسفر المادِّيّ، فحذفت المشبَّه به (الصبح)، ودلَّت عليه بشيء من لوازمه الفعل (أسفر)، إذ يمكننا القول أسفر الصبح بمعنى أضاء، فتتجسَّد صورة بصريَّة مجازية تبيِّن ظهور الحقِّ الخالص من أي شوائب.

وفي صورة استعاريَّة أخرى تقول: «**وَبَعدَ أنْ مُنيَ بِبُهَمِ الرِّجَالِ، وَذُؤبَانِ العَرَبِ، وَمَرَدَةِ أَهْلِ الكِتَابِ. كُلَّمَا أوقَدُوا نَارًا لِلحَرْبِ أَطفَأَهَا اللهُ، أَوْ نَجَمَ قَرْنٌ لِلشَّيطَانِ، أَو فَغَرَتْ فَاغِرَةٌ مِنَ المُشرِكِينَ. قَذَفَ بِأخِيهِ فِي لَهَوَاتِهَا، فَلَا يَنْكَفِئُ حَتَّى يَطَأَ صِمَاخَهَا بِأخْمَصِهِ، وَيُخْمِدَ لَهَبَهَا بِسَيْفِهِ، مَكدُودًا فِي ذَاتِ اللهِ، مُجتَهِدًا فِي أَمرِ اللهِ، قَرِيبًا مِنْ رَسُولِ اللهِ، سَيِّدًا فِي أَوْلِيَاءِ اللهِ**»[3]، ثلاث صور استعاريَّة ترسم لنا لوحة فنيَّة بليغة لثلاثة محاور، المحور الأوَّل تشبيه المشركين بالحيوانات من حيث البلادة والغباء، وبالوحش الكاسر من حيث العداء، وهي استعارة مكنيَّة حسيَّة بجامع عقليّ حُذِف فيها المشبَّه به (الوحش)، ودلَّ عليه بلفظ (فغرت فاغرة)، و(لهواتها)، والمقصود من هذه الاستعارة الشرُّ والخطر الذي ينجم من أعداء الإسلام، أمَّا المحور الثاني فقد رسمت صورة الإمام عليّ عليه السلام وشبَّهته بالسهم الخارق، وهي استعارة مكنيَّة حسيَّة بجامع عقليّ حُذف فيها المشبَّه به، ودلَّ عليه بلفظ (قذف)، فالقذف بالسهم

(١) نظرية الأدب رونيه ويليل ووارن أوستين، تحقيق: عادل سلامة، دار المرِّيخ للنشر، الرياض، (د. ط)، ١٩٩١: ٢٥٥.

(٢) أنوار الزَّهراء: ٥٢.

(٣) المصدر نفسه: ٥٢.

والحصى[1]، والمقصود بهذه الاستعارة القوَّة والسرعة من جهة، والقضاء على الأعداء من جهة أخرى، وعليّ عليه السلام كان له الأثر الأكبر في القضاء على الشَّرك والمشركين، ووصفته الزَّهراء عليها السلام بأنَّه لا ينكفئ حتَّى يطأ صماخها بأخمصه، «والصماخ هو ثقب الأذن أو الأذن نفسها»[2]، والأخمص هو ما لا يصيب الأرض من باطن القدم عند مشيها، فقد كان عليّ يردُّ عنه كتائب المشركين وعصابات المنافقين، فكان عليه السلام يخاطر بحياته، ويغامر بنفسه، ويستقبل أولئك الذؤبان المفترسة وحده، ويخوض غمار الحرب، عندما يأمره الرسول صلى الله عليه وآله بذلك، وتكتمل الصورة بالمحور الثالث، الذي صوَّرت به الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله برامٍ بارعٍ للسهم، يصيب الهدف في قلبه، وهي استعارة مكنيَّة حسيَّة، والجامع بينهما عقليّ، حذفت فيها المشبَّه به، وأبقت المشبَّه، ودلَّ على المشبَّه به لفظ (قذف)، وهنا تكتمل صورة القتاليَّة المتحرِّكة بثلاث استعارات، المقاتل فيها الرسول صلى الله عليه وآله، فهو رامٍ بارع، وعليّ عليه السلام سهمه، والمشركون الوحش المقتول.

لقد كان الغرض من هذا التركيب الثلاثيّ في الاستعارات، هو الدفاع عن الإمام عليّ عليه السلام، وبيان دوره ومكانته في بناء الإسلام، وحقِّه في الخلافة بعد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وحقّها في حمل الرسالة الإسلاميَّة بعد والدها رسول الله صلى الله عليه وآله، فضلًا عن إظهار ما ألمَّ بها من حزن؛ لما لاقته بعد رحيل أبيها، فقد أظهرت ذلك بصور بلاغيَّة مؤثِّرة في المتلقِّي.

أمَّا قولها عليها السلام: «**أَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله أَبِي يَقُولُ: «الْمَرْءُ يُحْفَظُ فِي وُلْدِهِ»؟ سُرْعَانَ مَا أَحْدَثْتُمْ، وَعَجْلَانَ ذَا إِهَالَةٍ.. أَتَقُولُونَ مَاتَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله، فَخَطْبٌ جَلِيلٌ اسْتَوْسَعَ وَهْنُهُ، وَاسْتَنْهَرَ فَتْقُهُ.. وَأَظْلَمَتِ الأَرْضُ لِغَيْبَتِهِ.. وَأَكْدَتِ الآمَالُ، وَخَشَعَتِ الجِبَالُ، وَأُضِيعَ**

(١) ينظر لسان العرب، مادَّة قذف: ٩/ ٢٧٦.

(٢) ينظر: فنون التصوير البيانّي، توفيق الفيل، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٩٨٧: ١٤٣.

الحَرِيمُ، وَأُزِيلَتِ الحُرْمَةُ عِندَ مَمَاتِهِ»[1]، فهو استعارة مكنيَّة حسيَّة الأطراف، ذات رابط عقليّ جمع بين طرفَيها الحسيَّان، حُذف فيها المشبَّه به الأرض المقفرة، ودلَّ عليه لازمه الفعل أحدثتم، رسمت لنا الزَّهراء عليها السلام صورة بليغة شبَّهت فيها الأنصار بالأرض المقفرة التي لا ينبت فيها خضار، ولا يصل لها ماء، وفي هذا الموجز البلاغيّ وصفت لنا السيِّدة الزَّهراء عليها السلام حال الأنصار بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وآله، فهم لا خير فيهم ولا منفعة، ولا يمكنهم نصرتها ولا نصرة خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، الإمام عليّ عليه السلام، وبمثل هذه الاستعارة المدروسة الأطراف، أثبتت الزَّهراء عليها السلام تلازم صفة التخاذل والهوان والضعف، ثمَّ أردفت هذه الصورة الاستعاريَّة بصورة أخرى بيَّنت فيها تفجُّعها بعظيم مصيبة وفاة والدها صلى الله عليه وآله، بقولها: «**فخطبٌ جليل**»، فقد استعارت كلمة (النهر)، وأضفتها إلى (الخطب الجليل)، وهي استعارة مكنيَّة حُذف فيها المشبَّه به (النهر)، ودلَّ عليه شيء من لوازمه، وهو (استنهر)، وذكرت المشبَّه (الخطيب الجليل)، وهي استعارة حسيَّة عقليَّة، فأرادت أن تقول اتَّسعت عليهم المصائب والمحن كاتِّساع النهر، ولتثبت ما أتت به توثِّق كلامها بحجَّة ثابتة مقتبسة من القران الكريم، في قولها: «**وأظلمَّت الأرض لغيبته**»، وهي استعارة مكنيَّة حسيَّة بجامع عقليّ للطرفَين، حُذف فيها المشبَّه به (السماء)، وذكر المشبَّه (الأرض)، وفي الحقيقة الأرض لا تظلمُّ وإنَّما تكتسب الظلام من السماء حين تغيب الشمس، وقد أرادت بهذه الاستعارة أن تبيِّن لنا صورة الظلام والظلم الذي حلَّ بهم بعد رحيل والدها رسول الله صلى الله عليه وآله، وما جرى على آل البيت عليهم السلام بعد رحيله.

ولبيان شدَّة المصيبة، مصيبة رحيل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، جاءت في استعارة مكنيَّة حسيَّة، إذ قالت: «**وأكدت الآمال، وخشعت الجبال**»، فهنا تشبه الجبال برجل فُجع بحبيبٍ له، فقد حذفت المشبَّه به (الرجل)، ودلَّت عليه بشيء من لوازمه (الخشوع)،

(١) أنوار الزَّهراء: ٥٢.

والمشبَّه (الجبال)، أدَّت الآمال انقطعت، ولا يمكن أن تلتحم مرَّة أخرى، وهي أيضًا استعارة مكنيَّة أخرى حُذِف فيها المشبَّه به، أرادت بها بيان حال الأمَّة الإسلاميَّة، وحال الدين الإسلاميّ بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله، فضلًا عن الهدف الرئيس، وهو بيان عظيم مصيبة فراق أبيها صلى الله عليه وآله وشدَّته، مصيبة ما أعظمها وما أعظم آثارها في الإسلام والمسلمين، وعلى آل البيت عليهم السلام.

الصورة الكنائيَّة في خطبة الزَّهراء عليها السلام

الكناية لغةً:

مصدر كنا يكنو أو كنى يكني، أي تكلَّم بما يستدلُّ به عليه، أو تتكلَّم بشيء وأنت تريد غيره، وهي مشتقَّة من الستر، وبذلك تدخل الكنية في الكناية[1]. وهي في **الاصطلاح**: لفظٌ أُريد به غير معناه الذي وُضع له، مع جواز إرادة المعنى الأصليّ؛ لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته، وتنقسم الكناية بحسب المعنى الذي تشير إليه على ثلاثة أقسام، أوَّلها: كناية عن صفة، وتعرَف بذِكر الموصوف ملفوظًا أو ملحوظًا من سياق الكلام، وثانيها: كناية عن موصوف، وتعرَف بذِكر الصفة مباشرة أو ملازمة، وثالثها: كناية عن نسبة، وهي الكناية التي يُراد بها نسبة أمر لآخر إثباتًا أو نفيًا، فيكون المكنَّى عنه نسبة، أُسندت إلى ما له اتصال به[2].

ومن الكنايات التي استعملتها السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، قولها: «**تَعرِفُوهُ تَجِدُوهُ أَبِي دُونَ نِسَائِكُمْ، وَأَخَا ابْنِ عَمِّي دُونَ رِجَالِكُمْ، فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، صَادِعًا بِالنِّذَارَةِ، مَائِلًا عَنْ مَدْرَجَةِ الْمُشرِكِينَ، ضَارِبًا ثَبَجَهُمْ، آخِذًا بِأَكْظَامِهِمْ**»[3] في عبارات موجزة قدَّمت الزَّهراء عليها السلام صورة كناية متكاملة (كناية عن صفة)، بيَّنت فيها قرابتها من الرسول صلى الله عليه وآله، وحصرها بها

(١) ينظر: لسان العرب: ١٥/ ٢٣٣، وينظر: القاموس المحيط: ٤/ ٩٤.
(٢) ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبديع والبيان: ٣٨٦.
(٣) أنوار الزَّهراء: ٥٢.

فقط دون غيرها من سائر الخلق، وقد استعملت هذا الأسلوب البلاغيّ بشكل مترادف إذ استعملت أكثر من كناية في النصِّ من أجل التوكيد، وقرع مسامع المتلقِّين، بالرغم من أنَّهم لا ينكرون هذا الصلة، لكنَّهم أنكروا حقَّها، فأرادت أن تعيدهم للصواب بأسلوب بلاغيّ مؤثِّر يبيِّن قرابتها وحقّها وفضلها عليهم، ففضلها عليهم باديًا لا ينكره منكر، ولا يمحوه جاحد، وهذا ما أكدت بقولها في كناية أخرى: «**أَيُّهَا النَّاسُ أَنِّي فَاطِمَةُ وَأَبِي مُحَمَّدٌ**ﷺ، **أَقُولُ عَوْدًا وَبَدْءًا**»[1]، تستعمل أسلوب التكرار في الأسلوب الكنائيّ من أجل التأكيد، فأكَّدت على ما قالته في كنايتها السابقة، مع أنَّ السامعين يعرفون من فاطمة ومن والدها ومن زوجها، كذلك هم على علم ودراية بحقِّها ومنزلتها التي كتبت لها بوجود والدها وبعده، فقالت: «**عَوْدًا وَبَدْءًا**»، أي عودة للكنايات السابقة، ولتذكيرهم بقرابة الإمام عليّ عليه السلام أيضًا من رسول اللهﷺ، تأتي بكناية أخرى استعملت فيها لفظة (الأخ) بقصديَّة تامَّة، ولم تستعمل لفظًا آخر، فلم تقل ابن عمه ولا زوج ابنته؛ لأنَّ هذه الصلة والقرابة هي قطعًا معروفة لدى الجميع، لكن أرادت بهذا اللفظ وبهذه الكناية أن تذكِّرهم بالخوَّة التي وصف بها الرسولﷺ الإمام عليّ عليه السلام بعدة، فكثيرًا ما كان يقولﷺ: هذا أخي، ثمَّ إنَّه آخى بينه وبين علي عليه السلام، فلم يتَّخذ أخًا غيره، حينما آخى بين المهاجرين والأنصار، وهذا حدُث تاريخيٌّ معروف لدى الجميع.

ولها كناية أخرى في الموضوع نفسه تقول فيها: «**كُلَّمَا أوقَدُوا نَارًا لِلحَرْبِ أَطْفَأَهَا، أَوَ نَجَمَ قَرْنٌ لِلشَّيطَانِ، أَو فَغَرَتْ فَاغِرَةٌ مِنَ المُشرِكِينَ، قَذَفَ أَخَاهُ فِي لَهَوَاتِهَا**»[2].

استعملت (أخاه) كناية عن صفة (الخوَّة) التي وصف بها الرسول الإمام عليّ عليه السلام في جملة من أحاديثه، ولعلَّ هذا السبب هو الذي جعل الزَّهراء عليها السلام تأكِّد على إثبات هذه الحجَّة الحقيقة الموثَّقة بأحاديث الرسولﷺ؛ لتكون ردًّا على من أنكر حقَّ الإمام

(١) أنوار الزَّهراء: ٥٢.
(٢) المصدر نفسه: ٥٢.

عليّ عليه السلام في الخلافة بعد رحيل أخيه وابن عمِّه، فحين ينكرون خلافة الإمام عليّ عليه السلام ينكرون أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله التي قالها في حقِّ الإمام عليّ عليه السلام، وتؤكِّد بكناية أخرى فتقول: «وأخا ابن عمِّي دون رجالكم)، فـ(ابن عمِّي) كناية عن صلة القرابة بينها وبين الرسول صلى الله عليه وآله، والإمام عليه السلام، وفي هذه الكناية استثناء لعليّ عليه السلام من دون الرجال، وحصرتها به؛ لأنَّه لا يوجد أحد على الإطلاق تربطه مثل هذه القرابة بالرسول صلى الله عليه وآله، هذا هو الأسلوب الكنائيّ الذي يكشف حقائق ومعاني كثيرة، باستعمال ألفاظ موجزة قليلة، يكدُّ فيها ذهن المتلقِّي للوصول إلى الحقيقة بعدَّة تأويلات وطرق، وهو أسلوب الارتقاء الحقيقيّ والبلاغيّ باللغة.

بعد أن بيَّنت الزَّهراء عليها السلام في الكنايات السابقة قربها ومكانتها، وقرب الإمام عليّ عليه السلام زوجها وابن عمِّها من رسول الله صلى الله عليه وآله، ذكرت أفضال رسول الله صلى الله عليه وآله عليهم، فهو الذي أخرجهم من الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية برسالته السماويَّة ودينه الذي قضى على الجهل والعنصريَّة والقبليَّة، وهزم المشركين، مُكنِّية عن دحضه وهزمه للكافرين بقولها: «**ضاربًا ثبجهم، آخذًا بأكظامهم**» و«(ثبجُ) كلِّ شيء: معظمه ووسطه وأعلاه»[1]، ويقال: «أخذتُ بكظمه، أي بمخرج نفسه»[2]. في هذه الكناية تبيِّن الزَّهراء عليها السلام موقف أبيها الرسول صلى الله عليه وآله من مواجهة المشركين ومحاربتهم ببسالة، وتحقيق النصر للدين الإسلاميّ، مستعملة كلمة (الثبج) في رسم صورة القضاء عليهم من جميع الجهات، ومثل هذه الصورة الكنائيَّة تبيِّن للمتلقِّي قوَّة الرسول وأصحابه من جهة، وأخبارهم بالقضاء على الكفر بشكلٍ تامٍّ من جهة أخرى، والحقيقة أنَّ الكنايات السابقة التي استعملتها الزَّهراء عليها السلام في بيان حقِّها ومقامها وحقِّ ابن عمِّها عليه السلام، وفضل أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله على أمَّته، سواء الصالحون منها أو غيرهم، ما هي إلَّا إثبات حقيقة أرادوا

(١) ينظر: لسان العرب، مادَّة ثبج: ٢/ ٢٢١.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، مادَّة كظم، ١٢/ ٥٢٠.

إجحافها أو طمسها، باغتصابهم لحقِّ الزَّهراء وحقِّ ابن عمِّها عليهما السلام، وأكَّدت ما قالته سابقًا بقولها: «**كُلَّمَا أوقَدُوا نَارًا لِلحَرْبِ أَطفَأَهَا اللهُ، أَوْ نَجَمَ قَرْنٌ لِلشَّيطَانِ، أَو فَغَرَتْ فَاغِرَةٌ مِنَ المُشرِكِينَ، قَذَفَ بِأَخِيهِ فِي لَهَوَاتِهَا، فَلَا يَنْكَفِئُ حَتَّى يَطَأَ صِمَاخَهَا بِأَخْمَصِهِ، وَيُخْمِدَ لَهَبَهَا بِسَيْفِهِ، مَكدُودًا فِي ذَاتِ اللهِ، مُجتَهِدًا فِي أَمرِ اللهِ، قَرِيبًا مِنْ رَسُولِ اللهِ، سَيِّدًا فِي أَوْلِيَاءِ اللهِ**»[1].

تميَّز أسلوب الزَّهراء عليها السلام البيانيّ (التشبيه، الاستعارة، الكناية)، بتطويع الألفاظ؛ لتقديم صورة متكاملة الأجزاء، متمكِّنة من استرداد أحداث الماضي القريب لذهن المتلقِّي، والتأثير فيه.

(١) أنوار الزَّهراء: ٥٢.

المبحث الثاني

الصورة البديعيَّة

استعملت الزَّهراء عليها السلام مجموعة من الفنون البديعيَّة التي تتناسب وحال العصر الذي عاشه؛ الهدف منها تزيين الكلام من أجل التأثير في المتلقِّي، أو من أجل تقوية المعنى، باستعمال الفنون البديعيَّة اللفظيَّة والمعنوية في النصِّ، ومن الفنون البديعيَّة التي كثر استعمالها في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام:

الاقتباس

يعدُّ الاقتباس لونًا من ألوان البديع، وواحدًا من المحسِّنات البلاغيَّة التي يعنى بها الشاعر والناثر على حدٍّ سواء، فالاقتباس: «تضمين الكلام شيئًا من القرآن أو الحديث، لا على أنَّه منه»[1]، أي بمعنى الاستشهاد ببعض النصِّ أو بكلمة منه دالَّة على ما اقتُبِس منه، سواء أكان قرآنًا أم حديثًا.

والاقتباس في أصله تقوية للنصِّ، وتوضيح للمعنى، بكلام تدعمه الحجَّة، وتثبته الأدلَّة، ويكون إمَّا حرفيًّا أو نصيًّا أو شعاريًّا[2].

ومن الاقتباسات القرآنيَّة التي وردت في الخطبة الفدكيَّة: «**وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون، وأنا ابنة نذيرٍ لكم بين**

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، محمَّد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي جلال الدين القزويني، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلميَّة، ط١، ٢٠٠٣: ٢/ ٥٧٥.

(٢) ينظر: أثر القران في الشعر الأندلسيّ منذ الفتح حتَّى سقوط الخلافة: ٤٨.

يدي»[1]، وهذا مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۚ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾[2].

كذلك قولها عليها السلام: «**فاتَّقوا اللهَ حقَّ تقاته ولاتَمُوتُنَّ إلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ، وَأطيعُوا اللهَ فيما أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهاكُمْ عَنْهُ، فَإِنَّه إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ**»[3]، مقتبَس من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[4]، ومن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ﴾[5]، وظَّفت الزَّهراء عليها السلام معاني الآيات الكريمة في خطبتها توظيفًا دلاليًّا بلاغيًّا مؤثِّرًا؛ الهدف منه التذكير بفضل الرسول صلى الله عليه وآله عليهم، وبيان حقِّها ومكانتها وحقِّ ابن عمِّها.

فضلًا عن ذِكرها آيات قرآنيَّة في أثناء خطبتها؛ لتقوية الحجَّة عليهم؛ لأنَّه لا يوجد حجَّة أقوى من القرآن الكريم، فلو أنكروها وأنكروا ابن عمِّها لا يمكن أن ينكروا القرآن وحجَّته عليهم، ومن الآيات التي ذكرتها الزَّهراء عليها السلام في خطبتها، قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[6]، ومن الآيات أيضًا قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾[7]، وغيرها كثير من الآيات التي ذكرتها نصًّا، أو تمَّ توظيف مضمونها في الخطبة.

(١) أنوار الزَّهراء: ٥٢.
(٢) سورة الشعراء: ٢٢٧.
(٣) أنوار الزَّهراء: ٥٢.
(٤) ال عمران: ١٠٢.
(٥) فاطر: ٢٨.
(٦) التوبة: ١٢٨.
(٧) المائدة: ٦٤.

الطِّباق

وتسمَّى الطباق والتطبيق والتكافؤ والتضادّ، وهي الفن الثالث من بديع ابن المعتز.

والطبقة هي: «الجمع بين المتضادَّين، أي متقابلين في الجملة، ويكون ذلك إمَّا بلفظَين من نوعٍ واحد»(١)، كقوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾(٢).

ومن الطِّباق الذي ورد في الخطبة قولها عليها السلام: «**مُنْكِرَةً للهِ مَعَ عِرْفَانِهَا، فَأَنَارَ اللهُ عزّ وجلّ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله ظُلَمَهَا، وَكَشَفَ عَنِ القُلُوبِ بُهَمَهَا، وَجَلَّى عَنِ الأَبصَارِ غُمَمَهَا**»(٣). طابقت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام بين مجموعة من الكلمات المتقابلة في المعاني في هذا النصِّ، ومنها: (منكرة، عرفانها)، و(أنار، ظلمها)، و(كشف، بهمها)، و(جلَّى، غممها). من الملاحَظ أنَّ الطباقات جميعها طباقات إيجابيَّة وقعت بين متقابلَين ثابتَين، الهدف منها تذكير الناس بما كانوا عليه من قبل، وما حدث لهم بمجيء الرسول بالدين الإسلاميّ، الدين الذي أخرجهم من ظلام الجاهليَّة والكفر إلى نور الهداية بالدين الإسلاميّ، دين أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله، فقابلت بين (منكرة، عرفانها)، لتذكِّر الناس بما كانوا عليه في عصر الرسول صلى الله عليه وآله من معرفة الله عزّ وجلّ، ثمَّ قابلت بين (فأنار، ظُلَمَهَا) المقصود هنا النور ضدَّ الظلام، وهو تذكير أيضًا بما كانوا عليه قبل الدين الإسلاميّ، وقبل بعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ثمَّ استعملت الطباق بين (كشف، بهمها)، هنا طباق يحتاج إلى التفكير وكدِّ الذهن من أجل الوصل للمعنى المقصود، فالمقصود بالبهم هنا هو الأفكار المختلطة المبهمة، فالناس قبل الدين الإسلاميّ كانت أفكارهم مختلطة تحتاج إلى توعية، وبفضل دين أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله تمَّ الكشف عمَّا اختلط عند الناس من أفكار، وفكِّ الالتباس فأصبح كلُّ شيء

(١) البلاغة العربية: ٢٨٠-٢٨٧.

(٢) سورة الكهف: ١٨.

(٣) أنوار الزَّهراء: ٥٢.

بيِّنًا بفضل رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمَّ أردفت هذا الطِّباق بطباق آخر مشابه له، قالت فيه: (جلَّى، غممها) من الواضح أنَّ الإجلاء يعني الكشف، والغمَّة تعني الظلمة، وبفضل منقذُهم رسول الله صلى الله عليه وآله، تمَّ كشف الغمَّة عن الأبصار، وإخراجهم من الظلام إلى طريق الهداية والرَّشاد.

الجِناس

يسمِّيه بعضهم (التجنيس)، وهو ثاني فن من فنون البديع عند ابن المعتزِّ، وقد عرَّفه بقوله: «هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر أو كلام»[1]، ومجانستها لها أن تشبِّهها في تأليق حروفها، وهناك أنَّ الجناس «أن تتَّفق اللفظتان في وجه من الوجوه، ويختلف معناها»[2].

ويرى البلاغيُّون: «أنَّ الجناس التام هو ما اتَّفق طرفاه في أربعة أمور، هي:

١. الحروف.
٢. عدد الحروف.
٣. ضبط الحروف.
٤. ترتيب الحروف.

أمَّا غير التام، فهو ما اختلف طرفاه في واحد من الأربعة المتقدِّمة»[3].

ومن الجناس الذي ورد في الخطبة قولها عليها السلام «**فَأَنْقَذَكُم اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمُحَمَّدٍ** صلى الله عليه وآله»،

(١) البديع، ابن المعتز، دار الجيل، ط١، ١٩٩٠: ٢/ ٢٥.
(٢) الطراز المتضمِّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلويّ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصريَّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٢: ٢/ ٣٥٦.
(٣) البلاغة الاصطلاحيَّة، عبده عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربيّ، مصر، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢: ٣٥٦.

بَعْدَ اللُّتَيَّا وَالتِي»[1]: فقد جانست بين (اللتيَّا والتي)، كذلك في قولها: (فغرت وفاغرة، صماخها وبأخمصه، ترثوا وريث، حريم وحرمة)، فنلاحظ إيقاعًا موسيقيًّا مدوِّيًا يشدُّ مسامع المتلقِّي، فضلًا عن أنَّ هذا التكرار في الكلمات والحروف داخل الجمل يُحدِث إيقاعًا يزيد في جمال موسيقى النصِّ، وأداء دورها المطلوب في النصِّ والمتلقِّي معًا.

الخاتمة

في الختام أوجز ما توصلَّت إليه من نتائج استشفيتها من سطور البحث.

١. كان الاستعمال البلاغيّ من تشبيه، واستعارة، وكناية، وطباق، وجناس، و.. في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام يتوافق مع حال المتلقِّي- فكره وزمانه- فحين يحتاج المتلقِّي لمشهد صوريّ قريب من ذهنه، تحضر الزَّهراء عليها السلام الصور التشبيهيَّة، وحين يحتاج لمشهد يكدُّ الذهن من أجل الوصول للمطلوب، تحضر السيِّدة الزَّهراء عليها السلام الصورة الاستعاريَّة، أمَّا إذا احتاج الوظيفة الإقناعيَّة، فنجد الصورة الكنائيَّة، التي تنقله للمطلوب بعدَّة وسائط، كذلك استعملت الزَّهراء عليها السلام في مواضع عدَّة الأساليب البديعيَّة التي تتناسب مع فكر المتلقِّي وعصره.

٢. مثل هذه الأساليب البلاغيَّة- البيانيَّة والبديعيَّة- تساعد على تحليل النصوص بطريقة تربط بين خطبة الزَّهراء عليها السلام وذهن المتلقِّي؛ لأنَّ كلامها عليها السلام كان يحمل وظائف التوبيخ والعتب والإرشاد والنصح في الوقت نفسه، كان الهدف منها تذكير الناس بالرسول صلى الله عليه وآله، وبمكانتها ومكانة ابن عمِّها، وحقّهم المغتصَب، بطريقة بلاغيَّة دقيقة في التعبير، وفنيَّة في رسم المشاهد.

(١) أنوار الزَّهراء: ٥٢.

٣. لمسنا في هذا البحث جانبًا من الحكمة السياسيَّة والقياديَّة والإرشاديَّة التي تتمتَّع بها الزَّهراء عليها السلام، فقد كانت تحرص على استعمال الفنون البلاغيَّة من أجل التأثير في المتلقِّي، وتذكيره.

والحمد لله ربِّ العالمين.

المصادر

* القران الكريم.

- الاتِّجاه الوجدانيّ في الشعر العربيّ المعاصر، عبد القادر القط، دار النهضة العربيَّة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨١.
- أنوار الزَّهراء، حسن الأبطحيّ، ترجمة: ناصر النجفيّ، مؤسَّسة النبراس، النجف الأشرف، ط١، ٢٠٠٣.
- الإيضاح في علوم البلاغة، محمَّد بن عبد الرحمن بن عمر أبو المعالي جلال الدين القزوينيّ، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلميَّة، ط١، ٢٠٠٣.
- بحار الأنوار، المجلسيّ، مؤسَّسة الوفاء، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٣.
- البديع، ابن المعتزِّ، دار الجيل، ط١، ١٩٩٠.
- البلاغة الاصطلاحيَّة، عبده عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربيّ، مصر، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢.
- بنيات المشابهة في اللغة العربيَّة، مقاربة معرفيَّة، عبد الإله سليم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠١.
- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيديّ، جماعة من المختصِّين، وزارة الإرشاد، الكويت، دار إحياء التراث، (د.ط)، ٢٠٠١.

- تحفة العقول عن آل الرسول، الحرَّانيّ، تحقيق: عليّ أكبر الغفاريّ، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، (د.ط)، ١٣٧٦هـ.
- تداوليَّة النصِّ الشعري جمهرة أشعار العرب أنموذجًا، شيتر رحيمة، أطروحة دكتوراه، أشرف عبد القادر دامخي، جامعة الحاج الخضر باتنة، (د.ط)، ٢٠٠٨-٢٠٠٩.
- جماليَّات الأسلوب- الصورة الفنيَّة في الأدب العربيّ، فايز الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٢، ١٩٩٦.
- جواهر البلاغة في المعاني والبديع والبيان، أحمد الهاشميّ، تحقيق: محمَّد رضوان مهنَّا، مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط١، ١٩٩٩.
- الحيوان، الجاحظ، عمرو بن بحر، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
- الخيال الشعريّ وعلاقته بالصورة الشعريَّة، الأخضر عيكوس، مجلَّة الآداب، عدد ١، ١٩٩٤.
- دراسات نظريَّة وتطبيقيَّة في علم الدلالة العرفانيّ، محمَّد صالح البو عمران، دار نهى، صفقاس، ط١، ٢٠٠٩.
- الصورة الأدبيَّة، مصطفى ناصف، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٩٨٣.
- الصورة البلاغيَّة عند عبد القاهر الجرجانيّ منهجًا و تطبيقًا، أحمد عليّ دهمان، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٦.
- الصورة الشعريَّة في الخطاب البلاغيّ والنقديّ، الولي محمَّد، المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت، ط١، ١٩٩٠.

- الصناعتَين، الكتابة والشعر، أبو هلال العسكريّ، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٢، ١٩٨٤.
- الطراز المتضمِّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الأعجاز، يحيى بن حمزة العلويّ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصريَّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٢.
- علم الدلالة الإدراكيّ المبادئ والتطبيقات، دلخوش جار الله حسين دزهيى، مجلَّة الآداب، العدد ١١٠، ٢٠١٤.
- فنُّ الشعر، إحسان عبَّاس، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٥٩.
- فن الشعر، أرسطو، ترجمة: محمَّد شكري عيَّاد، دار الكتاب العربيّ، القاهرة، (د.ط)، ١٩٦٧.
- فنون التصوير البيانيّ، توفيق الفيل، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٩٨٧.
- القاموس المحيط، الفيروز آباديّ، تحقيق: التراث في مؤسَّسة الرسالة، مؤسَّسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، لينان، (د.ط)، ٢٠٠٥.
- كمال الدين وإتمام النعمة، تحقيق: حسين الأعمليّ، شركة الأعلميّ للمطبوعات، ط٢، ٢٠١٦.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- المجالس السنيَّة في مناقب ومصائب العترة النبويَّة، محسن الأمين، دار المعارف للمطبوعات، ط٢، ١٩٩٢.
- مستدرك الوسائل، الطبرسيّ، مؤسَّسة آل البيت لإحياء التراث، قم، (د.ط)، (د.ت).

- معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، (د.ط) ١٩٧٤.
- مقدِّمة لدراسة الصورة الفنيَّة، نعيم اليافي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ، دمشق، (د.ط)، ١٩٨٢.
- نظريَّة الأدب، رونيه ويليل ووارن أوستين، تحقيق: عادل سلامة، دار المرِّيخ للنشر، الرياض، (د.ط)، ١٩٩١.
- النظريَّة الإدراكيَّة وأثرها في الدرس البلاغيّ الاستعارة أنموذجًا، الصالح بن الهادي رمضان، (د.ط)، ١٤٣٩.

السمات الأسلوبيَّة لكلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام

د. سعد مرزه الشيخ كريم الحسناويّ

ملخَّص البحث

اهتمَّت المدوَّنةُ التراثيَّةُ العربيَّة الإسلاميَّة بكتابات المرأة وبلاغتها، على نحوٍ عام، وأولته كلَّ اهتمام ورعايةٍ، عبر جمعه وتبويبه وروايته الرواية العلميَّة الدقيقة، وكان لأشعار النساء ونثرهم وأدبهم خصوصيَّة في تراثنا النقديّ والبلاغيّ، نابعة من حضور العاطفة وامتزاجها بالعمق الوجدانيّ، والخصوبة الفكريَّة والشعوريَّة، وكان لكلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام شأنه الكبير ومكانته الريادِيَّة، بوصفه خطابًا إنسانيًّا رفيعا عميقًا، وتغييرًا لمفهوم الكتابة وأسلوبها المهادن، إلى ذلك الأسلوب الذي يختزن عمقًا معرفيًّا، وقدرة فنيَّة وبلاغيَّة، يتمُّ فيها الارتكاز على تفعيل المنطق الحجاجيّ والحوار مع الآخر، لكشف الحقوق وتعرية الحقائق من دون خوفٍ أو وجل، ولعلَّ مساءلة النصوص النثريَّة للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام بوصفها خطابة فقط، قد يحصرها في جنس كتابيّ محدَّد، في الوقت الذي تتقابل في كتابتها على مستوى الأسلوب عدَّة أجناس، تجعل منها متعدِّدة الأصوات، خصبة الدلالة، لها إيقاعها الصوتيّ ذو الوظيفة التوصيليَّة والإقناعيَّة، ولها بنيتها الدلاليَّة الخصبة التي تستمدُّ من القرآن الكريم ورسالة النبوَّة وأدبيَّاتها المعارف والأحكام، لذلك لا بدَّ من وضع كلامها عليها السلام موضع القراءة المنتجة والدراسة الأسلوبيَّة؛ لأنَّ الأسلوبيَّة تصافح الملفوظات الأدبيَّة في استعمالها الحسِّيّ المباشر، فتكشف عن خصوصيَّتها، وفرادتها عبر التحليل واستنباط القوانين، بدلًا من

الجمع والتبويب، فالنصُّ هنا سلسلة من الأصوات المتتابعة والمتراكبة مع بعضها، ينبعث منها المعنى، مع محاولة توضيح السمات والخصائص القارَّة في بنية النصِّ، والإشارة إلى التشكيلات البلاغيَّة والدلالات الأدبيَّة والمعرفيَّة الخاصَّة بكلامها عليها السلام، والذي يمثِّل نصًّا مهمًّا من نصوص المدوَّنة النثريَّة للعصر الإسلاميّ، وأنموذجًا متميِّزًا لخصائص الخطابة عصرئذٍ، وتشكيلات الصورة البلاغيَّة، والمجاز من كناية واستعارة، والإيحاء الصوتيّ لنظام التقفية والسَّجع، ودوره في إنتاج الدلالة، فقد كانت الزَّهراء عليها السلام بارعة في التصوير، وواعية لأهميَّته في البلاغة والتأثير في الآخر، خصمًا أو حكمًا، فصوَّرت حياة العربيّ في الصحراء، وطباعه وعاداته، ومشاهد الإبل، والنباتات الصحراويَّة، وقدَّمت صورًا نابضة بالجمال والحركة والحيويَّة.

ومن هنا لا بدَّ للدراسة من تتبُّع السمات والخصائص المتميِّزة في خطبة السيِّدة الزَّهراء وكلامها عليها السلام، ومعاينة البنى الأسلوبيَّة المهيمنة على كلامها وخطبها، والوقوف على الأساليب التركيبيَّة ممثَّلةً بأساليب الخبر والإنشاء، وظواهر الحذف والتقديم والتأخير، والوقوف على بنية التوازي الأسلوبيَّة الصوتيَّة، التي قدَّمت نسقًا إيقاعيًّا تكراريًّا، وتجانسًا صوتيًّا فريدًا، وإيقاعًا يستبطن الفكر، وينشر عبقه المعرفيّ، وريادته الفنيَّة.

الكلمات المفتاحيَّة: السمات، الأسلوبيَّة، الخطبة، بلاغة الكلام.

المقدِّمة

لكلام السيِّدة الزَّهراءعليها السلام سمات أسلوبيَّة على درجة كبيرة من الأهميَّة، ولعلَّ خطبتها في الدفاع عن حقِّها المسلوب في أرض فدك من تجلِّيات علمها الثرّ، ومعرفتها التي فاقت بها خصومها؛ فقد تطرَّقت فيها لعدد من الموضوعات الحسَّاسة، وكانت درجة البلاغة والفصاحة عالية، وذات قيمة علميَّة ودينيَّة واجتماعيَّة وتاريخيَّة كبيرة جدًّا، وتأثيرها مازال مستمرًّا حتَّى الآن، وقد حظيت بعدد كبير من الدراسات، منها:

- مظاهر التأثير الصوتيّ والدلاليّ في الخطبة الفدكية للسيِّدة فاطمة الزَّهراءعليها السلام، لـ(خيرية عجرش، وهايدة عجرش)، مجلَّة كليَّة التربية الأساسيَّة للعلوم التربويَّة والإنسانيَّة، تشرين الأوَّل ٢٠١٩.
- الأبعاد التداوليَّة في خطب السيِّدة فاطمة الزَّهراءعليها السلام، د. رحيق فنجان، كليَّة التربية والعلوم الإنسانيَّة، جامعة ذي قار، وتطرَّق البحث إلى وسائل الإقناع في خطب الزَّهراءعليها السلام.

مشكلة البحث

يكتسب كلام الزَّهراءعليها السلام وخطابها قوَّة بلاغيَّة على مستوى اللغة والخطاب، وهذا ما يكشفه سياق الحال المؤسَّس على العلاقة الجدليَّة بين المعنى السطحيّ، ويجعل من التأويل حاجةً ملحَّةً، ولاسيما في تتبُّع التداخل النصيّ بين كلامها الشريف والخطاب القرآنيّ المُعجِز.

مسوِّغات البحث وأهميَّته

تأتي أهميَّة البحث من كونه يشتغل على السمات الأسلوبيَّة في كلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، بوصفه أنموذجًا رفيعًا للكتابة النسويَّة في عصر صدر الإسلام، وفيها تتعدَّد الموضوعات، وتتنوَّع البنى الأسلوبيَّة، وبخاصَّة على المستوى الدلاليّ والتأويليّ والتداخل النصِّيّ.

أسئلة البحث

- ما هي مكوِّنات كلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام ومضامينه؟.
- مَن هي الزَّهراء عليها السلام على المستوى المعرفيّ، وما مناسبة كلامها الشريف؟.
- ماهي الخصائص الأسلوبيَّة والسمات المميِّزة لهذا الخطاب البليغ؟.
- كيف تجلَّى التداخل النصِّيّ في كلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام؟.

اختار الباحث منهج البحث الوصفيّ التحليليّ، وتمَّ التركيز على تحليل الخطاب واستنباط قوانينه وسماته القارَّة في بنية النصِّ، والتي تُعطي إشعاعه الدلاليّ والمعرفيّ على مستوى اللغة الإبداعيَّة وأساليبها.

مقاربة مفاهيميَّة

السمة الأسلوبيَّة في الاصطلاح: من البديهيّ ألَّا يَعدُّ الناقد كلَّ إضافة أسلوبًا، فقد لا تخرج عن كونها زخرفة لفظيَّة وزينة للعمل الأدبيّ، وليس كلُّ اختيارٍ أو انزياحٍ أسلوبًا؛ فالنصُّ قد تضافرت فيه مجموعة من العناصر اللغويَّة لتقوم بوظيفة أسلوبيَّة، وتخلع على النصِّ سمة الأدبيَّة، فالسمة المميِّزة التي تحمل في داخلها أسلوبيَّة تميِّزها؛ قد تتمثَّل في طريقة أدائها، والتي فيها خروج على المألوف، وعدول عن القواعد المطردة[1].

(١) السمات الأسلوبيَّة في الخطاب الشعري، محمَّد بن يحيى، دار عالم الكتب الحديث، بيروت،=

وهكذا يصبح الخطاب الأدبيّ، على حدِّ وصف مولينيه، مرسومًا، وفي تقدير الأدب يُعزى هذا الرسم إلى التقاء المكوِّنات اللغويَّة المتعدِّدة واستقبالها[1]. ويمكننا تعريف الوحدة اللغويَّة بأنَّها رسم يمتلك صفة فسيولوجيَّة أو مورفولوجيَّة أو بيئيَّة أو دلاليَّة تميِّزه عن الوحدات الأخرى في نفس اللغة. ولعلَّ أهمَّ جوانب المقارنة هو أنَّ الوحدة اللغويَّة مفردة، وتفتقر إلى أيِّ نمط معيَّن، ومن ثمَّ فهي متَّصلة. ويذكر من الحقائق اللغويَّة حقيقة تسمَّى (مولينيه) (تركيبة أو حزمة أسلوبيَّة)، وهي اعتماد عدَّة سمات لغويَّة متوافقة، تكون أكبر من اللازم لموضوع معيَّن، ويسمَّى (مولينيه) أصغر وحدة أسلوبيَّة، وقد يكون مورفيمًا مستقلًّا أو مورفيمًا لاصقًا أو متحرِّكًا، فالسمة الأسلوبيَّة في النصِّ لم تعد محصورة في بعض أجزائه دون الأخرى، ولا يتولَّد عن بعضها صور أو انزياحات، وإنَّما هي ثمرة لكلِّ بناء النصِّ، حتَّى لو تجلَّت ظاهريًّا في شكلٍ منقطعٍ محدَّدٍ منه. ويمكن القول: أمَّا السمات الأسلوبيَّة فهي مجموع المكوِّنات الصوتيَّة والصرفيَّة والنحويَّة والمعجميَّة للظواهر البلاغيَّة التي تجعل النصَّ متفرِّدًا في تركيبه الأدبيّ، ويبرز بين نصوص أخرى مثله.

الأسلوب: لا بدَّ أوَّلا من أن نعترَّف بالصعوبة البالغة في تحديد مفهوم الأسلوب، فهذا المفهوم، شأنه شأن أيَّة مقولة من مقولات العلوم الإنسانيَّة، يختلف تحديده من حقبة إلى حقبة، وتختلف كذلك تجلِّيات المحلِّل الأسلوبيّ بشأن الأسلوب، فقديمًا هي الأسلوب بمفاهيم أخرى، كالمعنى والاختلاف، وقد يستنبط محلِّل أسلوبيّ معيَّن باعثًا ما على طبيعة أسلوبٍ ما[2]، وقد ورد ذِكر الأسلوب في كثير من الدراسات في التراث

=ط١، ٢٠١٠، ص٤٢.

(١) الأسلوبيَّة وتحليل الخطاب، نور الدين السد، دراسة في النقد العربيّ الحديث (الأسلوبيَّة والأسلوب)، ج١، دار هومة، الجزائر، ١٩٩٧، ص١٦٧-١٦٨م.

(٢) البنى الأسلوبيَّة دراسة في (أنشودة المطر) للسيَّاب، حسن ناظم، ط١، المركز الثقافيّ العربيّ الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٢م، ص١٣.

العربيّ، وهو يعيِّن لديهم العمليَّة التي يقوم بها المتحدِّث بإعداد خطابه، سواء كان شعرًا أم نثرًا. يستخدم الناقد نفس الأسلوب في الموازنة بين المعارضة، والمعارضة من أجل وصف اقتراب أحد الأساليب الشعريَّة والوادي المرتبط به، سيقول الناقد إنَّ هذا مثال لأحد النوعَين الشعريَّين اللذَين يحاولان التواصل من خلال الكلام والوصف، وهذا شبيه بكتابة أبي داود قيد النظر. وقد وصف العياد والنابغة الجعديّ بخل الوصف، بينما وصف الشعر الأعشىّ والأخطل الخمر[1]. وناقش الناقد والمعجميّ مجدي وهبة فكرة الأسلوب، فقال عنها: «الأسلوب هو الأسلوب الشخصيّ للإنسان في التعبير عن نفسه من خلال الكتابة»[2]، وفي كتب البلاغة اليونانيَّة في العصور القديمة، كان يُنظر إلى هذا الإجراء على أنَّه إحدى وسائل التأثير في الأغلبيَّة، فكان يندرج تحت علم الخطابة، وخاصَّةً الجزء الخاص باختيار الكلمات المناسبة لمقتضى الحال، أي إنَّ الأسلوب، حسب مجدي وهبة، يعبِّر له الإنسان عن نفسه وفق الكتابة، واليونان اتَّخذته وسيلة لإقناع الجمهور، فلقد كانوا يضمُّونه مع علم الخطابة.

أظهرت الدراسات الحديثة إجماعًا فيما يتعلَّق بتعريف الأسلوب، بيغون الذي يرى بأنَّ الأفكار تتشكَّل وحدها في عمق الأسلوب.. لأنَّ الأسلوب ليس سوى النظام والحركة، وهذا ما نضعه في التفكير، وتتحوَّل وتفوز إذا ما وضعَتها يد ماهرة موضع التنفيذ، هذه الأشياء إنَّما تتكوَّن خارج الانسان، وفيما يتعلَّق بالنهج، فهو الفرد نفسه، ولذا لا يمكنه أن ينتزع أو يحمل أو يهدم[3].

الأسلوبيَّة: وتعتمد البينيَّة اللغويَّة للنصِّ منطلقًا أساسيًّا في عملها، وتتمثَّل وظيفة البحث الأسلوبيّ في دراسة الأنماط المؤثِّرة، ودراسة طرق تغيير اللغة والعلاقات

(١) بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان الخطابيّ، تحقيق محمَّد خلق الله، محمَّد زغلول سلام، دار المعارف، ص٦٠.
(٢) بيان إعجاز القرآن، ص٦٠
(٣) بيان إعجاز القرآن، ص١٣٠-١٣١.

المتبادلة، وتحليل النظام التعبيريّ. الأسلوبيَّة هي دراسة النصوص بأيِّ شكلٍ من الأشكال، سواء أكانت مكتوبة أم منطوقة، من خلال تحليلها لغويًّا بهدف اكتشاف المكوِّنات النفسيَّة والقيم الجماليَّة، وكذلك أفكار الكاتب بشكلٍ متعمَّق. ويتأثَّر طول الجملة أو قصرها بالأفعال، وكذلك الكلمات واستخدامها للحروف بطريقة معيَّنة أو بعدد كبير أو صغير.

إنَّ دراسة الأصوات التي تهمُّنا، والأوزان المرتبطة بلغتنا، وسائر جوانب النصِّ وخصائصه.. كلُّ هذا جزء من البحث الأسلوبيّ[1]، وثمَّة علاقة وثيقة بين الشكل والمحتوى، والفصل بينهما قد يكون لازمًا من أحوال معيَّنة، إلَّا أنَّه لا يمكن أن يكون أمرًا صارمًا، فالألفاظ لها معانٍ وعلاقات بالأشياء، والسياق اللغويّ هو الخبرة الأسلوبيَّة برمَّتها، ولذلك فمن المستحيل فصل دراسة الأسلوب على محتوى العمل، فأيّ دراسة أسلوبيَّة ينبغي أن تقوم على رفض الفصل بين المحتوى والشكل؛ لأنَّ العمل الأدبيّ وحدة واحدة، فلا انفصال للمعنى عن الأسلوب[2].

بلاغة الكلام: بين الأسلوب والبلاغة، وتتمثَّل علاقة وثيقة في القواسم المشتركة؛ لتركيز البحث في كِلَا المجالَين، لكنَّ طريقة إدراكهم لهذا الأدب مختلفة. المنظور الأسلوبيّ يهتمُّ أكثر بالكلمة المكتوبة، بينما يركِّز المنظور البلاغيّ على الكلمة المنطوقة[3]. الأسلوبيَّة هي مدرسة لغويَّة تركِّز على القطعة الأدبيَّة من خلال مكوِّناتها الفنيَّة وأدواتها الإبداعيَّة[4]، وتُستخدم اللغة والبلاغة كوسيلة لوصف العمل المكتوب، كما يجوز له

(١) الأسلوبيَّة، مدخل نظريّ ودراسة تطبيقيَّة، فتح الله أحمد سليمان، ط١، دار الآفاق العربيَّة، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٤٤.

(٢) الأسلوبيَّة، مدخل نظري ودراسة تطبيقيَّة، ص٤٤.

(٣) الأسلوبيَّة، مدخل نظريّ ودراسة تطبيقيَّة، ص٣٠.

(٤) الأسلوبيَّة، الرؤية والتطبيق، يوسف أبو العدوس، ط١، دار المسيرة، عمَّان، الأردن، ٢٠٠٧، ص٥١.

تقييمه عبر منهج الاختيار والتوزيع، مع مراعاة اهتمامات المؤلِّف النفسيَّة والاجتماعيَّة تجاه المرسل والمتلقِّي؛ ونتيجةً لذلك، فإنَّ الدراسة الأسلوبيَّة هي إجراء نقديّ يبحث، من خلال الآليَّة اللغويَّة، في إمكانات الجمال ومناقشة ذلك.

في معرفة الزَّهراء عليها السلام ومناسبة كلامها

أدَّت المرأة أدوارًا مهمَّة في أحداث عصر صدر الإسلام، وما تلاه من عصور، واتَّسعت مشاركتها لتشمل مختلف نواحي الحياة. لقد كان هناك مواقف أخرى للمرأة تدلُّ على عِظَم مكانة المرأة ودورها في إدارة دفَّة الحياة في مجالاتها كافَّة[1]، وإن كنَّا بحاجة إلى دليل لتبيان مكانة المرأة ودورها، فخير شاهد على ما نقول كلام السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام ودورها، ولاسيما بعد وفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله، وسيطرة أبي بكر على الخلافة، وما كان من خطبتها التي سمِّيت الخطبة الفدكيَّة، التي ألهبت المشاعر، وأجَّجت النفوس، وفيها طالبت بحقِّها بوراثة أبيها في أرض فدك من مُنكِريه[2]؛ فالخطبة ناتجة عن مشاعر صاخبة، فالمرأة/ الزَّهراء عليها السلام مهضومة الحقوق، وقد سلبوها حقَّها في وراثة أبيها عنوةً، كما تمَّ سلب حقِّ زوجها الإمام عليّ عليه السلام في الخلافة، على الرغم من أحقيَّته الواضحة وضوح الشمس، ولا يعني هذا تغليبًا للجانب العاطفيّ على الجانب العقليّ، بل كانت عليها السلام تقوم بتقديم الحجج والبراهين المؤيِّدة لهذا الحقِّ وتلك الأحقيَّة. ويصف السيِّد القزوينيّ موقف الأنين والحزن الذي استهلَّت به خطبتها بالقول: «إنَّني أعجز عن تحليل تلك الأنَّة، ومدى تأثيرها في النفوس، أنَّة واحدة، بلا كلام، تهيِّج عواطف الناس، فيجهش القوم بالبكاء، ما أدري ما كانت تحمل تلك الأنَّة من المعاني؟ ولماذا أجهش الناس بالبكاء؟ وهل الأنَّة الواحدة تُبكي العيون، وتُجري

(١) الخطابة في صدر الاسلام، إحسان عبَّاس، مطبعة نهضة مصر، ١٩٨٢، ص١٥٩.
(٢) الاحتجاج، الطبرسيّ، أحمد بن عليّ (ت٥٩٠هـ)، تحقيق محمَّد باقر الخرسان، منشورات دار النعمان للطباعة، ج١، ص٢٥٣-٢٨٤.

الدموع، وتحرق القلوب؟ هذه ألغاز لا أعرف حلَّها»[1]. وهناك أيضًا خطبتها الصغرى التي ألقتها على مسامع جمع غفير من نساء المهاجرين والأنصار، وذلك عندما دخلنَ عليها للاطمئنان، بعد أن مرضت مرضتها الأخيرة التي توفِّيت بها، وتعدُّ هذه الخطبة من أروع الخطب وأبلغها، على قصرها، بالقياس إلى الخطبة الخاصَّة بأرض فدك، وهما تمثِّلان بعضًا من تراثها الفكريّ الثرّ، وفيهما تعرَّضت الزَّهراء عليها السلام إلى جوانب عقائديَّة واجتماعيَّة وتشريعيَّة وسياسيَّة وغيرها، ممَّا يدلُّ على قدرتها الفكريَّة والعلميَّة، وكيف لا، وهي ابنة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، وريحانة بيت النبوَّة وصفوتها، وزوج الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأمُّ الحسن والحسين عليهما السلام، وقد استطاعت فاطمة الزَّهراء عليها السلام أن تعطي رأيها الواضح في هاتَين الخطبَتَين، وأن تختزل فيهما كلَّ قضايا الإسلام الأساسيَّة[2].

مكوِّنات كلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام ومضامينه

عندما ننظر في تاريخ الكتابة عند الأمم، نراها أوَّلًا شاعرة، تنشئ الشعر قصصًا، ثمَّ غنائيًّا، ثمَّ تمثيليًّا. ولا ينشأ النثر عندها إلَّا في وقت الاضطراب السياسيّ، الذي تتغيَّر فيه نظم الحكم والحياة الاجتماعيَّة، وتنشأ أفكار جديدة، منها السياسيّ، ومنها الفلسفيّ، ومنها الدينيّ، هنا تضطرُّ إلى أن تعبِّر عن هذا كلِّه، ويعجز الشعر عن أن يسعه، فينشأ النثر[3] بأنواعه وأشكاله، والذي يختلف باختلاف الأنماط الثقافيَّة والاجتماعيَّة التي يتميَّز بها كلُّ مجتمع، ولا يختلف الوضع كثيرًا في الأدب العربيّ، بالرغم من الخصوصيَّة الثقافيَّة والتاريخيَّة لكلِّ أمَّة، ولعلَّ ميلاد النثر مؤشِّر على بداية الكتابة (ومع ذلك، هذه الكتابة لا تختلف كثيرًا) ينبثق أيضًا وبشكلٍ خاصٍّ، على ما يبدو، من ثورة في الأفكار،

(١) فاطمة الزَّهراء من المهد الى اللحد، السيِّد محمَّد كاظم القزوينيّ، مؤسَّسة النور للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص٢٣٧.

(٢) الاحتجاج، الطبرسيّ، ص٢٥٣-٢٨٤.

(٣) ينظر: من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف، مصر١٩٣٦، ص٢٣.

تتطلَّب قيام علاقات اجتماعيَّة معقَّدة بين الأفراد، وما الحاجة إلى العرض والاحتجاج والجدل والغلبة إلَّا ثمرة لتقدُّم التفكير والثقافة المنطقيَّة، ويتزامن ظهور النثر عادةً مع يقظة الحياة على تحليل الوضع والتوصُّل إلى حلٍّ له[1].

وعادةً تكون البدايات بسيطة، ولا تتحقَّق القفزات إلَّا بمرور الوقت، حيث تتراكم الخبرات كمًّا ونوعًا بمرور الزمن، وتتالي الأيَّام، ففي العصر الجاهليّ نرى النثر متمثِّلًا بالخطابة التي عرفها الأدب الجاهليّ، وكانت تحفل بالفخر بالنفس والقبيلة، والذَّود عن الحياض، والدفاع عن الذِّمار، ومنافرة الخصوم، ومناجزتهم، كما كانت وسيلة للإصلاح بين القبائل، ووقف سفك الدِّماء، والركون إلى السِّلم[2]، وهي ميدان من ميادين المهارة والحذق، يدخلها الخطيب ليُظهِر قدرته على الإقناع، وسعة علمه، ونبوغه، وبراعته في إيراد اللفظ في موقعه الصحيح من الكلام، والتفنُّن في عرض حججه وبراهينه وأدلَّته الدامغة، وعادةً ما كانوا يخطبون في الوفادة على مجالس الأمراء والملوك، وأيضًا في المناسبات الاجتماعيَّة من زواج ومصاهرة[3]، والمعروف أنَّ الشاعر كان يفوق الخطيب مكانةً ورِفعةً، ولكن عندما «كان هناك عدد لا بأس به من الشعراء والشعراء، اتَّخذ هؤلاء الأفراد من مهنة الشعر وسيلة لكسب المال.. وسارعوا إلى انتقاد شرف الآخرين في محاولة لامتلاكهم، وأصبح الواعظ عندهم أهمَّ من الشاعر»[4].

وقد عرف الأدب الجاهليّ الخطابة بلونَيها المسجوع والمرسل، ومن

(١) أُصُول النثر الأدبيّ العَربيّ، وليم مارسيه، ترجمة محمود المقداد، مجلَّة التراث العربيّ، العدد ١٨، السنة الخامسة، كانون الثاني (يناير)، دمشق، ١٩٨٥.

(٢) ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط١، ١٩٦٨، ج١، ص٣٩٥.

(٣) ينظر: الأمالي، أبو عليّ القاليّ، ج١، ص٩٢.

(٤) البيان والتبيين، ج١، ص١٣٤

خطبائها: نُفيل بن عبد العزَّى[1]، والحسن كلثوم بن عمر العتابي الخطيب والشاعر[2].

وكان للخطباء عصرئذٍ طقوس في أداء خطبهم، وطريقةٌ يتميَّز بها كلٌّ من سواه، لكنَّ السِّمة الغالبة عليها السجع؛ بما فيه من إيقاع وتجويد وترادف، «فالاستعانة بالغريب عجز، والتشادق من غير أهل البادية بُغض، والنظر في عيون الناس عي، ومس اللحية هلك.. رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحِليها الإعراب، وبهاؤها تخيُّر اللفظ»[3]، وكانوا يكثرون فيها من الصور، والتشبيهات، والاستعارات. يقول قس بن ساعدة الإياديّ: «أيُّها الناس اجتمعوا فاسمعوا وعوا من عاش مات، ومن مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آت.. ليلٌ داج، ونهارٌ ساج، وسماءٌ ذات أبراج، ما لي أرى الناس يموتون ولا يرجعون، أرَضُوا فأقاموا، أم حُبِسوا فناموا»[4]. ولعلَّ من المناسب القول: إنَّ الشعر والخطابة لم ينفصلا انفصالًا وثيقًا، وغالبًا ما توشَّحت الخطب بأبياتٍ من الشعر، وكثيرًا ما قام الشاعر مقام الخطيب، حين تدعو الحاجة إلى ذلك، كما تعدَّدت أنواع الخطابة، كخطب الوعظ، وخطب الحرب، وخطب الزواج أو التهنئة أو التعزية، وكانت أفكار تلك الخطب بسيطة واضحة، تنشأ عن الفطرة، وتلتزم قِصَر الجملة، ووضوح العبارة.

وبعد نزول الوحي، ومجيء الإسلام، بدأت الخارطة القديمة تتغيَّر وتتوسَّع، وتفسح المجال واسعًا أمام الخارطة السياسيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة الجديدة، وأتى النصُّ القرآنيّ الكريم ليؤثِّر تأثيرًا كبيرًا في مجمل النصوص والعلوم التي أفردتها الثقافة

(١) ينظر: تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبريّ)، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦١، ج١، ص١٠٩١.

(٢) ينظر: البيان والتبيين، ج١، ص٣٨.

(٣) البيان والتبيين، ج١، ص٣٨.

(٤) البيان والتبيين، ج١، ص١٦٣.

الجديدة؛ «فقد حوَّل أدبها من قصائد في الغزل والحماسة، والأخذ بالثأر، والفخر، ووصف الإبل، والخيل، والسيوف، والرماح، ومن حِكم متناثرة لا ضابط لها ولا نظام، إلى أدبٍ عالميٍّ يخوض في مشاكل الحياة والجماعة، وينظِّم أمورها الدينيَّة والدنيويَّة»(١)، فاعتمده العلماء مرجعًا في وضع قواعد علوم النحو واللغة والبلاغة، إضافة إلى ما قدَّمه من أغراض جديدة كالعقائد، والتشريعات، والأخلاق والآداب، وقصص الأنبياء والأمم السابقة، وما فيها من عِظة وعِبرة، مع التركيز على المعاني السامية، والحثِّ على التوحيد، والدعوة إلى التفكير في الكون وخلقه، والتمسُّك بالفضائل والقيم النبيلة كالخير، والصِّدق، والمحبَّة، والنزعة الإنسانيَّة الأخلاقيَّة، فالقرآن جامع لكلِّ أمور الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾(٢). وقد أكَّد العلماء الإعجاز القرآنيّ، وأفردوا لذلك الكثير من المؤلَّفات، واشترطوا على من يريد التعرُّض لدراسة النصِّ القرآنيّ شرحًا أو تفسيرًا، الإلمام بعلوم البلاغة، والفقه والمعاني، والبيان وغيرها، وها هو صاحب دلائل الإعجاز ينقل عن الجاحظ قوله في إعجاز القرآن: «ولو أنَّ رجلًا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة قصيرة أو طويلة، لتبيَّن له في نظامها ومخْرجها من لفظها وطابعها أنَّه عاجز عن مثلها، ولو تحدَّى بها أبلغ العرب؛ لأظهرَ عجزه عنها»(٣). وكان لبلاغة الرسول صلى الله عليه وآله أثر كبير في النثر الإسلاميّ، فقد اعتمد عليها المفسِّرون والفقهاء، واستمدَّت منها اللغة أفكارًا وأساليبَ جديدة، وتأثَّر بأسلوبها الخطباء والشعراء والكتَّاب، وتميَّز الحديث النبويّ بالإيجاز، وجمال الألفاظ، وترابط المعنى، وسلامة الأفكار، وتنوُّع أغراضه، وشرف مقاصدها، وبُعدها عن الغرابة والتعقيد، وقوَّة التأثير والإقناع، فضلًا عن شرح

(١) الفن ومذاهبه في النثر الأدبيّ، د. شوقي ضيف، ط٣، القاهرة١٩٦٠، ص٤٦.
(٢) البقرة: ١-٢.
(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانيّ، تحقيق محمَّد الألتنجيّ، ط١، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٩٥، ج١، ص١٩٣.

الغامض من القرآن الكريم، وتفصيل المجمل منه، مع شرح تعاليم الحياة، والدين، والعقائد، والتشريع، ممَّا سهَّل على المفسِّرين فهم النصِّ القرآنيّ، واستشهد به الأدباء للتدليل على صحَّة أفكارهم، وشدَّة إيمانهم بالدين الجديد، وكثيرًا ما كانوا يوشِّحون كلامهم وخطبهم بالآيات القرآنيَّة، والأحاديث النبويَّة التي جرى بعضها على الألسنة مجرى الأمثال، ومنها: «**إنَّما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكلِّ امرئ ما نوى، نيَّة المرء خير من عمله، آفة العلم النسيان، مِن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**»(١).

والخطبة من الفنون النثريَّة التي انتشرت بعد مجيء الإسلام؛ لأنَّها تُستخدم في الشعائر الإسلاميَّة، مثل: خُطب العيدَين، وخُطب الجمعة، وفي نشر المبادئ والتعاليم الإسلاميَّة، والحثِّ على الجهاد، قد طرأ عليها بعض التغيُّرات، منها: البُعد عن التكلُّف، والتخلُّص من الصنعة اللفظيَّة، والإفادة من القرآن الكريم والحديث الشريف، وترابط الأفكار، وكان الرسول الكريمﷺ يعلم أهميَّة الخطابة، وتأثيرها الكبير في المتلقِّي، فأوسعَ لها مكانًا في دعوته، وكان لمنابرها أكبر الأثر في الدعوة والتوجيه، وتقديم الفكر والعقيدة الجديدَين، وغالبًا ما ابتدأت الخطبة بحمد الله، والثناء عليه، ثمَّ شرعت في تقديم النُّصح، أو الوعظ، ومن ثمَّ تطرَّقت إلى مجمل أمور الحياة وتنظيمها على أسس الدين والعقيدة الجديدَين، ومن خطبهِ بُعَيد الحمد والثناء: «**إنَّ المؤمن بين مخافَتَين؛ بين عاجلٍ قد مضى، لا يدري ما الله صانعٌ به، وبين آجلٍ قد بقي، لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبرة، ومن الحياة قبل الموت، فو الذي نفس محمَّدٍ بيده ما بعد الموت من مُستعتب**»(٢). وقد استمرت الخطبة على هذا المنوال من البدء بكلمة أمَّا بعد، ثمَّ الحمد، ومن ثمَّ الشهادتان، وبعدها التوصية

(١) المستطرَف في كلِّ فنٍّ مستظرَف، شهاب الدين الأبشيهيّ، تحقيق د. مفيد محمَّد قميحة، دار الكتب العلميَّة، ط٢، بيروت، ١٩٨٦، ج٢، ص١٣٢.

(٢) البيان والتبيين، ج١، ص١٦٠.

بطاعة الله وعبادته، ثمَّ الخوض في بقيَّة الأمور التي يريد الخطيب التركيز عليها، وذلك بكثير من الإيجاز والوضوح، والميل إلى التلميح بدل التصريح، وتجنُّب الإسهاب، مع بساطة التركيب. ففي الخطبة الفدكيَّة للزَّهراء عليها السلام، استمرَّت النبرة الإيقاعيَّة المرتفعة، وتمَّ توظيفها توظيفًا دقيقًا في الدفاع عن الحقِّ المشروع الذي سُلِب عنوةً، وكانت غايتها أبعد من ذلك، نحو تشكيل حركة مطالبة سياسيَّة، تطالب فيها الأمَّة بالتحرُّك وتعبئة الأنصار، بعد فضحها بالدليل القاطع، للانحرافات الواقعة أحكام الدين الحنيف ومواثيقه وشرعته الربَّانيَّة التي أنزلها على النبيِّ المصطفى صلى الله عليه وآله، فقد قامت تذكِّرهم بما أوصاهم به الرسول الكريم، وتحدِّثهم عن مكانة الإمام عليّ عليه السلام ومنزلته الرفيعة، وما قدَّمه للدفاع عن نصرة الإسلام ودينه ضدَّ من حارَبوه؛ ولذلك فقد تمحورت الخطبة الفدكيَّة بوصفها أنموذجًا لكلام الزَّهراء عليها السلام، حول عدَّة محاور: فقد بدأتها على عادة من سبقها بالحمد والشكر، ثمَّ الشهادتَين؛ شهادة التوحيد، وشهادة النبوَّة، ثمَّ انتقلت للتذكير بوصيَّة رسول الله، وما تركه لهم من كتاب الله وعترة آل البيت المطهَّرين، والتي يجب التمسُّك بهما والحفاظ عليهما، تقول عليها السلام: «**و أشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لاشريك له، كلمةٌ جعلَ الإخلاص تأويلها، وضمَّنَ القلوبَ مَوصولَها، وأنى في الفكر مَعقُولَها. المُتَنعُ من الإبصارِ رُؤيتُهُ، ومن الألسن صفتُه، ومن الأوهام كيفيَّته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاءِ أمثلةٍ امتثَلها، كوَّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته**»[1].

وتعدُّ هذه الخطبة معجزة خالدة للسيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، وآية باهرة تدلُّ على عظمة من الثقافة الدينيَّة التي تتمتَّع بها فاطمة الزَّهراء عليها السلام[2].

(١) أنوار الزَّهراء عليها السلام، السيِّد حسن الأبطحيّ، ترجمة ناصر النجفيّ، مؤسَّسة النبراس، العراق، ط١، ٢٠٠٣، ص٥٠.

(٢) الزَّهراء المثل الأعلى للمرأة المسلمة، السيِّد شريف السيِّد العامليّ، دار البلاغة، قم، ط١، ص١٦٦.

الخصائص الأسلوبيَّة لكلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام

دراسة السمات الأسلوبيَّة والأسلوب نثرًا أو شعرًا أمر مهمٌّ جدًّا، وقد اهتمَّ به البلاغيُّون ودارسو الإعجاز، وأولوه عناية خاصَّة، وكان النصُّ القرآنيّ الكريم المرجع الإعجازيّ الأوَّل ببلاغته وأسلوبه المُعجز، وأساليب الكلام وسماته، وقد تمَّ الجمع بين الرؤية التي يمتلكها صاحب الخطاب، والاحتراف اللغويّ والجماليّ القائم على أصول فنيَّة يستمدُّها المبدع من ثقافته وذوقه الجماليّ، وقدرته على الإبلاغ عن تجربته الفكريَّة والحياتيَّة بمستوًى يليق به لغةً ونهجًا وأسلبةً. ولاسيما أنَّ الأسلوب وسماته في القول والكلام هو طريقة فرديَّة ذاتيَّة في الصَّوغ اللغويّ، ونسج النصِّ، وإبداع فضاءات الكتابة، وهي منهج قائم بذاته على مستوى البناء والمعالجة، وبه يتمُّ الإشارة إلى أشخاص معدودين من الخاصَّة في فنِّ الكتابة والقول؛ ارتجل كلامًا، ولم يُنشئه من مصدرٍ واحد. وبدلًا من ذلك، فهو يسلِّينا، فيختصرها أحيانًا بقصد التقليل منها، وأحيانا يُطيلها بقصد جعلها أكثر وضوحا، وأحيانًا يكرِّرها بقصد التأكيد عليها، فيُخفي بعض المعاني حتَّى يجهلها أغلب السامعين، ويكشف عن جزءٍ منها، ويذكر غيره، فيُخفي الأخير، واهتمامه بالتعبير عن الأشياء يكون على حسب الحال. الحشد الكبير وعظمة المنطقة[1]. فالأسلوب له علاقة بطريقة أداء المعنى، وربطه بالغرض أو المقام، والفرادة في التعبير، والأسلوب ليس بالبلاغة فقط، بل يشتمل على الفواتح والخواتم والمبادئ، والمطالع والوسائط، والمؤتلف والمختلف، والمتّفق والمتّسق، فهو طريقة فنيَّة خاصَّة في استخدام اللغة وطاقاتها التعبيريَّة والفنيَّة والجماليَّة، ومن خلال هذا الفهم يمكن للبحث إبراز النسق المعرفيّ والسمات الأسلوبيَّة لكلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، وخصائصه التعبيريَّة الفنيَّة والنقديَّة، والذي نجد فيه خصوصيَّة الأسلوب وتفرُّده، والفرادة لا تنفصل عن

(١) ابن قتيبة وتأويل مُشكل القرآن، شرحه ونشره السيِّد أحمد صقر، مكتبة التراث، ط٢، ١٩٧٣، ص١٢.

الأسلوب؛ فالنصُّ فريد دائمًا في جنسه، وهذه الفرادة هي التعريف المبسَّط الذي يمكن أن نطلقه على الأدبيَّة، على أن يتمَّ توجيه فكرنا إلى الخصوصيَّة في التجربة الأدبيَّة التي تكمنُ في كونها تغريبًا وتمرينًا استلابيًّا وقلبًا لأفكارنا ولمدركاتنا ولتعبيراتنا المعتادة[1]، وقد ارتبطت البلاغة بالأسلوب، وتوجَّهت إلى دراسة فنِّ القول بمختلف فروعه الفنيَّة والنوعيَّة، فهي إذًا تهتمُّ بخصائص الأسلوب والقصص الشعريَّة والنعوت والاستعارات والقوافي والجناس، وكذلك الأصوات، وغير ذلك[2]. وتعدُّ الرؤية المتفرِّدة على مستوى المضمون، والرؤية من أهمِّ الرؤى الأسلوبيَّة، إذ أعطت أهميَّة بارزة للنصِّ من خلال علاقته مع المبدع، وعلى هذا الأساس تتجلَّى أهميَّة النصِّ في كونه يدلُّ على الأصل الروحي لأمَّة من الأمم[3]. ودراسة الأسلوب والصفات الأسلوبيَّة تعتمد على درجات التحليل الأسلوبيّ التي لاتختلف كثيرًا عن مستويات التحليل اللغويّ، وهي تحليل الصوت والبنية والنُّطق، وبهذا يكون التحليل اللغويّ جزءًا لا يتجزَّأ من التحليل الأسلوبيّ[4]، القائم على التحليل الصرفيّ أو الصوتيّ أو النحويّ أو الدلاليّ، ومن أهمِّ ما يستطيع الأسلوب القيام به هو الصورة في النصِّ الأدبيّ والحركة فيها، فالأسلوب هو شكل من أشكال الكلام، يشتمل على قصص أو محادثات أو تشبيهات أو استعارات أو كتابة، وكلُّها يُراد بها أن يكون لها مكوِّن أدبيّ، يوظِّف الكاتب هذه الأشكال من الكلام كوسيلة للإقناع والتأثير[5].

(١) مقالات في الأسلوبيَّة، د. منذر عيَّاشي، منشورات اتِّحاد الكتَّاب العرب، دمشق، ص١٥٧.
(٢) ينظر: الأسلوبيَّة في النقد العربيّ الحديث دراسة في تحليل الخطاب، فرحان بدري الحربيّ، المؤسَّسة الجامعيَّة للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٣، ص١٢.
(٣) ينظر: الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة، حمَّادي صمود، الدار التونسيَّة للنشر، ١٩٨٨، ص١٢١.
(٤) ينظر:مبادئ اللسانيَّات، أحمد محمَّد قدور، دار الفكر، ط١، دمشق، ١٩٩٦، ص٢٤-٢٧.
(٥) ينظر: الأسلوب دراسة بلاغيَّة تحليليَّة لأصول الأساليب الأدبيَّة، د. أحمد الشايب، مطبعة السعادة، ط٤، مصر١٩٥٦، ص٤١.

وعلى نحوٍ عام ينقسم النثر إلى قسمَين كبيرَين؛ فما كان آلته اللسان، ومرتجلًا بواسطة الفم، سمِّي النثر الخطابيّ؛ نسبةً للخطاب والخطابة، والنثر الكتابيّ وآلته القلم[1]، واللغة تستمدُّ بعضًا من جماليَّاتها وقدراتها الفنيَّة والتعبيريَّة من الجنس الذي تنتمي إليه، بفضل الإمكانات الصور التي تُشعِر أنَّك أكثر إنجازًا، والتي تتمكَّن من خلال جنسها الأدبيّ المنتمية إليه من تفعيل دورها ونسقها المعرفيّ الخاصِّ بها، ولعلَّ هذا ما تمَّ على مستوى نصِّ الزَّهراء عليها السلام؛ فهي حين تخاطب الأنصار المجتمعين لتحثُّهم على نصرة قضيَّتها الناطقة بالحقِّ، وفق منهج النبوَّة وبلاغة كلامها، تستنهض في اللغة كلَّ السمات الإبداعيَّة، ومعها تتخلَّق اللغة بوصفها خطابًا لا يُمكن الصدود عنه سواء بالعاطفة أو العقل، وثمَّة حاجة هنا إلى تتبُّع مشهديَّة إحقاق الحقوق على مستوى الخطاب اللغويّ الموسوم بالدقَّة والفعَّاليَّة والحواريَّة واكتناز الدلالة التي لا يُمكن القبض عليها إلَّا في فضاء المجاز والتأويل المعرفيّ، لتغدو القراءة اكتشافًا لحدود الجنس الأدبيّ على نحو ما تتجَّلى في النصِّ، وبذلك تُصبح وظيفته استكشافيَّة، كونه يصف النصَّ، ويميِّز هويَّته الأدبيَّة الأمر الذي يُتيح بدوره تبلور أساس ضابطٍ لعمليَّة التقويم والنقد التي تليه[2].

نجد في أسلوب كلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام النثريّ ميلًا واضحًا إلى الأسلوب الخبريّ ذي النبرة الخطابيَّة العالية، وحين تنوَّع كلامها ببعض الأساليب الإنشائيَّة، يغلب عليها النداء، ولاسيما بالياء، أو بحذف أداة النداء، مع الاستفهام، والتعجُّب، والتمنِّي، والدعاء، إضافة لسمة التكرار على مستوى الجملة واللفظ المفرد، هذا التكرار استطاع تقوية عمليَّة التأثير في المتلقِّي، فإعادة القرع للسمع من شأنه تعظيم الاستجابة،

(١) المدارس والأنواع الأدبيَّة، شفيق بقاعي وسامي هاشم، المكتبة العصريَّة، بيروت، ١٩٧٨، ص١٢.

(٢) مقدِّمة في نظريَّة الأجناس الأدبيَّة، خلدون الشمعة، مجلَّة المعرفة، العدد١٧٧، السنة ١٩٧٦، ص٩-١٠.

وتنويع الأثر، وتعميق الدلالة في النفس، مع الحرص على شدِّ انتباه المتلقِّي ما أمكن نحو بؤرة الدلالة والمعنى المراد توصيله له بأسرع وقتٍ ممكن، فعلى مستوى الأصوات، جاء التكرار مهيمنًا على بنيَّة النصِّ، وفاعلًا في مسارات تطوُّره، تقول عليها السلام: «**زواجره لائحة، وأوامره واضحة**»[1]، فصوت الألف المتكرِّر صادح ونافر، يتبعه تكرار لصوت الهاء وصوت الواو، ممَّا رفع من وتيرة الإيقاع عبر تتابع الأصوات المكرَّرة ونبرها العالي، ولم يكن لهذا التكرار أن يُثمر لولا تضافره على مستوى الجملة مع حركة التكرار لفواصل الجُمل، فنحن أمام تكرار على مستوى الصوت يتناغم مع تكرار على مستوى الجملة، ويجعل التنبيه دائم الحضور والتأثير هنا بأعلى درجاته.

وبلاغة النصِّ تعني اللفظ المفرد بقدر ما تعني النوع الأدبيّ الذي تنتمي إليه، ولا بدَّ من استيعاب النصِّ في كليَّته، فلكلُّ خطابٍ باختلَاف جنسه وصنفه، عناصر يختصُّ بها عن سائر الخطابات، فنجد التجانس والطِّباق يتشاركان غالبية المتن اللغويّ للخطبة، وينتزعان مسار الهيمنة على بلاغة النصِّ، فثمَّة سباق بين التضادِّ الذي يؤدِّيه الطِّباق على مستوى الوظيفة والدلالة، والتماسك والانسجام الذي يقوم به الجناس على مستوى اللفظ والتركيب البلاغيّ ذي الدلالة المستبَطَنة بالتأويل، فالجناس من الناحية البلاغيَّة الكلمتان تشتركان في معنًى مماثل، ولكن له تعريفات مختلفة[2]، فالغرض المأمول هو التأثير عبر تكرار الإيقاع الجناسيّ بوصفه موسيقى داخليَّة تشبك التراكيب وتجعلها أكثر توازنًا، ولننظر إلى قولها: فغرت/ فاغرة، ترثوا/ وريث، وغيرها كثير، كما نجد بنية التضادِّ الكلامي مؤثِّرًا في عمليَّة التنغيم الداخليّ، فالطباق في الخطبة هو مستودعٌ ثرٌّ للدلالة على الفعل الذي نتج عنه سلب حقوقها، مع توضيح للمفارقات الضدِّيَّة التي يعيشها المسلمون بسبب هذا الفعل المنكر، تقول: «**فأنار الله عزَّ وجلَّ بمحمَّد** صلى الله عليه وآله

(١) أنوار الزَّهراء، ص٥٢.

(٢) معجم مصطلحات البلاغة العربيَّة في اللغة والأدب، مجدي وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٩، ص١٨٨.

ظُلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلَّى عن الأبصار غمّها»[1]، فالتضادُّ بين فعل التنوير الذي وصل إليه الرسولﷺ، وظلام الواقع الحاضر في القلوب التي كانت في وضع العماء والبهمة، ويسيطر عليها الجهل وعدم الفهم، فكان لمجيئه فضل الكشف والإنارة، وفي هذا الكلام ثمَّة رسالة مضمرة تتوخَّىعليها السلام من خلالها تنبيه الجمهور على ما يمكن أن تفعله بهم مسارات الحياد، وغفلة عن الحقِّ الصراح، وتهيب بهم على نحوٍ مستبطَن إعمال آلة التفكُّر بما هو كائن في الحاضر من عملٍ لا يجب السكوت على نتائجه المدمِّرة للقيم التي أتى بها الرسول، وجعلته منارة في وجه الظلمات، فالنور الذي يجابه الظلام هو ما يعوَّل عليه، وما يجب اتِّباعه، فبعد عصر الظلام جاء النور المحمَّديّ؛ ليكشف للبصائر ما غفلت عنه، وما استتر على القلوب بسبب البهمة التي اعترتها.

كما نلاحظ استعمالها لأساليب عدَّة وظَّفتها لتحقيق مراميها، ومنها: الاستفهام، وهو طلب إدراك يؤدِّي إلى تعيينٍ مجهولٍ وعلمٍ بشيءٍ لم يكن معلومًا، فالمتكلِّم في حالة مختلفة قبل الاستفهام وبعده، فالاستفهام يمتلك قدرة جيِّدة في إدخال المتلقِّي في صميم الصورة[2]، وهو بذلك يثير لدى المتلقِّي مشاعر مختلفة، ترتبط أكثر بالتجربة النفسيَّة للألم والندم والعجب والأذى[3]، وكان للاستفهام في كلام السيِّدة الزَّهراءعليها السلام حضور كبير في متن حديثها عن القرآن الكريم، المصون عن الباطل، والمحفوظ بحفظ الله من الزُّور والبهتان، وهي إذ تقول ذلك بصيغة الاستفهام، فإنَّ هذه الصيغة تنزاح نحو الاستنكار ممَّا يقومون به، فكلُّ مسلمٍ، وعلى البداهة، يعرف ويعتقد ويؤمن بتنزيه كتاب الله عن اللغو والتصحيف والنقصِ، فمعجزة الرسولﷺ هي القرآن الكريم الذي نزل

(١) أنوار الزَّهراء، ص٥٠.

(٢) ينظر: الصورة الفنيَّة معيارًا نقديًّا منحنى تطبيقي على شعر الأعشى الكبير، د. عبد الإله الصائغ، دار الشؤون الثقافيَّة العامَّة، بغداد، ١٩٨٧، ص٣٩٨.

(٣) ينظر: في لغة الشعر، د. ابراهيم السامرَّائيّ، دار الشؤون الثقافيَّة العامة، بغداد، ص٥٩.

مُنجمًا عليه، فقد آتاه الله سبحانه وتعالى الكتاب تصديقًا لما جاء به، وعندما لا يقوم المسلمون بتطبيق كلام الله سبحانه وتعالى، الذي جاء في قرآنه، فهذا مدعاة للاستفهام الإنكاريّ، وليس الاستفهام الذي ينتظر جوابًا، وفي هذا الأسلوب البلاغيّ قيمة مضافة إلى مسلك التعبير عن الحقِّ المسلوب، وذلك بطريقة فنيَّة وبلاغيَّة راقيةٍ؛ تقول السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، موجِّهةً الخطاب للجمع الذي أنكر عليها حقَّها الصريح: «**وكيف بكُم؟ وأنَّى تُؤفكون وكتابُ الله بين أظهركم**»[1]، من ثمَّ تؤكِّد كلامها باستفهامٍ إنكاريٍّ آخر، يبدأ بأداة الاستفهام الهمزة: «**أرغبةً عنه تريدون؟ أمْ بغيره تحكمون**»[2]، ثمَّة نبرة عالية الرنين، وذات وقعٍ كبير على النفس، فمن يحكم بغير كتاب الله، فقد خرج عن الإسلام الصحيح، وبنى حكمه في عالم الطاغوت؛ وهذا ما أرادت عليها السلام أن تقوله على نحوٍ مُضمر مُستبطَن في أسلوب الاستفهام الذي أدَّى الغرض منه، ولعلَّها وجدت في أفعالهم نيَّة العدول عن طريق الإسلام والقرآن الكريم، الذي نزل بالحقِّ المُبين. وهذا ما أكدَّه قولها الصريح الذي بدأته بأداة الاستفهام الهمزة مرَّة أخرى: «**أفَحُكمَ الجاهلية يَبغونَ؟ ومن أحسنُ من الله حُكمًا لقومٍ يوقنون**»[3]، فكلُّ عدولٍ عن النصِّ القرآنيّ الناطق بالحقِّ الصراح، هو عودة إلى ما قبل الإسلام من منطقٍ وأحكامٍ باطلةٍ، ولكنَّ الاستفهام الأخطر والأكثر تأثيرًا في النفس قولها: «**أفي كتاب الله أنْ ترثَ أباكَ ولا أرثُ أبي**»[4]، وفي هذا الكلام فصل المقال، ونهاية الحكم على هؤلاء بالمخالفة الصريحة لنهج الإسلام وأحكامه المنصوص عليها في القرآن الكريم، ولا يخفى على أحدٍ ما في هذا الكلام من الحزن والألم، فهو استفهامٌ مُشبعٌ بالألم، يفيد الاستنكار والتعجُّب من الغُبن والظُّلم، وهي تشرح الأمر كما هو على الواقع دون ستور.

(١) أنوار الزَّهراء، ص٥٢.
(٢) أنوار الزَّهراء، ص٥٢.
(٣) أنوار الزَّهراء، ص٥٣.
(٤) أنوار الزَّهراء، ص٥٣.

وقد وقع النداء في الخطبة موقعًا حسنًا؛ إنَّها دعوة المتلقِّي لحضور العرض التقديميّ والاستماع إلى ما يقوله المتحدِّث[1]، وكان على درجة كبيرة من الأهميَّة في كلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، فقد عمدت أحيانًا إلى حذف أداة النداء؛ تقول: «**أنتم عباد الله نصبُ أمره ونهيه..**»[2]، وتقول: «**أيُّها الناس! اعلموا أني فاطمة، وأبي محمَّد صلى الله عليه وآله، أقول عودًا وبدءًا، ولا أقول ذلك سَرَفًا ولا شَطَطًا**»[3]، ولعلَّ هدفها من ذلك محو المسافة بينها وبين الناس المجتمعَين، والتركيز على مدى قربهم منها، فهم أصحاب أبيها عليه وآله الصلاة والسلام، وقفوا معه مدافعِين عن رسالته، وهم الأهل والقوم الذين يجب أن تتوجَّه لهم بالكلام المباشر، كلام القلب، والعقل، ولعلَّها في إظهار أداة النداء في موقع توجيه اللوم للمُخاطَب، ما يؤكد ما ذهبنا إليه، إذ إنَّ أداة النداء تُصبحُ جزءًا من سلاح المواجهة مع الباغي الظالم المقصود بالكلام الآتي للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام؛ تقول: «**يا ابن أبي قُحافة**»[4]، وهي إذ تنزل المنادى منزلة البُعد، فإنَّها تؤكِّد على أنَّه أخطأ بحقِّها خطأً كبيرًا، وبين حذف النداء وإثباته تظهر القدرة العالية، وإحدى أهمِّ السمات الأسلوبيَّة لكلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، وهي تجعل لكلِّ مُخاطَبٍ طريقة للخطاب، وتزن كلامها بميزان الذهب، لتعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فالأقربون لهم خطابهم، والأبعدون لهم خطابهم، ولكلِّ طبقةٍ كلامها، ولكلِّ حالٍ مقامها، وأقدار المعاني مقسومة على أقدار المقامات، وتبعًا لأوضاع المُخاطَبِين، وحالهم قُربًا أو بُعدًا[5].

(١) النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحيَّة اللغويَّة المتجدِّدة، عبَّاس حسن، دار المعارف، ج١، ط١، القاهرة، ١٩٨٧، ص٤.

(٢) النحو الوافي، ص٥٢-٥٣.

(٣) النحو الوافي، ص٥٢-٥٣.

(٤) النحو الوافي، ص٥٣.

(٥) كتاب الصناعتَين في الكتابة والشعر، أبو هلال العسكريّ، تحقيق: عليّ محمَّد البجاويّ، ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربيّ، ط٢، ص١٤١.

التداخل النصِّيّ في كلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام

لقد عرفت الثقافة العربيَّة عبر أطوارها المتعدِّدة أنماطًا أدبيَّةً ولغويَّةً انحازت في أغلبها إلى الشعر تأليفًا وإبداعًا، فهو ديوان العرب، والجامع لتراثهم، والناطق الأوَّل باسمهم، وبالرغم من سيطرته على المشغل الإبداعيّ العربيّ، فإنَّه أخلى مكانًا، أو جزءًا من المكان للكتابة النثريَّة؛ الذي تحدَّثت إليه معه عبر عصور الأدب المتتالية، وكانت أحيانًا تُبعده عن مسارها، وفي الأغلب الأعمِّ تتقاسم معه المتن اللغويّ، ولا أدلَّ على ذلك من تلك الخطب الرنَّانة؛ التي كانت موشَّحةً بالشعر، وكأنَّها تستمدُّ منه فعَّاليَّتها، ومصداق ما تريد قوله.

ويشكِّل التداخل النصِّيّ في الأدب ظاهرة تستحقُّ الاهتمام؛ لأنَّها شكل من أشكال الفنِّ الذي يتطلَّب التأمُّل والعناية، وهي تعبير عن الذاكرة الجماعيَّة للأمَّة، التي تشمل كلَّ ما تخزنه من معلومات وموروثٍ تاريخيّ، وما تحتفظ به الذاكرة من شعائر دينيَّة وطقوس، فالنصوص القديمة تشكِّل قاعًا للنصوص الجديدة في تأسيس بناها عليها، وتنطلق من خلالها لتشكيل فضاءاتها الخاصَّة التي يطبعها كلُّ مبدعٍ بسماته، ويسبغ عليها خصوصيَّة أسلوبه، لتكون تعبيرًا مباشرًا عن التجربة الإبداعيَّة للمبدع، وبذلك يبدو التناصُّ عملية استحضار واسترجاع لنصوصٍ سابقة، الأمر الذي يجعل التناص أمرًا قدريًّا لا فكاك منه[1]. وبهذا المعنى يشكِّل النص القرآنيّ حاضنة مركزيَّة للفكر والثقافة العربيَّين، فهو أسٌّ ترجع إليه الحركة الإبداعيَّة في المجتمع الإسلاميّ، كما ترجع إلى مصدره، وهو عقيدة الأصل الإسلاميّ والنصوص اللاحقة. كلُّ ذلك ارتبط بها من مختلف النواحي الاجتماعيَّة والسياسيَّة والقانونيَّة والفكريَّة، على حدِّ تعبير السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، يتجلَّى ذلك على نحوٍ واضحٍ جدًّا، من خلال التناصِّ الديني الذي اعتمدَ

(١) ينظر: أطياف الوجه الواحد دراسات نقديَّة في النظريَّة والتطبيق، د. نعيم اليافي، دمشق، ط١، ١٩٩٧، ص٨٢.

النصَّ القرآنيّ مرتكزًا له، ومرجعيَّة تاريخيَّة وشرعيَّة وقانونيَّة يستند إليها، وتكشف عن إحالاتها، والتناصُّ بهذا المعنى هو: «تعالق الدخول في علاقة مع نصٍّ حيث يلتقيان بطرق مختلفة»[1]، ولتوظيف القرآن الكريم في بداية الخطبة الشريفة أثره في الانزياح إلى أسلوب الإقناع ومنطقه الخاص، بدلًا من الاكتفاء بالشكوى فقط، وهذا الأمر منح الخطاب الموَجَّه للجمهور قوَّةً وقدرةً على التأثير النفسيّ، وغدت القضيَّة المطروحة ذات أبعاد سياسيَّة بلبوسٍ دينيٍّ شرعيّ، وتمَّ تركيز المعنى هنا ليتمحور حول فعل المخالفة لنهج رسول الله صلى الله عليه وآله، بعد رحيله، وتمَّ إبعاده عن الفردانيَّة، ليصبح قضيَّة رأي عامٍ، ولاسيما أنَّها عليها السلام قد شبَّهتم بالكافرين: «**جهنَّم لمحيطةٌ بالكافرين**»، وفي هذه المخالفة لتعاليم الرسول الكريم، صلى الله عليه وآله، تُخرجهم من طاعة الله عزَّ وجلَّ، فالكلام يستبطن تحذيرًا شديد اللهجة من نتائج هذا الفعل المُدان.

إنَّ عمليَّة تفكيك كلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام وتأمُّله على مستوى الخطاب، يكشف بوضوح أنَّ التناصَّ يشكِّلُ سمةً أسلوبيَّةً ظاهرة فيه، وعلامة مميَّزة في البناء النصِّيّ الذي يستند إلى الموروث في تشكيل بنيته اللغويَّة، بما يحمله ذلك الإرث من مخزونٍ هائلٍ تحقَّق عبر تراكمٍ في الزمن، وهو يُكسب النصَّ فضاءات جديدة لها امتداداتها في التاريخ؛ ولعلَّ في توظيفها للنصِّ القرآنيّ ما يؤكِّد أنَّها تعدُّ المرجعيَّة الأساس التي ينطلق منها الفكر، وعلى الخطاب أن ينحو سمتَ النصِّ القرآني، وأن يتوازى مع دلالاته، وأن يقفو أثره في اللفظ والمعنى، ولعلَّ الموقف الذي وجدت به السيِّدة الزَّهراء عليها السلام نفسها، أوجبَ عليها الاحتكام إلى النصِّ القرآني في كلِّ فاصلة خطابيَّةٍ، فكيف لأحدٍ أن يخرج عن النصِّ القرآنيّ وأحكامه القاطعة الواضحة. وقد نوَّعت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في اقتباسها من القرآن الكريم، وذلك حسب الحال والمقام، وما يوجبه من اقتباسٍ وخصوصيَّةٍ؛

(١) تحليل الخطاب الشعريّ (إستراتيجيَّة التناصّ)، د. محمَّد مفتاح، دار التنوير للطباعة والنشر، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٥، ص١٢١.

فقد أوردت عليها السلام في سياق كلامها عن نفسها وموقع أبيها صلوات الله عليه وآله وسلَّم، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وهذه الآية، كما نلاحظ، غدت جزءًا من السياق، فهي تدعَم كلامَها الشريف بها، لكنَّها تُكمل بعدها ما بدأته قبلها بكلِّ سلاسةٍ، تعكس بلاغتها الفريدة وقدرتها، على أنَّ التفاعل النصِّيّ مع القرآن صعب وشاقٌّ على نفسه الكريمة، وما عَنِتُّم: أي مشقَّتكم[2]، فالرسول الكريم عليه صلوات الله عليه وآله وسلم حريص على قومه، لا يُريد بهم سوى الخير والبُعد عن المشقَّة، وهو بهم رحيم شفيق، وهذا المعنى هو ما تريد تأكيده في نفوس السامعين؛ فصاحب الرسالة جاء بها لصالح قومه ولخيرهم.

كما عمدت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام إلى الاقتباس الجزئي من الآية القرآنيَّة: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[3]، التي جاءت في سياق التهديد والوعيد بالعاقبة والجزاء، لمن يخالف كلام الله وأحكام كتابه؛ فهذا الاقتباس ذو وظيفة مهمَّة لجهة تليين موقف الخصم عبر تهديده بما ينتظره من عذاب، فمعنى كلام الله: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ هو المآل الشنيع الذي سيؤولون إليه ويرجعون[4]، وهذه الدلالة تتوافق جيِّدًا، وتنسجم مع مراد كلام السيِّدة الزَّهراء ومقام قولها الشريف. كما نجد اقتباسًا أسلوبيًّا على درجة كبيرة من الأهميَّة، ومن خلال تركيب مجتزأ من الآية الكريمة، يتمُّ استحضار حدثٍ كبيرٍ له دلالته على مستوى الدعوة المحمَّديَّة، ويفيد هذا في تحويل الكلام إلى سياق الحدث وفضاءاته الحاصلة، فنحن هنا نعود بالزمن وبلمحة بصر إلى

(١) التوبة: ١٢٨.
(٢) ينظر: القرآن الكريم تفسير وبيان مع أسباب النزول للسيوطيّ، إعداد محمَّد حسن الحمصيّ، دار الرشيد، مؤسَّسة الإيمان، بيروت، دمشق، ص٢٠٧.
(٣) الشعراء: ٢٢٧.
(٤) ينظر: القرآن الكريم تفسير وبيان مع أسباب النزول للسيوطيّ، ص٣٧٦.

ما وقع في الصَّفا، تقول عليها السلام: «**أنا ابنة نذيرٍ لكم بين يدي عذابٍ شديد**»[1]، وقد جاء في تفسير الآية الكريمة من سورة سبأ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾، «أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله صعد الصَّفا ذات يومٍ، فقال: «**ياصباحاه**»، فاجتمعت إليه قريشٌ، فقالوا ما لكَ؟ فقال: «**أريتم لو أخبرتكم أنّ العدو يصبِّحكم أو يمسيكم أم كنتم تصدِّقوني؟**»، قالوا: «بلى!»، قال صلى الله عليه وآله: «**فإني نذيرٌ لكم بين يديْ عذابٍ شديدٍ**»، فقال أبو لهب: تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾»[2]. فذلك الخطاب استدعى هذا المعنى، فقد استطاعت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام استدعاء حدث فائق الأهميَّة ومفصليّ في تاريخ الدعوة المحمَّديَّة، ألا وهو الجهر بالدعوة؛ وهذا الحدث الذي قوبل بالرَّفض، استدعى نزول سورة كاملة في أبي لهب الذي كذَّب الرسول، ولم يُصدِّق ما جاء به، بل تكلَّم معه بما لا يليق بمقام النبوَّة وصفائها وجلال موقعها وهيبته. وهذا يوضِّح المقدرة البلاغيَّة الفائقة عندها، فكلامها موضوع في موضعه، لا يُمكن حذف أيِّ جزءٍ منه، ولاسيما أنَّ للنصِّ القرآني، سواء كان جزءًا من آية، أم كان آية كاملة، قيمة استثنائيَّة في دعم القول وإسناد دلالته عبر المعنى المباشر، أو دلالة الحدث الذي تُحيل عليه، ولقد اختارت من الأحداث أهمَّها وأكثرها إشارة إلى مصير المتعنِّتين الراغبين عن طريق الحقِّ.

وقد عمدت في مكان آخر إلى الاقتباس التحويليّ، حيث أفادت من النصِّ القرآنيّ الكريم الغائب في نصِّ خطبتها الحاضر، بعد أن أعادت صوغ الآية القرآنيَّة ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[3] بشكل جديد في خطبتها؛ وعلى النحو: «**الممتنعُ من الإبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيَّته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوَّنها**

(١) أنوار الزَّهراء، ص٥٣-٥٤

(٢) القرآن الكريم تفسير وبيان مع أسباب النزول للسيوطي، ص٤٢٣

(٣) الأنعام، الآية١٠٣

بقدرته، وذرأها بمشيئته، من غير حاجةٍ منه إلى تكوينها، ولا فائدةٍ له في تصويرها»[1].

نحن هنا أمام نصَّين، غائب وحاضر، وفيه غدا النصُّ الحاضر يمور على مستوى الدلالة، ويمتح من معين النصِّ الأوّل، ولا يمكن تأويله وفهم مراميه ومقاصده سوى بالعودة إلى النصِّ الغائب الذي يُحيل عليه دلالةً ومعنًى، ويُكسبه من منطقه اللغويّ الشيء الكثير، فالنصُّ الغائب هو منبع الفنِّ وموئل الدلالة على مستوى اللفظ والتركيب معًا، مع الانتباه إلى قدرة المُتكلِّم على الاستعادة والتحويل والصوغ وتبنِّي الفكر على صعيد النسج والصوغ الفعَّال، ولاسيما أنَّه يمتلك ثروة لغويَّة هائلة جدًّا، تجعل من التداخل النصِّيّ مع القرآن الكريم سمةً أسلوبيَّةً فاعلةً في الخطبة الشريفة للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام.

الخاتمة

كشفت نتائج التحليل لكلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام وأثبتت بلاغة الخطاب وسماته الأسلوبيَّة الخاصَّة والمميِّزة له، فهو خطابٌ معرفيٌّ إقناعيّ، استعادت فيه تاريخ الدعوة المحمَّديَّة، ودافعت، على مستوى اللغة والخطاب، عن حقِّها بنبرة عالية استندت للنصِّ القرآنيّ، جاعلةً منه مرجعها الأساس، ليكون التداخل النصِّيّ بين الخطابَين، خطابها والخطاب القرآنيّ، من أهمِّ السمات الأسلوبيَّة لكلامها الشريف الذي نهل من معين القرآن الكريم على مستوى الشكل والدلالة النصيَّة، لتقدِّم تجربة لغويَّة بلاغيَّة عميقة وناضجة، استطاعت من خلالها الانطلاق من الذات المستَلَبة المقهورة إلى الصوت الجمعيّ النافذ، ذي الرؤية الشموليَّة الناتجة عن وعي ومعرفة عميقَين بالدين الإسلاميّ والقرآن الكريم، وما يُعبّر عنه فكرًا ومعنًى، وقد تخطَّى إبداعها الشريف مقتضيات النوع الأدبيّ المُقيَّد بعناصره الأساسيَّة، ومع امتثالها الجزئيّ لقواعد النوع، إلَّا أنَّها صارعتها

(١) الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ، دار المتَّقين للثقافة والعلوم والطباعة والنشر، ط١، بيروت، ٢٠١٠، ج١، ص١١٦.

وعدَّلت مسارها لتوائم مسعى الإنجاز النصِّيّ الخاصِّ بها، وجاء كلامها الشريف ذا بنية لغويَّة وسمات أسلوبيَّة قادرة على التعبير عن تجربتها بصورة تعتمد الجِدَّة، وفيها تتوهَّج اللغة وتوحي وتُبطن أكثر ممَّا تكشف، مع الانتباه إلى التماسك النصِّيّ، والانسجام الدلاليّ الذي حكم آليَّات النصِّ وتقاناته الفنيَّة والأسلوبيَّة عبر الأدوات الرابطة لجُملهِ ومقاطعهِ.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. ابن قتيبة وتأويل مُشكل القرآن، شرحَه ونشره السيِّد أحمد صقر، مكتبة التراث، ط٢، ١٩٧٣.

٢. الاحتجاج، الطبرسيّ، أحمد بن عليّ (ت٥٩٠هـ)، تحقيق محمَّد باقر الخرسان، منشورات دار النعمان للطباعة، ج١.

٣. الأسلوب دراسة بلاغيَّة تحليليَّة لأصول الأساليب الأدبيَّة، د. أحمد الشايب، مطبعة السعادة، ط٤، مصر، ١٩٥٦.

٤. الأسلوبيَّة في النقد العربيّ الحديث دراسة في تحليل الخطاب، فرحان بدري الحربيّ، المؤسَّسة الجامعيَّة للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٣.

٥. الأسلوبيَّة وتحليل الخطاب، نور الدين السد، دراسة في النقد العربيّ الحديث (الأسلوبيَّة والأسلوب)، ج١، دار هومة، الجزائر، ١٩٩٧.

٦. الأسلوبيَّة، مدخل نظريّ ودراسة تطبيقيَّة، فتح الله أحمد سليمان، ط١، دار الآفاق العربيَّة، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٧. أُصُول النثر الأدبيّ العَربيّ، وليم مارسيه، ترجمة محمود المقداد، مجلَّة التراث العربيّ، العدد ١٨، السنة الخامسة، كانون الثاني (يناير)، دمشق، ١٩٨٥.

٨. أطياف الوجه الواحد دراسات نقديَّة في النظريَّة والتطبيق، د. نعيم اليافي، دمشق، ط١، ١٩٩٧.

٩. أنوار الزَّهراء عليها السلام، السيِّد حسن الأبطحيّ، ترجمة ناصر النجفيّ، مؤسَّسة النبراس، العراق، ط١، ٢٠٠٣.

١٠. البنى الأسلوبيَّة دراسة في (أنشودة المطر) للسيَّاب، حسن ناظم، ط١، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٢م.

١١. بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان الخطابيّ، تحقيق محمَّد خلق الله، محمَّد زغلول سلام، دار المعارف.

١٢. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط١، ١٩٦٨، ج١.

١٣. تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبريّ)، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط. بلا، ١٩٦١.

١٤. تحليل الخطاب الشعريّ (إستراتيجيَّة التناص)، د. محمَّد مفتاح، دار التنوير للطباعة والنشر، المركز الثقافي العربيّ، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٥.

١٥. الخطابة في صدر الاسلام، إحسان عبَّاس، مطبعة نهضة مصر، ١٩٨٢.

١٦. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانيّ، تحقيق: محمَّد الألتنجيّ، ط١، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٩٥، ج١.

١٧. الزَّهراء المثل الأعلى للمرأة المسلمة، السيِّد شريف السيِّد العامليّ، دار البلاغة، قم، ط١.

١٨. السمات الأسلوبيَّة في الخطاب الشعريّ، محمَّد بن يحيى، دار عالم الكتب الحديث، بيروت، ط١، ٢٠١٠.

١٩. الشعريَّة العربيَّة، أدونيس، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٨٩.

٢٠. الصورة الفنيَّة معيارًا نقديًّا منحنى تطبيقيّ على شعر الأعشى الكبير، د. عبد الإله الصائغ، دار الشؤون الثقافيَّة العامة، بغداد، ١٩٨٧.

٢١. الفن ومذاهبه في النثر الأدبيّ، د. شوقي ضيف، ط٣، القاهرة، ١٩٦٠.

٢٢. في لغة الشعر، د. إبراهيم السامرَّائيّ، دار الشؤون الثقافيَّة العامَّة، بغداد.

٢٣. القرآن الكريم تفسير وبيان مع أسباب النزول للسيوطيّ، إعداد محمَّد حسن الحمصيّ، دار الرشيد، مؤسَّسة الإيمان، بيروت، دمشق.

٢٤. كتاب الصناعَتَين في الكتابة والشعر، أبو هلال العسكريّ، تحقيق عليّ محمَّد البجاويّ، ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربيّ، ط٢.

٢٥. مبادئ اللسانيَّات، أحمد محمَّد قدور، دار الفكر، ط١، دمشق، ١٩٩٦.

٢٦. المدارس والأنواع الأدبيَّة، شفيق بقاعي وسامي هاشم، المكتبة العصريَّة، بيروت، ١٩٧٨.

٢٧. المستطرَف في كلِّ فنٍّ مستظرَف، شهاب الدين الأبشيهيّ، تحقيق: د. مفيد محمَّد قميحة، دار الكتب العلميَّة، ط٢، بيروت، ١٩٨٦، ج٢.

٢٨. معجم مصطلحات البلاغة العربيَّة في اللغة والأدب، مجدي وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٩.

٢٩. مقالات في الأسلوبيَّة، د. منذر عيَّاشي، منشورات اتِّحاد الكتَّاب العرب، دمشق.

٣٠. مقدِّمة في نظريَّة الأجناس الأدبيَّة، خلدون الشمعة، مجلَّة المعرفة، العدد١٧٧، السنة ١٩٧٦.

٣١. من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف، ط.بلا، مصر، ١٩٣٦.

٣٢. النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحيَّة اللغويَّة المتجدِّدة، عبَّاس حسن، دار المعارف، ج١، ط١، القاهرة، ١٩٨٧.

٣٣. الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة، حمَّادي صمود، الدار التونسيَّة للنشر، ١٩٨٨.

التوكيد في نصِّ الخُطبة الفَدَكيَّة
دراسةٌ في الغرض والإجراء

م. أحمد راضي جبر الشمَّريّ
المديرية العامَّة للتربية في بابل

ملخَّص البحث

تعدُّ الخطبة الفَدَكِيَّة من أبرز تراث البيت النبويّ، لما تحمله من مضامين تمثِّل الإسلام المحمَّديّ خير تمثيل، وقد قُسِّمت الخطبة على أقسام تبعاً للأفكار التي أرادت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام إيصالها إلى المسلمين، وقد اعتمدت عليها السلام على أسلوب التوكيد كثيرًا في هذه الخطبة، تنبيهًا لهم على ما أصاب الإسلام من انحراف بعد رحيل النبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

لقد سلَّط الباحث الضوء أوَّلًا على ما سبق الخطبة من سياق خارجيّ يتمثَّل بالوضع الذي عاشته الأمَّة في الحقبة التي أُلقيت فيها الخطبة، ويتمثَّل بالإيحاءات التي اتَّخذتها السيِّدة الزَّهراء وسيلةً للتأثير في المتلقِّين على امتداد الأزمنة.

ثمَّ انتقل الباحث إلى دراسة السياق الداخليّ لنصِّ الخطبة الفدكيَّة، مختارًا من كلامها التراكيبَ التي ضمَّت أساليب متنوِّعة من التوكيد، ناسبت مقتضى الحدث والمقام.

وقد اقتضت المادَّة المستقراة، وضع خطَّة لدراسة صور التوكيد في الخطبة، بتقسيمها على مسائل، تناولتْ كلُّ مسألة صورةً من صور التوكيد القارَّة في الدراسات اللغويَّة،

كالتوكيد بأسلوب الحصر والقصر، أو بأدوات التوكيد، أو الصور المستقاة من تعدُّد بعض الصيغ، كالصفات أو الأحوال، أو الاستفهام المتكرِّر.

الكلمات المفتاحيَّة: الخطبة الفدكيَّة، السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، التوكيد، المتلقِّي.

مقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خيرِ الأنام محمَّد بن عبد الله وعلى آله الطيِّبين الكرام.

أما بعدُ..

فالبحث في كلام العترة الطاهرة أمرٌ صعبٌ مُستصعبٌ، فهم الترجمان لكلام الله تعالى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن ذلك كلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام التي هي الامتداد الطبيعيّ للنبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وقطبُ الرحى الذي تدور عليه العوالم.

لقد ورثتْ ممَّا ورثته من أبيها الفصاحة والبلاغة، وممَّا أُثِر عنها الخطبةُ الفدكيَّةُ التي عُني بها الباحثون كثيرًا، فلم ينضب معينُها الثرُّ، بل هو كالشجرة المعطاء تؤتي أُكُلها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها.

وقد حباني الله تعالى أن أُدلي دلوي في دراسة هذه الخطبة، مسلِّطًا الضوء على جانبٍ مهمٍّ منها، وهو طرائق التوكيد التي استعملتها عليها السلام في خطبتها، ومبرِّزًا الغاية التي من أجلها جيء بالتوكيد، ومنها تنبيه المخاطبين وتقريعهم وصعقهم، لعلَّهم يرجعون عمَّا أصابهم من انحرافٍ وانقلابٍ بعد انتقال النبيِّ الأكرم إلى الرفيق الأعلى، فكانوا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ (آل عمران/ ١٤٤).

قسَّمْتُ البحث على مسائل أربع، تضمَّنت كلُّ مسألة منها مجموعة من الأمثلة، وهي المسألة الأولى: التوكيد بأسلوب تقديم ما حقُّه التأخير، والمسألة الثانية: التوكيد بتعدد النداء، والمسألة الثالثة: تعدُّد الاستفهام، والمسألة الرابعة: التوكيد بالبدل، وسُبِقَت هذه المسائل بتسليط الضوء على فعل السيِّدة الزَّهراء عليها السلام قبل الخطبة، وتمهيد، وتلا هذه المسائل أهم ما توصَّل إليه البحث من نتائج.

أسأل الله تعالى أنْ يتقبلَ منَّا هذا العمل، وأنْ يعفوَ عمَّا فيه من الزلَّات والهِنات، فالخطأ والنقص من صفات البشر، والكمال للهِ وحده، وآخر دعوانا أن الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلَّى الله على محمَّد وآله الطيِّبين الطاهرين.

التمهيد
وظائف التوكيد

يعدُّ التوكيد من الوسائل التي يستعملها المتكلِّم لإقناع المتلقِّي بما يريد أن يوصله إليه، ولذلك تتعدَّد أشكال الجملة العربيَّة على الرغم من أنَّ المعنى واحدٌ في نظر مَن يقرأ النصَّ أو يسمع الكلام، ولكن بعد التمعُّن يجد الاختلاف واضحًا بينها.

وهذا من المؤاخذات التي أخذها بعضهم للطعن في كلام العرب، حتَّى وصل نقدهم إلى كلام الله تعالى، ومن ذلك ما رواه عبد القاهر الجرجانيّ من ملاحظة الفيلسوف الكنديّ لهذا التكرار للألفاظ، والمعنى واحدٌ، ومثَّل بقول العرب: «عبدُ اللهِ قائمٌ، وإنَّ عبدَ اللهِ قائمٌ، وإنَّ عبدَ اللهِ لقائمٌ)، فأجابه المبرّد بأنَّ «المعاني مختلفةٌ؛ لاختلافِ الألفاظِ، فقولُهم: (عبدُ اللهِ قائمٌ) إخبار عن قيامه، وقولهم: (إنَّ عبدَ اللهِ قائمٌ) جوابٌ عن سؤالِ سائلٍ، وقوله: (إنَّ عبدَ اللهِ لقائمٌ) جوابٌ عن إنكارِ مُنْكِرٍ لقيامَهُ، فقد تَكرَرَّت الألفاظُ لتكرُّرِ المعاني»[1].

ومن هذا النص يتَّضح مراعاة العربِ لحال السامع ومعرفته، وبناء كلامهم على وفق تلك الحال.

ولدفع هذه الشبهات عن القرآن الكريم، ولإظهار بلاغته وتبيان معانيه ومقاصده، أُشْتُرِطَ على المفسِّرِ أنْ يكون ملمًّا «بأسباب النزول والأحداث والوقائع الملابسة لنزول

(١) دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجانيّ (٤٧١هـ)، تحقيق محمود محمَّد شاكر، مطبعة المدنيّ، القاهرة، ط٣، ١٩٩٣م: ٣١٥.

الآية أو النصّ القرآنيّ المعيَّن»[1]، فإنَّ معرفة السياق الخارجيّ للنصِّ يبيِّن العلَّة التي جيء بالتوكيد بطرائقه المتعدِّدة لتحقيقها.

وقد بسط النحويُّون القول في التوكيد، وصنَّفوه على أنواع، فمنه التوكيد اللفظيّ، أي: تكرار اللفظ عينه، كقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾ (الفجر/ ٢١)، أو توكيد معنويّ بألفاظ معيَّنة، وهناك أدوات استعملها العربيُّ في كلامه لأداء وظيفة التوكيد، وهي كثيرة، وليس المقامُ مقامَ البسط فيها، إلَّا أنَّ هذا الأسلوب، على الرغم من أهميَّته، جاء مبثوثًا في المصنَّفات النحويَّة، وفي أبواب متفرِّقة؛ لقوَّة نظريَّة العامل التي كانت الحاكمة في تنظيم المادَّة النحويَّة في مؤلَّفاتهم، فالمعيار في توزيعها هو العمل في آخر الألفاظ، لا المعاني التي تؤدِّيها.

وقد ورد التوكيد في كلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في خطبتها المعروفة بالخطبة الفدكيَّة كثيرًا، ولم تكن الغاية منه إقناع المخاطَبين فحسبُ، وإنَّما بيان الحال التي وصل إليها المسلمون بعد وفاة النبيِّ الخاتم صلى الله عليه وآله، وانحراف كثيرٍ منهم عن الجادَّة، ومن جهة أخرى تقريعهم وتنبيههم علَّهم يرجعون، ويتَّضح ذلك من فعلها عليها السلام قبل الشروع بالخطبة. وسيبيِّن البحث هذه الدلالات عند تحليل كلامها (سلام الله عليها).

وقد ذكرَ مَن نقل هذه الخطبة سببها، وحال السيِّدة فاطمة عليها السلام، وفعلها قبل أن تبدأ بها، وقد يكون هذا ممَّا اختصَّت به هذه الخطبة، فقد روي أنَّه: «لـمَّا بلغ فاطمة عليها السلام إجماع أبي بكر على منعها فدكًا، وانصراف عاملها منها، لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لـمَّة من حفَدَتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتُها مشيةَ رسول الله صلى الله عليه وآله»[2].

(١) علم الدلالة التطبيقيّ في التراث العربي، د. هادي نهر، دار الأمل للنشر، الأردن، ط١، ٢٠٠٧م: ٢٧٠.

(٢) الخطبة الفدكيَّة للزَّهراء عليها السلام، إعداد عبد الرسول زين الدين، مؤسَّسة قصبة الياقوت للطباعة والنشر، النجف الأشرف، ط١، ١٤٤١هـ: ٥.

فهذا السبب الظاهر لخطبتها، حتَّى سُمِّيت بذلك السبب، وهي أرض (فدك).

قسَّمت السيِّدة الزَّهراءعليها السلام خطبتها على شكل فقرات، تضمَّنت كلُّ فقرة منها الكلام على معنًى معيَّن، فقد ابتدأت بحمد الله والصلاة على نبيِّه، وقد ركَّزتعليها السلام على «أدقِّ المباحث العلميَّة في ما يرتبط بمعرفة الله عزوجل.. وهكذا عند استدلالها بآيات القرآن استدلالًا فقهيًّا، ومعالجتها للآيات العامَّة والمطلقة ودعوى التخصُّص»[1].

ولعلَّ أهمَّ ما إنمازت به هذه الخطبة، هي المزاوجة بين العقل والروح، فهي من جهة تتَّكئ على العقل لتبيان العلوم الإلهيَّة وعلل الأحكام الفقهيَّة كالصلاة والصوم والزكاة وإمامتهم، ومن جهة أخرى تستند إلى عاطفة القوم لتليين تلك القلوب التي انحرفت عن جادَّة الصواب؛ لعلَّهم ينصرونها ويُرجِعون حقَّها التي سُلِب. وهذه المزاوجة تحتاج إلى أسلوبٍ خاصٍّ من الصعب الإتيان بمثله، ولاسيما إذا ما علمنا أنَّ الخطيب هو امرأة تخطب بمحضر رجال، فضلًا عن ارتجالها لتلك الخطبة، فهذا يبيِّن مكانة السيِّدة الزَّهراء العلميَّة الكبيرة، حتَّى وُصِفَ كلامُها بأنَّ «عليه مسحة من نور النبوَّة، وفيه عَبقة من أرج الرسالة؛ إذ كانت عند كلامها كأنَّها تُفرِغُ عن لسان رسول الله»[2].

ما قبل الخطبة

أوَّل فعلٍ فعلته السيِّدة الزَّهراءعليها السلام على المنبر، هو فعلٌ غير كلاميّ، فقد بَكَتْ وأنَّتْ على النبيِّ الأكرمصلى الله عليه وآله، فقد: «جلست، ثمَّ أنَّت أنَّةً أجهشَ القوم لها بالبكاء، فارتجَّ المجلس، ثمَّ أمهلت هنيهة حتَّى اذا سكن نشيج القوم، وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على رسول الله، فعاد القوم في بكائهم، فلمَّا

(١) إنِّي فاطمة وأبي محمَّد، تأمُّلات في خطبة الزَّهراء وبعض شؤونها، فوزي آل سيف، دار الوارث للطباعة والنشر، كربلاء المقدَّسة، ٢٠٢٢م: ٧٥.

(٢) أساليب الإنشاء في كلام السيِّدة الزَّهراء- دراسة نحويَّة بلاغيَّة، عامر سعيد نجم، العتبة العلويَّة المقدَّسة، ٢٠١١م: ٧.

أمسكوا عادت في كلامها»[1].

والحدث غير الكلاميّ أحد وسائل التعبير والإبانة عن المعاني، ولعلَّ أوَّل مَن ذكر ذلك الجاحظ (٢٥٥هـ) في كلامه عن وسائل البيان، قال: «البيانُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كَشَفَ لك قناعَ المعنى، وهتكَ الحُجُبَ دونَ الضَّميرِ، حتَّى يُفْضِيَ السامعُ إلى حقيقته، ويهجمَ على محصوله، كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أيِّ جنسٍ كان ذلك الدليل؛ لأنَّ مدارَ الأمر، والغايةَ التي إليها يجرى القائلُ والسامعُ، إنَّما هو الفهم والإفهام، فبأيِّ شيءٍ بلغْتَ الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذاك هو البيان في ذلك الموضع»[2]، فهو لا يحصر البيان بوسيلة اللسان فحسب، وإنَّما قد يحصل بأيِّ طريقةٍ كانت؛ لأنَّ الغاية عنده الفهم والإفهام، وعدَّ الطرق المبينة للمعاني خمسة، وهي: «اللفظ ثمَّ الإشارة ثمَّ العقد ثمَّ الخطُّ ثمَّ الحال، وتسمَّى نصبة، والنَّصبةُ هي الحالُ الدالَّة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات»[3].

فقد مهَّدت عليها السلام لخطبتها بتذكير القوم برسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن بطريقة البكاء والأنين، وقد نجحت بتهيئة الأرضيَّة للإصغاء إليها، فقد ارتجَّ المجلس بالبكاء والنحيب، فسكتت حتَّى سكتوا عن بكائهم، ثمَّ شرعت بخطبتها.

(١) أساليب الإنشاء في كلام السيِّدة الزَّهراء: ٦.

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٩٨٨م: ٣٤.

(٣) البيان والتبيين: ٣٥.

المسألة الأولى

التوكيد بأسلوب تقديم ما حقُّه التأخير

الأصل في ترتيب الجملة الاسميَّة أن يتقدَّم المبتدأ على خبره، ولكن قد يلجأ المتكلِّم إلى الخروج عن هذا الترتيب؛ لسببٍ ما اقتضته الصنعة النحويَّة، فقد وضع النحويُّون قاعدة أنَّه لا يجوز الابتداء بالنَّكِرة إلَّا إذا أفادت معنًى[1]، فإن كان المبتدأ نكرة والخبر شبه جملة، فيجب تقديم الخبر على المبتدأ، كقولنا: في الدار رجلٌ. وهذا التقديم ليس له أثرٌ دلاليٌّ، والذي يهمُّنا في بحثنا التقديم الجائز، وهو ما يقتضيه السياق أو المقام، فعلى الرغم من أنَّ المبتدأ معرفةٌ، إلَّا أنَّ المتكلم قد يؤخِّره ويقدِّم الخبر الذي قد يكون نكرة؛ لأنَّ العرب «يقدِّمون الذي بيانه أهمُّ لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعًا يهمَّانهم ويعنيانهم»[2].

وتقديم ما حقُّه التأخير: «من الخصائص المميَّزة للعربيَّة، وتظهر هذه المزيَّة من التركيب في الجملة، إذ يعمد المتكلِّم إلى تقديم ما حقُّه التأخير، أو يؤخِّر ما حقُّه التقديم؛ لأجل معنًى معيَّنٍ يطمح أن يوصله إلى المخاطب»[3]، ولعلَّ هذا ما دفع بعبد القاهر

(١) ينظر: شرح الرضيّ على الكافية لابن الحاجب، رضيّ الدين محمَّد بن الحسن الاستراباديّ (٦٨٦هـ)، تحقيق يوسف حسن عمر، جامعة قار يونس، ليبيا، ١٩٧٥م: ١/ ٩٣.

(٢) الكتاب، سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ)، تحقيق عبد السلام محمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م: ١/ ٣٤.

(٣) الدلالة النحويَّة في شرح نهج البلاغة لميثم بن عليّ البحرانيّ، أحمد راضي جبر، رسالة ماجستير، جامعة بابل، كليَّة التربية للعلوم الإنسانيَّة، ٢٠١٣ م: ١٠٤.

الجرجانيّ أن ينعت التقديم والتأخير بأنَّه «بابٌ كثير الفوائد، جمُّ المحاسن، واسعُ التصرُّف، بعيدُ الغاية، لا يزال يفترُّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرًا يروقك ويلطف لديك موقعُه، ثمَّ تنظر فتجد سببَ أن راقك، ولطُفَ عندك أن قُدِّمَ فيه شيءٌ، وحُوِّل اللفظ عن مكانٍ إلى مكانٍ»[1].

ويتجلَّى ذلك في قولها عليها السلام في الثناء على الله تعالى: «**ولهُ الشُّكرُ على ما ألهمَ**». فعلى الرغم من أنَّ المبتدأ معرفة (الشُّكر)، إلَّا أنَّه أُخِّرَ، وقُدِّمَ الجار والمجرور عليه، وذلك لتأكيد أنَّ الشُّكر ممَّا إنماز به الله تعالى من سائر خلقه؛ لأنَّ الشُّكر ممَّا هو معلوم عند المخاطب، إلَّا أنَّ ما ينتظره هو المستحقُّ للشُّكر أو المخصوص به، فيجب تقديم المبتدأ إن «كان المخاطب خالي الذهن ممَّا ستخبره.. فتقول: زيدٌ قائمٌ، ومحمَّدٌ منطلِقٌ، فهذا إخبارٌ أوليٌّ لا يعلمه السامع، ولكن إذا كان السامع يظنُّ أنَّ زيدًا قائدٌ لا قائم، انبغى أن تقدِّم له الخبر؛ لإزالة الوهم من ذهنه، فتقول له: قائم زيدٌ»[2].

والأمر عينه في كلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، فأرادت تبيان أنَّ الشُّكر مخصوصٌ بالله تعالى، ولاسيما إذا أفدنا دلالة الملكيَّة لحرف الجرِّ (اللام) في (له)، فقد اكتفى سيبويه بذِكره لهذا الحرف [3]، وإنْ ذَكَرَ مَن جاء بعده معانَي أخرى للام[4]، إلَّا أنَّه يمكن إرجاع تلك المعاني لمعنى الاختصاص أو الملك، فدلالة اللام على الاستحقاق يعضد ما ذهب إليه الباحث من دلالة تقديم الخبر على اختصاص الشُّكر بالله تعالى.

وفي قولها عليها السلام عن نِعَم الله تعالى التي لا تعدُّ ولا تُحصى: «**جمَّ عن الإحصاء عددها،**

(١) دلائل الأعجاز: ١٠٨.

(٢) معاني النحو، د. فاضل صالح السامرَّائيّ، دار الفكر للطباعة والنشر، الأردن، ط١، ٢٠٠٠م: ١/ ١٣٧.

(٣) ينظر: كتاب سيبويه: ٢/ ٣٠٤.

(٤) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاريّ: ٣/ ١٤٩-١٥٠.

ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها».

ويستشف الباحث من تقديم الجار والمجرور في الجمل دلالة التوكيد على نفي الإحصاء أو المجازاة أو الإدراك للنِّعم الإلهيَّة، فقد فصلت بين الفعل والفاعل، وهما كالكلمة الواحدة، فيُبنى الفعل الماضي على السكون عندما يتَّصل به ضمير الرفع، نحو الفعل (ذَهَبَ)، فعند اتِّصاله بنون النسوة مثلًا، يُسَكَّنُ آخر الفعل؛ «لاتِّصال هذه النون به، هربًا من توالي الحركات في كلمة واحدة، إذا كانت النون ضمير فاعل، وهو كالجزء من الفعل، فاشتدَّ اتِّصاله به، فكان معها كالكلمة الواحدة، وكلمة واحدة لا تتوالى فيها أربع حركات، ولا بدَّ أن يتخلَّلها ساكن حاجز لفظًا أو تقديرًا»[1]، ولذلك لا يجوز العطف على الفاعل إذا كان ضميرًا متَّصلًا إلَّا أن نأتي بضمير منفصل مناسب، كما في قوله تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ (البقرة/ ٣٥)؛ لأنَّه لا يجوز العطف على بعض الكلمة، فالفعل والفاعل كالكلمة الواحدة، وعلى الرغم من هذا الاتِّصال والتمازج بين الفعل والفاعل، قد يلجأ المتكلِّم إلى الفصل بينهما؛ لاقتضاء المعنى، ومن ذلك قول السيِّدة الزَّهراء عليها السلام المتقدِّم، فقد قدَّمت متعلِّقات الأفعال على فاعليها؛ لتسليط الضوء على تلك المتعلِّقات التي، فيحتمل في قولها: «**جمَّ عن الإحصاء عددُها**»، أنْ كَثُرَ عدد هذه النِّعم في حال إحصائها، فيعجز العادُّ أن يحصيها؛ لكثرتها وتنوُّعها؛ لأنَّ من دلالات (جمَّ) الكثرة، أو قد يكون معنى الجملة، عجز العادِّ وانقطاعه عن تعداد تلك النِّعم، استنادًا إلى دلالة (جمَّ) على المحْو أو النفي، فقولنا: جمَّ الكبشُ، أي ليس له قرنٌ[2].

(١) المرتجل في شرح الجمل، أبو محمَّد عبد الله بن أحمد بن الخشَّاب (٥٦٧هـ)، تحقيق عليّ حيدر، دمشق، ١٩٧٢م: ٣٨.

(٢) ينظر: معجم ديوان الأدب، إسحاق بن إبراهيم الفارابيّ (٣٥٠هـ)، تحقيق د. أحمد مختار عمر، مؤسَّسة دار الشعب للصحافة، القاهرة، ٢٠٠٣م: ٣/ ١٥١، والبارع في اللغة، أبو عليّ القالي (٣٥٦هـ) تحقيق هشام الطعَّان، مكتبة النهضة، بغداد، ط١، ١٩٧٥م: ٥٩٩.

إنَّ كثرة النِّعم وعددها معلومان عند المتلقِّي، ولذلك أخَّرت عليها السلام العدد، ولكنَّ المجهول لدى المتلقِّي هل يستطيع إحصاء تلك النِّعم، فأرادت بيان استحالة ذلك الإحصاء، حملًا على دلالة (جمَّ) على الكثرة أو الانقطاع، فكِلَا المعنَيين يؤدِّي الوظيفة عينها، وهي عجز العادِّ أن يُحصي تلك النِّعم. وعلى هذا المعنى فقِس الجملَتين الأُخْرَيَيْنِ «**ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها**».

ونجد التوكيد بتقديم ما حقّه التأخير في قولها عليها السلام في وصف القرآن: «**قائدٌ إلى الرِّضوان أتباعه، مؤدٍّ إلى النجاة إسماعه، به تُنال حجج الله المنوَّرة**».

فأنت ترى تقديم الخبر (قائدٌ) على الرغم من أنَّه نكرة، فأصل التركيب (اتِّباع القرآن قائدٌ إلى الرِّضوان)، إلَّا أنَّها عليها السلام أعادت تركيب الجملة بما يناسب الدلالة التي تريد إيصالها إلى المتلقِّين، وهي بيان نتيجة اتِّباع القرآن أو إسماعه، فالمبتدأ معلوم عندهم، ولذلك أُخِّرَ، وقدِّمت ما هو مجهول لديهم؛ للعناية به والتوكيد عليه، وهو طريقة للحثِّ على اتِّباع القرآن الكريم؛ لأنَّه قائدٌ إلى رضوان الله تعالى، ومؤدٍّ إلى نجاتهم من المهالك الدنيويَّة والأُخرويَّة بقراءته وإسماعه للآخرين، واستعملت عليها السلام صيغة اسم الفاعل الدالِّ على الحال والاستقبال، وهو قائم مقام الفعل المضارع[1].

ويرى الباحث أنَّ استعمال صيغة اسم الفاعل أبلغ من صيغة الفعل المضارع، فاسم الفاعل، فضلًا عن دلالته على الحدث وزمن الحال والاستقبال، دالٌّ على الاستمرار، فهو اسمٌ شكَّل مع المبتدأ (اتِّباع، إسماع) جملة اسميَّة دالَّة على الاستقرار، فيكون معنى النص أنَّ اتِّباع القرآن الكريم قائدٌ إلى رضوان الله تعالى، وأنَّ إسماعه مؤدٍّ إلى النجاة من المهالك، وهاتان النتيجَتان صالحتَان لكلِّ زمانٍ ومكان.

(١) ينظر: شرح ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيليّ الهمدانيّ المصريّ (٧٦٩هـ)، تحقيق محمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحَّار وشركاه، ط٢٠، ١٩٨٠ م: ٣/ ٧٨.

المسألة الثانية

التوكيد بتعدُّد النداء

يعدُّ النداء من الوسائل التي يستعملها المتكلِّم لتنبيه المخاطَب والالتفات إليه، ومن ثمَّ يُلقي عليه ما يريد إيصاله من معنى، قال ابن السرَّاج معرِّفًا النداء: «النداءُ: تنبيه المدعوِّ، ليُقبِل عليك»(١).

وقد ذكر النحويُّون أدوات النداء، وجعلوا لكلِّ جملة نداء أداةً خاصَّة بحسب موقع المنادى من المنادي، فقد استعلموا هذه الأدوات بحسب البُعد بينهما، فالهمزة للمنادى القريب، وأمَّا سائرها فللنداء البعيد(٢)، والعرب «قد يستعملونها إذا أرادوا أن يمدُّوا أصواتهم للشَّيء المتراخي عنهم، أو للإنسان المعرِضِ عنهم، الذي يرون أنَّه لا يُقبِلُ عليهم إلَّا باجتهاد، أو النائمِ المستثقل»(٣)، وهذه الأدوات نائبة عن الفعل (ادعو)؛ لأنَّ المنادى- عندهم- في محلِّ نصب(٤)، وتناول النحويُّون أسلوب النداء مفصَّلًا، واعتنوا بأقسام المنادى، وذِكر حالاته الإعرابيَّة.

(١) الأصول في النحو، أبو بكر محمَّد بن السري بن سهل النحويّ المعروف بابن السرَّاج (٣١٦هـ)، تحقيق عبد الحسين الفتليّ، مؤسَّسة الرسالة، لبنان، بيروت، ط٣، ١٩٩٦م: ١/ ٣٢٩.

(٢) ينظر: معاني النحو: ٤/ ٢٧٥.

(٣) كتاب سيبويه: ١/ ٣٢٥.

(٤) ينظر: شرح جمل الزجَّاجيّ، ابن عصفور عليّ بن مؤمن بن محمَّد (٦٦٩هـ)، تحقيق د. صاحب أبو جناح، جامعة الموصل، ومؤسَّسة دار الكتب للطباعة، ط١، ١٩٨٠م: ٢/ ٨، وهمع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السيوطيّ عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقيَّة، مصر، (د.ت): ٢/ ٢٥.

والذي يهمُّ الباحث من هذا الأسلوب هو تكرار جملة النداء في المقام الواحد، لما فيه من دلالات يبغي المتكلِّم إيصالها، فعلى سبيل المثال لتكرار النداء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (آل عمران/ ٤٢-٤٣)، فقد كرَّرت الملائكة نداء مريم مرَّتَين، وفي هذا التكرار دلالة على خطر ما بعد النداء، فالنداء هو تنبيه المخاطب حتَّى يلتفت إلى المتكلِّم، فكُرِّر النداء هنا حتَّى تتهيَّأ لاستقبال ما يُلقى إليها، فـ«إنَّ لكِ عندنا نبأ بعد نبأ، فاستمعي لهما، وأصغي إليهما، أحدهما: ما أكرمك الله به من منزلة، وهو ما لكِ عند الله، والثاني: ما يلزمك من وظيفة العبوديَّة بالمحاذاة، وهو ما لله سبحانه عندك، فيكون هذا إيفاء للعبوديَّة، وشكرًا للمنزلة»[1].

وقد ورد هذا الأسلوب في الخطبة الفدكيَّة في أكثر من موضع، ووظَّفته السيِّدة الزَّهراء عليها السلام لتحقيق غاياتٍ، أبرزها تنبيه المخاطَبين على عظيم ما ارتكبوه من انحراف في العقيدة بعد وفاة النبيِّ الكريم، ليكونوا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾، وبما أنَّ الرسول رحمةٌ للعالمين، وأهله امتداد طبيعيٌّ له، فأرادت بخطابها إرجاع مَن مالت به السُّبُل إلى الجادَّة.

في قولها عليها السلام: «**أيُّها المسلمون أأُغلب على إرثيهْ يا ابن أبي قحافة؟!**».

فقد وجَّهَتْ نداءها في بادئ الأمر إلى المسلمين عامَّةً، وليس للحاضرين فحسبُ، وثنَّت بندائها رئيس الدولة، وكأنَّ الذي أرادته هو تنبيه المسلمين باستعمال النداء بصيغة (أيُّها المسلمون)، بما فيها من طول التركيب، و(هاء) التنبيه، و(أل) التعريف، فخطابها للمسلمين جميعًا، ونبَّهتهم مرَّتَين، حتَّى إذا انتبهوا قالت: «**أأُغلب على إرثيهْ**» مستعملةً الاستفهام الذي خرج لغرض التعجُّب.

(١) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائيّ، محمَّد حسين (١٤٠٢هـ)، منشورات مؤسَّسة الأعلميّ، بيروت، ١٩٩٧م: ٢/ ٣٦٧.

وفي هذا التركيب دلالة على لومها المسلمين على سكوتهم على تحريف الشريعة الإسلاميَّة، وتربة النبيّ صلى الله عليه وآله لم تجفَّ بعدُ.

ثمَّ كرَّرت النداء لرأس السلطة في ذلك الوقت، وهو المسؤول عن حرمانها إرثها من أبيها، وما لحظه الباحث أنَّها نادته بأداة النداء (يا) بخلاف حذف الأداة مع المسلمين، وقد يدلُّ هذا على البُعد المعنويّ بين المنادي والمنادى، إذ تُستعمل (يا) لنداء البعيد أو مَن في حُكمهِ في أكثر التراكيب اللغويَّة[1]، ويُحتمل أنْ يكون المُستفهَم هو الخليفة؛ لأنَّه هو مَن منعها حقَّها، فتكون دلالة الاستفهام هنا اللوم والتقريع له. وعلى هذا التوجيه تكون دلالة هاء السَّكت، التي يؤتى بها لبيان الحركة الإعرابيَّة عند الوقف، فهي «تُزَادُ لبيان الحركة زيادةً مطَّردةً في نحو قولك: فِيمَهْ، ولِمَهْ، و عَمَّهْ، والمراد: فيمَ، ولِمَ، وعَمَّ، والأصلُ: فِيمَا، ولِمَا، وعَمَّا. دخلت حروفُ الجرّ على (ما) الاستفهاميَّة، ثمَّ حُذِفَت الألف للفرق بين الإخبار والاستخبار، وبقيت الفتحةُ تدلُّ على الألف المحذوفة، ثمَّ كرهوا أن يقفوا بالسكون، فيزول الدليل والمدلولُ عليه، فأتوا بالهاء لِيقع الوقفُ عليها بالسكون، وتسلمَ الفتحة التي هي دليلٌ على المحذوف»[2].

ولا تتحقَّق شروط هاء السَّكت في كلمة السيِّدة الزَّهراء، فالهاء مشروطة بالوقف، لحماية الحركة الإعرابيَّة من التسكين حتَّى لا تضيع، ويُلتَبَسَ المعنى على المخاطَب، وفي الجملة «أَأُغلَب على إرثيْهْ»، لم تقف على تلك الجملة؛ لأنَّ المقام يستدعي مواصلة الكلام لا تقطيعه، ولم تُسبَق بحركة إعرابيَّة يُخشى عليها من الحذف إن وُقِف عليها، فقد سُبِقت بياء المتكلِّم.

ولعلَّ استعمال هاء السَّكت في هذا الموضع فيه الإشارة إلى الحسرات والآلام

(١) ينظر: شرح ابن عقيل: ٣/ ١٨٨.

(٢) شرح المفصَّل، ابن يعيش النحويّ، موفَّق الدين يعيش بن عليّ بن يعيش (٦٤٣هـ)، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، (د.ت): ٥/ ١٧٤.

المكبوتة؛ لعظم الموقف وشدَّة الظلم، فضلًا عن تطويل الكلام بها للمبالغة، حتَّى يصل ذلك الصوت إلى الحاضرين جميعًا، ولاسيما إذا أخذنا بالحسبان مجيء الهاء مع كلمة (إرثي)، وهي قطب الرَّحى في تلك الخطبة، وعليها تدور أكثر معانيها.

ونجد تكرار النداء في قولهاعليها السلام مخاطبةً الأنصار: «**يا معاشر الفتية، وأعضاد الملَّة، وأنصار الإسلام، ما هذه الغميزة في حقِّي، والسِّنَة عن ظلامتي؟ أما كان رسول اللهصلى الله عليه وآله أبي يقول: المرء يُحفظ في وُلدِه؟**».

فقد وجَّهت خطابها للأنصار، وخصَّتهم بالخطاب، بعد تقريعها المسلمين والخليفة، لما للأنصار من منزلة عظيمة عند رسول اللهصلى الله عليه وآله، فقد قال بحقهم: «**إِنَّ الْأَنْصَارَ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَإِنَّ النَّاسَ سَيَكْثُرُونَ وَيَقِلُّونَ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَاعْفُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**»[1]، ولا عجب من منزلتهم هذه؛ لما قدَّموه من تضحياتٍ لنصرة الإسلام، وحماية النبيِّ الكريم، ولذلك نادتهم السيِّدة الزَّهراءعليها السلام بهذه الأوصاف، تذكِّرهم بتأريخهم القريب، وجهادهم بين يدَي رسول الله، فنادتهم بالفتية، ووصفُ الرجل بالفتى مدحٌ له، فهي تدلُّ على الشجاعة والشباب والغِنى والكَرَم، وإلى غيرها من الصفات الحسنة التي يتحلَّى بها الفرد، ولذلك وصف الحقُّ سبحانه أصحاب الكهف بأنَّهم فتية، وجرى الشعراء على هذا المنوال بوصف ممدوحيهم بأنَّهم فتية، كقول الشاعر[2]:

فِـدًى لامـرئ لاقـى ابـنَ عبـلةَ ناقتي

وراكِـبُـهـا والـنَّـاسُ بـاقٍ وذاهـبُ

(١) فضائل الصحابة، ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمَّد (٢٤١هـ)، تحقيق وصي الله بن محمَّد عبَّاس، جامعة أمِّ القرى، السعوديَّة، ٢٠٠٦م: ٢/ ٨١٠.

(٢) شرح نقائض جرير والفرزدق، أبو عبيدة معمر بن المثنَّى (برواية اليزيديّ عن السكريّ عن ابن حبيب عنه)، تحقيق محمَّد إبراهيم حور، ووليد محمود خالص، المجمع الثقافيّ، أبو ظبي، الإمارات، ط٢، ١٩٩٨م: ٣/ ١٠٢٠.

عــدا ثُــمَّ أعــــداهُ عــلى الهَــــولِ فتيةٌ
كِـــرامٌ وأسـيــافٌ رِقــاقٌ قَــواضِــبُ

فنادتهم عليها السلام بأنَّهم فِتيةٌ، إكرامًا لما قدَّموه فيما مضى، والعضد هو العون، فتقول: «اعتضدتُ بفلان: إذا استعنت به وتقوَّيت به، والأصل فيه عضد اليد، ثمَّ يوضَع موضع العون؛ لأنَّ اليد قوامها العضد.. ومنه قوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ (القصص/ ٣٥)، أي سنعينك بأخيك»[1]، ومواقف الأنصار لا تخفى إلَّا على الأعمى، فكانوا خير ساعدٍ حَمَى الإسلام، ونَصَر رسوله.

ثمَّ ثلَّثت بندائهم بأنَّهم أنصار الإسلام، وهذان التركيبان اللغويَّان (أعضاد الملَّة وأنصار الإسلام) تكاد تكون دلالتهما واحدة، فهم العضد الذي استعان به النبيّ الكريم في نشر دعوته، وهم النصير له أيضا، ولكنَّها عليها السلام كرَّرت هذه الدلالات بألفاظ مختلفة؛ لتذكيرهم بمنزلتهم، وبتلك المواقف المشرِّفة لهم مع النبيِّ الكريم، فقد أعادت الأذهان بتكرار ندائها إلى أيَّام الرسالة الأولى في المدينة المنوَّرة، وتأريخهم وتأريخ آبائهم، ولكنَّها بعد ذلك صعقتهم بتخاذلهم عن نصرتها، وهي الامتداد الطبيعيّ لأبيها، وقد تمثَّل هذا الصعق بقولها: «**ما هذه الغميزة في حقِّي؟ والسِّنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله أبي يقول: (المرء يُحفظ في وُلدِه)**».

ولذلك كرَّرت لفظة (أبي) أكثر من مرَّة في هذه الخطبة؛ تبغي قرعَ أسماعهم وتذكيرهم بأنَّها ابنة النبيّ، فقد ظلَّت تلومهم على خذلانهم، وتبدُّل مواقفهم بعد رحيل النبيّ، وقد يكون هذا التقريع السبب في أنَّهم «يشعرون بالنَّدم، وأنَّهم لم يقوموا بواجبهم تجاه أهل البيت عليهم السلام، فكانت مواقفهم بعد ذلك- إجمالًا- أفضل من غيرهم، فربَّما هذا

(١) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبيّ)، القرطبيّ، أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح الأنصاريّ الخزرجيّ (٦٧١هـ)، تحقيق أحمد البردونيّ، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصريَّة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م: ١١/ ٧.

الكلام لم يؤثِّر فيهم في نفس الوقت، ولكنَّه ظلَّ يجري في نفوس الأنصار وأبنائهم في المستقبل إلى أن غيَّروا مواقفهم»[1].

وقد ناسب تكرار النداء في هذه الجزء من الخطبة اللوم والتقريع الذي مثَّله الاستفهام فيما بعد النداء، فقد نادتهم بأوصاف الشجاعة والبطولة والكرم والنجدة، ولكنَّهم على الرغم من اتِّصافهم بهذه الأوصاف، سكتوا عن ظلامتها.

(١) إنِّي فاطمة وأبي محمَّد- تأمُّلات في خطبة الزَّهراء وبعض شؤونها: ٨٦.

المسألة الثالثة

تعدُّد الاستفهام

الاستفهام هو مصدر الفعل (استفهم)، وهو على صيغة (استفعل)، وهذه الصيغة تدلُّ على الطلب[1]، وعليه فالاستفهام هو طلب الفهم، فيكون هناك طرفان أحدهما جاهل بأمرٍ ما، وآخر عالم به، فيَطلب الأوَّل من الآخر العلم بالمجهول عنده بواسطة الاستفهام[2]، وهذا المعنى ينطبق على قسم منه، فقد يخرج الاستفهام إلى أغراضٍ أخرى غير طلب الفهم، فقد يكون المُستفهِمُ عالمًا بالمعنى، ويصوغ الجملة الاستفهاميَّة لغرضٍ آخر، ومنه التعجُّب أو الإنكار، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنَّ الاستفهام المجازي «ينشأ من دون أن يقصد مُنشؤه إلى طلب الإجابة، فتأثيره ينتج من إحساس بأنَّ السؤال يتطلَّب إجابة، ولا تأتي الإجابة»[3]. وليس الأمر كذلك؛ لأنَّ الاستفهام الحقيقيّ هو الذي يتطلَّب الإجابة، وينتظرها المستفهِم، أمَّا الاستفهام المجازيّ، فليس له إجابة أصلًا، وإنَّما هو أداة يستعملها المتكلِّم لتحقيق أغراض أخرى غير الفهم والعلم، وهذه الأغراض محلّ الدراسة في هذا البحث، فقد استعملت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام هذا الأسلوب في خطبتها، مكرِّرةً له أكثر من مرَّةٍ؛ لتسليط الضوء على معانٍ، منها إضعاف

(١) ينظر: شرح المفصَّل: ٨/ ٧٦، ومغني اللبيب: ١/ ١٧.

(٢) ينظر: الصاحبيّ في فقه اللغة العربيَّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريَّاء القزوينيّ الرازي، أبو الحسين (٣٩٥هـ)، نشر مؤسَّسة محمَّد عليّ بيضون، ط١، ١٩٩٧م: ٢٩٢.

(٣) أساليب الإنشاء في كلام السيِّدة الزَّهراء- دراسة نحويَّة بلاغيَّة: ٩٤.

حجَّة الخصم وردِّها، أو لومُ المخاطَبين وتأنيبهم، وغير ذلك من المعاني التي أرادت عليها السلام إيضاحها، ومن ذلك قولها مخاطبةً الخليفة بعد أن منعها حقَّها: «**أَفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئتَ شيئًا فريًّا، أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم.. أفخصَّكم الله بآيةٍ أخرج منها أبي؟ أم هل تقولون أهل ملَّتين لا يتوارثان؟ أوَلستُ أنا وأبي من أهل ملَّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمِّي؟**».

ورد الاستفهام المجازي في هذه القطعة من الخطبة خمس مرَّات، وهذا التكرار فصَّلت فيه السيِّدة الزَّهراء أدلَّتها على بطلان الحجَّة التي استدلَّ بها الطرف الآخر لمنعها حقَّها، والجملة الاستفهامية الأولى «**أفي كتاب الله أن ترثَ أباك ولا أرث أبي؟**»، خرجت لغرض النفي، والمعنى: لا يوجد دليل قرآنيّ يبيحُ لك فعلَك هذا، ولذلك قدَّمت عليها السلام الخبر (في كتاب الله) على المبتدأ، وذلك لأنَّ القرآن الكريم «موضع اهتمام السيِّدة فاطمة وعنايتها، إذ فيه الحكم الفصل بينها وبين ابن أبي قحافة فيما يتعلَّق بشرعيَّة إرثها من أبيها رسول الله»[1]

فالقرآن الكريم هو المصدر الرئيس للتشريع الإسلاميّ، وأمَّا السُّنَّة، فهي مفصِّلة له، تقيِّد المطلق، وتطلق المقيَّد، ولذلك أرادت عليها السلام باستعمالها الاستفهام الإنكاريّ، وتسليطها الضوء على كتاب الله، قطعَ حجَّة الخصم، وبيان وهنها.

ثـمَّ استفهمت ثانية بقولها: «**أَفَعَلى عمدٍ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟**»، موجِّهةً الكلام للحاضرين جميعًا، وفيهم الخليفة، غير أنَّ دلالة الاستفهام المجازيّ هنا ليس كالأوَّل، فقد خرج لغرض اللوم والتأنيب والتقريع، فالمعنى أنَّكم تركتم الحكم بكتاب الله عمدًا، والتجأتم إلى الأهواء؛ لتحقيق المطامع الدنيويَّة.

(١) أساليب الإنشاء في كلام السيِّدة الزَّهراء- دراسة نحويَّة بلاغيَّة: ٩٩.

والملاحَظ أنَّها استعملت همزة الاستفهام، وهي أمُّ أدواته وأوسعها[1]؛ لبيان عظيم فعلهم وخطره، فهم قد تركوا العمل بكتاب الله تعالى عمدًا، ثمَّ ضمَّنت تقريعها القومَ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِۖ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ (هود/ ٩٢)، لبيان وجه الشَّبه بين مَن تخاطبهم السيِّدة الزَّهراء، وبين قوم نبيِّ الله شعيب، فقوم شعيب يمنعهم من التُّعرض له قومُه، فقرَّعهم، وأنَّبهم بقوله تعالى: ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وأمَّا مَن خاطبتهم الزَّهراء، فكان المانع لهم من ترك كتاب الله والعمل به وجود رسول الله بينهم، فما إنْ لحقَ بالرفيق الأعلى، حتَّى أسرعوا إلى نبذ القرآن وراء ظهورهم، فكانوا مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞۚ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (آل عمران/ ١٤٤).

ثمَّ زادت في تأنيب القوم باستفهامٍ جديد، وهو «**أفَخَصَّكم الله بآية أخرج منها أبي؟ أم هل تقولون أهل ملَّتين لا يتوارثان**»، وهو استفهام تصوُّر، يُجاب عنه بالتعيين، نحو قولنا: أمحمَّدٌ مسافرٌ أم خالدٌ؟ فتجيب (محمَّدٌ) أو (خالد)[2]، هذا الأمر إن حملنا الاستفهام على الحقيقة، وجواب القوم عن هذه الجملة مستحيل، فلا توجد آية خرج من حكمها النبيّ صلى الله عليه وآله، ولا يجرؤ أحدٌ أن يُخرجَ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام من ملَّة الإسلام.

وأمَّا إذا حملْنا الاستفهام على المجاز، فتكون دلالته الإنكار[3]، وتدلُّ همزة الاستفهام هنا «عَلَى الْإِنْكَارِ عَلَى صِيغَةِ السُّؤَالِ عَنْ مَذْهَبِ ظَاهِرِ الْفَسَادِ لَا جَوَابَ لِصَاحِبِهِ إِلَّا بِمَا فِيهِ أَعْظَمُ الْفَضِيحَةِ»[4]، ومعنى كلامها عليها السلام: أنَّه لا توجد آية خصَّت

(١) ينظر: معاني النحو: ٤/ ١٩٩.

(٢) ينظر: المصدر نفسه ٤/ ١٩٩.

(٣) ينظر: الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشريّ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشريّ جار الله (٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ: ٢/ ٦٦٨.

(٤) مفاتح الغيب، الرازي، أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيميّ الرازي الملقَّب=

المسلمين، وأخرجت النبيَّ من حكمها، وأنَّ النبيَّ وابنته (صلوات الله عليهما) من أهل الإسلام، بل سادته، وقد سمَّاه د. فاضل السامرَّائيّ إنكارًا إبطاليًّا، أي لا يمكن وقوع ما بعد الهمزة[1]، وهو كقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (الإسراء/ ٤٠)، والمعنى: لم يختصَّكم الله بالبنين من دون الإناث[2].

ثمَّ ختمت السيِّدة الزَّهراء تقريعها الحاضرين باستعمالها أسلوب الاستفهام، بقولها: «**أَوَلَستُ أنا وأبي من أهل ملَّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمِّي؟**»، ففي الجملة الاستفهاميَّة الأولى أرادت إثبات أنَّها وأباها (صلوات الله عليهما) من أهل ملَّة واحدة، ولعمري إنَّ هذا المقطع من الخطبة لأشدُّها إيلامًا وجُرحًا في القلوب، إذ تبيِّن سيِّدة نساء العالمين أنَّها على ملَّة الإسلام لقومٍ انقلبوا على أعقابهم بعد وفاة النبيِّ الكريم.

ودخول همزة الاستفهام على النفي يفيد إثبات المعنى المستفهَم عنه، وهو ما سُمِّي بالتقرير، وهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح/ ١)، أي: شرحْنا لك صدرك، فقد «أفاد إثبات الشرح وإيجابه، فكأنَّه قيل شرحنا لك صدرك، ولذلك عطف عليه (وضعْنا)؛ اعتبارًا للمعنى»[3].

وذهب د. فاضل السامرَّائيّ إلى أنَّ التقرير غير مختصٍّ بالنفي، فقد يكون بالاستفهام عن المثبت، نحو: (أَضَربتَ محمَّدًا؟)، في حال أنَّك تعلم أنَّه الضارب[4]، ولعلَّ الإثبات بالاستفهام المنفيِّ أبلغُ وأشدُّ وقعًا في النفوس من الكلام المثبت، لما فيه من معانٍ زائدة

=بفخر الدين الرازي خطيب الري (٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ: ٢٠/ ٣٤٥.

(١) ينظر: معاني النحو: ٤/ ٢٠٠.

(٢) ينظر: مجاز القرآن: ٣٨٠.

(٣) الكشَّاف: ٤/ ٧٧٠.

(٤) ينظر: معاني النحو: ٤/ ٢٠١.

على الإثبات، فقد يستشف منه اللوم والعتاب والتأنيب، وغيرها من المعاني التي يريد المتكلِّم بيانها.

ثمَّ بيَّنت عليها السلام علمَ أمير المؤمنين بالقرآن بقولها: «**أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمِّي؟**»، فإنَّ القوم سلبوها فدكًا، وهم يدَّعون سيرَهم على هدي القرآن، فقرَّعتْهم وصعقتهم بجملةٍ من الاستفهامات لعلَّهم ينتبهون ويرجعون عمَّا فعلوه من جرمٍ بحقِّ الإسلام؛ لمخالفتهم أحكامه أوَّلًا، ولتعدِّيهم على حرمة نبيِّهم صلى الله عليه وآله ثانيًا، ممثِّلًا ذلك التعدِّي بالتجاوز على حقِّ ابنته، الامتداد الطبيعيّ له، ولذلك عاتبت الأنصار بتذكيرهم بقوله صلى الله عليه وآله: «**المرء يُحفَظ في وُلْدِه**».

المسألة الرابعة

التوكيد بالبدل

في قولها عليها السلام بالشهادة الثانية: «**وأشهد أنَّ أبي محمَّدًا صلى الله عليه وآله عبده ورسوله**».

يشتمل هذا القول على التوكيد بالحرف (أنَّ)، وهو، ممَّا لا يخفى، من الحروف التي تفيد التوكيد، الداخلة على الجملة الاسميَّة، ولا أريد التوسُّع به منعًا لاجترار ما قاله مَن قبلي، والذي أبتغي تسليط الضوء عليه في هذا المقطع من الخطبة المباركة، هو لفظ (أبي)، إذ قالت عليها السلام: «**وأشهدُ أنَّ أبي محمَّدًا**»، وهذا اللفظ من الوجهة النحويَّة هو اسم (إنَّ)، و(محمَّدًا) بدلٌ منه أو عطف بيانٍ له، والبدل من التوابع التي يؤتى بها لأداء وظيفة إيضاح ما أُشْكِل على المتلقِّي، وتبيين ذلك المعنى، ويَتَوَلَّدُ باجتماع البدل مع المبدل منه «معنًى لا يُؤدَّى بانفراد أحدهما عن الآخر، فقد يكون الأوَّل مبهمًا يوضِّحه الثاني.. وقد يكون الثاني مبيِّنًا حقيقة الأوَّل.. ولو ذكرت البدل أو المبدل منه على انفراد، لم يتَّضح الأمر كما أوضحه اجتماعهما»[1]. وهذه المعاني إنَّما يؤدِّيها النوع الأوَّل من البدل، وهو البدل المطابق، والذي يظهر من كلمات النحويِّين أنَّ المقصود من جملة البدل هو البدل لا المبدل منه؛ لأنَّ المبدل منه على نيَّة الطرح[2]. قال ابن يعيش في البدل: «هو الذي يُعتَمَدُ بالحديث، وإنَّما يُذكَرُ الأوَّلُ، لنحوٍ مِن التوطئةِ، ولِيُفادَ بمجموعهما فضلُ تأكيدٍ

(١) معاني النحو: ٣/ ١٧٦.

(٢) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويِّين البصريِّين والكوفيِّين، الأنباريّ، أبو البركات، تحقيق محمَّد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ط٤، ١٩٦١م: ٢/ ١٩١.

وتبيينٍ لا يكونُ في الإفراد»[1]. ولكن هذا القول لا يعني أنَّ المبدل منه لغوٌ لا طائل تحته، وإنَّما قصدهم في ذلك أنَّ «البدل مستقلٌّ بنفسه، وأنَّ العامل كأنَّما باشر البدل»[2].

فلو قلتَ: جاء أخوك محمَّدٌ، كان مقصودك تبيانَ مجيء محمَّد، ولو قلتَ: جاء محمَّدٌ، لكان صحيحًا، إلَّا أنَّ الجملة الأولى فيها معنًى زائد على الأخرى، فبيَّنت أخوَّتك لمحمَّدٍ، فضلًا عن حدث المجيء.

ومن المعاني التي يبتغيها البدل هو التوكيد، ويكون هذا المعنى باجتماع (البدل مع المبدل منه)، ويتَّضح ذلك بقول السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: «**وأشهدُ أنَّ أبي محمَّدًا**..»؛ لأنَّ المقام يستدعي ذلك التوكيد، فالسبب الذي دعاها إلى إلقاء هذه الخطبة، هو منعها إرثها من أبيها، وقد كرَّرت لفظ (أبي) في الخطبة الشريفة كثيرًا، لا لإثبات أنَّها ابنة النبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله، فهذا معروفٌ للجميع، وإنَّما لتسليط الضوء على معانٍ قد غفل عنها القوم، ومنها أنَّها ظُلِمَتْ، وهي ابنة مَنْ يلهَج بذكره ظالموها ومانعوها حقَّها، فأيُّ تناقضٍ أوضح من هذا الأمر، يخالفون أوامره، ويظلمون ابنته، ويصلُّون عليه، ويدَّعون اتِّباعه!.

ومنها أنَّ الأحكام الإسلاميَّة تسري على النبيِّ الكريم صلى الله عليه وآله، كما تسري على المسلمين كلّهم، ومنها أحكام الإرث، ولذلك اقترن لفظ (أبي) بألفاظ الإرث في الخطبة كثيرًا، ومنها: «**أفي كتاب الله أن ترث أباك، ولا أرث أبي؟**»، و«**وزعمتم ألَّا حظوة لي، ولا إرث من أبي، ولا رحم بيننا**»، و«**أأهضَمُ تراث أبي وأنتم بمرأى منِّي ومسمع، ومبتدأ ومجمع؟**». فأحكام الإرث التي جاء بها القرآن الكريم تنطبق على النبيِّ وعلى المسلمين، إذ لم يردْ نصٌّ يُخرِجُه من تلك الأحكام، وهو ما استدلت به السيِّدة الزَّهراء عليها السلام على الخليفة بقولها: «**أفخصَّكم الله بآية أخرج منها أبي؟**».

(١) شرح المفصَّل: ٣/ ٦٦.
(٢) معاني النحو: ٣/ ١٧٦.

ومن المعاني التي أستشفّها من البدل في قولها المتقدِّم أنَّها ذكرت (أبي) في التشهُّد، هذا التشهُّد الذي يذكره المسلمون في صلواتهم اليوميَّة، وفي آذانهم وفي إقامتهم، ويدلُّ هذا على أنَّ مَن يشهدون له بالرسالة والنبوَّة، يخالفون سنَّته ويظلمون ذريَّته، فكان كلامها تنبيهًا وتأنيبًا لهم يذكرونه كلَّما يشهدون لـ(محمَّد) بالنبوَّة والرسالة، لعلَّهم يتوبون ويرجعون عمَّا اقترفوه من جرمٍ بحقِّ ابنته.

وعلى هذا قسْ ما ورد من تكرار ذكر أبيها (صلوات الله عليها) في قولها: «**صلَّى الله على أبي نبيِّه، وأمينه على الوحي، وصفيِّه وخيرته من الخلق، ورضيِّه**»، وفي قولها: «**أمَا كان رسول الله ﷺ أبي، يقول: (المرء يُحْفَظُ في وُلْدِهِ)**».

وتبدو الصورة أوضح في قولها عليها السلام في التعريف بنفسها: «**أيُّها الناس، اعلموا أنِّي فاطمة، وأبي محمَّد ﷺ**».

فإنَّ صور التوكيد في هذا المقطع متعدِّدة، فاستعملت الفعل (علم) بصيغة الأمر، وترد صيغة (اعلم) في القرآن الكريم مع المعاني الجليلة الخطيرة، أو في مقام التهديد والوعيد، كقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة/ ١٩٤)، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (البقرة/ ٢٠٣)، ومنها قوله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ (البقرة/ ٢٢٣)، وفي قوله ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ (البقرة/ ٢٣٥)، إلى غيرها من الآيات الكريمة.

فاستُعمِلت عليها السلام هذه الصيغة على الرغم من أنَّ الحاضرين يعرفونها ويعرفون نسبها، ولكنَّها أرادت صعقهم بالأمر هذا، وتنبيههم على مكانتها العظيمة، فهي لا تريد معنى النَّسب فحسب، وإنَّما إدراك صفاتها ومنزلتها، أي على الأمور المعنويَّة لا الماديَّة، ولذلك استعملت (علم) لا (عرف)، فقد فرَّق د. فاضل السامرَّائيّ بينهما، بأنَّ الأوَّل: «يتعلق بالصفات، والمعرفة تتعلَّق بالذوات، فهناك فرقٌ بين قولك: (علمتُ خالدًا طالبًا)، و(عرفتُ خالدًا طالبًا)، فإنَّ معنى الأولى: علمتُ اتِّصاف خالد بصفة الطالبيَّة،

أمَّا عبارة (عرفتُ خالدًا طالبًا) فمعناها عرفت خالدًا، وهو طالبٌ، أي عرفته حين كان طالبا، والفرق بينهما ظاهر»[1].

فالسيِّدة الزَّهراء تريد تبيان مكانتها أوَّلًا من حيث هي، لا من حيث ارتباطها النَّسَبيّ بالنبيِّ الأكرمﷺ، فهي سيِّدة نساء العالمين، وجُعِلَت معيارًا لرضا الله تعالى وسَخَطه[2]، فضلًا عن أنَّها الطريق الوحيد لذريَّة النبيِّ الخاتمﷺ، ولو أردنا أن نُحصي مقامات السيِّدة الزَّهراءعليها السلام لطال بنا المقام.

لقد استعلمتعليها السلام صيغة فعل الأمر (اعلموا)، ودلالة هذا الفعل للتوكيد على المعنى الخطير الذي تريده إيصاله إليهم، وتنبيههم عليه، ثمَّ ثنَّت بحرف التوكيد (أنَّ) زيادةً في التوكيد، ثمَّ ثلَّثت بذِكر نفسها المقدَّسة مرَّتَين: الأولى بضمير المتكلِّم (أنِّي)، والأخرى باسمها الصريح (فاطمة)، ممَّا استشف في هذا التعبير أنَّها تصرِّح لهم بمنزلتها العظيمة، وأنَّها امتدادٌ للنبيِّ الكريمﷺ، ويدلُّ على ذلك قولها بعد ذلك «**وأبي محمَّد**»، مبتغيةً من ذلك كلِّه صعق المسلمين المتخاذلين عن نصرة الإسلام، وإعادتهم إلى جادَّة الحقِّ والهدى، بعد أن انحرفوا عنها.

فعليهم أنْ يأخذوا أحكام دينهم من أهله، ومن البيت الذي أُنزِل فيه القرآن، لا أن تفرَّق بهم السُّبُل، فيَضلُّوا ويُضِلُّوا.

نتائج البحث

بعد التمعُّن في كلمات السيِّدة الزَّهراءعليها السلام، وتسليط الضوء على سبب الخطبة، واستعمالها طرائق التوكيد فيها، توصَّل الباحث إلى نتائج، أهمّها:

(١) معاني النحو: ٢/ ٨-٩.

(٢) فقد روي عن النبيِّ الكريمﷺ أنَّه قال: «**يا فاطمة إنَّ الله ليغضب لغضبك ويرضى لرضاك**». مناقب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبعليه السلام، عليّ بن محمَّد أبو الحسن الواسطيّ المالكيّ المعروف بابن المغازلي، تحقيق تركي بن عبد الله الوادعيّ، دار الآثار، صنعاء، ط١، ٢٠٠٣م: ٤٠١.

١. هيَّأت السيِّدة الزَّهراء المخاطَبين للإصغاء لها قبل البدء بالخطبة، بفعلٍ غيرِ كلاميٍّ، وهو الأنين والبكاء، حتَّى أجهش القوم لها بالبكاء، ثمَّ شرعت بخطبتها.

٢. أبرز الغايات التي أرادت الزَّهراء تحقيقها باستعمال التوكيد، هي صعق المخاطَبين، وتنبيههم لا إقناعهم بتلك المعاني.

٣. أبرز البحث شخصيَّة الزَّهراء الخطابيَّة، وعلمها الغزير، من خطابها العقل والروح، على الرغم من أنَّ الخطبة كانت ارتجاليَّة.

٤. اللجوء إلى الفصل بين المتلازمين لتحقيق غرض العناية أو التخصيص، ويتجلَّى ذلك بالفصل بين الفعل والفاعل، بقولها: «**جمَّ عن الإحصاء عددها**»، وقد تلجأ إلى تقديم الخبر النكرة، وتأخير المبتدأ المعرفة؛ للغاية نفسها.

٥. استشفَّ الباحث التوكيد من تعدُّد النداء والاستفهام بكلامهاعليها السلام؛ لما يحمله هذا التعدُّد من دلالات التنبيه والتذكير، أو التأنيب والتقريع، واختلفت هذه الدلالات بحسب المخاطَبين.

٦. استعملتعليها السلام من طرائق التوكيد البدل؛ لتنبيه المخاطبين وصعقهم وتذكيرهم بمقام رسول اللهصلى الله عليه وآله منها، ومكانتها عنده.

وآخر دعوانا أن الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلَّى الله على محمَّدٍ وآله الطيِّبين الطاهرين.

مصادر البحث ومراجعه

* **القرآن الكريم.**

١. أساليب الإنشاء في كلام السيِّدة الزَّهراء- دراسة نحويَّة بلاغيَّة، عامر سعيد نجم، العتبة العلويَّة المقدَّسة، ٢٠١١م.

٢. الأصول في النحو، ابن السرَّاج، أبو بكر محمَّد بن السريّ بن سهل النحويّ

(٣١٦هـ)، تحقيق عبد الحسين الفتليّ، مؤسَّسة الرسالة، لبنان، بيروت، ط٣، ١٩٩٦م.

٣. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويِّين البصريِّين والكوفيِّين، أبو البركات الأنباريّ، عبد الرحمن بن محمَّد بن أبي سعيد (٥٧٧هـ)، تحقيق محمَّد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ط٤، ١٩٦١م.

٤. إنِّي فاطمة وأبي محمَّد، تأمُّلات في خطبة الزَّهراء وبعض شؤونها، فوزي آل سيف، دار الوارث للطباعة والنشر، كربلاء المقدَّسة، ٢٠٢٢م.

٥. البارع في اللغة، أبو عليّ القالي (٣٥٦هـ)، تحقيق هشام الطعَّان، مكتبة النهضة، بغداد، ط١، ١٩٧٥م.

٦. البيان والتبيين، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٩٨٨م.

٧. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبيّ)، القرطبيّ، أبو عبد الله محمَّد بن أحمد ابن أبي بكر بن فرج الأنصاريّ الخزرجيّ (٦٧١هـ)، تحقيق أحمد البردونيّ وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصريَّة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.

٨. الخطبة الفدكيَّة للزَّهراء عليها السلام، إعداد عبد الرسول زين الدين، مؤسَّسة قصبة الياقوت للطباعة والنشر، النجف الأشرف، ط١، ١٤٤١هـ.

٩. الدلالة النحويَّة في شرح نهج البلاغة لميثم بن عليّ البحرانيّ، أحمد راضي جبر، رسالة ماجستير، جامعة بابل، كليَّة التربية للعلوم الإنسانيَّة، ٢٠١٣م.

١٠. دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجانيّ (٤٧١هـ)، تحقيق محمود محمَّد شاكر، مطبعة المدنيّ، القاهرة، ط٣، ١٩٩٣م.

١١. شرح ابن عقيل، ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيليّ الهمدانيّ المصريّ (٧٦٩هـ)، تحقيق محمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث،

القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحَّار وشركاه، ط٢٠، ١٩٨٠م.

١٢. شرح الرضيّ على الكافية، لابن الحاجب، رضيّ الدين محمَّد بن الحسن الاستراباديّ (٦٨٦هـ)، تحقيق يوسف حسن عمر، جامعة قار يونس، ليبيا، ١٩٧٥م.

١٣. شرح المفصَّل، ابن يعيش النحويّ، موفَّق الدين يعيش بن عليّ بن يعيش (٦٤٣هـ)، إدارة الطباعة المنيريَّة، مصر، (د.ت).

١٤. شرح جمل الزجَّاجيّ، ابن عصفور، عليّ بن مؤمن بن محمَّد (٦٦٩هـ)، تحقيق د. صاحب أبو جناح، جامعة الموصل، ومؤسَّسة دار الكتب للطباعة، ط١، ١٩٨٠م.

١٥. شرح نقائض جرير والفرزدق، أبو عبيدة معمَّر بن المثنَّى (برواية اليزيديّ عن السكريّ عن ابن حبيب عنه)، تحقيق محمَّد إبراهيم حور ووليد محمود خالص، المجمع الثقافيّ، أبو ظبي، الإمارات، ط٢، ١٩٩٨م.

١٦. الصاحبيّ في فقه اللغة العربيَّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريَّاء القزوينيّ الرازي، أبو الحسين (٣٩٥هـ)، نشر مؤسَّسة محمَّد عليّ بيضون، ط١، ١٩٩٧م.

١٧. علم الدلالة التطبيقيّ في التراث العربيّ، د. هادي نهر، دار الأمل للنشر، الأردن، ط١، ٢٠٠٧م.

١٨. فضائل الصحابة، ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمَّد (٢٤١هـ)، تحقيق وصيّ الله بن محمَّد عبَّاس، جامعة أمِّ القرى، السعوديَّة، ٢٠٠٦م.

١٩. الكتاب، سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ)، تحقيق عبد السلام محمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.

٢٠. الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشريّ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشريّ جار الله (٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.
٢١. المرتجل في شرح الجمل، ابن الخشَّاب، أبو محمَّد عبد الله بن أحمد (٥٦٧هـ)، تحقيق عليّ حيدر، دمشق، ١٩٧٢م.
٢٢. معاني النحو، د. فاضل صالح السامرَّائيّ، دار الفكر للطباعة والنشر، الأردن، ط١، ٢٠٠٠م.
٢٣. معجم ديوان الأدب، الفارابيّ، إسحاق بن إبراهيم (٣٥٠ هـ)، تحقيق د. أحمد مختار عمر، مؤسَّسة دار الشعب للصحافة، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٢٤. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، جمال الدين عبد الله بن يوسف (٧٦١هـ)، تحقيق د. مازن المبارك وآخرون، ط٥، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م.
٢٥. مفاتح الغيب، الرازي، أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيميّ (٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
٢٦. مناقب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ابن المغازليّ، عليّ بن محمَّد أبو الحسن الواسطيّ المالكيّ، تحقيق تركي بن عبد الله الوادعيّ، دار الآثار، صنعاء، ط١، ٢٠٠٣م.
٢٧. الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائيّ، محمَّد حسين (١٤٠٢هـ)، منشورات مؤسَّسة الأعلميّ، بيروت، ١٩٩٧م.
٢٨. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السيوطيّ، عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقيَّة، مصر، (د.ت).

مراثي الأب وتجلِّي فضائله في الشِّعر الإسلاميّ
قراءة تحليليَّة في شعرِ الزَّهراء عليها السلام

م.م. زهراء سالم جبَّار

الملخَّص

يعدُّ الرِّثاء من الموضوعات الشعريَّة الموغلة في القِدَم، والتي شكَّلت معظم دواوين الشعر العربيّ الإسلاميّ؛ لارتباطها بظاهرة الموت الذي كتبه الله على بني آدم، ومن الطبيعيّ أن ينتاب الراثي الحزن والتفجُّع بفقد أحبَّته، تعبيرًا عن مشاعره وخلجات قلبه بلوعة صادقة وحسرات حرَّى، ولاسيما فقد (الأب)، وأنَّ نسبة الحزن والبكاء وألم المصيبة تختلف باختلاف الآباء والأبناء، وباختلاف العلاقات الوديَّة بينهم، فهناك العدد الكثير من الأبناء الذين لا نصيب لهم من الآباء إلَّا الأبوَّة.

وعلى هذا تكون مصيبة الأب على قلوب الأبناء أليمة وعميقة، مبنيَّة على قوَّة العلاقة وشخصيَّة الأب العظيمة، أمَّا إذا أردنا أن نتصوَّرها من جانب أمِّ أبيها عليها السلام، فيجب أن نستوعب العلاقة بين الزَّهراء عليها السلام، وأبيها الرسول صلى الله عليه وآله، حتَّى ندرك عظم علاقتهما، وأنَّ محبَّتها إيَّاه لم تكن بدافع الأبوَّة والبنوَّة فقط، بل كانت السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام تعتبره أبًا عطوفًا، ووالدًا رؤوفًا، شفيقًا رحيمًا، وفي الوقت نفسه رسول الله، وسيِّد الأنبياء والمرسلين، فهي تحترم أباها كما تحترم المرأة المسلمة العارفة نبيَّها، وتعظِّمه أقصى أنواع التعظيم، وأعلى درجات التفخيم والتجلِّي، وكان لرحيله صلى الله عليه وآله إلى الرَّفيق الأعلى أثر عميق وبليغ في فؤادها عليها السلام، حتَّى إنَّها ما رؤيت مبتسمة قطُّ إلَّا حين نعى إليها نفسها.

ومن هذا المنطلق، جاءت هذا الورقة البحثيَّة الموسومة بـ(مراثي الأب وتجلِّي فضائلِهِ في الشِّعر الإسلامي؛ قراءة تحليليَّة في شعرِ الزَّهراء عليها السلام)؛ لاستنشاق صدق العاطفة التي صوَّرتها عليها السلام في شعرها ولوعتها وحزنها العميق على رحيل أبيها، وما عانته بعد فقده من الأحداث الجسام التي روَّعتها وتركت بصماتها الحزينة في أعماق نفسها؛ لما تحتوي مفرداتها من جزالة ودلالات واضحة مع متانة في التراكيب، إذ أعطت قوَّة وحيويَّة في التأثير، وتماسكًا في الأداء، جعلت قدرتها على الإثارة والاستجابة لدى المتلقِّي كبيرة بدرجة واضحة.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقوم على ثلاثة محاور، تناولتُ في المحور الأوَّل (الرِّثاء مفهومًا)، وبيَّنتُ في المحور الثاني (تقنيَّة الرِّثاء في شعر العصر الإسلاميّ)، ودرستُ في المحور الثالث (شعر الزَّهراء عليها السلام؛ قراءة تحليليَّة)، وشفعتُ هذا كلُّه بخاتمة تضمَّنت أهمَّ النتائج التي توصَّلتُ إليها، وثمَّ تليها قائمة بثبت المظان.

المقدِّمة

الحمد للهِ ربِّ الأرض والسماء والآخر بعد فناء الأشياء، العظيم الذي لا يخيب دعاء من دعاه، ولا يقطع رجاء من رجاه، والصلاة والسلام على الدليل إليه، المحمود الأحمد المصطفى الأمجد أبي القاسم محمَّد، وعلى أهل بيته الطاهرين مستودع علمه، وحَمَلة شريعته، والهادين من بعده، أفضل الصلاة والتسليم.. وبعد:

يعدُّ الرِّثاء من الموضوعات الشعريَّة الموغلة في القِدَم، والتي شكَّلت معظم دواوين الشعر العربيّ الإسلاميّ؛ لارتباطها بظاهرة الموت الذي كتبه الله على بني آدم، ومن الطبيعيّ أن ينتاب الراثي الحزن والتفجُّع بفقد أحبَّته، تعبيرًا عن مشاعره وخلجات قلبه بلوعة صادقة وحسرات حرَّى، ولاسيما فقد (الأب)، وأنَّ نسبة الحزن والبكاء وألم المصيبة تختلف باختلاف الآباء والأبناء، وباختلاف العلاقات الوديَّة بينهم، فهناك العدد الكثير من الأبناء الذين لا نصيب لهم من الآباء إلَّا الأبوَّة

وعلى هذا تكون مصيبة الأب على قلوب الأبناء أليمة وعميقة، مبنيَّة على قوَّة العلاقة وشخصيَّة الأب العظيمة، أمَّا إذا أردنا أن نتصوَّرها من جانب أمِّ أبيهاعليهاالسلام، فيجب أن نستوعب العلاقة بين الزَّهراءعليهاالسلام، وأبيها الرسولصلى‌الله‌عليه‌وآله، حتَّى ندرك عظم علاقتهما، وأنَّ محبَّتها إيَّاه لم تكن بدافع الأبوَّة والبنوَّة فقط، بل كانت السيِّدة فاطمة الزَّهراءعليهاالسلام تعتبره أبًا عطوفًا، ووالدًا رؤوفًا، شفيقًا رحيمًا، وفي الوقت نفسه رسول الله، وسيِّد الأنبياء والمرسلين، فهي تحترم أباها كما تحترم المرأة المسلمة العارفة نبيَّها، وتعظِّمه أقصى أنواع التعظيم، وأعلى درجات التفخيم والتجلِّي، وكان لرحيلهصلى‌الله‌عليه‌وآله إلى الرَّفيق الأعلى أثر عميق وبليغ في فؤادهاعليهاالسلام، حتَّى إنَّها ما رؤيت مبتسمة قطُّ إلَّا حين نعى إليها نفسها.

ومن هذا المنطلق، جاءت هذا الورقة البحثيَّة الموسومة بـ(مراثي الأب وتجلِّي فضائلِهِ في الشِّعر الإسلامي؛ قراءة تحليليَّة في شعرِ الزَّهراء عليها السلام)؛ لاستنشاق صدق العاطفة التي صوَّرتها عليها السلام في شعرها ولوعتها وحزنها العميق على رحيل أبيها، وما عانته بعد فقده من الأحداث الجسام التي روَّعتها وتركت بصماتها الحزينة في أعماق نفسها؛ لما تحتوي مفرداتها من جزالة ودلالات واضحة مع متانة في التراكيب، إذ أعطت قوَّة وحيويَّة في التأثير، وتماسكًا في الأداء، جعلت قدرتها على الإثارة والاستجابة لدى المتلقِّي كبيرة بدرجة واضحة.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقوم على ثلاثة محاور، تناولتُ في المحور الأوَّل (الرِّثاء مفهومًا)، وبيَّنتُ في المحور الثاني (تقنيَّة الرِّثاء في شعر العصر الإسلاميّ)، ودرستُ في المحور الثالث (شعر الزَّهراء عليها السلام؛ قراءة تحليليَّة)، وشفعتُ هذا كلُّه بخاتمة تضمَّنت أهمَّ النتائج التي توصَّلتُ إليها، وثمَّ تليها قائمة بثبت المظانِّ.

المحور الأوَّل

الرِّثاء مفهومًا

شغلت ظاهرة الفقد الفكر الإنسانيّ، وأذهلته بطبيعتها المؤلمة المفجعة، ولذا كانت المراثي أصدق ما يصوِّر شعور الإنسان في فواجعه التي يسبِّبها موت عزيز، أو دمار مدينة، أو زوال بلد، وبذلك يكون الرثاء فيضًا نفسيًّا يبعثه الحزن على المفقود، فيأتي مشحونًا بلواعج الأشجان، ومخلِّدًا محاسن المرثيِّ على مرِّ الأزمان، وهو من مواقف الوفاء الإنسانيَّة العريقة، عرَفه الإنسان فعبَّر به عن أحزانه، وقد صار الرِّثاء غرضًا من أغراض الأدب العربيّ، فأنشأ فيه الأدباء، وما زالوا ينشؤون، نصوصًا تؤثِّر في النَّاس، وتشدُّ الدارسين إليها[1].

وعند العودة إلى المعاجم والمقاييس اللُّغوية، تبيَّن لي أنَّ كلمة (الرِّثاء) مصدر للفعل الثلاثي المعتل (رثى)، ومضارعه (يرثي)، قال الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت١٧٤هـ): «رَبَّى فلانٌ فلانًا يَرثِيهِ رثيًا ومرثية أي: يبكيه ويمدحه والاسم: المرثية»[2]، فـ«الراء والثاء والحرف المعتل أصيل على رقَّة وإشفاق، يقال رثيت لفلان: رققتُ»[3]، ومنه قولهم: «رثيتُ الميت رثيًا ورثاءً ورثاية بكسرهما، ومرثاة ومَرْثِيَةً مُخَفَّفَةً، ورَثوتُه: إذا

(١) ينظر: قراءة جديدة في مراثي الخنساء، جبَّار اللامي، مجلَّة كليَّة التربية، العدد٨، ٢٠١٠م: ٢٢.

(٢) كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزوميّ، وإبراهيم السامرَّائيّ، الناشر: مؤسَّسة الميلاد، ط١، قم، ١٤١٤هـ: ٢/ ٩٧، مادَّة (رثي).

(٣) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريَّا، تحقيق: د. عبد السلام هارون، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م: ٢/ ٤٨٨، مادَّة (رثى).

بكيتُه وعُدِّدت محاسنه»[1]، وتأسيسًا على ما سبق، فإنَّ أغلب اللغويِّين جعل دلالة المصدر في الرِّثاء على بكاء الميت ومدحه، من دون تفرقة في المصدر.

أمَّا في الاصطلاح، فهو: «التفجُّع على الميت، وإبداء الحزن على فراقه، وتصوير الخسارة التي نجمت عن فقده»[2]. ويعرِّفه الدكتور عبد العزيز عتيق: «الرثاء أو التأبين، هو الثناء على الشخص بعد موته، وتعديد مآثره، والتعبير عن الفجيعة فيه شعرًا»[3]. ونستخلص من هذا التعريف أنَّ الرِّثاء يقوم على أساسَين، أحدهما: هو التعبير عن مشاعر الحزن، ولا رثاء بدونه، والآخر: ذِكر محاسن المرثي له وأمجاده، وهذا ما بيَّنه حسين جمعة بقوله: «إنَّ الرثاء يدور حول موضوعات إنسانيَّة خالصة، إن لم نقل إنَّه يدور على الإنسان ذاته، فالشاعر إن لم يرثِ نفسه، فهو يرثي إنسانًا فقده»[4]. إذن فالبكاء على الميت، والتعبير عن مشاعر الحزن والأسى أمرٌ ضروري، إذ لا يستقيم الرِّثاء بدونه، وهذه العاطفة هي التي أشار إليها ابن رشيق (ت٤٦٣هـ) في تعريفه الرِّثاء: «وسبيل الرِّثاء يكون ظاهر التفجُّع بيِّن الحسرة»[5].

وعليه نلحظ تداخل المعنى الاصطلاحيّ بالمعنى اللُّغويّ للرِّثاء، فأصبح المعنى يمثِّل مدلولًا واحدًا عند بعض النقَّاد، وقد أشارت بشرى الخطيب إلى ذلك بقولها: «إنَّ الرثاء يعني بكاء الميت، وتعداد محاسنه بالشعر والنثر»[6].

(١) القاموس المحيط، محمَّد بن يعقوب الفيرو آباديّ، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسَّسة الرسالة، ط٨، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م: ١٢٨٦، مادَّة (رثى).

(٢) شعر الرِّثاء في العصر الجاهليّ، مصطفى عبد الشافي الشوريّ، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٥م: ١.

(٣) الأدب العربيّ في الأندلس، الناشر: دار النهضة، د.ط، بيروت، د.ت: ١٩٤.

(٤) قصيدة الرثاء، جذور وأطوار، دراسة تحليليَّة في مراثي الجاهليَّة في صدر الإسلام، الناشر: دار النمير للطباعة والنشر، د.ط، سوريا، دمشق، ١٩٩٨م: ١٣.

(٥) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، الناشر: دار الجيل، ط٤، بيروت، ١٩٧٢م: ٢/ ١٧٤.

(٦) الرِّثاء في الشعر الجاهليّ وصدر الإسلام، الناشر: مديريَّة مطبعة الإدارة المحليَّة،=

المحور الثاني

تقنيَّة الرَّثاء في شعر العصر الإسلاميّ

لم يكن الإسلام بمنأى عن هذا الغرض الشعريّ؛ إذْ يُعدُّ غرضًا إنسانيًّا؛ لأنَّ الموت والحياة صنوان لا يفترقان في الحياة، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، بل إنَّ الإسلام «فتح آفاقًا جديدةً في مجال الرِّثاء، وطرح أفكار وبدائل للكثير من معتقدات عصر ما قبل الإسلام، وبخاصَّة وضوح المصير لدى المسلم، وكشف لغزه، وتأثّر الشعراء كلّه، وازدادوا امتناعًا به كلَّما زاد إيمانهم، فانعكس في شعرهم، وكثر عندهم التعزِّي لأنفسهم بتقليد الجاهليِّين، وهذا أمر طبيعي، طالما يتَّصل الأمر بالفنِّ وسننه وتقاليده، ولكنَّهم مع تأثُّرهم بسنن القدماء، فإنَّهم طوَّروا مضامين هذه التقاليد، وابتكروا ضروبًا أخرى في العزاء»[1]، «فأصبحت قصيدة الرثاء أكثر وضوحًا وإشراقًا بعد أن كانت مفعمة بالخوف من المصير المجهول، فصار الشاعر في هذا العصر يفهم أنَّ الموت نهايته، وأنَّ الخلود للواحد القهَّار، وأصبح المقتول يأخذ عناوين سامية، مثل الشهادة، والدفاع عن الإسلام، وكذلك نجد قصيدة الرِّثاء تحمل فضائل وصفات التقوى والإيمان والإخلاص وبذل النفس في سبيله»[2]، وسيطر على قصيدة الرِّثاء طابع العزاء والتصبُّر، والإيمان بالقضاء والقدر، بعد أن كان مرتبطًا بالأخلاق الجاهليَّة، كالثأر

=بغداد، ١٩٧٧م: ٢٩.

(١) رثاء الأبناء في الشعر العربيّ، يحيى مخمير صالح موسى، الناشر: مكتبة المنار، ط١، الأردن، ١٩٨١م: ١٢٤-١٢٥.

(٢) ينظر: الرِّثاء في الشعر الجاهليّ وصدر الإسلام، د. بشرى الخطيب: ٢٤٠-٢٤١.

والثبور للقاتل، كون المرثي لا يرتاح حتَّى يدرك ثأره، بينما صوَّرت المراثي الإسلاميَّة العقيدة الجديدة التي ابتعدت عن هذه الأمور[1]، وقد اشتهرت في هذا العصر الكثير من ألوان الرِّثاء، كرثاء الخلفاء والشهداء والشخصيَّات العظيمة، ومن ذلك قول الشَّاعر سالم بن هبيرة «يرثي الرسول محمَّد صلى الله عليه وآله في أبيات، منها: (البحر المتقارب)

أفـــاطـــم إبـــكـــي ولا تـــسـأمـي
لـصـبـحـك مـــا طـلـع الـكـوكـبُ
فـقـد هـــدَّت الأرض لـــمَّا ثـوى
وأيُّ الـــبريَّـــة لا يـنـكـبُ
فـــمالي بـــعـــدك حـــتَّـــى المـــا
ت إلَّا جـــوىً داخـــلٌ مـنـصـبُ
جـــوًى حـــلَّ بـين الحـشـا والـشِّـغـاف
فـخـيَّـم فـيـه فـمـا يـذهـبُ
فـيـا عـــين ويحـــك لا تـسـأمـي
ومـــا بـــال دمـعـك لا يـسـكـبُ!»[2]

(١) ينظر: التعازي والمراثي، أبو العبَّاس المبرِّد، تحقيق: محمَّد الديباجي، الناشر: مجمع اللغة العربيَّة، دمشق، ١٩٧٦م: ٣١٣.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣١٣.

المحور الثالث

شعر الزَّهراء عليها السلام قراءة تحليليّة

كان لرحيل النبيّ صلى الله عليه وآله إلى الرَّفيق الأعلى أثر عميق وبليغ في فؤاد الزَّهراء عليها السلام، حتَّى أنَّها ما رؤيت مبتسمة قطُّ إلَّا حين نعى إليها نفسها، فقد جاءت أبياتها محمَّلة بالحسرات على والدها صلى الله عليه وآله؛ لذا تراكمت نداءاتها المفجعة، وكأنَّها مشاهد لا حصرَ لها، من ذلك قولها عليها السلام (البحر الخفيف):

قــلَّ صــبري وبــانَ عــنِّي عــزائي
بَــعــدَ فــقــدِي لخــاتــمِ الأنــبــيــاءِ
عــين يــا عــين اسكــبي الــدَّمــع سحًّا
ويــكِ لا تــبخــلي بــفــيــضِ الــدِّمــاءِ
يــا رســول الإلــهِ يــا خــيرة اللهِ
وكــهــف الأيــتــام والــضــعــفــاءِ
قــد بكتكَ الجبالُ والــوحــوشُ جمعًا
والــطــيرُ والأرضُ بــعــد بكي الــسماءِ
وبــكــاكَ الحــجــون والــرُّكــن والمشعر
يــا ســيِّــدي مــع الــبــطــحــاءِ
وبــكــاكَ المحــراب والــدَّرس لــلــقــرآنِ
في الــصُّــبــح مــعــلــنًــا والمــســاءِ

وبكاكَ الإسلامُ إذ صار في النَّاس
غريبًا من سائر الغرباءِ
لو ترى المنبر الذي كنتَ تعلوهُ
علاهُ الظلامُ بعد الضياءِ
يا إلهي عجِّل وفاتي سريعًا
فلقد عفتُ الحياة يا مولائي[1]

لجأت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في رثائها إلى ضمير المتكلِّم؛ لتفصح عن عمق حزنها على والدها صلى الله عليه وآله، بدلالة (قلَّ صبري)، و(بان عزائي)، و(بعد فقدي)، وهذا يدلُّ على شدَّة تعلُّق الزَّهراء عليها السلام بوالدها وقُربِه من نفسها، فبانت ألفاظها عليها السلام بتلك العاطفة الجيَّاشة والمشاعر المؤثِّرة، وهي تخاطبُ عينها وحثّها على البكاء؛ لأنَّها المعنيَّة جدًّا بالمصاب، فأساس البيت النداء، وباستعمال فعل الأمر (اسكبي) لتأمر عينها بالبكاء، وأن لا تبخل على رسول صلى الله عليه وآله، ثمَّ تعود للنداء مرَّة أخرى؛ للتنبيه على شيء مهم تريد الزَّهراء عليها السلام أن تبيِّنه عن طريق بيان فضائله، وأنَّ المفقود ليس بوالدها وحسب؛ وإنَّما هو رسول الإله، وخيرة الله عزَّ وجلَّ، وقد اختزلت كلَّ الفضائل الاجتماعيَّة والأخلاقيَّة التي اتَّصف بها والدها صلى الله عليه وآله بعبارة (وكهف الأيتام والضعفاء)؛ لتصوِّر مدى عطفه وحنانه، فكان كالكهف الذي يُؤوي الأيتام والضعفاء، وهي من الصفات التي كان يتسمُّ بها العربيّ، فضلًا عن التكرار في (بكتك، وبكاكَ) على طول النصِّ، والذي حمل مغزًى دلاليًّا، وقرعًا للأسماع، وتنبيهها على المعنى المنشود، وخلق جوًّا موحيًا بالدلالة المبتغاة؛ التي مفادها بكاء (الجبال، والأرض، والوحوش، والطيور، والركن، والمشعر، والمحراب، والإسلام، والدرس للقرآن)؛ لتبيِّن منزلة النبيّ صلى الله عليه وآله، وعِظَم فقده، حتَّى بكاه كلُّ

(١) التعازي والمراثي، أبو العبَّاس المبرِّد: ٣١٣، وفاطمة الزَّهراء عليها السلام في ديوان الشعر العربيّ، قسم الدراسات الإسلاميَّة، مؤسَّسة الزَّهراء، الناشر: مؤسَّسة البعثة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م: ١٥.

شيء، فتكرار اللفظة «يشكِّل ظاهرة أسلوبيَّة محدثة لفاعليَّة الأثر الشعريّ، ويتجلَّى عبر تكراره جملة من الوظائف، أهمّها إثارة انتباه المتلقِّي، وتكثيف الإيقاع الموسيقيّ في النصِّ الشعريّ، وتوكيد الظاهرة المكرَّرة، والتعبير عن مدى أهميَّتها بالنسبة للسارد الشعريّ»[1]، لتصوِّر لنا بعد ذلك حيرتها من انطفاء المنبر بعد رحيله صلى الله عليه وآله، بعد أن كان مضيئًا بنوره، بدلالة (لو) الامتناعيَّة، (لو ترى المنبر)، وهي ما كان لها سوى الالتجاء إلى الخالق عزّ وجلّ أن يعجِّل لها في رحليها، وهو ما مثَّله النداء الممتد على جسد البيت الأخير، والذي أعطى وقعًا شديدًا في النَّفس؛ لعمق حزنها عليها السلام المستمرِّ دون انقطاع.

ومن قولها عليها السلام في بيان ما أحدثه فَقدُ النبيِّ صلى الله عليه وآله من ألمٍ، وما لاقته بعده من النوائب (البحر البسيط):

«قد كان بَعدَكَ أنباءٌ وهنبثةٌ
لو كنتَ شاهِدها لم يَكثُرِ الخطبُ
إنَّا فقدناك فقدَ الأرض وابلها
واختلَّ قومك فاشهدهم فقدْ نكبوا
قد كان جبريل بالآياتِ يؤنِسنا
فغبتَ عنَّا فكلُّ الخير محتجبُ
وكنتَ بدرًا ونورًا يُستضاءُ بهِ
عليك تنزلُ من ذي العزَّةِ الكتبُ
تَجهَّمتنَا رجالٌ واستُخِفَّ بنا
بعدَ النبيِّ وكلُّ الخير مغتصَبُ

(١) عن بناء القصيدة العربيَّة، د. عليّ عشري زايد، الناشر: مكتبة دار المعرفة، ط٢، الكويت، ١٩٨١م: ٦٠، وقصيدة (رثاء الأم) للشريف الرضيّ (ت٤٠٦هـ) دراسة أسلوبيَّة، م.د. جواد عودة سبهان، مجلَّة دواة، العدد٣٥، ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م: ٢٤١.

سيعلمُ المتولِّي ظُلم حامتنا
يومَ القيامةِ أنَّى سوف ينقلبُ
فقدْ لقينا الَّذي لمْ يلقهُ أحدُ
مِنَ البريَّةِ لا عجمُ ولا عربُ
فسوفَ نبكيكَ ما عِشنا وما بقيتْ
لنا العيونُ بتهمالٍ له سكبُ»[1]

نلحظ أنَّ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام استهلَّت مرثيَّتها مخاطبةً أباها صلى الله عليه وآله بخفقات قلبها المكلوم، وحالة قلقها الروحيّ، بخواء عالمها عند فقدِه، وقد ارتكزت مرثيَّتها للكشف عن جوهر الألم، ووصف ما حلَّ بهم بعد رحيله صلى الله عليه وآله. حشدٌ من الأفعال (قد كان بعدك، فقدناك، قد كان جبرائيل، وكنتَ، تجهَّمتنا) الَّتي انبنت عليها المرثيَّة، ليست معزولة بذاتها؛ وإنَّما هي وحدات شكَّلت بدلالتها ووحدتها المتماسكة صورة ذات ملمح جماليّ كشفت عن إيديولوجيَّتها في تصوير ما جرى عليها وعلى أهل بيتها، بعد رحيل أبيها صلى الله عليه وآله، من الدواهي والاختلاط في القول، وانقلاب القوم عليها، بدلالة (واختلَّ قومك فاشهدهم فقد نكبوا)، ولو كان فيها حاضرًا؛ لما حدث، ولم يحدث ذلك، واستعملت أداة التوكيد (إنَّ) لتؤكِّد حقيقة لا تحتاج إلى تأكيد، بتشبيهها فقدَ أبيها بالأرض التي فقدت مطرها؛ لما لهذا الأسلوب من المقدرة على مدِّ النصوص بقيم أسلوبيَّة إبداعيَّة قادرة على التأثير في نفس سامعها، والبراعة والإبداع الذي يُغني بنية النصِّ بالوضوح

(١) بلاغات النساء، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور، صحَّحه وشرحه: أحمد الألفيّ، الناشر: مطبعة مدرسة والدة عبَّاس الأوَّل، القاهرة، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م: ٢٣، وغريب الحديث، أبو محمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ، تحقيق: د. عبد الله الجبوريّ، الناشر: مطبعة العانيّ، ط١، بغداد، د.ت: ٢/ ٢٦٧، والأمالي، أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد بن النعمان العكبريّ البغداديّ الملقَّب بالشيخ المفيد، تحقيق: الحسين أستاد ولي، عليّ أكبر الغفاريّ، منشورات جماعة المدرِّسين في الحوزة العلميَّة، قم المقدَّسة، ١٤٠٣هـ: ٨/ ٤١.

والتأثير وزيادة المعنى وتقويته، فهو «أحد مقاييس البراعة الأدبيَّة»[1]، لتُعلِم المتلقِّي عِظَم منزلة المفقود، فهو رسول الله صلى الله عليه وآله الذي كان يتنزَّل عليه جبرائيل بالآيات، وتُأبِّنه بذكر خصاله، بكونه البدر والنور الذي يُستضاء به، وتنزل عليه الكتب، وقد اختزلت كلَّ معاني الغياب بدلالة (فغبت عنَّا فكل الخير محتجبُ)، بحيث أسبغت موسيقى لغويَّة متنوِّعة ذات تعبير إيحائيّ، ومكنون دلاليّ عميق، زخرت فيه البنية العميقة لحالة الأسى والظلم بدلالة (سيعلم المتولِّي ظلم حامتنا/ يوم القيامة أنَّى سوف ينقلبُ) الدالَّتين على الاستقبال والإخبار، والتنبيه على مجازاة مَن ظلم أهل البيت عليهم السلام يوم القيامة، وما سيكون عليه مصيرهم، وتقرير حقيقة ما لاقوه من الأذى من أولئك القوم، ما لم يلاقه أحد من العرب أو العجم من ذي قبل، وعقَّبت ذلك بتأكيدها على استمراريَّة البكاء، بدلالة (فسوف نبكيك ما عشنا وما بقيت/ لنا العيون بتهمالٍ له سكب)؛ لشدَّة وقع الفقدِ عليها، فغدا النصُّ وجدانًا فائضًا بمشاهد الحزن، الَّتي تزيد من عِظَم الفجيعة، وتجعل من النِّص بُكائيَّة متجدِّدة بتجدُّد القراءة.

ومن مواضع قولها عليها السلام في بيان عِظَم شوقها لأبيها صلى الله عليه وآله (البحر الطويل):

«إذا اشتدَّ شوقي زرتُ قبرك باكيًا
أنوح وأشكو لا أراك مجاوبي
فيا ساكنَ الغبراء! علَّمتني البكا
وذِكركَ أنساني جميع المصائبِ
فإنْ كنتَ عنِّي في الترابِ مغيَّبًا
فما كنتَ عن قلبي الحزينِ بغائبِ»[2]

(١) البلاغة العربيَّة، تأصيل وتجديد، مصطفى الجوينيّ، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندريَّة، د.ط، ١٩٨٥م: ٨٤.

(٢) بحار الأنوار، محمَّد باقر المجلسيّ، تحقيق: محمَّد الباقر البهبوديّ، الناشر: مؤسَّسة الوفاء، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ: ٦٧/ ٥٤٧.

منذ مطلع الأبيات القصيرة، ونلحظ أنَّ الزَّهراء عليها السلام تُعلن عن شوقها وحزنها العميقَين على فقدِ والدها، بدلالة (إذا اشتدَّ شوقي زُرت قبرك باكيًا)، فتشبُثّ الزَّهراء عليها السلام بهذَين العنصرَين (البكاء والنواح) عند قبر أبيها صلى الله عليه وآله لتحقّق الوصال معه، ولكنَّ هذين العنصرَين لم يحقّقا مبتغاها عليها السلام، وأكَّدت عدم الجدوى من ذلك، بدلالة (لا أراك مجاوبي)، وهذا ما حقَّق للنصِّ التأثير والفاعليَّة التي أدَّت إلى دوام تواصل الحزن والحرقة الشديدين الممتدَّيت إلى جسد البيت الثاني المستهل بـ(ياء النداء) بدلالة (يا ساكن الغبراء) التي خرجت إلى غرضٍ بلاغيّ، وهو الاختصاص، فخصَّت الزَّهراء عليها السلام (ساكن الغبراء) دون غيره؛ لتخبره عن حالها وتصوِّر أزمَّة البكاء التي طالتها بدلالة (علَّمتني البكاء)، حتَّى أنَّ مصابه قد أنساها وأشغلها عن جميع المصائب التي حلَّت عليها بعد رحيله صلى الله عليه وآله، لتكمل صورة حزنها عليها السلام في مختلف أبعادها، لتصل إلى نتيجة عدم غيابه صلى الله عليه وآله عن قلبها، وإن غيِّب تحت الثرى بدلالة (فإن كنت عنِّي في التراب مغيَّبًا/ فما كنت عن قلبي الحزين بغائبِ)، التي أفصحت فيه الزَّهراء عليها السلام عن عِظَم حزنها ومأساتها التي تعيشها، مع بثِّها لموسيقى مؤلمة، بتوظيفها الألفاظ الموحية بتلك العاطفة القادرة على نقل ما تجده من معانٍ وأحاسيس، فجاءت ألفاظها (الشوق/ البكاء/ النواح/ قلبي الحزين/ الغياب/ ساكن الغبراء)، ألفاظًا وعبارات موحية وملائمة للمعنى الذي أرادت عليها السلام إيصاله، وحيث نلمح عن طريقه قدرتها على الاختيار الدقيق والصياغة المؤثِّرة.

ومن قولها عليها السلام في رثاء أبيها صلى الله عليه وآله بأنَّه الجبل والظلُّ الذي كانت تلوذ به، وقد ضمَّنت أبياتًا وتمثَّلت بها (البحر الكامل):

«قَـد كـنـتَ لي جَـبـلًا أَلـوذُ بـظـلِّـهِ
فَـالـيـومَ تُـسـلـمـني لأجـردَ ضـاحِ

قَـد كـنـتَ جـارَ حميتي مـا عـشـتَ لي
وَالـيـومَ بـعـدكَ مـن يـريـش جناحي
وَأَغـضُّ مِـن طـرفي وأَعـلـمُ أنَّـهُ
قَـد مـاتَ خـيرُ فَـوارسي وسلاحي
حَـضرت مَـنـيَّـتـه فَـأَسـلَـمـني الـعَـزا
وَتَـمـكَّـنـتْ ريـبُ المـنـونِ جـراحِ
يـنَـشَـر الـغـرابُ عـليَّ ريـش جناحه
فَـظَـلـلـت بـينَ سـيـوفـهِ ورمـاحِ
فَـالـيـومَ أَخـضـعُ لـلـذلـيلِ وأتَّـقـي
ذلِّي وَأَدفـع ظـالـمـي بـالـرَّاحِ
وَإِذا بـكَـت قـمـريَّـة شَـجـنًـا لها
لَـيـلًا عَـلى غـصـنٍ بكيت صباحي
فَـالله صـبِّـرني عـلى مـا حـلَّ بي
مـاتَ النبيُّ قـدِ انـطَـفى مِصباحي»[1]

(١) مناقب آل أبي طالب، الحافظ ابن شهر آشوب، أبي عبد الله محمَّد بن عليّ، قام بتصحيحه وشرحه: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، الناشر: المكتبة والمطبعة الحيدريَّة، قم المقدَّسة، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م: ١/ ٢٤٢، والأبيات التي تمثَّلتها الزَّهراء عليها السلام هي من قصيدة لفاطمة بنت الأحجم الخزاعيَّة، ترثي زوجها الجرَّاح. ينظر: ديوان الحماسة، حبيب بن أوس الطائي، أبو تمَّام، تحقيق: أحمد حسن بسج، الناشر: دار الكتب العلميَّة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م: ١/ ٣٧٦، وأمالي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمَّد بن سلمان، عني بوضعها وترتيبها: محمَّد عبد الجواد الأصمعيّ، الناشر: دار الكتب المصريَّة، ط٢، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م: ٢/ ١، وأعلام النساء، عمر رضا كحالة، الناشر: مؤسَّسة الرسالة، ط٥، بيروت، ١٤٠٤هـ: ٤/ ٢٦، وإتحاف السائل، محمَّد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: عبد اللطيف عاشور، الناشر: مكتبة القرآن، القاهرة، د.ت: ١٠٤.

يتراءى لنا في النصِّ حالة التفجُّع من السيِّدة الزَّهراء عليها السلام على فقدِ أبيها وحاميها، فاستهلَّت الزَّهراء عليها السلام البيتَين الأوَّلَين بحرف التحقيق (قد)، والفعل الماضي (كنت)، واللذين يدلَّان على حدث في الماضي، واستمرَّ دالًّا عليه حتَّى زمن التكلُّم[1]؛ وذلك لشدَّة حزنها ويأسها، فمثَّلت شعور فقدِ أبيها بالفعل الماضي، مع التأكيد عليه بحرف التحقيق (قد)، لتبيَّن أنَّ فقدَ الملجأ والمحامي عنها كان وما زال مستمرًّا، وقد امتلكت براعة عالية في توظيف الألفاظ، وحسن ترتيبها وتنسيقها؛ لتشيع إيقاعًا مؤثِّرًا في الأسماع، وكأنَّها عليها السلام أرادت أن ترسم شعورها بفقدِ النبيِّ صلى الله عليه وآله الذي كانت تستظلُّ به، فقامت الصورة التشبيهيَّة في البيت على إيحاء الألفاظ وغزارة المعاني؛ لتبيِّن أنَّ أباها كان كالجبل الذي تعتصمُ به من الأيَّام، والآن بعد رحيله قد أسلمها غرضًا لسهام الأيَّام الموجعة، ثمَّ تورد تلك الخصال والفضائل التي يتحلَّى بها والدها، ولكنَّها جمعتها بـ(خير فوارسي وسلاحي)، بكلِّ ما تحملانه من معنى لتفسِّر حرقة الألم واستسلامها للعزاء والحزن، بعدما حضرت منيَّته ورحل إلى الرفيق الأعلى، وتمكُّن الحوادث وتقلُّبات الدّهر منها، بدلالة (**حَضرت مَنيَّته فَأَسلَمني العزا/ وَتَمكَّنت ريبُ المنونِ جراحِ**)، ممَّا يبعث في نفسها الأسى لفقدان أبيها صلى الله عليه وآله. وتستكملُ صورة حزنها بصورة تشبيهيَّة أخرى معبِّرة عن المصاب الجلل، الذي ألمَّ بها، وهو تشبيه جناحَي الغراب بالسيوف والرماح، بدلالة (**يَنَشَر الغرابُ عليَّ ريش جناحه/ فَظَللت بينَ سيوفهِ ورماحِ**)؛ لتُكسِب البناء الفنِّي صورته الشعريَّة متانةً وقوَّة[2]، وأنَّ تعجُّبها المزدحم بالتوكيد بـ(إنَّ) الذي يُفصح عن الدقَّة، والتمعُّن في بيان عجبها إزاء من يذهب بعيدًا عن جادَّة الصواب، بدلالة فِعلَي المضارع (يغتدي ويروح) الدالَّين على الحاضر، والممتدَّين إلى المستقبل، واعتمادها

(١) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطيّ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة التوفيقية، مصر، د.ت: ١/ ٣٧.

(٢) ينظر: معجم الشعراء، المرزبانيّ، تحقيق: عبد الستَّار أحمد فرَّاج، الناشر: دار الكتب العربيَّة، ١٣٧٩هـ: ٣٨٣.

على المضارع؛ لتجسَّد لنا حال الذين يذهبوا بعيدًا في كلِّ زمان، ولم يكن بحسبانهم أنَّ الأجل محيط بهم من كلِّ جانب، بدلالة (**إنِّي لأعجبُ مَن يروحُ ويَغتدي/ وَالموتُ بين بكوره ورواحِ**)؛ لتندرج البنية التركيبيَّة (فاليومَ) معلنةً عن الظروف المأساويَّة التي تعيشها الزَّهراءعليها السلام بعد أبيها، بدلالة الأفعال المضارعة (أخضع/ أدفع/ أتَّقي) بدلالة الحال، لتبيِّن حالتها ومعاناتها المريرة ممَّا تلاقيه من الظلم، وتتجنَّب ظلم الظالم، وتدفعه بكفِّها الشريفة بعدما كانت تستظلُّ برسول اللهصلى الله عليه وآله، والذي يتواشج معها معنى (**وَإذا بكَت قمريَّة شَجنًا لها/ لَيلًا عَلى غصنٍ بكيت صباحي**)؛ لتبيِّن تلك المكانة التي لا يستطع أحد أن يشغلها، فإذا كان بكاء القمر على اللَّيل، فأنَّهاعليها السلام تبكي الصباح الذي فقدته، وفيه إيحاء بشدَّة الحزن الذي ألقى بكاهله عليها حتَّى توجَّهت إلى الباريعزّ وجلّ بقولها: (فَالله صبِّرني على ما حلَّ بي) قاصدةً بها نفسها المحزونة في الصبر على ما حلَّ بها من فقدِ أبيها بعبارة (مات النبيّ انطفئ مصباحي)، بوصفٍ جامعٍ بين الحقيقة والمجاز، لتفرض على المتلقِّي الكشف عمَّا وراء السياق من معانٍ ينطوي عليها النصُّ الشعري، من فقدان الأب، وقسوة الظالم والزمن عليها.

وصورة مشابهة للحالة السَّابقة تعرض فيها الزَّهراءعليها السلام لوحة شعريَّة ذات إيقاع حسيّ، تراكمت فيه لحظات الألم من ندبِها وحزنها لأبيهاصلى الله عليه وآله الذي كان الحامي لهاعليها السلام، قولها (البحر الكامل):

«قُـل لـلـمـغـيَّـبِ تـحـتَ أَطـبـاقِ الـثَّـرى
إِن كـنـتَ تـسـمـعُ صَرخَـتـي وَنِـدائِـيـا
صُـبَّـتْ عَـلـيَّ مَـصـائـبٌ لـو أنَّـهـا
صُـبَّـت عَـلـى الأيَّـام صِرنَ لـيـالـيـا
قَـدْ كـنـتُ ذاتَ حِـمًـى بـظـلِّ محـمَّـدٍ
لا أَخـشَ مِـن ضـيـمٍ وكـان جمـالـيـا

فَـالـيـومَ أَخـشـعُ لِـلـذلـيـلِ وأَتَّـقـي
ضَـيـمـي وَأَدفـــع ظـالِـمـي بِـرِدائِـيـا
فَـــإِذا بَـكَـت قـمـريَّـةٌ في لـيـلـهـا
شَـجـنًـا عَـلى غـصـنٍ بـكـيـتُ صـبـاحِـيـا
فَـلأجـعـلـنَّ الحـــزنَ بَـعـدكَ مُـؤنـسي
وَلأجـعـلـنَّ الـدَّمـعَ فـيـكَ وِشـاحـيـا
مـــاذا عَـــلى مَـــن شـــمَّ تُـــربـــةَ أحـمـدٍ
أَن لا يـشـمَّ مَـدى الـزَّمـان غَـوالـيـا»[1]

بأسلوب الأمر الذي ملؤه الحسرة تفتح الزَّهراء عليها السلام مرثيَّتها بدلالة (قلْ)، وذلك ليس على إرادة إبراز الملمح الصوتيّ فقط؛ بل إنَّها لتدلّ على توقُّع المخاطَب وإصراره على معرفة المزيد من مناقب المتفجِّع عليه، ليبلغ به الحزن ذروته، وليُسهم في تعضيد دلالة التفجُّع عليه، وقد تعمَّدت الزَّهراء عليها السلام إخفاء الفاعل، وجعله عامًّا وغير محدَّد، ولربَّما كانت تقصد جمهور الناس الذين تسبَّبوا في إيذائها بعد أبيها، فيعدُّ البيت مفتاحًا لما فيه من معنى شموليّ أحاط بكلِّ ما في الأبيات من معاني الألم والحزن والفراق، إذ شكَّلت دلالة الماضي (صُبَّتْ) المكرَّرة على جسد البيت؛ لتؤكِّد عليها السلام على عِظَم المصائب التي جرت عليها، وذلك «لأنَّ تكرار لفظة ما أو عبارة، يوحي بشكلٍ أوَّلي بسيطرة هذا العنصر المكرَّر، وإلحاحه على فكرة الشاعر، أو على شعوره أوَّلًا، ومن ثمَّ فهو لا يفتأ ينبثق في أفق رؤياه من لحظةٍ لأخرى»[2]، وهي تعمد إلى فضائل أبيها بكونه الحِمَى التي

(١) المناقب، ابن شهر آشوب: ١/ ٢٤٢، وأعلام النساء، ابن طيفور: ٤/ ١١٣، وإتحاف السائل، محمَّد عبد الرؤوف المناوي: ١٠٣، وأعيان الشيعة، محسن الأمين، تحقيق: حسن الأمين، الناشر: دار التعارف، بيروت، د.ت: ١/ ٣٢٣.

(٢) المتعاليات النصيَّة في المسرح الجزائري، خديجة خليلي، رسالة ماجستير، كليَّة الآداب، ٢٠٠٩م: ٢٤٠.

كانت تستظلُ به، ولا تخاف من ذلك الظلم أو جور الدَّهر، أمَّا اليوم فأصبحت وللأسف تدفع وتحصِّن نفسها من الظالم، وتدفعه بردائها، ولتقطع اندهاش المتلقِّي لشدَّة حزنها وبكائها، ولتجعله المؤنس لها بدلالة (فلأجعلنَّ) المكرَّرة المركَّبة من الفعل المضارع ولام القَسَم ونون التوكيد؛ لتؤكِّد وتُقسِم على استمراريَّة بكائها على أبيها، ولعمق حزنها نراها استعملت أداة الاستفهام (ماذا) لتأخذ بالذَّات المتلقِّية إلى فضاء أسلوبيّ خلَّاق يتواءَم وطبيعة الموقف الشعريّ، باستشعار أنَّ مَن شمَّ ترابَ قبرِ النبيِّ صلى الله عليه وآله يستغني مدى الحياة عن شمِّ الغوالي، أي عن شمِّ مختلف أنواع الطِّيب، فأرادتْ مِن الغَوالي مُطلَق أنواع الطيِّب من باب استعمال جنس الشيء باسمِ بعض أصنافه».

وقالت عليها السلام تندبُ أباها صلى الله عليه وآله (البحر الكامل):

اِغبــــرَّ آفــــاقُ الــســماءِ وكــوِّرت
شــمــسُ الــنــهــارِ وأظــلــمَّ الــعــصرانِ
فَــــالأرضُ مِــن بــعــدِ الــنــبــيِّ كئيبةٌ
أَســفًــا عــلــيــه كــثــيرةُ الــرَّجــفــانِ
فَــلَــيــبــكِــهِ شرقُ الــبــلادِ وغــربُــهــا
وَلــيَــبــكِــهِ مــضرٌ وكــلُّ يَــمــاني
وَلَــيــبــكِــهِ الــطُّــور المــعــظَّــمُ جــوُّهُ
وَالــبــيــتُ ذو الأســتــارِ والأركــانِ
يــا خــاتــم الــرُّســلِ المــبــارك ضــوؤه
صــلَّى عــلــيــكَ مــنــزِّلُ الــقــرآنِ[1]

(١) إتحاف السائل، محمَّد عبد الرؤوف المناوي: ١٠٢، والثغور الباسمة، جلال الدين السيوطيّ، تحقيق: بشَّار عوَّاد معروف، الناشر: مؤسَّسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤٠٨هـ: ٥٤، وأعيان الشيعة، محسن الأمين: ١/ ٢٢٣، وأعلام النساء، ابن طيفور: ٤/ ١١٣.

استهلَّت الزَّهراء عليها السلام في تصوير عَظَمة فَقدِ النبيّ صلى الله عليه وآله في لحظة تغيَّرت فيها كلُّ معطيات الكون، بدلالة (اغبرَّ، وكوِّرت، وأظلمَّ)، فمبعثها حزن الأرض وأسفها ورجفانها على رحيل النبيِّ الأعظم صلى الله عليه وآله، فهي في مضمونها بكاء وندب على الفقيد بدلالة (فليبكِهِ) المكرَّرة لأكثر من مرَّة، الذي يشتمل على كلِّ شيء (شرق البلاد وغربها، ومضر ويماني، والطور المعظَّم، والبيت والأستار والأركان)؛ لما لها من علاقة بالحدث العظيم المتمثِّل برحيل نبيِّ الأمَّة، فهو ليس شخصًا عاديًّا، فأفصحت عنه دلالة التكرار في إظهار المشاعر الداخليَّة ومكنونات النفس، وما يختلج فيها، وبث مشاعرها عليها السلام بدلالة (ياء النداء)؛ لبيان مكانة المرثيّ، فهي لم تذكر اسمه صراحةً من أنَّ الفقيد والدها، وإنَّما ذكرت ما يدلُّ على ذلك (خاتم الرُّسل) الذي صلَّى عليه جبرائيل عليه السلام، وينزل عليه بالكتاب الكريم، فجاءَ توظيفها لألفاظ الحزن المتناسبة مع مدلولاتها التي تعبِّر عن مشاعرها الدفينة، وعاطفتها الجيَّاشة تجاه أبيها، فـ«طبيعة العاطفة التي تعبِّر عنها، ثمَّ أسلوب التعبير عن تلك العاطفة، عن طريق الأدوات الفنيَّة المختلفة التي تقوم عليها القصيدة»[1].

ومنها قولها عليها السلام في مقطوعة، والَّتي نلمحُ في رسمها صورة مُثقَلة بالألم (البحر الكامل):

«أمسى بخدِّي للدموعِ رسومُ
أسفًا عليكَ وفي الفؤاد كُلومُ
والصبرُ يحسن في المواطن كلّها
إلَّا عليكَ فإنَّه مذمومُ

(١) الشعر النسائيّ في أدبنا العربيّ القديم، د. منى يوسف خليف، الناشر: مكتبة غريب للطباعة، د.ط، القاهرة، د.ت: ٩٣.

لا عـتـبَ في حـزني عـلـيـك لـو أنَّـه

كـان الـبـكـاء لمـقـلـتـيَّ يـدومُ»[1]

يبدو جليًّا حزن الزَّهراءعليها السلام على والدها بأسلوب تفجُّعي يدلُّ على عاطفتها الداخليَّة المملوءة بالحزن والأسى، وقد هيمن توظيف التراكيب الشعريَّة المعبِّرة الدالَّة على الحزن على الطرف الثاني الذي طواه الثرى بدلالة (أمسى بخدِّي الدموع رسوم) لتجسِّد عن طريقها الندوب التي تركت آثارها من جرَّاء كثرة البكاء على أبيها، حتَّى تركت جروح فراقه في قلبهاعليها السلام وفق جانب تركيبيّ مهم في التعبير عن المعاني التي أرادت إيصالها، متمثِّلة بعمق المشاعر وصدق المشاعر، وفق نظم متلاحم ومتماسك في أجزائه، وفق بيان صورة الجزع تجاه فَقدِ أبيهاصلى الله عليه وآله، وعدم الصَّبر بدلالة (والصبر يحسن في المواطن كلها، إلَّا عليك فإنَّه مذموم)، فضلًا عن دلالة التكرار للفظة (عليك)، وقد أسهم هذا التكرار في جعل النصِّ قطعة موسيقيَّة موحدة متوافقة الحالة النفسيَّة للزَّهراءعليها السلام، وما تعيشه من حزن ولوعة، معبِّرة عن فيض إحساسها، كاشفة عن حزنها العميق، دالَّة على تعلُّقها بوالدهاصلى الله عليه وآله، والتكرار يكون مفتاحًا للفكرة كاشفًا لأغوار النصِّ امتدادًا وتناميًا في الصور وفق مهارة ودقَّة في مع اختيار الألفاظ، لتعبِّر عن طريقه عن عدم اللوم في استمرار حزنها ودوام بكائها بدلالة (لا عتبَ) التي شكَّلت مؤشِّرًا لحالة الألم الدفين الذي يعتصر قلبَ الزَّهراءعليها السلام، وبهذا لم تستطععليها السلام كبح مدامعها وحزنها التي ظهرت مترجَمة في البيت الأخير.

ونتوقَّف على مقطوعة أخرى تصوِّر مشهدًا من استمرار وتجدُّد حزنهاعليها السلام على أبيهاصلى الله عليه وآله قولها (البحر الخفيف):

«إنَّ حـزني عـلـيـك حـزن جديد

وفـؤادي والله صـبّ عـنـيـد

(١) عوالم فاطمةعليها السلام، عبد الله البحرانيّ، تحقيق: مؤسَّسة الإمام المهديعجل الله فرجه، ط٢، قم، ١٤٠٣هـ: ٤٥٦.

كـــلّ يـــوم يـــزيـــد فـــيـــه شـجـوني
واكـــتـــئـــابي عـــلـــيـــك لـــيـــس يـبـيـد
جـــلّ خـطـبـي، فـبـــان عـنـي عـزائـي
فـبـكـائـي في كـــل وقـــت جـديـد
إنّ قـلـبًـا عـلـيـك يـألـف صـــبرًا
أو عـــــزاء فـــإنـــه لجـلـيـــد»[1]

ارتكزت المقطوعة الرثائيَّة في مفتتحها على التوكيد (إنَّ) لتؤكِّد حقيقة لا تحتاج إلى تأكيد من تجدُّد حزنها على أبيها صلى الله عليه وآله؛ لما لهذا الأسلوب من أثرٍ في إثراء النصِّ بالفكرة المراد بيانها، فضلًا عن زيادة جدَّة الخطاب التواصليّ، وقد استعملت الزَّهراء عليها السلام هذا التركيب (إنَّ واسمها وخبرها) «الذي يفيد توكيد مضمون الجملة وتحقيقه»[2]، وهو الفاعل الأساسيّ الذي يعرض للجزئيَّات التي نسجت خيوط مأساة رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله، واستمراريَّة وتجدُّد البكاء والحزن عليه، وحتَّى فؤادها متشبِّث ولا يودُّ أن يقتنع ويكفُّ عن حزنه وبكائه، لتكشف لنا الغطاء عن طريق (ياء التكلِّم) عن الحالة الشعوريَّة والنفسيَّة التي تعشيها الزَّهراء عليها السلام بدلالة الألفاظ (حزني، فؤادي، شجوني، اكتئابي، خطبي)، مع الإصرار والتمسُّك بدلالات الاستحالة التي تنثال عن طريق التشكيل المتمثِّل بـ(كلّ يوم يزيد، ليس يبيد، جديد) الذي يضفي طابعًا مأساويًّا حزينًا يوحي بتجدديَّة البكاء والعزاء التي تظهر وتعكس آثارها على نفس الزَّهراء عليها السلام، ليأتي التوكيد (إنَّ قلبًا عليكَ يألفُ صبرًا) ختامًا لوصف حالة قلبها الحزين الذي أصبح يألف الصبر والعزاء بقوَّته وصبره على ما مرَّ به من المصائب، ودالًّا على أنَّها عليها السلام ذات نفس عاطفيَّة شديدة، فضلًا عن التناسق النغميّ المهيمن على المرثيَّة، وقد عكست بذلك كلّه انفعالًا صادقًا مفعمًا بالألم والحزن.

(١) بحار الأنوار، المجلسيّ: ٤٣/ ١٧٦، وعوالم فاطمة عليها السلام، عبد الله البحرانيّ: ٤٨٦.
(٢) شرح المفصَّل، موفق الدين عليّ بن يعيش، الناشر: المطبعة المنيريَّة، مصر، د.ت: ٨/ ٥٩.

وصورة مشابهة للحالة السابقة، لوحة شعريّة تكشف عن مشهد ذي إيقاع حسِّيّ، تراكمت فيه لحظات الألم الَّذي أكَّده وقع صوت الدال الممتدِّ في شطر الأبيات، فتقول (البحر الطويل):

إذا مـاتَ يـومًـا ميـتٌ قـلَّ والله ذكـرهُ
وَذكـــرُ أَبي مُـذ مـات والله أزيـدِ
تَـذكَّـرت لـــمَّا فـرَّق المـوتُ بيننا
فَـعـزَّيـتُ نـفـسي بـالـنـبـيِّ محـمَّـدِ
فَـقُـلـتُ لهـا: إنَّ المَـات سبيـلُنا
وَمَـن لَم يَمت في يـومـهِ مـاتَ في غـدِ»[1]

تنطلق الزَّهراءعليها السلام في مرثيَّتها من البكاء والندب وإظهار التوجُّع على فقدِ أبيهاصلى الله عليه وآله، لتبيِّن سرعة نسيان الشخص الذي يموت مع تقادم الأيَّام بدلالة القسم (قلَّ والله ذِكره)، وجاءت بلفظ (ميت) النكرة للدلالة على شخصٍ شائع بجنسه غير معيَّن، إلَّا أنَّهاعليها السلام كلَّما تقدَّمت الأيَّام ازداد ذِكر فقدِ أبيها ووجعها عليه، بدلالة التأكيد بلفظ القَسَم (وذِكر أبي والله أزيد)، وبهذه المقارنة تعكس لناعليها السلام صورة حيَّة وعاطفة صادقة عن أساها واستمراريَّته، الذي ضجَّ به البيت الأوَّل بصورة فنيَّة تقودنا إلى صور أخرى من صور الحزن والأسى التي يسودها الانفعال الوجدانيّ الجليّ في لغة الأبيات المتمثِّلة بـ(تذكرتُ، وعزيتُ) والمعبرة عن التوجُّع من الموت الذي فرَّق بينها وبين أبيهاصلى الله عليه وآله، فـ«الموت في حدِّ ذاته يمثِّل تجربة حسيَّة ممضَّة للإنسان عمومًا، فإنَّها تتجاوز، بالنسبة للشاعر، شحنتها من الألم الحسِّيّ والاحساس بالقهر والفقدان، لترتقي إلى مستوى التجارب الوجوديَّة الكبرى»[2]، حتى إنَّهاعليها السلام أخذت تخففُ عن نفسها وتواسيها على

(١) بحار الأنوار، المجلسيّ: ٢٩/ ٥٢٣.

(٢) الدلالة المرئيَّة (قراءات في شعريَّة القصيدة الحديثة)، د. عليّ جعفر العلَّاف، الناشر: دار=

هذه المصائب بإيمان ووعي بواقع هذه الحياة الفانية التي تنتهي يومًا ما، ولا مفرَّ فيها من أمر الموت المحتوم، بدلالة (**فَقُلتُ لها: إنَّ المَمات سبيلُنا**)، لتعقد عن طريق لفظتَي (يوم، غد) بقولها: (**وَمَن لَم يَمت في يومهِ ماتَ في غدِ**)؛ لتؤكِّد للمتلقِّي حتميَّة الموت، وتظهر الفكرة المبتغاة من النصِّ من خلاله وإتمامه، فمسحة الحزن هذه التي طغت على الأبيات كشفت عن مدى إحساسها الفيَّاض بالمودَّة والألم والحزن لفراق أبيها صلى الله عليه وآله، وفق منظومة من الدوال والدلالات التي جسَّدت فيها تصوير الأسى وامتداده، فالحزن عبارة عن ظاهرة إنسانيَّة لا تعتمد في تفسيرها على ثقافة أو مرحلة معيَّنة، بل تظهر فيها الناحية النفسيَّة مع المهارة في تكوين الصورة ببلاغة وفن.

الخاتمة

بعد هذه الرِّحلة الحزينة مع مراثي الأب عند الزَّهراء عليها السلام، كانت النتائج على ما يأتي:

١. إنَّ الأب له المكانة العالية والحظَّ الأوفر من الاهتمام حتَّى بعد موته، وهذا ما لا يمكن نكرانه في تقدير الأب والاهتمام به في الشعر العربيّ، فكيف إذا كان الأب رسول الله صلى الله عليه وآله.

٢. امتازت مراثي الزَّهراء عليها السلام بالبلاغة والصدق في التعبير ما يخلِّدها، إذ إنَّها لامست قلوب المتلقِّين، فكانت كتلة من العواطف والمشاعر، فما كان من ألم في قلبها ظهر على لسانها.

٣. كشف البحث أنَّ الأبيات جاءت منسجمة مع الوظيفة الغرض الذي كتبت لأجله، وهو الغرض الأقرب إلى النفوس بعد فقدان عزيز، ولاسيما الأب.

٤. دلَّت الألفاظ على حالة الزَّهراء عليها السلام المفعمة بالألم والحسرة مغمورة بالرِّقَّة

=الشروق للنشر والتوزيع، ط١، عمان، الأردن، ٢٠٠٢م: ٩٣.

العاطفيَّة وشعور الفقد المتوهِّج من الحزن الممتدِّ حتَّى رحيلها عليها السلام.

٥. انـمازت أبياتها عليها السلام بالوضوح والسلاسة وصدق العاطفة، أمَّا من حيث الصياغة والتعبير، فجاءت الألفاظ سهلة بعيدة عن التكلُّف.

٦. أظهرت الزَّهراء عليها السلام بعض فضائل والدها صلى الله عليه وآله التي كان يتحلَّى بها، منها (كهف الأيتام والضعفاء، الحامي، خير الفوارس) بألفاظ بائنة ومتناسبة مع مدلولاتها.

ثبت المظان

أوَّلًا: الكتب العلميَّة

- اتحاف السائل، محمَّد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: عبد اللطيف عاشور، الناشر: مكتبة القرآن، القاهرة، د.ت.
- الأدب العربيّ في الأندلس، عبد العزيز عتيق، الناشر: دار النهضة، د.ط، بيروت، د.ت.
- أعلام النساء، عمر رضا كحالة، الناشر: مؤسَّسة الرسالة، ط٥، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- أعيان الشيعة، محسن الأمين، تحقيق: حسن الأمين، الناشر: دار التعارف، بيروت، د.ت.
- أمالي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمَّد ابن سلمان، عني بوضعها وترتيبها: محمَّد عبد الجواد الأصمعيّ، الناشر: دار الكتب المصريَّة، ط٢، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م.
- الأمالي، أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد بن النعمان العكبريّ البغداديّ الملقَّب

بالشيخ المفيد، تحقيق: الحسين أستاد ولي، عليّ أكبر الغفاريّ، منشورات جماعة المدرِّسين في الحوزة العلميَّة، قم المقدَّسة، ١٤٠٣هـ.

- بحار الأنوار، محمَّد باقر المجلسيّ، تحقيق: محمَّد الباقر البهبوديّ، الناشر: مؤسَّسة الوفاء، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ.
- بلاغات النساء، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور، صحَّحه وشرحه: أحمد الألفيّ، الناشر: مطبعة مدرسة والدة عبَّاس الأوَّل، القاهرة، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م.
- البلاغة العربيَّة، تأصيل وتجديد، مصطفى الجوينيّ، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندريَّة، د.ط، ١٩٨٥م.
- التعازي والمراثي، أبو العباس المبرد، تحقيق: محمَّد الديباجي، الناشر: مجمع اللغة العربيّة، دمشق، ١٩٧٦م.
- الثغور الباسمة، جلال الدين السيوطيّ، تحقيق: بشار عوَّاد معروف، الناشر: مؤسَّسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- الدلالة المرئيَّة (قراءات في شعريَّة القصيدة الحديثة)، د. عليّ جعفر العلَّاف، الناشر: دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١، عمَّان، الأردن، ٢٠٠٢م.
- ديوان الحماسة، حبيب بن أوس الطائي أبو تمام، تحقيق: أحمد حسن بسج، الناشر: دار الكتب العلميَّة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- رثاء الأبناء في الشعر العربيّ، يحيى مخمير صالح موسى، الناشر: مكتبة المنار، ط١، الأردن، ١٩٨١م.
- الرثاء في الشعر الجاهليّ وصدر الإسلام، بشرى الخطيب، الناشر: مديريَّة مطبعة الإدارة المحليَّة، بغداد، ١٩٧٧م.

- شرح المفصَّل، موَّفق الدين عليّ بن يعيش، الناشر: المطبعة المنيريَّة، مصر، د.ت.
- شعر الرثاء في العصر الجاهليّ، مصطفى عبد الشافي الشوريّ، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٥م.
- الشعر النسائيّ في أدبنا العربيّ القديم، د. منى يوسف خليف، الناشر: مكتبة غريب للطباعة، د.ط، القاهرة، د.ت.
- العمدة في محاسن الشعر، أبو الحسن بن رشيق القيروانيّ، الناشر: دار الجيل، ط٤، بيروت، ١٩٧٢م.
- عن بناء القصيدة العربيَّة، د. عليّ عشري زايد، الناشر: مكتبة دار المعرفة، ط٢، الكويت، ١٩٨١م.
- عوالم فاطمة عليها السلام، عبد الله البحرانيّ، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي عجل الله فرجه، ط٢، قم، ١٤٠٣هـ.
- غريب الحديث، أبو محمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ، تحقيق: د. عبد الله الجبوريّ، الناشر: مطبعة العاني، ط١، بغداد، د.ت.
- فاطمة الزَّهراء عليها السلام في ديوان الشعر العربيّ، قسم الدراسات الإسلاميَّة، مؤسَّسة الزَّهراء، الناشر: مؤسَّسة البعثة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- القاموس المحيط، محمَّد بن يعقوب الفيرو آباديّ، تحقيق: مكتب تحقيق التراب في مؤسَّسة الرسالة، ط٨، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- قصيدة الرثاء، جذور وأطوار، دراسة تحليليَّة في مراثي الجاهليَّة في صدر الإسلام، حسين جمعة، الناشر: دار النمير للطباعة والنشر، د.ط، سوريا، دمشق، ١٩٩٨م.

- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيديّ، تحقيق: مهدي المخزوميّ، وإبراهيم السامرَّائيّ، الناشر: مؤسَّسة الميلاد، ط١، قم، ١٤١٤هـ.
- معجم الشعراء، المرزبانيّ، تحقيق: عبد الستَّار أحمد فراج، الناشر: دار الكتب العربيَّة، ١٣٧٩هـ.
- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريَّا، تحقيق: د. عبد السلام هارون، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- مناقب آل أبي طالب، الحافظ ابن شهرآشوب أبي عبد الله محمَّد بن عليّ بن شهرآشوب، قام بتصحيحه وشرحه: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، الناشر: المكتبة والمطبعة الحيدريَّة، قم المقدَّسة، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطيّ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة التوفيقيَّة، مصر، د.ت.

ثانيًا: الرسائل والأطاريح

- المتعاليات النصيَّة في المسرح الجزائري، خديجة خليلي، رسالة ماجستير، كليَّة الآداب، ٢٠٠٩م.

ثالثًا: المجلَّات أو الدوريات

- قراءة جديدة في مراثي الخنساء، جبَّار اللامي، مجلَّة كليَّة التربية، العدد٨، ٢٠١٠م.
- قصيدة (رثاء الأم) للشريف الرضيّ (ت٤٠٦هـ) دراسة أسلوبيَّة، م.د. جواد عودة سبهان، مجلَّة دواة، العدد٣٥، ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م.

الآخر وأثره في خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام
(الخطبة الفدكيَّة أنموذجًا)

م.م. أنوار جاسب غالب كشيل الغزاليّ
المديرية العامَّة للتربية النجف الأشرف

ملخَّص البحث

شكَّل الآخر في خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام ملمحًا مهمًّا؛ لما له من فاعليَّة في إثراء دلالة النصِّ وتماسكه، فهو آليَّة تُسهم في جذب انتباه المتلقِّي، لذلك جسَّدت السيِّدة عليها أفضل الصلاة والسلام في خطابها مجموعة من القيم الأصيلة، التي ترتفع في مضمونها نحو تجلِّيات إنسانيَّة عليا، متضمِّنة آفاقًا ذات أنساق يتكلَّل من خلالها المسار التعبيريّ إلى تكريس المسعى الفكريّ، وتأكيد الوازع الأخلاقيّ، من أجل قصد سبيل الخير والنجاة، كما أنَّ الباعث الأوَّل لهذه الخطبة الفدكيَّة، جاء ردًّا على حديث أبي بكر، ممَّا أسهم في تشكيل النصِّ وتوجيهه، إذ حدَّدت بهذا الخطاب موقفها من الأحداث الطارئة والحادثة بعد وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، فجاء خطابها مشكَّلًا؛ لغرض إيصال رسالة مهمَّة.

جاءت خطَّة الدراسة مشتملة على مقدِّمة وتمهيد تناولت فيه شذرات تعريفيَّة عن الخطبة الفدكيَّة وأهميَّتها، ومن ثمَّ انقسمت الدراسة على مبحَثَين، الأوَّل تضمَّن أثر الآخر الفرديّ وفاعليته في تشكيل خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، والثاني اشتمل على

أثر الآخر الجماعيّ ونفوذه في الخطاب الفاطميّ، ومن ثمَّ أتت الخاتمة وقائمة المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحيَّة: الآخر، فاطمة الزَّهراء عليها السلام، الأثر، الفرديّ، الجمعيّ، الخطبة الفدكيَّة، الخطاب.

المقدِّمة

على الرغم من الأهميَّة التي يشكِّلها الآخر في الخطاب الفاطميّ، لم نجد أنَ الدراسات قد سعت وغطَّت هذا الجانب، إلَّا بعض الدراسات التي تناولته بشكلٍ مختصَر، فمفهوم الآخر بحدِّ ذاته أثار كثيرًا من الجدل؛ لكونه مفهومًا غير محدَّد على نحوٍ دقيق، فالكثير من النقَّاد فسَّر هذا المصطلح على أنَّه المضاد للذات، والوجه المقابل أو النقيض لها، وبهذا المعنى أصبح يُطلق على كلِّ ما يغاير الذات على الإطلاق.

وفيما يخصُّ دراستنا على الخطبة الفدكيَّة، جاء المفهوم موزَّعًا على مبحثَين، تناولنا في الأوَّل الآخر الفرديّ الذي شمل أفرادًا بعينهم، أمَّا المبحث الثاني فشمل الآخر الجمعيّ الذي خصَّته السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في خطابها، والذي كان موجَّهًا إلى أكثر من فئة من المسلمين والمهاجرين والأنصار، وكلُّ الحاضرين في المسجد الذي ألقت فيها خطبتها، فظهور الآخر برمته في خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام كان يظهر بصورَتين، **الأولى** كانت تعكس الجانب السلبيّ لهؤلاء القوم الذين خذلوها، ولم يقفوا معها في نصرتها، ونلحظ على الآخر في صورة سلبيَّة كالصورة التي رسمتها في أثناء خطابها لأبي بكر وأتباعه من القوم، على أن ننظر إليه على أنَّه نسق تصوُّريّ تُطوِّره وتغيِّره الكائنات البشريَّة، سواء أكانت أفرادًا أم جماعات، وتتبنَّاه وتنسبه إلى نفسها، ويتكوَّن هذا النسق التصوريّ من مجموعة من الخصائص الفيزيقيَّة والنفسيَّة والاجتماعيَّة، ومن العناصر

الثقافيَّة، كالقيم والأهداف والقدرات التي يعتقد الأفراد أو الجماعات أنَّها تتَّصف بها[1].

والأخرى كانت قد أظهرت الجانب الإيجابيّ المتمثِّل بالنصوص التي خصَّت بها حديثها عن الذات الإلهيَّة، والرسول محمَّدﷺ، وأيضا حديثها عن الإمام عليّعليه السلام، والمطالبة بحقِّه في الإمامة، وعن قضايا وأحكام دينيَّة.

(١) كتابة الآخر في الرواية المعاصرة، عبد القادر شرشار، مخطوط، ٢٠٠٣: ١.

التمهيد
الخطبة الفدكيَّة وأهميَّتها

قبل الشروع في الدراسة، لا بُدَّ لنا أن نشير إلى المعنى اللغويّ والاصطلاحيّ للفظة الخطاب، إذ أشارت بمعناها اللغويّ إلى المحاورة والفهم والإفهام، فقولنا: خَطَبَ فلانٌ إلى فلانٍ فخطبهُ وأخطبهُ، أي أجابهُ، والخطابُ والمُخاطبة، مراجعة الكلام، وقد خاطبهُ بالكلام مُخاطبةً وخطابًا، وهما يتخاطبان[1].

أمَّا المعنى الاصطلاحي الذي دلَّت عليه لفظة الخطاب، فهو «الكلام الذي يُقصَد به الإفهام، إفهام مَن هو أهل للفهم والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع، فإنَّه لا يسمَّى خطابا»[2]، ويعدُّ الخطاب وسيلة المخاطِب في إيصال الغرض الإبلاغيّ، وممَّا يميِّزه بكونه كتلة بنيويَّة واحدة متماسكة الأجزاء[3]، فخطاب السيِّدة الزَّهراء

(١) ظ: الصِّحاح تاج اللغة وصحاح العربيَّة، أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد الجوهريّ الفارابّي (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطَّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م: ٣١٤ (مادَّة خطب)، ولسان العرب، ابن منظور (ت٧١١هـ)، دار إحياء التراث العربيّ، مؤسَّسة التاريخ العربيّ، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٩٩م: ٤/ ١٥٥ (مادَّة خطب).

(٢) الكليَّات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسينيّ القريميّ الكفويّ (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش، محمَّد المصريّ، مؤسَّسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م: ٤١٩.

(٣) ظ: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ترجمة: محمَّد يحياتن، الدار العربيَّة للعلوم ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ١٤٢٨هـ: ٣٨، في البنية الدلاليَّة للنصِّ، ديتر فيهفجر، ترجمة سعيد حسن بحيرى، مؤسَّسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م: ٢٦٢.

عليها أفضل الصلاة والسلام انماز بقدرة تؤثِّر في السامعين، كما له الأثر الانفعاليّ الـذي يندرج تحته البعد الـوجـدانيّ، والتأثير العمليّ الـذي يقع ضمن المستوى الإجرائيّ.

لذا عُدَّت الخطبة الفدكيَّة أنموذجًا حيًّا، جسَّدت من خلالها السيِّدة الزَّهراء عليها السلام رسالة سماويَّة خالدة، عكست بها الأثر الصادق للخطاب الإلهيّ، وجعلته بمثابة النصِّ المعصوم المتمثِّل بنصوص الأربعة عشر معصومًا، وتندرج ضمن ميدان (الخطبة، الرسالة، المقالة، الوصيَّة، الدعاء، الزيارة، الحديث..)؛ لما امتلكته من إبداع حتَّى بلغت به مراتب الكمال[1]، والتماسك والتأثير، فمثَّلت نصًّا فكريًّا وأدبيًّا كاملاً، جمعت فيها كلَّ شروط النصِّ المبدع، الذي هو «كيان متكامل يتكوَّن من أجزاء تنمو باتِّجاه البنية الكليَّة؛ إذ إنَّه عمل مثل جنسٍ أدبيٍّ معيَّن، تتوافر فيه شروط العمليَّة الأدبيَّة من التماسك والوحدة، والانسجام والكليَّة»[2]، فالخطاب الفاطميّ هو تمثيلٌ حيٌّ للخطاب القرآنيّ؛ لشموليَّته، وصدقه، وواقعيَّته، وتأثيره في المتلقِّي، إذ شكَّل انقلابًا ثوريًّا في الواقع الإسلاميّ، والفكريّ، والسياسيّ، والأخلاقيّ، والاجتماعيّ[3]. أمَّا البواعث التي دفعتها بألقاء خطبتها أمام جمع من المهاجرين والأنصار، فكان الدافع الأوَّل لها هو اعتراضها على ما قاله أبو بكر، إذ قيل إنَّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنا معشر الأنبياء لا نورِّث ما تركناه صدقة»[4]، أمَّا السبب الآخر الذي دفع بها أن تقول خطبتها، فهو مطالبتها بالإرث وبحقِّها في أرض فدك، وهناك سبب آخر، هو مطالبة القوم بالعدول

(١) ظ: الإسلام والأدب، محمود البستانيّ، المكتبة الأدبيَّة المختصَّة، قم، د.ط، د.ت: ٣٦٦.

(٢) قراءة النصِّ الأدبيّ، نضال محمَّد فتحي الشمالي، ط١، دار وائل، عمَّان، ٢٠٠٩م: ٢٨.

(٣) ظ: تداعيات النصِّ الواعي في النصِّ المعصوم (الخطبة الفدكيَّة أنموذجا)، عماد صالح التميميّ، العقيدة، العدد العشرون، ٢٠٢٠م: ١٤.

(٤) فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذريّ (ت٢٧٩هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م: ١/ ٣٥.

عن الارتداد العقديّ، وترك الانقلاب الذي وجِّه إلى الإمام عليّ عليه السلام، إلَّا أنَّ خطابها لم ينه هؤلاء القوم عمَّا قاموا، على الرغم من تأثُّرهم بكلامها.

أمَّا أهميَّتها، فهي كونها صادرة عن لسان أهل بيت النبوَّة ومعدن الرسالة، كما أنَّ المدَّة التاريخيَّة التي شُكِّلت خلالها الخطبة، مثَّلت انعطافة ارتداديَّة على الجهود التي بذلها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في تثبيت كلمة التوحيد في قلوب المسلمين، والعمل الدؤوب على توحيد كلمتهم تحت لواء الاسلام بقيادة الإمام عليّ عليه السلام الذي بويع في يوم الغدير.

المبحث الأوَّل

الآخر الفرديّ وأثره في خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام

الآخر لغةً

الآخر هو «نقيض المتقدِّم، ومقدَّم الشيء ومؤخَّره» [1]، فهو أحد الشيئَين، وهما من جنسٍ واحدٍ، فهو اسم على أفعل والأنثى أخرى، إلَّا أنَّ فيه معنى الصفة؛ لأنَّ أفعل من كذا لا يكون في الصفة، وجمعه بالواو والنون وأُخريات وأُخر، والتصغير منه أُوَيْـخِر[2]، ومن هذه التعريفات الأوَّليَّة نتبيَّن أنَّه ليس للمصطلح دلالة سوى الغيريَّة المخالفة والمعارضة.

الآخر اصطلاحًا

إنَّ لفظة الآخر أشارت بمعناها الاصطلاحيّ إلى مجموعة من السمات الاجتماعيَّة والنفسيَّة والفكريَّة التي تبصرها أو تدَّعيها الذات إلى الآخرين، ممَّا يبعث إلى أنَّ الآخر يكون حاضرًا في المجال العامِّ للذَّات[3]، لذا «فإنَّ فهم الآخر يظلُّ جزءًا من فهم الذَّات

(١) العين، الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت١٧٠هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣م: ١/ ٦٠.

(٢) ظ: لسان العرب، ابن منظور: ١/ ٨٧، والوسيط، مجمع اللغة العربيَّة، مكتبة الشروق الدوليَّة، ط٤، ٢٠٠٤م: ٨.

(٣) ظ: صورة الآخر في الشعر العربيّ من العصر الأمويّ حتَّى نهاية العصر العبَّاسيّ، سعد فهد الذويخ، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠٠٩م: ٩-١٠.

وسرّ قوَّتها، فالذات لا تتبلور أو تتَّخذ موقفًا مضادًّا إلَّا بحضور الوعي بالآخر، وفهم إمكاناته في ضوء الذَّات أوَّلًا»[1]، فنهضة الذَّات أمام الآخر هي نهضة منغمسة بالقلق والتوتُّر، وسرعان ما تختلط بالرحيل متوجِّهة نحو المغاير؛ رغبةً في الوصول إلى الكمال الذي لا يتحقَّق، فلا ينبغي سوى الرحيل إليه[2]، فالذات عمليَّة اختزال تقوم على التركيز على بعض السمات، ومن ثمَّ تعميمها لتُصبِح معيارًا في تحديد مَن ينتمي إلى مجتمع الذات، ومَن لا ينتمي إليه، ووعي الذات لخصوصيَّتها يفضي إلى وعيها بالاختلاف عن الآخر[3]، فتستهدف كلَّ نواقصه وثغراته العقليَّة والوجدانيَّة والخلقيَّة، لذلك نجد خطابًا إلى الآخر قد توزَّع في خطابها عليها السلام على قسمَين، الأوَّل منه قد وجَّهته إلى أفرادٍ بعينِهم، وهذا ما ستناوله في هذا المبحث، والثاني خصَّت به مجموعة من الأنصار والمهاجرين، وإلى عامَّة المسلمين، ومن ذلك خطابها إلى زوجها الإمام عليّ عليه السلام، إذ قالت: «**يا ابْنَ أبي طالب! اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظَّنين! نقضت قادمة الأجدل، فخانك ريشُ الأعزل؛ هذا ابن أبي قُحافة يبتزُّني نُحيلة أبي وبُلغة ابني، لقد أجهد في خصامي، وألفيتُهُ ألدَّ في كلامي..**»[4]. نلحظ أنَّ السيِّدة (عليها أفضل الصلاة والسلام) بعد وفاة الرسول الأكرم، لم تجد غير الإمام عليّ عليه السلام تستند عليه، وتشكو له ما حصل بها من ظليمة، فكان لها الداعم والنصير الأوَّل، فضلًا عن أنَّها كانت مدركة لمظلوميَّته، وبيان

(١) نقد الذات في الرواية الفلسطينيَّة، د.مصطفى عبد الغني، سينا للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م: ٨.

(٢) ظ: القلم والسيف، ادوارد سعيد، تر: توفيق الأسديّ، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ط١، ١٩٩٨م: ٨٨.

(٣) ظ: صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي حتَّى نهاية العصر العبَّاسّي، سعد فهد الذويخ: ٧.

(٤) الاحتجاج، أبي منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ (ت٥٦٠هـ)، تحقيق: إبراهيم البهادريّ ومحمَّد هادي، دار الأسرة للطباعة والنشر، مطبعة القرآن الكريم الكبرى، الجمهوريَّة الإسلاميَّة الإيرانيَّة، ط٧، ١٤٣٠هـ: ١/ ١٣٧.

أحقيَّته في الإمامة، وأن لا ناصر ولا معين له، فـ«المتكلِّم عادةً ما يكيِّف ويؤقلم صيغة الخطاب الموجَّه إلى الآخر، على وفق أفهام من يخاطبهم، وليس بالضرورة أن تكون رغبة الباثِّ (المخاطِب) في تقبُّل كلام (المخاطَب)، وفهم الرسالة الموجَّهة إليه؛ بل على تقمُّص التجربة المنقولة عِبر الخطاب»[1]، فكان خطابها مبطَّنًا يحتمل التعريض أي من باب «إيَّاكِ أعني وأسمعي يا جارة»، فالقصديَّة من كلامها هو بإلقاء اللوم والعتاب للأمَّة الإسلاميَّة، فجعلته ظاهريًا للإمام عليّ عليه السلام، فاتَّخذت خطابها إلى الأمام بابًا لإبراز النفرة من خلال القوم، وخذلانهم لخليفة النبيّ صلى الله عليه وآله، فضلًا عن انطواء كلامها عليها السلام ضمن الخطاب غير المباشر، «الذي يُراد به عدم المطابقة بين المخاطَب والحكم المضمَّن في الخطاب»[2]، كما أنَّ هناك إشارة من السيِّدة عليها السلام إلى الإمام المتمثِّلة بلفظ «يا ابن أبي طالب»، لتبيِّن للمتلقِّي أنَّ الإمام هو المدافع والمحامي عن دين محمَّد في أوَّل ظهوره، فأرادت بكلامها إحداث علاقة مترابطة بين الظروف التي جعلت أبا طالب يخفي إيمانه، وبين الظروف التي جعلت الإمام عليه السلام قد قعد عن نصرتها.

ثمَّ انتقلت بعد ذلك لتوجِّه الخطاب إلى شخصيَّة أخرى، وهو أبو بكر، إذ قالت فيه: «**يا ابن أبي قُحافة! أفي كتاب الله أنْ ترث أباك، ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئًا فريًا**»[3]. مثَّلت الشخصيَّة التي وجَّهت الخطاب إليها سلطة حاكمة في ذلك الوقت، وكانت مقاليد الأمور بيده، أي ما يخصُّ فدك وغيرها، فخطابها قد تمحور في محورَين، الأوَّل منه هو المحاججة بتقديم الأدلَّة والشواهد القرآنيَّة بحقِّ إرثها بفدك، والمحور

(١) الأسلوبية والأسلوب، د. عبد السلام المسدّي، الدار العربيَّة للكتاب، ط٣، د.ت: ٨١.

(٢) إشراقات غرَّاء من خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام دراسة في ضوء منهج التحليل اللغويّ، د. عبد الحسن عليّ حبيب الناصر، مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة، ط١، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م: ٤٧.

(٣) الاحتجاج: ١/ ١٣١.

الثاني التهديد والوعيد والإنذار؛ لعدم الاستجابة لها، كما أنَّ الانسجام في الخطاب، ومناداتها أيَّاهُ بـ(ابن أبي قحافة) نسبةً إلى أبيه، والموقف والسياق، فالقصديَّة من ذلك؛ لاتِّحاد الإرث والوراثة بين جميع أصناف المجتمع، فالإطلاق الموحَّد في خطابها جعلته امتزاج مبدأ الابن والأب في التوجُّه والموقف؛ لتحقِّق مناسبة الإضافة لغاية قصدتها، كما أنَّ الفكرة التي عرضتها في خطابها كانت قائمة على أساسَين، الأوَّل منه هو «التأثير، وتتمُّ هذه العمليَّة عن طريق شحنات منطقيَّة يحاول فيها المتكلِّم حمل مخاطبه على التسليم بمدلول رسالته، عبر وسائل إقناعيَّة مؤثِّرة، والثاني الإشارة التي على ضوئها يكون الخطاب عامل استفزاز يحرِّك في المتلقِّي نوازع وردود فعلٍ ما، كان لها أن تُستَنفر بمجرَّد مضمون الرسالة الدلاليَّة»[1].

ثمَّ قالت في أبيها صلى الله عليه وآله: «**وأشهد أنَّ أبي محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسمَّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه**»[2]. إنَّ المقاصد التي سعت إليها الزَّهراء في خطابها، هي إقناع المتلقِّي بقضايا كانت مؤمنة بها، ومدافعة عنها؛ فاتَّبعت شتَّى الطرق لإثبات ما تسعى إليه، وهي إثبات أحقيَّة آل البيت في الحقوق المسلوبة علنًا، ودفع المقابل إلى تغيير سلوكه[3]، ومن ثمَّ ذكرت عليها السلام نصًّا آخرًا ترثي به فَقدَ أبيها صلى الله عليه وآله، إذ قالت[4]:

«قد كان بعدك أنباءٌ وهنبثةٌ

لو كنت شاهدها لم تكثر الخطبُ

(١) إشراقات غرَّاء من خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام دراسة في ضوء منهج التحليل اللغويّ، د. عبد الحسن علي حبيب الناصر: ٣٠.

(٢) الاحتجاج: ١/ ١٢٧.

(٣) ظ: الأبعاد التداوليَّة في خطب السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، د. رصيف صالح فنجان، مجلَّة فنون ذي قار، م١، العدد ٣٢، ٢٠٢٠م: ٣٦٥.

(٤) الاحتجاج: ١/ ١٣٦-١٣٧.

إنَّـــا فـقـدنـاك فـقـدَ الأرض وابـلـهـا
واخـتـلَّ قـومـكَ فاشهدهم وقـد نكبوا
وكـــلُّ أهـــلٍ لـــهُ قـربـى ومـنـزلـة
عـنـد الإلـــه عـلى الأدنـــين مـقـتـــرَبُ
أبـدت رجـــالٌ لـنـا نـجـوى صـدروهـم
لـــمَّا مضيت وحـالـت دونـك الـتُّـــرَبُ
تحـهَّـمـتـنـا رجـــالٌ واسـتُـخِـفَّ بنا
لـــمَّا فُـقِـدتَ وكـــلُّ الأرضِ مغتصَبُ
وكـنـتَ بـــدرًا ونـــورًا يُـسـتـضـاءُ بـهِ
عـليكَ تـنـزِل مـن ذي الـعـزَّةِ الـكـتـبُ»

نلحظ أنَّ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام قد وجَّهت خطابها إلى أبيها، وهي تشكو له ما حلَّ بها بعد موته صلى الله عليه وآله، فالآخر في هذا النصِّ؛ إذ مارس دورًا إيجابيًّا في تأجيج المشاعر، وتحريك النفوس، فكان (عليه وآله الصلاة والسلام) هو الملاذ الوحيد التي تأوي إليه كلَّما يضيق صدرها، فهنا شعرت عليها السلام بالغبن والظلم والجحد، وحرمانها من حقوقها المشروعة، فهذا التكرار، وإن دلَّ على مخاطبة أبيها، فهو نابع من أثر العلاقة الوطيدة التي تربطها بالرسول الكريم صلى الله عليه وآله، إذ تَشعر بذِكره الأنس والسرور لقلبها الحزين، كما سعت في خطابها إلى التنبيه على عِظم المصيبة والفاجعة الأليمة التي حلَّت بالأمَّة الإسلاميَّة؛ لفقد الرسول وانقطاع الوحي، وتذكيرهم إلى خطورة ما أقدموا عليه، كما أنَّ العلاقة القائمة بينهما قائمة على عدَّة أمور، الأوَّل هو ارتباطها بأبيها، والأمر الآخر هو تجسيِّد حبِّها له، والثالث هو ارتباطها العقائديّ به.

بعد ذلك وجهت خطابها إلى الذَّات الإلهيَّة قائلة: «**الحمدُ للهِ على ما أنعم، ولهُ الشُّكر على ما ألهم، والثناء بما قدَّم، من عموم نِعَمٍ ابتداها، وسبوغِ آلاءٍ أسداها، وتمامِ**

منن أولاها، جمَّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتِّصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنَّى بالنَّدب إلى أمثالها»[1].

ففي بداية خطابها الموجَّه إلى الذَّات الإلهيَّة، ابتدأته بالحمد والثناء الواجب في الشرع والعقل والعُرف، وهنا الشكر قد شمل النِّعم الظاهريَّة المتمثِّلة بالصحَّة والحياة وغيرها، وبالنِّعم الباطنيَّة المشتملة على العلم والمعرفة والغرائز التي ألهم بها الأنسان وسائر الكائنات الأخرى، فأشارت من خلال حديثها إلى كلِّ النِّعم التي أعطاها الله سبحانه وتعالى للإنسان.

(١) الاحتجاج: ١/ ١٢٧.

المبحث الثاني

الآخر الجماعيّ وأثره في خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام

شكَّل الآخر الجماعيّ في خطبتها عليها السلام المرتكز الرئيس، «بما يتضمَّنه من سياقات وإجراءات معروفة، فهو المحرِّك الأساسيّ لعمليَّة الفرز والاختيار، بحسب ما يقتضيه سياق كلِّ خطاب، وتفاعل مُرسِل ومُستقبِل، ظرائف من حيث سياقات الخطاب المختلفة، سياق القول، وسياق الثقافة، والسياق المرجعيّ، وتوظيفه للكشف عن رسالة نصِّه، وربط خطابه بالخطابات الأخرى»[1]، إذ وقفت وراء ذلك عدَّة دواعٍ قد جسَّدتها السيِّدة عليها السلام في تشكيل خطابها، ومنها دواعٍ دينيَّة ونفسيَّة واجتماعيَّة، إذ تعاضدت بعضها مع بعض لتقوية حديثها الموجَّه إلى الآخر الجمعيّ، الذي توزَّع على عدَّة فئات سوف نتناولها في هذا المبحث، ومن النصوص التي وجَّهت حديثها إلى الآخر الجمعيّ قولها عليها السلام: «**أيُّها النَّاس! اعلموا أنِّي فاطمة، وأبي محمَّد صلى الله عليه وآله، أقول عودًا وبدوًا، ولا أقول ما أقول غلطًا، ولا أفعل ما أفعل شططًا** ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، **فإن تعزوه وتعرفوه تجدونه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمِّي دون رجالكم، ولنِعمَ المُعزى إليه صلى الله عليه وآله**»[2]. نجد أنَّ خطابها لهؤلاء القوم هو من باب التذكير بعظيم شأنها، ورفيع منزلتها، ومعرفة مَن هو الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، إذ بيَّنت بنصِّها مقام شخصيَّة الرسول،

(١) صورة الآخر في الخطاب القرآنيّ، دراسة نقديَّة جماليَّة، د. حسين عبيد الشمَّريّ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٦م: ٤١ وما بعدها.

(٢) الاحتجاج: ١/ ١٢٨-١٢٩.

وما يستمتع به من صفات وأخلاق وقيم، فضلًا عن ذِكرها لمفردة الأخ، فأشارت إليها لتبيِّن لنا الأخوَّة الإلهيَّة المتبادَلة في الأهداف والأدوار، أي ما يخصُّ النبوَّة والإمامة، وارتباطهما معًا، والمشاركة في الجهاد[1]، كما أنَّ ذكر النبيّ صلى الله عليه وآله مع الإمام عليه السلام في خطابها الموجَّه إلى الحضور، كان بقصديَّة منها، لمحاججة هؤلاء القوم، والمدافَعة عن مقام النبوَّة والإمامة، والدعوة إلى حِفظ كتاب الله وتطبيق أحكامه التي أنزلها الله وشرَّعها فيه، فهذا الذِّكر والتعقيب والجمع بينهما يدلُّ على أنَّ أحدهما لا يمكن الاستغناء عن الآخر في البُعد التكوينيّ.

ومن ثمَّ وجَّهت خطابها إلى الحاضرين لتذكيرهم بأصول الدين والالتزام بها، إذ قالت: «**فجعل اللهُ الإيمان تطهيرًا لكم من الشرك، والصلاة تنزيهًا لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنَّفس ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتًا للإخلاص، والحجَّ تشييدًا للدين، والعدل تنسيقًا للقلوب، وطاعتنا نظامًا للملَّة، وإمامتنا أمانًا من الفرقة، والجهاد عزًّا للإسلام، والصبر معونةً على استيجاب الأجر**»[2]، إذ نلحظ في خطابها إلى الحاضرين في المسجد قد جاء من باب ذكر فلسفيَّة، وعلل الأحكام في الشريعة الإسلاميَّة أو حكمها، ففي بداية حديثها عن الإيمان بوحدة الله عزَّ وجلَّ؛ لغرض تطهير النفس من الشِّرك بالله؛ لأنَّ الإيمان بالله بمثابة التعقيم من الميكروبات، والشرك هو الميكروبات بذاتها، ثمَّ ذكرت الركن الآخر من الأركان الواجبة التي يعمل بها كلُّ مؤمن ومؤمنة، وهو الزكاة؛ لأنَّها تزكية النفس وعصمتها من الدَّنس، وكما قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا .. ﴾[3]، ثمَّ أشارت إلى ركن الصيام، ومن بعده الحجّ والعدل والنظام، فالنظام الإسلاميّ الذي أقرَّه الله تعالى والرسول صلى الله عليه وآله

(١) ظ: أدب فاطمة عليها السلام، د. محمود البستانيّ، مؤسَّسة التاريخ العربيّ، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م: ٤٨.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٢٨.
(٣) التوبة: ١٠٣.

للمسلمين جميعًا، وجعل طاعته في أهل البيت (عليهم أفضل الصلاة والسلام)، ثمَّ تعرجيها في أثناء خطابها للإمامة؛ لتثبيت الولاية لعليّ عليه السلام من بعد الرسول صلى الله عليه وآله، فالإمامة «هي الخلافة الكبرى، ومنصب سماويّ، ومنزلة تتعيَّن من عند الله؛ ولأنَّها تالية للنبوَّة من حيث العظمة والأهمية»[1]، فجمعت بخطابها كلَّ معاني العبادة العامَّة والخاصَّة، وأرادت من ذلك الخطاب إيصال رسالة إلى الحضور، وهي أن يلتزموا بما جاء به أبوها وزوجها، ودفاعها عن الرسالة السماويَّة، وهذا خير دليل على ما قاله الرسول في أهل بيته : «**النجوم أمانٌ لأهل السماء، وأهل بيتي أمانٌ لأهل الارض**»[2].

وتستمرُّ عليها السلام بتوجيه خطابها إلى هؤلاء القوم، إذ قالت: «**أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحَمَلة دينه ووحيه، وأُمناء الله على أنفسكم، وبلغاءه إلى الأمم، وزعمتم حقٌّ لكم له فيكم، وعهد قدَّمه إليكم، وبقيَّة استخلفها عليكم**»[3]. نلحظ أنَّ السيِّدة عليها السلام بدأت بتوجيه خطابها إلى الحاضرين، مع توجيه عبارات التوبيخ لهم؛ لما فعلوه بها وبزوجها وأولادها بعد وفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله، فهم خالفوا كلَّ ما جاء به النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله، فضلًا عن تكرار لفظ الجلالة في خطابها، وهذا التكرار ناتج عن قصديَّة منها؛ لغرض إيصاله إلى المتلقِّين، وتُضفي جوًّا إلهيًّا وطابعًا روحانيًّا يرسم علاقة ارتباطيَّة وانشدادًا معنويًّا نحو الذَّات المقدَّسة؛ لجعل المتلقِّي يعيش حالة الحضور الإلهيّ في جميع تفاصيل الخطبة ومضامينها[4]، كما أنَّ هذا الخطاب التقريعيّ هو الذي فضح رياءهم وبطلان زعمهم، وملازمتهم للشيطان وأوليائه، حتَّى أصبحوا أنفسهم شياطين بمقتضى تلك الملازمة

(١) فاطمة الزَّهراء عليها السلام من المهد إلى اللحد، السيِّد محمَّد كاظم القزوينيّ، مطبعة سيِّد الشهداء عليه السلام، قم، ١٤١٤هـ: ١/ ٢٦.

(٢) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمَّة الأطهار، الشيخ محمَّد باقر المجلسيّ، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م: ٢٧/ ٣٠٩.

(٣) الاحتجاج: ١/ ١٢٨.

(٤) ظ: إشراقات غرَّاء من خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: ٣٠٦.

للشيطان[1].

وأيضًا قولها في مجموعة من الأنصار والمهاجرين الذين اتَّخذوا الدين رياءً: «**يا معشر النَّقيبة، وأعضاء الملَّة، وحَضَنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقِّي والسِّنةُ عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله أبي يقول: المرءُ يُحفظ في ولده؟ سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أُحاول، وقوَّة على ما أطلب وأُزاول**»[2]. نجد في خطابها عليها السلام الاستنكار وإلقاء اللوم على الأنصار والمهاجرين الذين تخاذلوا عن نصرتها بعدما نصروا رسول الله صلى الله عليه وآله، فهنا أظهرت علامات التعجُّب والاستفهام من موقفهم، وإصغائهم لصوت الباطل، خاضعين له، وتعامَوا عن نصرة الحقِّ، والاستجابة لندائها عليها السلام، كما أنَّ مناداتها لهم (أيُّها النقيبة) الذين كان من المفترَض بهم حماية الدين ونصرة الإسلام، ولكن أظهروا عكس ذلك، إذ تواطؤوا مع الخصم الظالم الذي منعها من حقِّها وأرثها، وإظهار كلِّ علامات القبول والرِّضا بما حصل لها من الظلامة، وتقاعسهم عن قول الحقِّ، فسكوتهم ورضاهم عن الخصم بأفعاله القبيحة، مع علمهم التامّ باغتصاب إرثها عمدًا وقصدًا، لذلك أظهرت الإنكار لموقفهم المتخاذل، ووجَّهت لهم التوبيخ، مظهرة كلَّ علامات التعجُّب بما يفعلون، فهذا التعجُّب والاستفهام الذي ظهر في خطابها، كان بفعل الآخر المتمثِّل بالمهاجرين والأنصار، كانت عليها السلام تريد منهم أن يقفوا معها، إلَّا أنَّهم قد بيَّنوا العكس من ذلك، إذ خصَّتهم بخطابها من دون غيرهم؛ لعلمها التام بما يمتلكون من الطاقة العمريَّة، وكذلك الطاقة العقليَّة، فالتغيير والإصلاح الإلهيّ في أهل الملَّة ومجتمع الإسلام لا يتمُّ إلَّا بهم، فإغراؤهم من قبل الخصم الظالم الذي يمتلك مؤهِّلات هذا الإغراء، والذي يحيد عن جادَّة الحقِّ، والتبادل الدلاليّ في المفردات المتمثِّل بـ(النقيبة، أعضاء الملَّة، أنصار الإسلام)، جاء لتعرية صورهم الخفيَّة وكشفها

(١) ظ: صورة الآخر في الخطاب القرآنيّ، د. حسين عبيد الشمَّريّ: ١٣١ وما بعدها.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٣٢.

للتأريخ وعصوره كلِّها، وتوظيفها للمفردات في خطابها، والدالَّة على وقوفهم مع الخصم الظالم (الغميزة)، وهي «حركة وجودها من جزئيَّة مجاورة جفن العين بملازمة تقلّب الطرف ونابعة منها، والإنسان بإرادته ووعيه يفعلها»[1]، فضلًا عن إشغال نصِّها بمفردة (السِّنَة) التي أشارت بمعناها أنَّ هؤلاء القوم لم يبالوا في الدفاع عن قضيَّة إرثها من أبيها، والتي دلَّ معناها «بتحقُّق إيماءات علامتها على العين وجفنها ولونها، بفعلٍ مؤثِّر خارج سيطرتها»[2]، فالدلالة التي أوحت إليها المفردة، هي سبب غميزتهم بحقِّها، وأنَّهم وقعوا تحت سيطرة الخصم، فالمقصد هنا من توظيف المفردات من لغة الجسد؛ هو لما لها من قوَّة التعبير في ملامح الآخر وسلوكه في التعامل معها ومع الحدث، فضلًا عن أنَّ ذِكرها إشارة واضحة لأولياء الشيطان، والضعف أمامه، والطاعة والتسليم في اتِّباع خططه الباطلة.

وأيضًا قولها: «**معاشر المسلمين، المسرعة إلى قيل الباطل، المُغضية على الفعل القبيح الخاسر، أَفَلا تَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ؟ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها؟ كلَّا بلْ ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم، ولبئس ما تأوَّلتم، وساء ما به أشرتم، وشرَّ ما منه اغتصبتم، لتجدنَّ والله محمله ثقيلًا، وغبّه وبيلًا، إذا كُشف لكم الغطاء، وبان ما ورائه الضرَّاء، وبدا لكم من ربِّكم ما لم تكونوا تحتسبون، وخسر هنالك المبطلون**»[3].

وجَّهت السيِّدة الزَّهراء (عليها أفضل الصلاة والسلام) خطابها المباشر الصريح الذي يدين هؤلاء القوم بما يقومون به من أعمال تخالف الله والرسول الكريم صلى الله عليه وآله، مع تعضيد النصِّ بشواهد قرآنيَّة تؤكِّد على فعلهم وإيمانهم المزيَّف، فدقَّة التشخيص في خطابها لملامح هؤلاء القوم وهم يتسارعون إلى قول الباطل، غاضِّين بأبصارهم عن محاربة

(١) أسرار خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام وجماليَّاته، حيدر محمود شاكر، العتبة الحسينيَّة المقدَّسة، كربلاء، ط١، ٢٠١٧م: ٦٠.

(٢) أسرار خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام وجمالياته: ٦٠.

(٣) الاحتجاج: ١/ ١٣٦.

الفعل القبيح وإصلاحه، فهم غير متدبِّرين للقرآن؛ بسبب قلوبهم التي رانَ عليها سوء أعمالهم، فأخذ الله بسمعهم وأبصارهم، فضلًا عن أنَّ تأويلهم للقرآن الكريم قد انحرف، وكأنَّ هذا الانحراف بقصديَّة منهم، فإنَّهم يتعمَّدون بتركه، ثمَّ ذكرت عليها السلام لفظة (معاشر) في خطابها، التي أشارت بمعناها الدلاليّ إلى جماعات المسلمين، واختلاف أفكارهم وآرائهم، وما يؤمنون به، وهم جماعات مشتَّتة ومتفرِّقة، فلفاعليَّة هؤلاء القوم في تشكيل خطابها أثر واضح، ومحاجَّتهم بالأدلَّة والشواهد القرآنيَّة التي تدين ما قاموا به.

وأيضًا من خطابها الموجَّه إلى الآخر الجمعيّ، إذ قالت: «**ألا قد أرى أنْ قد أخلدتم إلى الخفض، وأبعدتم من هو أحقُّ بالبسط والقَبض، وخلوتم بالدِّعة، ونجوتم من الضِّيق بالسِّعة، فمججتم ما وعيتم، ودسعتم الَّذي تسوَّغتم، فإن تكفروا أنتم ومنْ في الأرض جميعًا، فإنَّ الله لغنيٌّ حميد، ألا وقد قلت ما قلت هذا على معرفة منِّي بالجذلة الَّتي خامرتكم، والغدرة التي استشعرَتها قلوبكم، ولكنَّها فيضة النَّفس، ونفثة الغيظ، وخور القناة**»[1]. نجد في خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام الموجَّه عتابًا إلى المسلمين الذين أبعدوا الإمام عليًّا عليه السلام عن الولاية، وكان أولى بها من غيره، لأنَّه، بحسب رأيهم، لا يجدون فيه ما يلبِّي رغباتهم الدنيويَّة، وفي حكمه الضيق؛ لأنَّه عليه السلام لا يفضِّل أحدًا على أحد إلَّا بالعطاء، وكانت عليها السلام عارفة باتِّجاهاتهم ونفسيَّاتهم، وحتَّى إن الخطاب لا يُجدي فيهم، لعلمها بأنَّهم لا ينصرونها، ولا يقفون معها في المطالبة بحقِّها، فيتَّضح من الكلمات الموجَّهة لهم نبرات حزنٍ تعتري صدرها، فلم يكن أمامها إلَّا إطلاق الشكوى جرَّاء ما حصل لها من الظلامة والغدر بعد موت أبيها صلى الله عليه وآله، فوضَّحت من خلال خطابها صورة الآخر الشيطانيّ الذي سلب حقَّ أمير المؤمنين عليه السلام في الخلافة والإمامة، ولم يتَّبعه، بل خالفه، وكانوا يهرعون إلى كلِّ مَن يعطيهم ويغريهم بالأموال والهدايا، وإلَّا أين

(١) الاحتجاج: ١/ ١٣٣-١٣٤.

عقيدتهم وحبُّهم لأهل البيت (عليهم أفضل الصلاة والسلام)، الذين أوصى بهم الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، فضلًا عن الأحاديث النبويَّة التي كانت تؤكِّد على هذه المحبَّة واتِّباعهم.

ونلحظ في قولها التي خصَّت به بني قيلة: «**إيهًا بني قيلة، أأُهضم تراث أبي وأنتم بمرئ منِّي ومسمع، ومبتدأ ومنتدى ومجمع؟ تلبسكم الدَّعوة فلا تجيبون، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدَّة، والأداة والقوَّة، وعندكم السَّلاح والجنَّة؛ توافيكم الدَّعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تُغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معرفون بالخير والصَّلاح، والنُّخبة الَّتي انتخبت، والخيرة الَّتي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب، وتحمَّلتم الكدَّ والتَّعب، وناطحتم الأمم**»[1]. إذا نظرنا إلى الخطاب الموجَّه إلى (بني قيلة)، الذين شملتهم بخطابها، والذين وقعوا في حبائل الشيطان، وتلبسوا ودخلوا في حزبه، والهزيمة في نصرة الحقِّ ونصرة فاطمة وعليّ عليهما السلام، نجد الهزيمة متمثِّلة في محوِ تأريخهم وذهابه، فأعطت عليها السلام بخطابها التفصيليّ لهؤلاء القوم صورة متكاملة الزوايا للتأريخ الإنسانيّ بأجمعه، إذ ضمَّت بخطابها النقاط المشتركة بينهم وبين حزب الشيطان، فتوافقوا معهُ، فأصبحوا رهينةً لهُ، كما أشارت بحديثها عليها السلام إلى أسلوبَي التعجُّب والتوبيخ، فجاء الأسلوب الأوَّل، وهو التعجُّب، بسلب حقِّها في ميراثها من أبيها، أمَّا أسلوب التوبيخ، فكان سببه السكوت والجمود من قِبَلهم على نصرتها، وكانوا سامعين كلامها ودعواها وبراهينها، ويعرفونها حقَّ المعرفة، ممَّا يُنبئ عن حالة استدعت التوبيخ.

الخاتمة

١. المراعاة في توجيه الخطاب إلى المتلقِّي، وفي عرضها للقضايا المطروحة التي حاولت إصلاحها، ونلحظها في أنَّ خطبتها عليها السلام لم تكن بمستوًى واحد،

(١) الاحتجاج: ١/ ١٢٣.

فالتدرُّج من العامِّ إلى الخاصِّ، هو الغالب الأعمّ.

٢. التنوُّع في خطابها عليها السلام لم يكن مقتصرًا على فئة محدَّدة، إذ شملت بخطابها فئات فرديَّة متمثِّلة بشخصيَّة أبيها صلى الله عليه وآله، وزوجها الإمام عليّ عليه السلام، وأبي بكر، وأيضًا ذِكرها للذَّات الإلهيَّة.

٣. نجد في خطابها غَلَبة الآخر الجمعيّ على الآخر الفرديّ، وهذا كلُّه يرجع إلى عرض قضيَّة للجمهور المتلقِّي، ألا وهي قضيَّة إرثها من أبيها عليها السلام، وما جرى عليها من ظلامة وخذلان من قِبَل هؤلاء القوم الذين غرَّتهم الدنيا بمغرياتها الزائفة، ولم يقفوا معها في نصرتها والمطالبة بحقِّها بعد موت أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله.

٤. لم يكن الخطاب الموجَّه قد اقتصر على قضيَّة واحدة، كما ذكرنا سابقًا، إنَّما عرضت من خلال حديثها قضايا عدَّة، فكان التركيز على قضيَّة إرثها، وكذلك حديثها عن الإمامة، والمظلوميَّة التي تعرَّض لها أمير المؤمنين عليه السلام.

٥. شكَّل الآخر في الخطبة الفدكيَّة مرتكزًا في عمليَّة الخطاب الموجَّه، فكان الباعث الرئيس لإلقاء خطابها، إذ رسمت من خلال حديثها ملامحهُ وشخَّصته بدقَّة بالغة؛ لما لذلك من أهمية في إيصال الرسالة المراد تبليغها بعد موت أبيها صلى الله عليه وآله.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

- الاحتجاج، لأبي منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ (ت٥٦٠هـ)، تحقيق: إبراهيم البهادريّ ومحمَّد هادي، دار الأسرة للطباعة والنشر، مطبعة القرآن الكريم الكبرى، الجمهورية الإسلاميَّة الإيرانيَّة، ط٧، ١٤٣٠هـ.

- أدب فاطمة عليها السلام، د. محمود البستانيّ، مؤسَّسة التاريخ العربيّ، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- فاطمة الزَّهراء عليها السلام من المهد إلى اللحد، السيِّد محمَّد كاظم القزوينيّ، مطبعة سيِّد الشهداء عليه السلام، قم، ١٤١٤هـ.
- أسرار خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام وجماليَّاته، حيدر محمود شاكر، العتبة الحسينيَّة المقدَّسة، كربلاء، ط١، ٢٠١٧م.
- الإسلام والأدب، محمود البستانيّ، المكتبة الأدبيَّة المختصَّة، قم، د.ط، د.ت.
- الأسلوبيَّة والأسلوب، د. عبد السلام المسدِّي، الدار العربيَّة للكتاب، ط٣، د.ت.
- إشراقات غرَّاء من خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام دراسة في ضوء منهج التحليل اللغويّ، د. عبد الحسن عليّ حبيب الناصر، مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة، ط١، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.
- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمَّة الأطهار، الشيخ محمَّد باقر المجلسيّ، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربيَّة، أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد الجوهريّ الفارابيّ (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطَّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- صورة الآخر في الخطاب القرآنيّ- دراسة نقديَّة جماليَّة، د. حسين الشمَّريّ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.
- صورة الآخر في الشعر العربيّ من العصر الأمويّ حتَّى نهاية العصر العبَّاسيّ، سعد فهد الذويخ، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠٠٩م.

- العين، الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت١٧٠هـ)، تحقيق: عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.
- فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر بن داوود البلاذريّ (ت٢٧٩هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م.
- في البنية الدلاليَّة للنصِّ، ديتر فيهڤجر، ترجمة: سعيد حسن بحيرى، مؤسَّسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م.
- قراءة النصِّ الأدبيّ، نضال محمَّد فتحي الشماليّ، ط١، دار وائل، عمَّان، ٢٠٠٩م.
- القلم والسيَّف، إدوارد سعيد، ترجمة: توفيق الأسديّ، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.
- الكليَّات، أبو البقاء أيُّوب بن موسى الحسينيّ القريميّ الكفويّ (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش، محمَّد المصريّ، مؤسَّسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨ م.
- لسان العرب، ابن منظور (ت٧١١هـ)، دار إحياء التراث العربيّ، مؤسَّسة التاريخ العربيّ، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٩٩م.
- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ترجمة: محمَّد يحياتن، الدار العربيَّة للعلوم ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م.
- نقد الذات في الرواية الفلسطينيَّة، د.مصطفى عبد الغني، سينا للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م.
- الوسيط، مجمع اللغة العربيَّة، مكتبة الشروق الدوليَّة، ط٤، ٢٠٠٤م.

البحوث والدوريَّات:

- الأبعاد التداوليَّة في خطب السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، د. رصيف صالح فنجان، مجلَّة فنون ذي قار، م١، العدد ٣٢، ٢٠٢٠م.
- تداعيات النصِّ الواعي في النصِّ المعصوم (الخطبة الفدكيَّة أنموذجًا)، عماد صالح التميميّ، العقيدة، العدد العشرون، ٢٠٢٠م.
- كتابة الآخر في الرواية المعاصرة، عبد القادر شرشار، مخطوط، ٢٠٠٣.

لحنُ السَّماء في منطق الزَّهراء عليها السلام
بحث صوتيّ

الباحث محمود عبيد حسين

الملخَّص

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على محمَّد بن عبد الله، وعلى آله الطاهرين.

تضمَّن البحث تحليلًا وإحصاءً واستنتاجًا للخطبَّة الفدكيَّة للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام في ما موجود من نصِّ (كتاب الزَّهراء وخطبة فدك، لمحمَّد باقر الكرباسيّ)، مع مراجعة لكتاب (بلاغات النساء، لابن طيفور) المتضمِّن للخطبة.

استخدمت في البحث نظام صفة الحرف، كـ(كالهمس، ح، ث، هـ، ش، خ، ص، ف، س، ك، زاد المحدثون ق، ط)، والباقي (الجهر) الموجود في العربيَّة، في ضوء تجاربي على خُطَب أهل البيت، والنصوص النثريَّة الإنسانيَّة، قطَّعتها إلى آلاف الأحرف، استخدمت عمليَّة الاستقراء الناقص، وتوصَّلت إلى نتائج، تلك الآليَّة أسميتها (الموالاة الصوتيَّة): مجيء ثلاثة أحرف متجاورة، أو أربعة أحرف فما فوق من الصفة نفسها (همسًا أوجهرًا)، مثال: (على ثلاثة أحرف مجهورة: ع، ل، ى، لم يدخل بينها حرف مهموس)، أو (تحت ثلاثة أحرف مهموسة، ت، ح، ت، لم يدخل بينها حرف مجهور)، اعتبرتها كتلة صوتيَّة، بعد استقرائي وتحليلاتي، ظهرت (الموالاة الصوتيَّة) أنَّها:

مركز دلالة الكلمة أو السطر أو المقطع، وكلَّما كثرت الموالاة في الكلام أو الكتابة، حملت بُعدًا دلاليًّا ومجهودًا نفسيًّا وفكريًّا لدى ناطقها، مؤثِّرة في المتلقِّي، سلبًا أو إيجابًا، وإذا كانت (متوزِّعة)، فهي: تعبيرعن إمكانيَّة كاتبها أو ناطقها على (الإطالة) في الكتابة والكلام، ومن مميِّزات (الموالاة الصوتيَّة إذا تناسبت مضامينها مع جهوريَّة وهمسيَّة الأحرف)، فالكلام قمَّة الإبداع والتمكُّن.

هنا أخذت بالاعتبار في إحصائي الهمزة الموصولة، والإدغام الشمسيّ، والإدغامات الأخرى، والشَّدَّة.

قسَّمت الموالاة على نوعين: موالاة حرفيَّة، وموالاة كلميَّة، تبيَّن وفق إجراء تقطيع الكلمة حرفًا حرفًا، والنتائج بعضها عام لدى كلِّ الإنسانيَّة، وهو نطق الحرف، وبعضها يخصُّ المتمكِّنين الملهَمين ، فنطق الحرف عفويّ لا يمكن السيطرة عليه أو تحديد نوعه، بينما الكلمة اكتساب وثقافة، خارجة وفق مفاهيم، اعتمدت أنَّ كلَّ إنسان لديه اكتساب، وليس كلُّ الناس لديهم فطرة نطق سليمة، فاستنتجت أنَّ التمازج بين الفطرة السليمة المتعلِّقة بالحرف المتمازج مع المضمون الكلميّ الاكتسابيّ، تكون عمليَّة الكتابة أوالكلام عالية جدًّا، معبِّرة ومؤثِّرة، فالسيِّدة لديها تمكُّن من الإطالة في الخطاب بالقوَّة نفسها؛ لأنَّ إلهامها أجاد التوزيع.

هذا البحث أظهر للخطيبة عليها السلام خمس (ذروات موالاتيَّة) إجهاديَّة صارخة، صوتًا ودلالـةً، وجَّهتها إلى أبي قحافة والجالسين والناس عامَّة، وتمتاز بالتنازل والتصاعد الصوتيّ الكلميّ، والخطبة تتشابه مع خطبة كلٍّ من السيِّدة زينب، والإمام السجَّاد عليهما السلام.

المقدِّمة

اطَّلعت على رواية أنَّ فاطمة الزَّهراء عليها السلام لـمَّا نزل عليها ملك الموت، وهو الواسطة، (لم ترضَ بقبضه) فقبض الله روحها- مباشرةً، أمَّا النبيّ صلى الله عليه وآله فقبضهُ ملك الموت، لكونه مقدَّم الأمَّة[1]. هذه الرواية أثارتني، فهي خارج المألوف العقديّ، والذي نقلها لم يكن من مدرسة أهل البيت، المرأة في حياتها وموتها أسراروعظمة، فالتأمُّل في هذا النصِّ والإثـارة، جعلاني أبحث عن الخصوصيَّات العبقريَّة والأسرار في هذه المظلومة في التدوين التاريخيّ، وبما أنَّها من ضحايا الألم وأهل بيتها، صارت ميزة حضورهم في كلِّ مكانٍ وزمان.

إذا طريقة البحث طريقة صوتية عبر (كلماتها وحروفها) التي نطقتها في حياتها، وضمن تاريخها الشفوي، لأنَّها مثلت سيرتها ونطقها وفعلها الصادق العفويّ، فالحرف أكثر عفويَّة من الكلمة، والبُعد التاريخيّ لايؤثِّر في حروف اللغة كليًّا، بل قليل التأثير من باقي المفاهيم، عليه خضت في بحر حروفها وكلماتها صوتيًّا، فهو البنية التحتيَّة، عبر مبحثٍ صوتيٍّ أسميته (موالاة صوتيَّة)، وتعني: تجاور ثلاثة أحرف فما فوق في كلمة واحدة بنفس الصِّفة (جهر وهمس)، مثال للهمس (تحت = ت، ح، ت)، ومثال للجهركلمة (جبل = ج، ب، ل)، هذا التجاور له تأثيرٌعالٍ لدى الناطق والمتلقِّي، فالحروف ذات الصفات المتجاورة حروف متوافقة مع حرارة الجسم؛ بسب احتكاك بعضها كحروف (س، ش، هـ.. وهكذا)، وهو اهتزاز حرفيّ وتردُّد صوتيّ، فبعض

(١) ج٨، ص١١، روح البيان للخلوتي.

اللغات والأديان القديمة استخدمت هذا النوع الصوتيّ علاجًا للجسم، عليه نحن كتلة ندم متنقِّلة على تركِنا لهذا التراث.

الإجراء: اعتمدت على نظام الكلمة الثلاثيَّة، وركَّزت عليه، تماشيًا مع ثلاثيَّة الكلمة في النظام الصرفيّ والنحويّ العربيّ، فالكلمة الثنائيَّة (من حرفَين)، كثيرة الورود، وليس لها تأثير في المتلقِّي ولا ناطقه، ثمَّ تأمَّلت الرباعيّ والخماسيّ، لاحظته قليل الورود في الكلام أوالكتابة، وهناك تساؤل: كيف بهمزة الوصل والإدغام والشَّدة؟ الجواب همزة الوصل لا تُلفظ، وعليه لم أُحصِها، أمَّا الإدغام الشمسيّ أو الإدغام العام، فعددته حرفًا مكرَّرًا، كذلك الشدَّة.

هذا الإجراء شبيه بجزء من دراساتي الصوتيَّة السابقة التي أجريتها على خُطب الإمام عليّ عليه السلام، وخطاب السيِّدة زينب عليها السلام، وخطابات إنسانيَّة متنوِّعة في الحقل الأدبيّ واللغويّ يخصُّ التجمُّع الحرفيّ ذا الصفة الصوتيَّة المتشابه في الكلمة الواحدة، فصار مبحثي مركزه الكلمة الثلاثيَّة والحروف المتجاورة التي فيها نفس الصفة.

بحسب استنتاجات بحثي، هذا التجمع الصوتي (الموالاتي) من الكثافة والتوزيع على طول الكلام أو الكتابة، يعكس تأثير المتحدِّث على المتلقِّي، ويعكس جهد المتكلِّم أو الكاتب نفسيًّا وفكريًّا، وهو استقراء واستنتاج دقيق ظهر عندي وفق التحليل والإحصاء والتوزيع، فالصوت له قوَّة الوصول إلى أعمق حالات الوعي.

من المعلوم أنَّ كتابة مثل هذا البحث، فيه من الصعوبة والجهد؛ بسبب الإحصاء، لكلِّ حرف وصفته هذا الموضوع يدرَّس على المستوى (التاريخيّ/ والوصفيّ) فقط، أمَّا هنا فالبحث فيه تضريب وتوظيف الصفة الصوتيَّة (الجهر والهمس) في عمليَّة التأثير المتبادَل بين المتكلِّم والمتلقِّي عبر تطبيق منهج نقديّ تحليليّ إحصائيّ؛ لأنَّ فيه جنبة علميَّة حسب الإحصاء الرياضيّ الذي استخدمته، كذلك اعتمدت في تحليل الخطبة

على (كتاب الزَّهراء وخطبة فدك/ شرح الخطبة الفدكية) للشيخ محمَّد باقر المجلسي، مع مقارنة للخطبة في كتاب (بلاغات النساء/ لابن طيفور) من المعلوم لهذه الخطبة شروحات عدة (شرح خطبة الزَّهراء/ لابي مخنف) و (شرح الخطبة/ لابن عبدون) (وشرح الخطبة/ للخونساري) وأغلب الشروحات فقهية تاريخية.. وهكذا

بعد التقطيع والتحليل، خرجت بنتائج وبعض التخريجات العلميَّة، وضعتها في متن المبحث ونهايته، ثمَّ ذكرت المصادروالمراجع.

اللهمَّ اجعل لي قدم صدق عندك بهذه الأحرفُ القليلة والبسيطة التي جعلتها وقفًا وهديَّةً ورجاءً لسيِّدتي فاطمة الزَّهراء المظلومة من الإنسانيَّة، لكنَّ الله خلَّدها، بأن تكون شهيدة وبنت شهيد وأم شهداء وزوجة شهيد، وهذه أيَّام شهداء المحرَّم، مأساة ولدها من سنينهم الماضية الملطَّخة بالدماء، صلوات الله عليهم أجمعين.

المبحث الأوَّل

تمهيد لمفهوم الموالاة الصوتيَّة

مفهوم الموالاة الصوتيَّة أكثر: الموالاة الصوتيَّة لغة[1]: تعني ضد (المعاداة) أو (المحاباة).

أمَّا اصطلاحًا: فهي مصطلح منطقيّ استُخدِم في الرياضيَّات بمعنى (التتابع)، وعند الفقهاء[2]، تعني «عدم الفصل بين ترتيب العناوين والمواضيع أو تتابع بدون أي فاصل بينهما»، هي حزمة صوتيَّة همسيَّة أو جهريَّة تتواجد أو تتكاثف في الكلمة، استخدمته بمعناه الشامل لكلِّ التعاريف السابقة، وهو تتابع صفات صوتيَّة متشابهة متجاورة، لا يفصلها فاصل، تكون على شكل كتلة صوتيَّة في الكلمة داخل الجملة أو السطر، تتكوَّن من (ثلاثة أحرف فما فوق)، سواء أكانت حروف الكلمة (جهريَّة أم همسيَّة)، فالصفة الصوتيَّة للحروف في اللغة العربيَّة، وحتَّى في اللغات عامَّة، أمَّا مجهورة أو مهموسة (شديدة أو رخوة)، كذلك مجيء أحرف متكرِّرة وشائعة في الكتابات دون غيرها، مثل (الألف، الميم، الواو، الياء، اللام، الراء)؛ لسهولتها وتأثيراتها في البناء، وهذا وارد، أشار لذلك العلماء، منهم (الخليل بن أحمد، وسيبويه، وابن جنِّي)، وغيرهم، إلَّا أنَّ النادر في الكتابة مجيء أحرف متجاورة ومتتابعة، لها صفة واحدة، هو

(١) مختار الصِّحاح، ص٧٣٦، كذلك معجم مقايس اللغة، لابن فارس، ج٥.
(٢) الرسالة العمليَّة للسيِّد السيستانيّ، باب الصلاة، كذلك ينظر: رسالة السيِّد الخوئيّ، باب الصلاة.

أحد أسباب النَّغم في الكلمة والجملة بشكلٍ عام، وحروف الهمس هي (ح، ث، هـ، ش، خ، ص، ف، س، ك، ت، وزاد المحدثون: ق، ط) (١٢) حرفًا، والباقي (١٧) حرفًا جهريًّا من أصل الحروف الهجائيَّة البالغ (٢٩) حرفًا مع الهمز.. ولا يلزم مجيء نفس الحروف المهموسة (ت ت ت) أو المجهورة (ج ج ج) في الكلمة الواحدة، إنَّما حروف متنوِّعة بصفات متشابهة متجاورة في الكلمة، وإن كانت مختلفة المخارج (كالحاء والسين والهاء)، وهذه الصفات المتجاورة في البناء لا يفصلها فاصل ولا مغاير لصفتها، موضوع صوتيّ مركَّب مرتَّب نادر من (ثلاثة مهموسات)، أو (ثلاثة مجهورات) فما فوق. أمَّا شروط الموالاة، فهي:

١. (التجاور): لا بدَّ أن تكون متجاورة في الكلمة الواحدة.

٢. (الكثرة): زيادة عدد الكتلة الصوتيَّة (الموالاة) في الكلام أو الكتابة، هي تمكُّن وجهد.

٣. (التوزيع): يجب التوزيع على مستوى التوظيف في السياق، مع ربطها بدلالة الأحداث، لكي يحدث التأثير.. وهو ما بحثتُ عليه في الخطبة

قسمَّت الموالاة الصوتيَّة إلى فرعين، هما:

الفرع الأوَّل: الموالاة الصوتيَّة الحرفيَّة[١]

عند تأمُّل أحرف الموالاة أو (الصور الكتابيَّة/ الرموز الصوتيَّة)، يلاحَظ أنَّها تأتي مختلفة المخارج، ومختلفة الصفات الصوتيَّة، همسيَّة أو جهريَّة، مثلًا مجيء ثلاثة مهموسات فما فوق في كلمة واحدة، مثل (تحت) ت، ح، ت وكلمة (حسّ) ح، س، س.. أو ثلاثة مجهورات فما فوق في كلمة واحدة، مثل (جدد) ج، د، د.. وغيرها، هذا التجاور الصوتيّ المتشابه هو (موالاة صوتيَّة).

(١) ص٣٠، الموالاة الصوتيَّة في القص، محمود عبيد حسين.

تدخل تلك الموالاة وسط الكلمات أيضًا بكثرة، مثل (أنفسكم) الفاء، السين، الكاف. ثلاثة أحرف متلاصقة مهموسة في داخل الكلمة، لم يخترقها أي حرف مجهور، إنَّهاضربة همسيَّة طاغية على تلك الكلمة.

إنَّ بنائيَّة التتابع الصوتيّ (الموالاتي الهمسيّ أو الجهريّ)، لم تكن نادرة في الحالة الثنائيَّة، بل كثيرة، وهي مجيء أحرف ثنائيَّة الصفة، مثل (دم = د، م) جهران أو كلمة (حث = ح، ث) حرفان مهموسان متجاوران، إلَّا أنَّها لا تمتلك التأثير، في حين توارد الثلاثيّ يقل في البناء العام صعودًا، ك (رباعيّ، خماسيّ، سداسيّ، ويندر في السباعيّ)، لكنَّها مؤثِّرة في الدراما الكتابيَّة أوالكلاميَّة، تلك الصياغة جعلتني أبحث في أسباب ذلك، علمًا أنَّ الموالاة الهمسيَّة والجهريَّة في اللغة حالة تكرهها الذائقة العربيَّة عند مجيئها في اللغة العربيَّة، لقلَّتها وصعوبتها في النطق، خاصَّة عند تجاور الأحرف المتقاربة في المخرج، علمًا أنَّ نظام (الموالاة الصوتيَّة) تواجد في كلِّ الأدبيَّات النثريَّة، كالخطب والشعريَّة، وصيغته تجلَّت بها أفكار المفكِّرين وجسَّدتها أقلام الكتَّاب؛ لأنَّها نظام صوتيّ موسيقيّ موجود في كلِّ بناءٍ لغويٍّ فطريّ.

ربَّما يتساءل البعض، كيف يكون لها تأثير في الدراما الكتابيَّة، وهي مكروهة لدى الذائقة، على الرغم من أنَّها من السليقة العربيَّة؟.

إنَّ ندرة الشيء سببه السلب أو الإيجاب، وهذا الموضوع له جذر نفسيّ ووجدانيّ، فالإيقاع المتكرِّر يكون مكروهًا عند البعض؛ لكثرته المولِّدة للسآمة، فإن كانت مخالفة لعواطف ذلك الزمان والمكان، فهي مكروهة وإن كانت مطابقة له، فهي محبوبة مرغوبة، هذا النمط إيقاعيّ صوتيّ ذو صفة صوتيَّة همسيَّة أو جهريَّة طويلة، ربَّما لا يتناسب مع عواطفهم، لأسباب نفسيَّة وطبيعيَّة واجتماعيَّة، لكنَّه لم يتم البحث بمسبِّبات تلك الكراهية، ومدى علاقة تلك الصوتيَّة المتكرِّرة الهمسيَّة أو الجهريَّة في الكلمة والجملة صعودًا مع المبنى العام في فن الكلام، وبعض فنون الأدب.

الفرع الثاني: الموالاة الصوتيَّة الكلميَّة

هي الكلمات المتجاورة في التوظيف من حيث طول وقصر الكلمة، فمثلًا كلمة تبدأ ثلاثة أحرف، تجاورها كلمة رباعيَّة أو خماسيَّة أو أكثر منها، ليس لها علاقة بالهمس أو بالجهر، إنَّما عدد (الحروف) هو المهم في الكلمة، عكس الفرع الأوَّل، فالكلمة مهما كانت ثلاثيَّة، رباعيَّة خماسيَّة، سداسيَّة، تعتمد على التجاور بين الكلمَتَين، وهذه الحالة تتوافر في النثر عامَّة، قُسِّمت الموالاة (الصوتيَّة الكلميَّة) ثلاثة أنواع: (تصاعديّ، تنازليّ، تساوي)[1]، وكما وردت في الكتابات النثريَّة أيضًا.

أوَّلًا: التصاعد الصوتيّ الكلميّ

١. ثنائيّ يليه ثلاثيّ، مثل (من أتى).
٢. ثلاثيّ يليه خماسيّ، مثلًا (على إمضاء).
٣. ثلاثيّ يليه سداسيّ، مثلًا (عن الإحصاء).
٤. رباعيّ يليه سداسيّ، فيه (قفز صوتيّ).
٥. خماسيّ يليه سداسيّ، ويكون في الكتابة قليل.
٦. خماسيّ يليه سباعيّ، ويكون في الكتابة قليل.
٧. خماسيّ يليه ثمانيّ، فيه قفز صوتيّ.. وهكذا صعودا إلى التاسع.

ثانيًا: التنازل الصوتيّ الكلميّ

هذه الحالة عكس التصاعد الصوتيّ تمامًا، مثلًا (الثلاثيّ يليه ثنائيّ)، (والرباعيّ يليه ثلاثيّ أو ثنائيّ)، (الخماسيّ يليه ثلاثيّ أو رباعيّ نزولًا)، فالكلمة ذات الأحرف الكثيرة سابقة للكلمة ذات الأحرف الأقل عددًا، مثل (سابح في)، (يتقدَّمون إلى)، وهو كثير في الكتابات.

(١) ص٥٠، الموالاة الصوتيَّة، محمود عبيد حسين.

ثالثًا: التساوي الصوتيّ الكلميّ

قليل نوعًا ما، ثنائيّ يليه ثنائيّ، ثلاثيّ يليه ثلاثيّ، رباعيّ يليه رباعيّ، خماسيّ يليه خماسيّ، كما في الأمثلة الآتية: للثنائيّ (من هو) أو للثلاثيّ (بعد عنك)، فإذا وردت كلمات متجاورة لها نفس العدد من الأحرف متساوية، هنا يحدث (الروتين الصوتيّ)، وحسب تعريف هذا البحث.

الموالاة الكلميَّة وتسلسلها تتحكَّم في نغميَّة الصوت المرمَّز في الخطبة، وهناك علاقة مهمَّة جدًّا بين الموالاة الصوتيَّة والموسيقى اللغويَّة.

ملاحظة: يندر مجيء موالاة صوتيَّة على نمط واحد، سواء أكانت متساوية أم متصاعدة أم متنازلة من البداية إلى النهاية في الكتابة.

إليكم نماذج تطبيقيَّة من الموالاة الكلميَّة في الخطبة (التصاعدالصوتيّ = من حولكم.. أذلَّة خاسئين.. وهكذا.

توصيف عام للخطبة

- **الصوت أو رمزه الكتابيّ الحرف**: هو شكل من أشكال الطاقة، له قوَّة وتأثير في الروح البشريَّة، فكلمات الخطبة هي صورة العقل أو ظلّ العقل، ولا بدَّ أن تكون سيِّدة الفكر، بعد التحليل ظهر أنَّ صوت الخطبة تألَّف من ٦٦٥٠ حرفًا تقريبًا، المهموس منها ١٤٥٠، والباقي مجهور، وهو الغالب في الخطبة.
- الألفاظ الاسميَّة هي الطاغية في الخطبة، أمَّا الألفاظ الفعليَّة فقليلة.
- ورود الاستشهاد القرآنيّ كثيرًا في الخطبة، يقدَّر بـ: ١٦ استشهادًا، مع استشهادها بحديث نبويّ سأذكر خصوصيَّته.
- لفظة (أبي) وردت ١٢ مرَّة في الخطبة.
- امتازت الخطبة بفنون البلاغة وشروط الخطابة والمحاججة من حيث المقدِّمة

والعرض، وخُتِمت بالدعاء، حيث وردت الأحرف الهجائيَّة في الخطبة بما فيها (ظ، ط)، ومخاطبة الشرائح الآتية (المحيط الذي بقربها في المجلس، الناس عامَّة، أبو قحافة، النقيبة (فتية الأنصار)، بنو قيلة (الأوس والخزرج).

بعد هذا العرض العام، والتوصيف المختصر للخطبة، سأحلِّل وأحصي وأستنتج الأسباب، مع ذِكر الإمكانيَّات المتوافرة في الخطبة، وفق طروحاتي (الموالاة الصوتيَّة).

المبحث الثاني

تحليل الخطبة وفق الموالاة الصوتيَّة

الكلمات عروق يتدفَّق بداخلها الدَّم، ودواخلها الحروف، جاءت في الخطبة أحرف متصدِّرة تمثَّلت بـ(الألف- واللام- والميم- والنون)، وعمليَّة الإحصاء الذي توصَّلت من خلاله إلى أنَّ حرف (ن) ضمن المتصدِّرات في الخطبة، وهو الذي ينقل الأوكسجين إلى الدماغ، كذلك نطق (الألف) يدفق الدم إلى الرئتين، وهذا النظام عرفه الإغريق القدماء، وفق ما اطَّلعت عليه في بعض المقالات اليونانيَّة، وما أثبته العلم الحديث أيضًا، حيث نشرت مجلَّة طبيَّة[1] هذه المعلومات، هذا الاحصاء تعبيرعن التماشي والمسايرة مع النهج القرآنيّ الذي يتصدَّره أيضًا (الألف- واللام- والميم- والنون)، ربَّما يقول شخص: هذه بديهة، باعتبار أنَّها القران الناطق.

الجواب: نعم صحيح، لكن أين تكمن المفاهيم والمناطق الصوتيَّة المتشابهة لغويًّا مع القرآن؟ القول: هنا، لأنَّ الحرف عفويّ فطريّ، ليس نغميًّا فقط، ملهم من السماء، وتعبير لمضامين، ولتوضيح نظام لغويّ غير متصنِّع، وإمكانيَّة تربوية سماويَّة، فكلَّما كان الكلام فيه الحروف (الألف- واللام- والميم- والنون)، يعني الكلام فيه نَغَم وسلاسة، فالألف حرف هوائيّ فضائيّ يقبله الكلُّ، هو أوَّل حرف في كلِّ اللغات؛ لأنَّه يمثِّل بداية الصوت في حياة الطفل، وأمَّا (اللام والميم)، ويضاف لها (النون) فحروف نغميَّة ومغنَّنة عالية، فلولا كثافة الموالاة في الخطبة؛ لأصبحت الخطبة نغمًا من غير جهد، مجرد

(١) بحث ألمانيّ في (Medizin Jurnal) عام ١٩٩٦.

نطق شكليّ مقاليّ، ويبلغ عدد الموالاة بين الجهر والهمس (٤٠٠ موالاة) في الخطبة.

ما سبب وورود (موالاة صوتيَّة) جهريَّة بكثرة في الخطبة؟

بدءًا هذه نماذج من الموالاة الصوتيَّة، ونوعها في الخطبة:

- على = ع، ل، ى: ثلاثة أحرف، موالاة صوتيَّة نوعها جهر.
- ما أنعم = م، ا، أ، ن، ع، م: ستُّ مواليات نوعها جهر.
- عموم = ع، م، و، م/ أربع مواليات جهر.
- وذرأ = و، ذ، ر، أ: أربع مواليات جهر.
- بالغيب = ب، ل، غ، ي، ب: خمس مواليات صوتيَّة جهر.
- علمًا = ع، ل، م، ن: هنا احتسبتُ التنوين صوتيّا (نون)، وعليه أربع مواليات جهريَّة.
- جعل = ج، ع، ل: ثلاثة أحرف جهريَّة.
- وجلى = و، ج، ل، ى: أربعة أحرف جهريَّة.
- بالغيب = ب، ل، غ، ي، ب: خمسة أحرف جهريَّة.
- زعيم = ز، ع، ي، م: أربعة أحرف جهريَّة موالاتيَّة.. وهكذا من الكلمات.

إنَّها نماذج قليلة، جزء من ٤٠٠ موالاة، فكثافة الأحرف الجهريَّة في الموالاة له سببان:

الأوَّل: إنَّ كثافة الجهر الموالاتيّ تعبير عن الجهد النفسيّ والفكريّ الذي تكلَّمت به الخطيبة عليها السلام، ليس كلامها إنشائيًّا سطحيًّا فضفاضًا فارغ المحتوى الانفعاليّ، بل كلام مركَّز عن القوَّة الدلاليَّة والصرخة النفسيَّة التي تحملها الخطيبة عليها السلام، وهذه الدوافع الدلاليَّة القويَّة تحتاج إلى أحرف جهريَّة قويَّة، وبما أنَّها خارجة من الفطرة والإلهام، فهي

إبداعٌ عالٍ لدى الخطيبة عليها السلام، وازنت بين الموضوع ونغماته، بين الفكرة وألفاظها، يسمَّى (بالمعادل الموضوعيّ)، ونادرًا ما يتمكَّن من أدائه أيّ إنسان إلَّا مَن وفَّقه الله بنعمة اللغة.

الثاني: كثرة الحروف الجهريَّة قياسًا للهمسيَّة؛ لأنَّ الحروف الهجائيَّة أغلبها ذات صفة جهر، أي أكثرمن الحروف الهمسيَّة عددًا.

هناك مسألة: هذا التمكُّن من وجود موالاة، له تأثيرعلى المتلقِّي ١٠٠٪ سلبًا أو إيجابًا، وأنا متيقِّن أنَّ التأثير النَّغميّ ودلالته أنتج ثماره، كما في (أنَّتها)[1]، فتاريخها الشفويّ يقول: أبكت الجميع، كما تصف المصادر، فكيف بكلامها ومحاججتها؟.

عند تتبُّعي مسير أسلوب الخطبة ونظامها الصوتيّ من البداية إلى النهاية، لاحظت ذروات صوتيَّة جسَّدتها تلك الموالاة الجهريَّة، كالنماذج الانفعاليَّة الفكريَّة والنفسيَّة العالية في الخطبة.. وضعت كلِّ موالاة بين قوسَين:

الذروة الصوتيَّة الانفعاليَّة الأولى: «ثمَّ التفتت (إلى) اهل المجلس وقالت: أنتم (عباد) الله نصب (أمره) ونهيه، وحملة (دينه) ووحيه، (وأمناء) الله (على) أنفسكم، (وبلغاؤه) (إلى) (الأمم)، (زعيم) حقٌّ له فيكم وعهد قدَّمه إليكم». هنا، ١٠، مواليات صوتيَّة جهريَّة، وهي المركز الدلاليّ والجهد الصوتيّ في هذا المقطع.

الذروة الصوتيَّة الانفعاليَّة الثانية: ((والجهاد (عزًّا) للإسلام، (وذلًا) لأهل الكفر والنفاق، والصبر (معونة) (على) (استيجاب) (الأجر)، (والأمر) بالمعروف مصلحة (للعامَّة)، (وبرُّ) (الوالدَين) وقاية من (السخط)، وصلة الأرحام منسأة في (العمر) (ومنماة) للعدد». هنا، ١٣ موالاة صوتيَّة جهريَّة، مركز الجهد الانفعالي والدلاليّ في هذا المقطع.

الذروة الصوتيَّة الانفعاليَّة الثالثة: «(فإن) (تُعزوه) وتعرفوه، (تجدوه) (أبي) (دون) نسائكم، وأخا (ابن) (عمِّي) (دون) (رجالكم)، ولنعم المعزى إليه صلى الله عليه وآله، (فبلَّغ) الرسالة

(١) ص١٦، بلاغات النساء، لابن طيفور

صادعًا (بالنذارة)، (مائلًا) عن (مدرجة) المشركين، (ضاربًا) (ثَبَجهم)»، ١٧ صورة صوتيَّة للموالاة الجهريَّة، مركز الدلالة والجهد النفسيّ والفكريّ والتأثيريّ للمتحدِّث والمتلقِّي.

الذروة الصوتيَّة الانفعاليَّة الرابعة: «(وزعمتم) أن لا حظوة لي (ولا) إرث من (أبي)، ولا رحم (بيننا)، (أفخصَّكم) الله (بآية) من القرآن، أخرج (أبي) محمَّدًا ﷺ منها؟ أم تقولون: (إنَّ) أهل (ملَّتين) لا يتوارثان؟ أولست (أنا) (وأبي) من أهل (ملَّة) واحدة؟ أم أنتم (أعلم) بخصوص القرآن (وعمومه) من (أبي) (وابن) (عمِّي)؟»، ١٨ موالاة جهريَّة إلَّا واحدة (فخصَّك) موالاة همسيَّة هي أشدُّ وقعًا، موالاة جهريَّة مركز الدلالة والانفعال لهذا السطر.

الذروة الصوتيَّة الانفعاليَّة الخامسة: «فاحتقبوها (دبرة) الظهر، نقبة الخفّ، باقية (العار)، موسومة (بغضب) (الجبَّار) وشنار (الأبد)، موصولة (بنار) الله الموقدة التي تطَّلع (على) الأفئدة، (فبعين) الله ما تفعلون»، ٨ مواليات صوتيَّة جهريَّة، وهي مركز السطر.

هذه المقاطع بيان ووضوح للجهد الصوتيّ ومركزه الدلاليّ من حيث قوَّته في كلِّ الخطبة، وهي متوزِّعة إلى كلِّ الشرائح الاجتماعيَّة الجالسة في المجلس.

الذروة الأولى: موجَّهة إلى (أهل المجلس)، فيه نبَّههم على أنَّكم عهد الله وزعامة الأمم فيكم.. ألا تفهمون؟.

الذروة الثانية: موجَّهة لهم أيضًا، أوضحت لهم بعض الفقهيَّات من الجهاد وبرّ الوالدين والأمر بالمعروف.. الخ.

الذروة الثالثة: موجَّهة إلى الناس عامَّة، وهو تنبيه للبحث عن نَسَب النبيّ وابن عمِّه، تجدوه أبي وزوجي، مع وصف أعمالهم.

الذروة الرابعة: موجَّهة نحو أبي قحافة، محاججته بتفنيد زعمهم بأن لا ميراث للأنبياء، وأنا ابنته، والمخاطَبة عن طريق الاستفهامات الاستنكاريَّة، وعلوم قرانيَّة.

الذروة الخامسة: موجَّهة للكلِّ، بالتنكيل والدعاء والتهديد الربَّانيّ لهم.

مِن الملاحَظ أنَّ ذروة الجهد في (٣-٤)، وهما القمَّة في الجهد الصوتيّ الانفعاليّ، موجَّهًا إلى (الناس) بشكلٍ عامٍّ، وإلى (أبي قحافة)، يُضاف لهما المقطع الأخير الموجَّه للكلِّ، علمًا أنَّ الخطاب الموجَّه للجالسين، كان فيه ذروَتَان من الجهد الصوتيّ الدلاليّ، ومضامين هذه الذروات واضحة لكنَّني حدَّدتها وفقًا لسياقها التوظيفيّ الانفعاليّ والدلاليّ، عبر الحروف المتكتلة بصفة واحدة في الكلمات.

قضية توزيع الموالاة الصوتيَّة

لا يمكن لأيِّ إنسان توزيع الموالاة، ما لم يمتلك إلهامًا ودربة، فأغلب الشخصيَّات العلميَّة والأدبيَّة والتاريخيَّة التي أُحصيَت لهم الآف الكلمات، ومئات الأسطر، لم أصادف إنسانًا وزَّع موالاته على طول كلامه أوكتابته- كما ذكرت- فالتوزيع يعتمد على تكاثف الصفة الحرفيَّة (موالاة)، فخروج الحرف فطرة؛ لأنَّ الإنسان لم يتمكَّن وضع حرف (السين، الصاد)، وغيرها هنا أو هناك، ولا السيطرة على عددها.. فبعضهم تتركَّز فطرته في التوزيع عند البداية، وبعضهم في الوسط، وبعضهم الآخر في النهاية.

دلالة (التوزيع) هي: تعبيرعن الجهد النفسيّ والفكريّ والعقليّ والانفعاليّ المتوزِّع عند الخطيبة من البداية إلى النهاية، فالخطاب ممزوج نغمًا صادحًا، مع دلالة عالية المضمون والتعبير الواضح عبر مخاطبتها للشرائح التي ذكرتها أعلاه، ما يعني أنَّ الخطيبة لها إمكانيَّة الإطالة في الحديث، وبنفس التأثير والقوَّة.

الموازنة في التوزيع وكثافة الموالاة متشابهة مع خطبة السيِّدة زينب عليها السلام في قصر يزيد، ومشابهة لخطبة الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام في قصر يزيد تمامًا، فهناك بَكَت البطانة،

وهنا بكت البطانة، وكلُّ الخطب قرب مركز القرار السياسيّ، نطقوا بجدارة لا يدانيهم فيها أحد، كلُّهم نطقوا ارتجالًا تحت سقف المظلوميَّة، بكلِّ الحروف ودلالات المأساة، وقوَّة التأثير والانفعال.

ماذا يجسِّد مجيء (كلِّ الأحرف الهجائيَّة في الخطبة؟)

هو تجسيدٌ للقارئ أنَّ السيِّدة الزَّهراء في أتمِّ صحَّتها النطقيَّة، وليس فيها علَّة لسانيَّة أو عيب، فصيحة بليغة، والبلوغ هذه الصفة التي وصفها القرآن لنبيِّ الله هارون بالفصاحة، وتعبيرعن التلاوة الصحيحة للحروف، خاصَّة مجيء (الضَّاد والظَّاء) بكثرة في خطبتها، أمَّا عند الناس العاديِّين فتحتاج إلى دربة ونطق، وإنَّ فصاحة الكلمات لها تأثير في المتلقِّي بقوَّة، عكس الفهاهة واللثغة من العيوب، إنَّها مكنة وإلهام ومسايرة مع أمير المؤمنين عليه السلام في بلاغة خطبها.

ما غايات ورود لفظة (أبي) في الخطبة؟

لقد جاءت لفظة أبي ١٢ مرَّة في الخطبة، ولها غايات دلاليَّة، منها:

جعلت الأبوَّة الدنيويَّة بمرتبة التشهُّد النبويّ، عندما قالت: «**أشهد أنَّ أبي محمَّدًا عبده ورسوله**»، وهذه خصلة لا يمتلكها أي إنسان في الكون، وجعلت الأبوَّة نورًا سماويًّا للدنيا، فقالت: «**فأنارَ اللهُ بأبي محمَّد ظُلَمها**»، وأكَّدت عبرمعلوميَّتها للناس أنَّ أباها محمَّدًا صلى الله عليه وآله شخص ورسول، مع تعريفهم أنَّ أباها ابن عمِّ زوجها، وأخوه فكريًّا، وأعلمتهم وَرَثة أبيها، كذلك محاججتها بالاعتماد على ارتباطها بأبيها، كذلك استفهامها الإنكاريّ لهم، فالإلهام هو الذي وزَّعها على المقاطع في الخطبة، كلُّ توجيه خطاب والتفات تضمَّن لفظة (أبي).

إذًا من أين يبدأ المتلقِّي أو ينتهي في مفاهيمه، سيلاقي حجَّتها عليه عِبرَ تلك النَّغمات.

مخاطبتها الشرائح الجالسة

حسب طرح الخطبة، يبدو أنَّهم متنوِّعو المشارب، ومنقسمون في جلساتهم، بمعنى الجلسة رسميَّة ومنظَّمة، كلٌّ حسب مكانه الذي وضعوه فيه، وهذا أحد الأسباب الذي جعلها تخرج اليهم، دليل ذلك أنَّ في الخطبة توصيف وعرض الالتفاتات الجسديَّة التي وجَّهتها، كما مذكورفي الخطبة: «فالتفتت إلى الجالسين»، «فرمت بطرفها نحو الأنصار»، «ثمَّ نادت يا بن أبي قحافة»، «تنهُّدات صوتيَّة تجاه (إيهًا بني قيلة».

هناك ملمح آخر، إنَّ الجالسين هم كبار وفتيان ورسميُّون أصحاب جاه، وضيوف، فالخطبة كثر فيها التنازل والتصاعد (الصوتيَّة الكلميَّة) تعبيران عن حركيَّة الأصوات، وقوَّة الصوت النغميّ، ومن ذلك تحقَّق التأثير، متوزِّعًا نغميًّا في كلِّ التفاتة موضوعًا ونغمًا، في بعض الأحيان يكون الجسد تعبيرًا وصدقًا أكثرمن الكلمات، وإذا كان التناسب بين القلب والفم، يظهر الصدق بشكلٍ أكبر، على أثر ذلك يكون المتلقُّون مصدِّقين- وهم عامَّة الناس- لمعلومات الخطبة.. هذا التركيب الدلاليّ والنغميّ درِس على نظام الخطابة والبلاغة والتوظيف الصوتيّ.

الألفاظ الاسميَّة والفعليَّة في الخطبة

بعد الإحصاء، لاحظت كثرة التوظيف الاسميّ، وقلَّة الأفعال في عمليَّة بناء الخطبة، فخصوصيَّة الاسماء هي الثبات والاستمرار والأولويَّة، فالتعبير يهدف بكلِّ مضامينه الفنيَّة البلاغيَّة الحجاجيَّة والأدلَّة والاستشهادات، إلى بقائه على مدِّ الزمان.

أمَّا الفعليَّة فعكس ذلك، لأنَّ الفعليَّة تفيد السَّرد والحكي، خاصَّة المواضيع الطويلة التي تحتاج إلى تجميل وشرح، هنا الموضوع أو المضمون لا يتحمَّل ذلك، بل يحتاج إلى براهين وأدلَّة وقوَّة صوت حرفيّ ودلاليّ، وعليه أبدعت الخطيبة بذلك، حتَّى قيل توارد

الحروف الأولى في الأسماء تختلف عن توارد الحروف الأولى في الأفعال عند الديانات والثقافات القديمة.

الحديث النبويّ في الخطبة

لقد ورد الحديث النبويّ الوحيد في الخطبة، سندًا ومضمونًا: «**المرء يُحفظ في ولدِه**»[1]. وعند بحثي عن الحديث في كتب الحديث للمذاهب الأخرى، لم أعثر على الحديث، وهو عندي أكبردليل على نكران وهجران لكلمات الزَّهراء، ولم يروَ عنها سوى قلَّة، كمختصر الحديث الآتي: «**لو أنَّ فاطمة بنت محمَّد سرقت لقطعت يدها**»[2]، لا توضِّح دورالزَّهراء عند أبيها، هذه الأحاديث يروونها، لأنَّ فيها معنى فاطمة إنسانة عاديَّة، كأنَّهم لم يسمعوا بـ(بسيِّدة نساء العالمين)، وهذا الظلم بعينه، وهو رجس الماضي إلى الآن.

النتائج

١. وقت قراءة الخطبة بين (٩) دقائق إلى (١٠) دقائق، قبل الأذان ظهرًا؛ لأنَّ تجمُّع المساجد لا يكون إلَّا قبل الأذان، وهو شبيه بخطبة ابنتها زينب، وحفيدها عليّ عليهما السلام. حكمة ربَّانيَّة؛ لأنَّ حضور هذا المجلس المتنوِّع والمختلط، له أسباب، منها بداية التكوين السياسيّ.

٢. المجلس فيه شباب وشيوخ وضيوف من مكان آخر وقت التجمُّع، هو الذي جعل السيِّدة الزَّهراء للذهاب لإلقاء الحجَّة على الكلِّ.

٣. الثأثيرواضح لدى الجالسين؛ لأنَّ التاريخ يذكر أنَّها عندما (أنَّت)، بكى الجالسون.

(١) حديث نبويّ.

(٢) حديث نبويّ.

٤. عدم ردَّة فعل الناس لتأييدها يدلُّ على القبضة الحديديَّة للخلافة، ويؤيِّد المثل القائل: (الناسُ عبيدُ مَن غَلَب).

٥. هناك توازن نغميّ ودلاليّ في الخطبة.

٦. المكان: دارالخلافة مسجد رسول الله/ الزمان قبل صلاة الظهر؛ لأنَّ الحرارة سبَّبت التفاعل مع حرارة الكلمات بالبكاء عند العامَّة.

٧. تشابه الخطب الثلاث (الخطبة الفدكيَّة، وخبطة السيِّدة زينب عليها السلام في قصر يزيد، وخطبة السجاد عليه السلام في قصر يزيد)، من حيث الموقع السياسيّ، وطول زمان الخطبة، والتاثير، واللغة[1]، والوقت.

٨. الانفعال والشَّدّ العقيديّ واضح جدًّا في الخطبة.

٩. الخطبة نغميَّتها الصوتيَّة ذات طابع سهل التلفُّظ، لكنَّها قويَّة الدلالة.

١٠. الفصاحة والتمكُّن من اللغة والأسلوب متين.

١١. كثرة الموالاة الجهريَّة في الخطبة، هي أكبر دليل على الجهد المنطوق، وعلى بداهة كثرة الحروف الهجائيَّة ذات الصفة الجهريَّة.

١٢. استخدمت السيِّدة الزَّهراء إيماءات والتفاتات الرأس؛ لزيادة التاكيد والتنبيه جسديًّا وبصريًّا.

١٣. الخطبة مكتملة المواصفات الفنيَّة والموضوعيَّة والبلاغيَّة.

١٤. سجع الخطبة كان بالأحرف الآتية: (ا، هـ، ر، م، ق، ع، ن، ح، ب، ك)، فالخطبة تسجَّعت بالهمس والجهر، وانقسمت إلى أحرف مغنَّنة نغميَّة (ا، م، ن، ر)، وشديدة (ك، ب، ق)، وهذه قمَّة الموازنة النغميَّة في الخطبة.

(١) انتصار الخطاب، محمود عبيد حسين، تحت الطبع، يخصُّ دراسة صوتيَّة عن خطبة السيِّدة زينب وخطبة الإمام السجَّاد عليهما السلام في قصر يزيد.

١٥. الخطبة كثر فيها التنازل والتصاعد الكلميّ، وهو تعبير عن حركيَّة الأصوات وقوَّة صوتها النغميّ، وبدوره حقَّق التأثير في المتلقِّين.

١٦. إن الحرف (ن) يهزُّ الدماغ، ممَّا يؤدِّي إلى تحسين الدورة الدمويَّة في الشعيرات الدمويَّة، ومن ثمَّ وظائف عقليَّة أفضل، يبدو كلَّ شيء معقولًا، وهو ظاهر في الخطبة من خلال تصدُّره مع بعض الحروف، كما يقول (عالم الرياضيات اليونانيّ)[١] إنَّ الحرف «n» الأخير يهزُّ الدِّماغ، ممَّا يؤدِّي إلى تحسين الدورة الدمويَّة في الشعيرات الدمويَّة، ومن ثمَّ وظائف عقليَّة أفضل، فيبدو كلَّ شيء معقولًا.

١٧. ابن أبي قحافة كان جالسًا، ولم يكن واقفا؛ لأنَّ كلماته قليلة، وحجَّته ضعيفة، لم يكن منفعلًا، بل مصدومًا من هذا الموقف، والزَّهراء عليها السلام لم تصف حركاته، في حين في خطبة السيِّدة زينب عليها السلام كان يزيد متحرِّكا متمايلًا مزهوًّا شامتًا، هكذا وصفته السيِّدة زينب عليها السلام.

نصُّ الخطبة[٢]

الْحَمْدُ للهِ عَلى ما أَنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ على ما أَلْهَمَ، وَالثَّناءُ بِما قَدَّمَ، مِنْ عُمومِ نِعَمٍ ابْتَدَأها، وَسُبُوغِ آلاءٍ أَسْداها، وَتَمامِ مِنَنٍ والاها، جَمَّ عَنِ الإحْصاءِ عَدَدُها، وَنأى عَنِ الْجَزاءِ أَمَدُها، وَتَفاوَتَ عَنِ الأِ دْراكِ أَبَدُها، وَنَدَبَهُمْ لِاسْتِزادَتِها بِالشُّكْرِ لِاتِّصالِها، وَاسْتَحْمَدَ إِلَى الْخَلايِقِ بِإِجْزالِها، وَثَنّى بِالنَّدْبِ إلى أَمْثالِها، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، كَلِمَةٌ جَعَلَ الإِخْلاصَ تَأْويلَها، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَها، وَأَنارَ في الْفِكَرِ مَعْقُولَها، الْمُمْتَنِعُ مِنَ الأَبْصارِ رُؤْيَتُهُ، وَمِنَ الأَلْسُنِ صِفَتُهُ، وَمِنَ الأَوْهامِ كَيْفِيَّتُهُ، اِبْتَدَعَ

(١) مقال، في صحيفة إيسوس، تاريخ النشر: ٢٠-٨-٢٠١٨، تقرير إيسوس، بواسطة يانيس ب. بلاتاروس، عالم رياضيَّات.

(٢) الزَّهراء عليها السلام وخطبة فدك (شرح الخطبة الفدكيَّة)، العلَّامة محمَّد باقر المجلسيّ.

الأَشْياءَ لا مِنْ شَيْءٍ كانَ قَبْلَها، وَأَنْشَأَها بِلا احْتِذاءِ أَمْثِلَةٍ امْتَثَلَها، كَوَّنَها بِقُدْرَتِهِ، وَذَرَأَها بِمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حاجَةٍ مِنْهُ إلى تَكْوينِها، وَلا فائِدَةٍ لَهُ في تَصْويرِها إلَّا تَثْبيتًا لِحِكْمَتِهِ، وَتَنْبيهًا عَلى طاعَتِهِ، وَإظْهارًا لِقُدْرَتِهِ، وَتَعَبُّدًا لِبَرِيَّتِهِ، وإعزازًا لِدَعْوَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَ الثَّوابَ على طاعَتِهِ، وَوَضَعَ العِقابَ عَلى مَعْصِيَتِهِ، ذِيادَةً لِعِبادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ، وَحِياشَةً مِنْهُ إلى جَنَّتِهِ. وَأَشْهَدُ أنّ أبي مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله عبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اخْتارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ، وَسَمّاهُ قَبْلَ أنِ اجْتَبَلَهُ، وَاصْطِفاهُ قَبْلَ أنِ ابْتَعَثَهُ، إذِ الْخَلائِقُ بالغَيْبِ مَكْنُونَةٌ، وَبِسِتْرِ الأَهاويلِ مَصُونَةٌ، وَبِنِهايَةِ الْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ، عِلْمًا مِنَ اللهِ تَعالى بِمآيِلِ الأُمُورِ، وَإحاطَةً بِحَوادِثِ الدُّهُورِ، وَمَعْرِفَةً بِمَواقِعِ الْمَقْدُورِ. ابْتَعَثَهُ اللهُ تعالى إتْمامًا لأمْرِهِ، وَعَزيمَةً على إمْضاءِ حُكْمِهِ، وَإنْفاذًا لِمَقادِيرِ حَتْمِهِ، فَرَأى الأُمَمَ فِرَقًا في أدْيانِها، عُكَّفًا على نيرانِها، عابِدَةً لأَوْثانِها، مُنْكِرَةً لله مَعَ عِرْفانِها. فَأَنارَ اللهُ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله ظُلَمَها، وكَشَفَ عَنِ القُلُوبِ بُهَمَها، وَجَلَّى عَنِ الأَبْصارِ غُمَمَها، وَقامَ في النّاسِ بِالهِدايَةِ، وأنقَذَهُمْ مِنَ الغَوايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ العَمايَةِ، وهَداهُمْ إلى الدّينِ القَويمِ، وَدَعاهُمْ إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ. ثُمَّ قَبَضَهُ اللهُ إلَيْهِ قَبْضَ رَأْفَةٍ وَاخْتِيارٍ، ورَغْبَةٍ وَإيثارٍ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله عَنْ تَعَبِ هذِهِ الدَّارِ في راحةٍ، قَدْ حُفَّ بالمَلائِكَةِ الأَبْرارِ، وَرِضْوانِ الرَّبِّ الغَفارِ، ومُجاوَرَةِ المَلِكِ الجَبَّارِ. صلى الله على أبي نبيِّهِ وأَمينِهِ عَلى الوَحْيِ، وَصَفِيِّهِ وَخِيَرَتِهِ مِنَ الخَلْقِ وَرَضِيِّهِ، والسَّلامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ.

ثُمَّ التفتت إلى أهل المجلس، وقالت:

أَنْتُمْ عِبادَ الله نُصْبُ أمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحَمَلَةُ دينِهِ وَوَحْيِهِ، وأُمَناءُ اللهِ عَلى أَنْفُسِكُمْ، وَبُلَغاؤُهُ إلى الأُمَمِ، وَزَعَمْتُمْ حَقٌّ لَكُمْ لله فِيكُمْ، عَهْدٌ قَدَّمَهُ إلَيْكُمْ، وَبَقِيَّةٌ استَخْلَفَها عَلَيْكُمْ. كِتابُ اللهِ النّاطِقُ، والقُرْآنُ الصّادِقُ، وَالنُّورُ السّاطِعُ، وَالضِّياءُ اللاّمِعُ، بَيِّنَةٌ بَصائِرُهُ، مُنْكَشِفَةٌ سَرائِرُهُ، مُتَجَلِّيَةٌ ظَواهِرُهُ، مُغْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْياعُهُ، قائِدٌ إلى الرِّضْوانِ اتِّباعُهُ، مُؤَدٍّ إلى النَّجاةِ إسْماعُهُ. بِهِ تُنالُ حُجَجُ اللهِ المُنَوَّرَةُ، وَعَزائِمُهُ المُفَسَّرَةُ، وَمَحارِمُهُ المُحَذَّرَةُ، وَبَيِّناتُهُ الجالِيَةُ، وَبَراهِينُهُ الكافِيَةُ، وَفَضائِلُهُ المَنْدوبَةُ، وَرُخَصُهُ المَوْهُوبَةُ، وَشَرايِعُهُ المَكْتُوبَةُ،

فَجعَلَ اللهُ الإيمانَ تَطْهيرًا لَكُمْ مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلاةَ تَنْزيهًا لَكُمْ عَنِ الكِبْرِ، والزَّكاةَ تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ وَنَماءً في الرِّزْق، والصِّيامَ تَثْبيتًا للإِخْلاصِ، والحَجَّ تَشْييدًا لِلدّينِ، وَالعَدْلَ تَنْسيقًا لِلْقُلوبِ، وَطاعَتَنا نِظامًا لِلْمِلَّةِ، وَإمامَتَنا أمانًا مِنَ الْفُرْقَةِ، وَالْجِهادَ عِزًّا لِلإِسْلامِ، وَالصَّبْرَ مَعُونَةً عَلَى اسْتِيجابِ الأَجْرِ، وَالأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعامَّةِ، وَبِرَّ الْوالِدَيْنِ وِقايَةً مِنَ السَّخَطِ، وَصِلَةَ الأَرْحامِ مَنْماةً لِلْعَدَدِ، وَالْقِصاصَ حِصْنًا لِلدِّماءِ، وَالْوَفاءَ بِالنَّذْرِ تَعْريضًا لِلْمَغْفِرَةِ، وَتَوْفِيَةَ الْمَكاييلِ وَالْمَوازينِ تَغْيِيرًا لِلْبَخْسِ، وَالنَّهْيَ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِ تَنْزيهًا عَنِ الرِّجْسِ، وَاجْتِنابَ الْقَذْفِ حِجابًا عَنِ اللَّعْنَةِ، وَتَرْكَ السَّرِقَةِ إيجابًا لِلْعِفَّةِ. وَحَرَّمَ اللهُ الشِّرْكَ إخلاصًا لَهُ بالرُّبُوبِيَّةِ، فـ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وَأطيعُوا اللهَ فيما أمَرَكُمْ بِهِ وَنَهاكُمْ عَنْهُ، فَإِنَّه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

ثُمَّ قالت: أيُّها النّاسُ! اعْلَمُوا أنِّي فاطِمَةُ، وَأبي مُحَمَّدٌ ﷺ، أَقُولُ عَوْدًا وَبَدْءًا، وَلا أَقُولُ ما أقُولُ غَلَطًا، وَلا أفْعَلُ ما أفْعَلُ شَطَطًا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فَإنْ تَعْزُوه وَتَعْرِفُوهُ تَجِدُوهُ أبي دُونَ نِسائِكُمْ، وَأخا ابْنِ عَمّي دُونَ رِجالِكُمْ، وَ لَنِعْمَ الْمَعْزِيُّ إلَيْهِ ﷺ. فَبَلَّغَ الرِّسالَةَ صادِعًا بِالنِّذارَةِ، مائِلًا عَنْ مَدْرَجَةِ الْمُشْرِكِينَ، ضارِبًا ثَبَجَهُمْ، آخِذًا بِأكْظامِهِمْ، داعِيًا إلى سَبيلِ رَبِّهِ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، يَكْسِرُ الأَصْنامَ، وَيَنْكُتُ الْهامَ، حَتَّى انْهَزَمَ الْجَمْعُ وَوَلَّوا الدُّبُرَ، حَتّى تَفَرَّى اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ، وَأَسْفَرَ الحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ، وَنَطَقَ زَعِيمُ الدّينِ، وَخَرِسَتْ شَقاشِقُ الشَّياطينِ، وَطاحَ وَشيظُ النِّفاقِ، وَانْحَلَّتْ عُقَدُ الْكُفْرِ وَالشِّقاقِ، وَفُهْتُمْ بِكَلِمَةِ الإِخْلاصِ فِي نَفَرٍ مِنَ الْبيضِ الْخِماصِ، وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ، مُذْقَةَ الشّارِبِ، وَنُهْزَةَ الطّامِعِ، وَقُبْسَةَ الْعَجْلانِ، وَمَوْطِئَ الأَقْدامِ، تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ، وَتَقْتاتُونَ الْوَرَقَ، أذِلَّةً خاسِئِينَ، ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾، فَأنْقَذَكُمُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى بِمُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ اللّتَيّا وَالَّتِي، وَبَعْدَ أنْ مُنِيَ بِبُهَمِ الرِّجالِ وَذُؤْبانِ الْعَرَبِ وَمَرَدَةِ أهْلِ الْكِتابِ، ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ

أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾، أَوْ نَجَمَ قَرْنٌ لِلشَّيْطانِ، وَفَغَرَتْ فَاغِرَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَذَفَ أخاهُ في لَهَواتِها، فَلا يَنْكَفِئُ حَتَّى يَطَأَ صِماخَها بِأَخْمَصِهِ، وَيُخْمِدَ لَهَبَهَا بِسَيْفِهِ، مَكْدُودًا في ذاتِ اللهِ، مُجْتَهِدًا في أَمْرِ اللهِ، قَرِيبًا مِنْ رَسُولِ اللهِ سِيِّدَ أَوْلياءِ اللهِ، مُشْمِّرًا ناصِحًا، مُجِدًّا كادِحًا وأَنْتُمْ في رَفاهِيَةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَادِعُونَ فاكِهُونَ آمِنُونَ، تَتَرَبَّصُونَ بِنا الدَّوائِرَ، وتَتَوَكَّفُونَ الأَخْبارَ، وَتَنْكُصُونَ عِنْدَ النِّزالِ، وَتَفِرُّونَ عِنْدَ القِتالِ، فَلَمَّا اخْتارَ اللهُ لِنَبِيِّهِ دارَ أَنْبِيائِهِ وَمَأْوى أَصْفِيائِهِ، ظَهَرَ فيكُمْ حَسيكَةُ النِّفاقِ وَسَمَلَ جِلْبابُ الدِّينِ، وَنَطَقَ كاظِمُ الْغاوِينِ، وَنَبَغَ خامِلُ الأَقَلِّينَ، وَهَدَرَ فَنِيقُ الْمُبْطِلِينَ،فَخَطَرَ في عَرَصاتِكُمْ، وَأَطْلَعَ الشَيْطانُ رَأْسَهُ مِنْ مَغْرِزِهِ، هاتفًا بِكُمْ، فَأَلْفاكُمْ لِدَعْوَتِهِ مُسْتَجيبينَ، وَلِلْغِرَّةِ فِيهِ مُلاحِظِينَ. ثُمَّ اسْتَنْهَضَكُمْ فَوَجَدَكُمْ خِفافًا، وَأَحْمَشَكُمْ فَأَلْفاكُمْ غِضابًا، فَوَسَمْتُمْ غَيْرَ إِبِلِكُمْ، وَأَوْرَدْتُمْ غَيْرَ شِرْبِكُمْ، هذا وَالْعَهْدُ قَرِيبٌ، وَالْكَلْمُ رَحِيبٌ، وَالْجُرْحُ لَمّا يَنْدَمِلْ، وَالرَّسُولُ لَمّا يُقْبَرْ، ابْتِدارًا زَعَمْتُمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ، ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فَهَيْهاتَ مِنْكُمْ، وَكَيْفَ بِكُمْ، وَأَنّى تُؤْفَكُونَ؟ وَكِتابُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، أُمُورُهُ ظاهِرَةٌ، وَأَحْكامُهُ زاهِرَةٌ، وَأَعْلامُهُ باهِرَةٌ، وَزَواجِرُهُ لائِحَةٌ، وَأَوامِرُهُ واضِحَةٌ، قَدْ خَلَّفْتُمُوهُ وَراءَ ظُهُورِكُمْ، أَرَغْبَةً عَنْهُ تُرِيدُونَ، أَمْ بِغَيْرِهِ تَحْكُمُونَ، ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. ثُمَّ لَمْ تَلْبَثُوا الَّا رَيْثَ أَنْ تَسْكُنَ نَفْرَتُها، وَيَسْلَسَ قِيادُها ثُمَّ أَخَذْتُمْ تُورُونَ وَقْدَتَها، وَتُهَيِّجُونَ جَمْرَتَها، وَتَسْتَجِيبُونَ لِهِتافِ الشَّيْطانِ الْغَوِيِّ، وَاطْفاءِ أَنْوارِالدِّينِ الْجَلِيِّ، وَاهْمادِ سُنَنِ النَّبِيِّ الصَّفِيِّ، تُسِرُّونَ حَسْوًا فِي ارْتِغاءٍ، وَتَمْشُونَ لأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ فِي الْخَمَرِ وَالْضَّراءِ، وَنَصْبِرُ مِنْكُمْ عَلى مِثْلِ حَزِّ الْمُدى، وَوَخْزِ السِّنانِ فِي الحَشا، وَأَنْتُمْ تزْعُمُونَ ألاّ ارْثَ لَنا، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أَفَلا تَعْلَمُونَ؟ بَلى تَجَلَّى لَكُمْ كَالشَّمْسِ الضّاحِيَةِ أَنّي ابْنَتُهُ، أَيُّها الْمُسْلِمونَ أُأْغْلَبُ عَلى ارْثِيَهْ يَا ابْنَ أبي قُحافَةَ! أفي كِتابِ اللهِ أَنْ تَرِثَ أباكَ، وِلا أَرِثَ أبي؟ ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، أَفَعَلى عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتابَ اللهِ، وَنَبَذْتُمُوهُ

وَراءَ ظُهُورِكُمْ اذْ يَقُولُ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾، وَقالَ فيمَا اخْتَصَّ مِنْ خَبَرِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا عليهما السلام إذْ قالَ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وَقالَ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وزَعَمْتُمْ أَلَّا حِظوَةَ لِي، وَلا إرْثَ مِنْ أبي ولارَحِمَ بَيْنَنَا!، أَفَخَصَّكُمُ اللهُ بِآيَةٍ أَخْرَجَ مِنْها أبي؟ أَمْ هَلْ تَقُولونَ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ لا يَتَوارَثَانِ، أَوَ لَسْتُ أَنَا وَأَبِي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ واحِدَةٍ؟! أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أَبِي وَابْنِ عَمِّي؟ فَدُونَكَها مَخْطُومَةً مَرْحُولَةً، تَلْقاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ، فَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ، وَالزَّعِيمُ مُحَمَّدٌ، وَالْمَوْعِدُ الْقِيامَةُ، وَعِنْدَ السّاعَةِ يخسَرُ المبطلون، وَلايَنْفَعُكُمْ إِذْ تَنْدَمُونَ، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

ثُمَّ رَمَتْ بِطَرْفِها نَحْوَ الْأَنْصارِ، فَقالَتْ:

يا مَعاشِرَ الْفِتْيَةِ، وَأَعْضادَ الْمِلَّةِ، وَأَنْصارَ الْإِسْلامِ! ما هذِهِ الْغَمِيزَةُ فِي حَقِّي؟ وَالسِّنَةُ عَنْ ظُلامَتِي؟ أما كانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله أَبِي يَقُولُ: «اَلْمَرْءُ يُحْفَظُ فِي وُلْدِهِ»؟ سَرْعانَ ما أَحْدَثْتُمْ، وَعَجْلانَ ذا إهالَةً، وَلَكُمْ طاقَةٌ بِما اُحاوِلُ، وَقُوَّةٌ عَلى ما أَطْلُبُ وَأُزاوِلُ!، أَتَقُولُونَ ماتَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله؟! فَخَطْبٌ جَليلٌ اسْتَوْسَعَ وَهْيُهُ، وَاسْتَنْهَرَ فَتْقُهُ، وَانْفَتَقَ رَتْقُهُ، وَأَظْلَمَتِ الْأَرْضُ لِغَيْبَتِهِ، وَكُسِفَتِ النُّجُومُ لِمُصِيبَتِهِ، وَأَكْدَتِ الْآمالُ، وَخَشَعَتِ الْجِبالُ، وَأُضِيعَ الْحَرِيمُ، وَاُزِيلَتِ الْحُرْمَةُ عِنْدَ مَماتِهِ. فَتِلْكَ وَاللهِ النّازِلَةُ الْكُبْرى، وَالْمُصِيبَةُ الْعُظْمى، لا مِثْلُها نازِلَةٌ وَلا بائِقَةٌ عاجِلَةٌ أَعْلَنَ بِها كِتابُ اللهِ -جَلَّ ثَناؤُهُ- فِي أَفْنِيَتِكُمْ فِي مُمْساكُمْ وَمُصْبَحِكُمْ هِتافًا وَصُراخًا وَتِلاوَةً وَإِلحانًا، وَلَقَبْلَهُ ما حَلَّ بِأَنْبِياءِ اللهِ وَرُسُلِهِ، حُكْمٌ فَصْلٌ وَقَضاءٌ حَتْمٌ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أَيْهًا بَنِي قَيْلَةَ! أَ أُهْضَمُ تُراثَ أَبِيَهْ وَأَنْتُمْ بِمَرْأى مِنِّي وَمَسْمَعٍ، ومُبْتَدأٍ وَمَجْمَعٍ؟! تَلْبَسُكُمُ الدَّعْوَةُ،

وتَشْمُلُكُمُ الْخَبْرَةُ، وَأَنْتُمْ ذَوُو الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَالأَداةِ وَالْقُوَّةِ، وَعِنْدَكُمُ السِّلاحُ وَالْجُنَّةُ؛ تُوافيكُمُ الدَّعْوَةُ فَلا تُجيبُونَ، وَتَأْتيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلا تُغيثُونَ، وَأَنْتُمْ مَوْصُوفُونَ بِالْكِفاحِ، مَعْرُفُونَ بِالْخَيْرِ وَالصَّلاحِ، وَالنُّجَبَةُ الَّتي انْتُجِبَتْ، وَالْخِيَرَةُ الَّتِي اخْتيرَتْ! قاتَلْتُمُ الْعَرَبَ، وَتَحَمَّلْتُمُ الْكَدَّ وَالتَّعَبَ، وَناطَحْتُمُ الأُمَمَ، وَكافَحْتُمُ الْبُهَمَ، فَلا نَبْرَحُ أو تَبْرَحُونَ، نَأْمُرُكُمْ فَتَأْتَمِرُونَ حَتَّى دارَتْ بِنا رَحَى الإِسْلامِ، وَدَرَّ حَلَبُ الأَيّامِ، وَخَضَعَتْ نُعَرَةُ الشِّرْكِ، وَسَكَنَتْ فَوْرَةُ الإِفْكِ، وَخَمَدَتْ نيرانُ الْكُفْرِ، وهَدَأَتْ دَعْوَةُ الْهَرْجِ، وَاسْتَوْسَقَ نِظامُ الدِّينِ؛ فَأَنّى جُرْتُمْ بَعْدَ الْبَيانِ، وَأَسْرَرْتُمْ بَعْدَ الإِعْلانِ، وَنَكَصْتُمْ بَعْدَ الإِقْدامِ، وَأَشْرَكْتُم بَعْدَ الإِيمانِ؟ ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أَلا قَدْ أرى أَنْ قَدْ أَخْلَدْتُمْ إِلَى الْخَفْضِ، وَأَبْعَدْتُمْ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالْبَسْطِ وَالْقَبْضِ، وَخَلَوْتُمْ بِالدَّعَةِ، وَنَجَوْتُمْ مِنَ الضِّيقِ بِالسَّعَةِ، فَمَجَجْتُمْ ما وَعَيْتُمْ، وَدَسَعْتُمُ الَّذِي تَسَوَّغْتُمْ، فـ﴿إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. أَلا وَقَدْ قُلْتُ ما قُلْتُ عَلى مَعْرِفَةٍ مِنّي بِالْخَذْلَةِ الَّتِي خامَرَتْكُمْ، وَالْغَدْرَةِ التِي اسْتَشْعَرَتْها قُلُوبُكُمْ، وَلكِنَّها فَيْضَةُ النَّفْسِ، وَنَفْثَةُ الْغَيْظِ، وَخَوَرُ الْقَنا، وَبَثَّةُ الصُّدُورِ، وَتَقْدِمَةُ الْحُجَّةِ، فَدُونَكُمُوها فَاحْتَقِبُوها دَبِرَةَ الظَّهْرِ، نَقِبَةَ الْخُفِّ، باقِيَةَ الْعارِ، مَوْسُومَةً بِغَضَبِ اللهِ وَشَنارِ الأَبَدِ، مَوْصُولَةً بِنارِ اللهِ الْمُوقَدَةِ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ. فَبَعْيْنِ اللهِ ما تَفْعَلُونَ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، وَأَنَا ابْنَةُ نَذِيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَديدٍ، فـ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾..

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

- بلاغات النساء، أبو الفضل أحمد بن طيفور، صحَّحه وشرحه: أحمد الألفيّ، مطبعة مدرسة والدة عبَّاس الأوَّل، القاهرة، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م.

- الرسالة العمليَّة للسيِّد السيستانيّ، باب الصلاة.
- الرسالة العمليَّة للسيِّد الخوئيّ، باب الصلاة.
- روح البيان، إسماعيل حقِّي بن مصطفى الخلوتيّ أبو الفداء، دار الفكر، بيروت.
- الزَّهراء عليها السلام وخطبة فدك (شرح الخطبة الفدكيَّة)، العلَّامة محمَّد باقر المجلسيّ، دار كلستان كوثر للنشر، قم، ط١، ٢٠٠٣.
- مختار الصِّحاح، محمَّد بن أبي بكر الرازيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٨١.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمَّد فؤاد عبد الباقي، ضبطه وصحَّحه: محمَّد سعيد اللحَّام، دار المعرفة، بيروت، ط٦، ٢٠٠٨.
- معجم مقايس اللغة، ابن فارس، قم، د.ت.
- الموالاة الصوتيَّة في القصِّ، محمود عبيد حسين، مطبعة حوض الفرات، النجف ط٢، ٢٠١٣م.

البحوث:

- بحث في ألمانيا باسم (Medizin Jurnal) عام ١٩٩٦.

تحت الطبع:

- إنتصار الخِطاب، محمود عبيد حسين.

الكشف والإظهار في خطاب مستودع الأسرار
دراسة في معيارَي القصديَّة والمقبوليَّة في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في نساء المهاجرين والأنصار

الباحث منتظر جبَّار بشَّار
جامعة البصرة/ كليَّة الآداب

الملخَّص

هذا بحث يتناول خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في نساء المهاجرين والأنصار، بالتحليل في ضوء المعايير النصيَّة، مقتصرًا على عنصرَي القصديَّة والمقبوليَّة، وقد وقع اختيار الباحث على عنوان (الكشف والإظهار في خطاب مستودع الأسرار؛ دراسة في معيارَي القصديَّة والمقبوليَّة في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في نساء المهاجرين والأنصار)، وقد مهَّد الباحث بتمهيد عنوانه (مفهوم الكشف والإظهار والمعايير النصيَّة)، ثمَّ تلاه (القصديَّة لغةً واصطلاحًا، والقصديَّة في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في نساء المهاجرين والأنصار، مع ذِكر نصِّ الخطبة لتطبيق القصديَّة عليها، وبيان المقاصد المباشرة وغير المباشرة، ثمَّ الحديث عن مفهوم المقبوليَّة لغةً واصطلاحًا، وبيان أنواع القرَّاء، ومستويات القراءة، وتطبيق كلِّ ذلك على الخطبة).

ومن نتائج هذا البحث :

١. بيان معنى الكشف والإظهار، والتفريق بين الكشف عند الصوفيِّين، والكشف بمعنى رفع السِّتر وبيان ما خُفيَ.

٢. إثبات الترابط بين معايير النظريَّة النصيَّة، وذلك من خلال اعتماد كلٍّ من القصديَّة والمقبولية أحدهما على الآخر، فضلًا عن المعايير الأخرى، مثل السبك، والحبك، والإعلاميَّة.

٣. بيان مقاصد الزَّهراء عليها السلام، من خلال خطبتها في نساء المهاجرين والأنصار.

٤. إثبات أنَّ الزَّهراء عليها السلام كانت لا تترك مناسبة إلَّا وحاولت أن تستغلَّها؛ لبيان مظلوميَّتها، والحيف الذي وقع عليها.

٥. التفريق بين نظريَّة الاستقبال، ونظرية التلقِّي، وأيُّهما يعدُّ من المقبوليَّة.

٦. توضيح مستويات القراءة، وكيف تؤثِّر في فهم النصِّ.

المقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على محمَّد الصادق الأمين، وعلى آله الطيِّبين الطاهرين، وبعد.. فهذا بحث يتناول خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في نساء المهاجرين والأنصار بالتحليل في ضوء المعايير النصيَّة، مقتصرًا على عنصرَي القصديَّة والمقبوليَّة، وقد وقع اختيار الباحث على عنوان (الكشف والإظهار في خطاب مستودع الأسرار- دراسة في معيارَي القصديَّة والمقبوليَّة في خطبة السيِّدة الزَّهراء في نساء المهاجرين والأنصار)، وقد مهَّد الباحث بتمهيد عنوانه (مفهوم الكشف والإظهار والمعايير النصيَّة)، ثمَّ تلاه (القصديَّة لغة واصطلاحًا، والقصديَّة في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في نساء المهاجرين والأنصار، مع ذكر نصِّ الخطبة؛ لتطبيق القصديَّة عليها، وبيان المقاصد المباشرة وغير المباشرة، ثمَّ الحديث عن مفهوم المقبوليَّة لغة واصطلاحًا، وبيان أنواع القرَّاء، ومستويات القراءة، وتطبيق كلُّ ذلك على الخطبة).

والله ولي التوفيق.

التمهيد

مفهوم الكشف والإظهار والمعايير النصيَّة

قبل البدء بالتمهيد وتعريف نحو النصِّ، لا بدَّ من التعرُّض لعنوان البحث، ومعرفة معنى الكشف والإظهار لغةً واصطلاحًا.

الكشف لغةً: يقول ابن فارس: «الكاف والشين والفاء أصلٌ واحد يدلُّ على سرو الشيء عن شيء، كالثوب يسري عن البدن»[1]. أما في لسان العرب، فقد جاء بعدَّة معانٍ، منها رفعك الشيء عمَّا يغطِّيه ويواريه، كشفه يكشفه كشفًا.. وكشف الأمر، يكشف كشفًا: أظهره[2]. **أمَّا في الاصطلاح**: فقد ذكر في كتاب التعريفات «هو الاطِّلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبيَّة والأمور الحقيقيَّة وجودًا وشهودًا»[3]. ويفهَم من التعريف السابق أنَّ الكشف نوع من الإدراك، وكذلك هو من الإدراكات الحضوريَّة والشهوديَّة، وهو يحصل برفع الحُجب عن السالك لطلب المعرفة، وما نقصده نحن بالكشف لا الكشف العرفانيّ أو الصوفيّ، الذي يسمَّى عندهم بالمكاشفات، وإنَّما نقصد المعنى اللغويّ، وهو رفع ما يستر الشيء؛ ليعلمه السالك، وقد ورد هذا في القرآن الكريم: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[4].

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: ٨٩٤.

(٢) ينظر: لسان العرب، ابن منظور: ١٠٢.

(٣) التعريفات، عليّ بن محمَّد الجرجانيّ: ١٩٣.

(٤) النمل: ٤٤.

الإظهار لغةً: الجذر اللغويّ للفظة الإظهار، هو (ظهر)، وقد أورد الخليل فيه الكثير من المعاني، منها: «الظهر خلاف البطن من كلِّ شيء.. والظهور بَدو الشيء الخفيّ»[1]. أمَّا في معجم مقاييس اللغة، يقول ابن فارس: «الظاء والهاء والراء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على قوَّةٍ وبروز، ومن ذلك ظهر الشيء يظهر ظهورًا، فهو ظاهر، إذا انكشف وبرز، ولذلك سمِّي وقت النهار والظهيرة، وهو أظهر أوقات النهار وأضوؤها»[2].

أمَّا اصطلاحًا: فقد ذكر أنَّه البيان والإبراز بعد الخفاء، أو هو مصطلح عند أهل القراءات: إخراجُ كلِّ حرفٍ من مخرجه من غير غنَّة في الحرف المظهَر[3]، وقد سمِّي إظهارًا؛ لأنَّه يُظهر الحرف من مخرجه ويبرزه، وما نقصده من الإظهار في بحثنا هو إبراز ما كان خفيًّا في خطبة سيِّدة النساء عليها السلام في نساء المهاجرين والأنصار، من مقاصد خفيَّة ومباشرة، وتعدُّد أنواع المتلقِّين لهذه الخطبة المباركة.

نحو النصِّ ومفهوم المعايير النصيَّة

يُعدُّ القرن التاسع عشر هو القفزة النوعيَّة في دراسة علم اللغة، فبعد أن كان الدرس اللغويّ منحصرًا بدراسة الجملة، واعتبارها هي البنية الكبرى في دراسة اللغة، ظهر العالم دي سوسير بمجموعة محاضرات في منتصف القرن التاسع عشر، لتنذر بتطوُّر جديد في دراسة علم اللغة، ومنذ تلك الفترة شهد علم اللغة تطوُّرًا مغايرًا في دراسة اللغة، فبعد أن كانت الجملة هي البنية الكبرى، جاءت الدراسات الحديثة لتُثبت أنَّ البنية الكبرى لتحليل النصِّ، هو النصُّ بالكامل، وتحوَّل الدرس اللغويّ من نحو الجملة إلى دراسة نحو النصِّ؛ فلأجل التفسير اللغويّ، وفهم الظاهرة اللغويَّة، يجب

(١) العين، الخليل الفراهيديّ: ٣/ ٨٠.
(٢) معجم مقاييس اللغة: ٦١٨.
(٣) ينظر: معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيَّة، د. محمود عبد الرحمن عبد المنعم: ١/ ٢١٨-٢١٩.

دراسة النصِّ كاملًا مع ما يحيط به من ظروف نشأة ذلك النصِّ، وبسبب حداثة النظريَّة والدراسة، فقد تعدَّدت التعريفات[1] حول النصِّ، وقد أورد الدكتور صبحي ابراهيم الفقي عددًا لا باس به من تعريفات النصِّ عند علماء اللغة في كتابه علم اللغة النصِّيّ بين النظريَّة والتطبيق، وكذلك ما أورده الطيِّب العزَّاليّ في دراسته معايير النصيَّة في ديوان محمَّد العيد آل خليفة.

ويرى الدكتور صبحي إبراهيم الفقي أنَّ أشمل تعريف للنصِّ، هو ما نقله الدكتور سعد مصلوح، والدكتور سعيد بحيري عن روبرت دي بوجراند وزميله درايسلر «بأنَّه حدث تواصليّ يلزم لكونه نصًّا أن تتوفَّر له سبعة معايير للنصيَّة مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلَّف واحد من هذه المعايير، السَّبك، والحبك، والقصد، والمقبوليَّة، والإعلاميَّة، والمقاميَّة، والتناص»[2]، ونحن نتابعه في ما يرى.

وقد عرف دي بوجراند هذه المعايير في كتابه النصُّ والخطاب والإجـراء[3]، بالتعريفات الاتية:.

السَّبك: «وهو يترتَّب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحيَّة على صورة وقائع، يؤدِّي السابق منها إلى اللاحق، بحيث يتحقَّق لها الترابط الرصفيّ، وبحيث يمكن استعادة هذا الترابط».

الحبك: «وهو يتطلَّب من الاجراءات ما ينشِّط بها عناصر المعرفة؛ لإيجاد الترابط المفهوميّ، واسترجاعه».

القصد: «وهو يتضمَّن موقف مُنشِئ النصِّ من كون صورة ما من صور اللغة قصد

(١) ينظر: علم اللغة النصِّـيّ بين النظريَّة والتطبيق، د.صبحي إبراهيم الفقي: ١/ ٢٩-٣٢، ومعايير النصيَّة في ديوان محمَّد العيد آل خليفة، الطيِّب العزَّاليّ: ١٢٠.

(٢) علم اللغة النصِّـيّ بين النظريَّة والتطبيق: ١/ ٣٣.

(٣) النصُّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة تمَّام حسَّان: ١٠٣-١٠٤.

بها أن تكون نصًا يتمتَّع بالسَّبك والالتحام، وأنَّ مثل هذا النصِّ وسيلة من وسائل متابعة خطَّة معيَّنة للوصول إلى غاية بعينها».

القبول: «وهو يتضمَّن موقف مستقبل النصِّ إزاء كون صورة من صور اللغة ينبغي لها ان تكون مقبولة من حيث هي نصٌّ ذو سبكٍ والتحام».

رعاية الموقف: «وهي تتضمَّن العوامل التي تجعل النصَّ مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه».

التناص: «وهو يتضمَّن العلاقات بين نصٍّ ما ونصوص أخرى مرتبطة به، وقعت في حدود تجربة سابقة، سواء بوساطة أم بغير وساطة».

الإعلاميَّة: «وهي العامل المؤثِّر بالنسبة لعدم الجزم في الحكم على الوقائع النصيَّة أو الوقائع في عالم نصِّيّ في مقابلة البدائل الممكنة».

ويمكن تصنيف هذه المعايير وفق الآتي[1]:

١. ما يتَّصل بالنصِّ في ذاته، وهما معيارا (السَّبك والحبك).
٢. ما يتَّصل بمستعملي النصّ، سواء كان المستعمل منتجًا أم متلقِّيًا، وذلك معيارا (القصد والقبول).
٣. ما يتَّصل بالظروف المحيطة بالنصِّ، وذلك معايير(الإعلاميَّة، والمقاميَّة، والتناص).

القصديَّة

القصديَّة لغة: تتجلَّى مادَّة قصد في معاجم اللغة العربيَّة عن عدَّة معانٍ تكاد تكون متقاربة، وأهمها إتيان الشيء وأمّهُ، يقول ابن فارس: «القاف والصاد والدال أصول ثلاثة يدلُّ أحدها على إتيان الشيء وأمّهُ.. فالأصل: قصدتهُ، قصدًا ومقصدًا، ومن

(١) ينظر: نحو النصِّ بين الأصالة والحداثة، أحمد محمَّد عبد الراضي: ٨٢-٨٣.

الباب: أقصَدَهُ السهم، إذا أصابه فقُتل مكانه، وكأنَّه قيل ذلك؛ لأنَّه لم يَحِد عنه»[١]. وقد أورده في كتاب الصاحبي بمعنى الاعتماد، وقال عنه إنَّه المعنى؛ لأنَّه يُقصد ويُعتمد[٢]، أمَّا المعنى الثاني استقامة الطريق، والثالث الاقتصاد في الشيء، وهو الوسط بين الطَّرَفين، وكذلك إتيان الشيء، أو التوجُّه إليه، وقد قيل في الشعر (القصيد)؛ لأنَّه قُصِد وأُعتِمد، أي مرادًا مقصودًا[٣]. إذًا المعاني تدور في ثلاث دلالات، فاستقامة الطريق، لكثرة قاصديها، فأصبحت مستقيمة معتدلة، والتوسُّط في الإنفاق، فقد عمد إلى الاعتدال، أمَّا في الشعر فإنَّ الشاعر نوى وتوجَّه إلى هذا الأسلوب والتفعيلات، فهي جميعها متقاربة، وإن وردت في سياقات مختلفة.

القصديَّة اصطلاحًا: «ويعني التعبير عن هدف النصِّ، أو تضمّن موقف منشئ النصِّ، واعتقاده أنَّ مجموعة الصور والأحداث اللغويَّة التي قصد بها أن تكون نصًّا يتمتَّع بالسَّبك والالتحام، وأنَّ مثل هذا النصِّ وسيلة من وسائل متابعة خطَّة معيَّنة للوصول إلى غاية بعينه،ا تلك الغاية مقصد المنشئ»[٤]. وهذا التعريف نقله د. أحمد عفيفي، عن د. تمّام حسَّان من خلال ترجمته لكتاب النصِّ والخطاب والإجراء[٥].

أمَّا في كتاب مدخل إلى علم لغة النصِّ، فنجد د. إلهام أبو غزالة، ود. عليّ خليل حمد يذكران أنَّ القصديَّة هي «المعيار الثالث من المعايير النصيَّة وموضوعه اتِّجاه منتج النصِّ إلى أن تؤلِّف مجموعة الوقائع نصًّا متضامًّا متقاربًا ذا نفعٍ عمليّ في تحقيق مقاصده، أي في نشر معرفة أو بلوغ هدف يتعيَّن من خلال خطَّة ما، ويمكننا اعتبار التضامّ والتقارب

(١) معجم مقاييس اللغة، مادَّة (قصد): ٨٥٩.
(٢) ينظر الصاحبيّ في اللغة، ابن فارس، مادَّة (قصد): ١٦٣.
(٣) ينظر: لسان العرب، مادَّة (قصد): ١١/ ١٧٩-١٨١.
(٤) نحو النصِّ اتِّجاه جديد في الدرس النحويّ: ٧٩.
(٥) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ١٠٣.

أنفسهم هدفَين إجرائيَّين يصعب التوصُّل إلى أهداف المقال الأخرى بدونهما»[1]. من خلال التعريفَين السابقَين يمكن القول إنَّ النصَّ وأسلوبه يتأثَّران بالقصد، فالكاتب يقوم بصياغة نصٍّ معيَّن يُضَمِّن فيه السَّبك والحبك؛ للوصول إلى غاية أو هدف معيَّن.

وتعدُّ القصديَّة أحد المقوِّمات الأساسيَّة للنصِّ، «باعتبار أنَّ لكلِّ منتِج خطابٍ غاية يسعى لبلوغها، أو نيَّة يريد تجسيدها، ويستمدُّ مفهوم القصديَّة شرعيَّة وجوده في الدراسات اللسانيَّة، قديمها وحديثها، من إنَّ كلَّ فعلٍ كلاميّ يُفتَرض فيه وجود نيَّة للتوصُّل والإبلاغ»[2]. ويرى دي بوجراند أنَّ معيار القصديَّة معيارٌ مهمٌّ، ويمكن فيه التغاضي[3]، أي حتَّى مع عدم وجود المعايير الكاملة (السَّبك والحبك)، فهو يظلُّ قائمًا من الناحية العمليَّة، فعند تحقُّق الشَّرط الذي من أجله قامت القصديَّة، فلا بأس، وإن كان هناك خللًا بمعيار السَّبك والحبك، وهذا الشرط هو مقبوليَّة المتلقِّي، ولا يخفى دور المتلقِّي بمعيار القصديَّة، فالمتلقِّي من خلال إدراكه وتفاعله مع المحيط الخارجيّ، يمكن أن يصل إلى مقصد المتكلِّم، فالمتلقي والمخاطب مشتركان في العمليَّة التخاطبيَّة، برغم سبق المخاطب الزمنيّ في إنشاء الكلام، «وإنشاء الكلام من لدى المتكلِّم، وفهمه من لدى المتلقِّي عمليَّتان لا انفصال لأحدهما عن الآخر، وانفراد المتكلِّم بالسبق الزمنيّ ما كان ليلزم عنه انفراد بتكوين مضمون الكلام، بل ما إن يشرع المتكلِّم في النطق، حتَّى يقاسمه المخاطب دلالته؛ لأنَّ هذه الدلالات الخطابيَّة لا تنزل عن ألفاظها نزول المعاني على المفردات في المعجم، وإنَّما تنشأ وتتكاثر وتتقلَّب وتتعرَّف من خلال العلاقة التخاطبية»[4]. فمن خلال ما سبق يمكن القول إنَّ هناك فرقًا بين ما يقال وما يقصد، فما يقال هو ما تعنيه الملفوظات والمتواليات بقيمتها اللفظيَّة، وما يقصد هو ما يريد أن يبلغه

(١) مدخل إلى علم لغة النصِّ، إلهام ابو غزالة، عليّ خليل حمد: ٣٠.
(٢) مدخل إلى علم النصِّ مجالات تطبيقيَّة، محمَّد الأخيضر الصبحيّ: ٩٦.
(٣) النصّ والخطاب والإجراء: ١٠٣.
(٤) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د. طه عبد الرحمن: ٥٠.

المتكلِّم إلى المتلقي، معتمدًا على أدوات معيَّنة، سواء أكانت لغويَّة أو أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال، وهذا ما تكلم عنه جرايس، وهو بذلك أراد أن يقيم معبرًا بين ما يحمله القول من معنى صريح، وما يحمله من معنى متضمِّن(١).

وهناك مجموعة من المبادئ تتحكَّم في القصدية، هذه المبادئ هي التي توجِّه القصديَّة التوجيه الصحيح؛ للوصول إلى المتلقِّي بشكلٍ صحيحٍ، وهي مبدأ التعاون، ومبدأ الكميَّة، ومبدأ الكيفيَّة، ومبدأ العلاقة، ومبدأ الهيأة، وعند اتِّباع المتكلِّم لهذه المبادئ، يحاول تحقيق الاتِّصال بقدر أدنى من الخلل، ولكنَّهم قد يقصدون إلى انتهاكها إذا دعتهم الحاجة(٢). ولقد كانت التداوليَّة أقرب إلى دراسة القصديَّة؛ لأنَّها تهتمُّ بدراسة المعنى الذي يقصده المتكلِّم(٣)، فالمهمُّ هو ما يقصده الكاتب، وليس معنى الكلمات، ولعلَّ «ما تستخلصه هو أنَّ النصَّ يُقبَل على أساس ما يحمل في طيَّاته من القصديَّة عِبر نسقٍ وأسلوبٍ اختاره المنتج ليوصله إلى المتلقِّي عِبر ذلك النَّص»(٤).

إنَّ القصديَّة علاقة إحالة متبادلة بين الوعي أو أفعال الوعي وموضوعات الوجود الخارجيّ، وهذه العلاقة هي ما يعطي صفاته الأساسيَّة، فلا يمكن تسمية الوعي وعيًا إلَّا من خلال إحالته إلى شيء أو موضوع معين(٥)، ولهذا نجد الدكتور تمَّام حسَّان يعدُّ كلام السكران والمكره والناسي والمخطئ ليس من قبيل النصِّ، وإنَّما هو لغو الكلام(٦)، بيد أنَّ ما علَّق به الدكتور أحمد عفيفي، واعتراضه على هذه الفكرة، بقوله: «ولذا فنحن

(١) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغويّ المعاصر، د. محمود أحمد نحلة: ٣٣.

(٢) ينظر: نظريَّة علم النصِّ رؤية جديدة في بناء النصِّ النثريّ: ٥٠-٥١، والنظريَّة القصديَّة في المعنى عند جرايس، د. صلاح إسماعيل: ٨٧-٨٨.

(٣) ينظر: معرفة اللغة، جورج يول، ترجمة محمود فرَّاج عبد الحافظ: ١٣٥.

(٤) القصديَّة في قصيدة مجيء النقاب أنموذجًا، التعليميَّة، المجلَّد١١، عدد ٢، نوفمبر ٢٠٢١، هاشمي محمَّد بلحبيب: ٣٧٦.

(٥) ينظر: القصديَّة من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، وشن دلال: ١٠.

(٦) ينظر: النصُّ والخطاب والإجراء: ١٠٣.

نؤمن بما ذهب إليه (سيرل) من أنَّ الحالات العقليَّة، مثل الاعتقاد والخوف والتمنِّي والرغبة والحبّ والكراهية، هذه الحالات وراءها مقصديَّة، والسبب أنَّها يجب أن تكون حول شيءٍ ما، ومن هنا يكون للمُكرَه أو المخطئ أو الناسي أو السكران مقصديَّة لا من خلال المتكلِّم، لكن من خلال النصِّ إذا تحقَّقت له معايير النصيَّة»[1].

والحقيقة أنَّ (جون سيرول) عرَّف القصديَّة بقوله: «هي تلك الخاصيَّة لكثير من الحالات والحوادث العقليَّة التي تتَّجه عن طريقها الأشياء وسير الأحوال في العالم، أو تدور حولها، أو تتعلَّق بها»[2]، فهو يرى أنَّ القصديَّة ترتبط بحالات عقليَّة ذاتيَّة يتمُّ من خلالها التوجُّه إلى العالم الخارجيّ، إذ إنَّ العقل يربط الذات عبر القصد بعالمها الخارجيّ بواسطة اللغة، وهذه السمة هي التي توجِّه الوعي تجاه الموضوعات والأحداث في العالم الواقعيّ؛ ليصبح وعيًا بشيءٍ ما[3].

أمَّا أنواع القصديَّة، فقد تمَّ تقسيم القصديَّة عند مجموعة من الباحثين إلى: قصديَّة المتكلِّم أو المنشئ، وقصديَّة النصِّ، وقصديَّة المتلقِّي[4]، ويقصد بقصديَّة المتكلِّم ما يقصده منشئ النصِّ، وقصديَّة النصِّ هو المعنى الذي تحمله الألفاظ والتراكيب من خلال معيارَي السَّبك والحبك، ومقصديَّة المتلقِّي ويقصد بها إستراتيجيَّات التأويل، إلى بروز أسئلة جديدة حول قصديَّة القارئ المنطلقة من تغييرات التأويل، وهذا التقسيم بعيدًا عن ماهيَّة القصديَّة، فالقصديَّة مرتبطة بمنشئ النصِّ، فحين يكون تأويل القارئ أو المتلقِّي غير ما يقصده المنشئ، يكون هذا فشل في معيار القصديَّة، إذ إن المتلقِّي أوَّل

(١) نحو النصِّ اتِّجاه جديد في الدرس النحويّ: ٨٠، وينظر: نظريَّة جون سيرل في القصديَّة دراسة في فلسفة العقل، د. صلاح إسماعيل، حوليَّات الآداب والعلوم الاجتماعيَّة، الحوليَّة٢٧، الرسالة٢٦٢، ٢٠٠٧م: ١٢٩.

(٢) نظريَّة جون سيرل في القصديَّة دراسة في فلسفة العقل: ١٢٩.

(٣) ينظر: القصديَّة وأثرها في توجيه الخطاب الشعريّ، وسام مرزوقي، مجلَّة إشكالات في اللغة والأدب، مجلَّد٨، عدد١، ٢٠١٩م: ١٧٢.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ١٧٤-١٧٨.

بخلاف ما قصده المنشئ. أمَّا القسم الثاني، وهو القصد الصريح، والقصد الضمنيّ، ويقصد بالصريح ما يحمله النصُّ من خلال ألفاظه وتراكيبه، والضمنيّ هو ما يقصده منشئ النصِّ، وجعله ضمنيًّا من خلال أسلوبه وأدواته ومعرفته بحال المتلقِّي وموقف الخطاب، وقد قسِّمت القصديَّة إلى هذا التقسيم؛ لأنَّها تبلورت عند المحدثين عبر مفاهيم نظريَّة أفعال الكلام عند (بيرس، وموريس، ولودفنك، وأوستن، وسيرل)، وهي تحفل بالاتِّصال اللغويّ والقوَّة الإنجازيَّة للأفعال الكلاميَّة[1]، ولكون الأفعال الكلاميَّة الإنجازيَّة تقسَّم إلى الأفعال المباشرة والأفعال غير المباشرة؛ لذا قسِّمت القصديَّة إلى مباشرة (صريح)، وغير مباشرة (ضمنيّ)[2]، وأهمّ بواعث استخدام الأفعال المباشرة في الحديث، التأدُّب، والخوف، وقد ارتضينا هذا التقسيم لدراسة القصديَّة في مرويَّات السيِّدة الزَّهراء عليها السلام.

القصديَّة في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في نساء المهاجرين والأنصار

فيما سبق أثبتنا أنَّ القصديَّة هي التي تتحكَّم في نسيج النصِّ، فتارةً يصرِّح المنتج بكلامه مباشرةً، فتكون القصديَّة صريحة وظاهرة، وتارةً، ولظروفٍ معيَّنةٍ، سواء أكانت للتأدُّب، أو للخوف من التصريح المباشر، فيجعلها غير مباشرة ضمنيَّة داخل النصِّ، وسنقوم بتحليل خطبة الزَّهراء عليها السلام، وبحث المقاصد المباشرة، والمقاصد غير المباشرة.

(١) ينظر: لسانيَّات النصّ النظريَّة والتطبيق، مقامات الهمذانيّ: ١٩٢.

(٢) ينظر: تطبيقات معيارَي القصديَّة والمقبوليَّة في النصِّ في معهود الكتاب عند العرب، مجلَّة الدراسات اللغويَّة والأدبيَّة، عثمان جميل قاسم الكنج، عدد٢، ديسمبر٢٠١٥: ٢١-٢٢، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٥١، ينظر: ديوان ابن العرندس دراسة في المعايير النصيَّة (القصديَّة- المقبوليَّة- التناص)، مشتاق خضير شويش، رسالة ماجستير، آداب البصرة، ٢٠٢٣: ٢٢.

نصُّ خطبة فاطمة الزَّهراء عليها السلام في نساء المهاجرين والأنصار

«لـمَّا مرضت فاطمة عليها السلام المرضة التي توفِّيت فيها، اجتمع إليها نساء المهاجرين والأنصار يَعُدْنَها، فقلن لها: كيف أصبحتِ مِن علَّتك يا ابنة رسول الله؟.

فحمدت الله، وصلَّت على أبيها، ثمَّ قالت: «أَصْبَحْتُ وَالله عَائِفَةً لِدُنْيَاكُمْ، قَالِيَةً لِرِجَالِكُمْ، لَفَظْتُهُمْ(١) قَبْلَ أَنْ عَجَمْتُهُمْ(٢)، وَشَنَأْتُهُمْ(٣) بَعْدَ أَنْ سَبَرْتُهُمْ(٤)، فَقُبْحاً لِفُلُولِ(٥) الْحَدِّ، وَخَوَرِ الْقَنَاةِ، وَخَطَلِ الرَّأْيِ، وَ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾(٦)، لاَ جَرَمَ لَقَدْ قَلَّدْتُهُمْ رِبْقَتَهَا(٧)، وَشَنَنْتُ(٨) عَلَيْهِمْ عَارَهَا، فَجَدْعًا وَعَقْرًا وَسُحْقًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

وَيْحَهُمْ أَنَّى زَحْزَحُوهَا(٩) عَنْ رَوَاسِي الرِّسَالَةِ وَقَوَاعِدِ النُّبُوَّةِ وَمَهْبِطِ الْوَحْيِ الأَمِينِ، وَالطِّبِينِ بِأَمْرِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(١٠)! وَمَا الَّذِي نَقَمُوا مِن أبي الحَسَن عليه السلام؟! نَقَمُوا وَالله مِنْهُ نَكِيرَ سَيْفِهِ، وَشِدَّةَ وَطْأَتِهِ، وَنَكَالَ وَقْعَتِهِ، وَتَنَمُّرَهُ فِي ذَاتِ الله عز وجل، وَالله لَوْ تَكَافُّوا عَنْ زِمَامٍ نَبَذَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله لَاعْتَلَقَهُ، وَلَسَارَ بِهِمْ سَيْرًا سُجُحًا، لَا يَكْلُمُ خِشَاشُهُ، وَلَا يُتَعْتَعُ رَاكِبُهُ، وَلَأَوْرَدَهُمْ مَنْهَلًا نَمِيرًا فَضْفَاضًا تَطْفَحُ ضِفَّتَاهُ، وَلَأَصْدَرَهُمْ بِطَانًا قَدْ تَحَيَّرَ لَهُمُ الرَّيَ غَيْرَ مُتَحَلٍّ مِنْهُ بِطَائِلٍ إِلَّا بِغَمْرِ الْمَاءِ وَرَدْعِهِ سَوْرَةَ

(١) طرح الشي من الفم: معجم مقاييس اللغة: ٩٢٣.
(٢) عضٌّ ومذاقةٌ: المصدر نفسه: ٦١٥.
(٣) البغضة وتجنب الشيء، المصدر نفسه: ٥١٦.
(٤) روز الامر وتَعرفُ قدره: المصدر نفسه: ٤٨١.
(٥) الكسور في حد السيف: المصدر نفسه: ٧٩١.
(٦) سورة المائدة، ٨٠.
(٧) الخيط في العنق: معجم مقاييس اللغة: ٤١٩.
(٨) صب الماء متفرقا: المصدر نفسه: ٥٠٠.
(٩) البعد: أي بوعد: المصدر نفسه: ٤٣٢.
(١٠) سورة الزمر: ١٥.

السَّاغِبِ، وَلَفُتِحَتْ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتُ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ، وَسَيَأْخُذُهُمُ اللهُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ، أَلَا هَلُمَّ فَاسْمَعْ، وَمَا عِشْتَ أَرَاكَ الدَّهْرُ عَجَبًا، وَإِنْ تَعْجَبْ وَقَدْ أَعْجَبَكَ الْحَادِثُ، إِلَى أَيِّ سِنَادٍ اسْتَنَدُوا وَبِأَيَّةٍ عُرْوَةٍ تَمَسَّكُوا، اسْتَبْدَلُوا الذُّنَابَى وَاللهِ بِالْقَوَادِمِ، وَالْعَجُزَ بِالْكَاهِلِ، فَرَغْمًا لِـمَعَاطِسِ قَـوْمٍ ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[2]، ﴿.. أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[3]. أَمَا لَعَمْري لَقَدْ لَقِحَتْ، فَنَظِرَةٌ رَيْثَمَا تُنْتَجُ، ثُمَّ احْتَلَبُوا طِلَاعَ الْقَعْبِ دَمًا عَبِيطًا، وَزُعَافاً مُمْقِرًا، هُنَالِكَ يَخْسَرُ الْـمُبْطِلُونَ، وَيَعْرِفُ التَّالُونَ غِبَّ مَا أَسَّسَ الْأَوَّلُونَ، ثُمَّ طِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَنْفُسًا، وَاطْمَئِنُّوا لِلْفِتْنَةِ جَأْشًا، وَأَبْشِرُوا بِسَيْفٍ صَارِمٍ وَهَرْجٍ شَامِلٍ، وَاسْتِبْدَادٍ مِنَ الظَّالِمِينَ، يَدَعُ فَيْئَكُمْ زَهِيدًا، وَزَرْعَكُمْ حَصِيدًا، فَيَا حَسْرَتَي لَكُمْ، وَأَنَّى بِكُمْ وَقَدْ عُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴿.. أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾[4]»[5].

١. المقاصد المباشرة:

وهي المعاني التي تحملها الألفاظ داخل النصِّ، ومعاني التراكيب التي تشكِّلها مع بعضها، إذ يُستخدَم اللفظ للمعنى الذي وُضِع له في معاجم اللغة، وهي بدورها لا تحتاج إلى معونة أو تكلُّف في فهم النصِّ[6]؛ وذلك لأنهَّا تشير إلى ذوات بعينها، والمقاصد المباشرة في خطبة الزَّهراء عليها السلام، هي:

المقصد الأوَّل: (تركها عليها السلام للدنيا)، فحين سألنها نساء المهاجرين والأنصار كيف

(١) سورة الكهف: ١٠٤.

(٢) سورة البقرة: ١٢.

(٣) سورة يونس: ٣٥.

(٤) سورة هود: ٢٨.

(٥) شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام وأسبابها، الشيخ نزيه القميحا: ٣١١-٣١٣، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزليّ: ٣٢٢.

(٦) ينظر: ديوان ابن العرندس دراسة في المعايير النصيَّة (القصديَّة- المقبوليَّة- التناص): ٢٣.

أصبحت يا ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالت: «**عائفة لدنياكنَّ**»، وعائفة تعني في معاجم اللغة كارهة[1]، فالإنسان مجبول على حبِّ الدنيا، إلَّا إذا حدث له ما يجعله يبغضها، وقد أضافت الزَّهراء عليها السلام لفظة الدنيا إلى كاف الخطاب، وجعلتها دنيا النساء لا دنياها؛ لتبيِّن أنَّها أصبحت دنيا خضوع وغدر، ودنيا عدم احترام الوعود، وقبول بالباطل، وهذا ما لا تقبله الزَّهراء عليها السلام.

المقصد الثاني: «**قالية لرجالكم**»، أي مُبغِضة، فالقالي في اللغة هو المبغِض[2].

المقصد الثالث: (بيان بغضهم لأمير المؤمنين وأسبابه)، إذ تقول: «**وما نقموا من أبي الحسن** عليه السلام؟ **نقموا الله منه نكير سيفه، وقلَّة مبالاته لحتفه، وشدَّة وطاته، ونكال وقعته، وتنمُّره في ذات الله** عزَّ وجلَّ». فهي عليها السلام بيَّنت من خلال القصد المباشر أسباب بُغضهم لأمير المؤمنين، وقد جعلتها قصدا مباشرًا، وليس ضمنيًا؛ لكي لا تخفى على المتلقِّين بمختلف ثقافاتهم وإدراكهم.

المقصد الرابع: (قصديَّة التقريع برجال المسلمين)، فهي بعد أن جرَّبتهم واختبرتهم، وجدتهم مجتمعًا عاطفيًّا، ولكنَّهم حين الإرادة والعمل لا يكون لديهم موقف، فتقول: «**لفظتهم بعد أن عجمتهم، وشنأتهم بعد أن سبرتهم، فقبحًا لفلول الحدِّ، واللعب بعد الجد، وقرع الصفاة، وصدع القناة، وخطل الآراء، وزلل الأهواء**»، أي إنَّها لفظتهم، وهي كناية عن رمي الشيء وطرحه بعد أن جرَّبتهم، وأبغضتهم بعد أن اختبرتهم (سبرتهم)، فهؤلاء الرجال آمنوا برسالة محمَّد صلى الله عليه وآله، وأنَّه أمرهم بمودَّة القربى، وأُمِروا بطاعة أمير المؤمنين، ولكنَّهم في أوَّل اختبار فشلوا، فتركوا مودَّة القربى وطاعة أمير المؤمنين، بعد ان بايعوا في غدير خم، وهنا تؤدِّي الاستعارة دورًا مهمًّا في تدرُّج هذا البُغض، ففي الجملة الأولى لفظتهم بعد أن عجمتهم، وفي الجملة الثانية شنأتهم بعد

(١) معجم مقاييس اللغة، مادَّة (كره): ٦٤٤.
(٢) المصدر نفسه، مادة (بغض): ٨٢٨.

أن سبرتهم، ويلاحَظ هذ التدرُّج من خلال عنصرَي التجربة والبغض، فالعجم تجربة فرديَّة، والسبر ممارسة إحصائيَّة، واختبار مع دقَّة في التجريب، أو تفصيل في جزئيَّاته، كذلك (القلى)، هو الهجر والترك، أمَّا (الشنآن) فهو البغض والعداوة، فالتدرُّج واضح بين الجملتَين، وهذا يعني أنَّ الخطبة تنامت فنيًّا، فقد تصاعدت هاتان الفنيَّتان تبعًا لاستمراريَّة السلوك لدى القوم[1].

٢. المقاصد غير المباشرة:

وهي المقاصد التي لا يصرِّح منشئ النصِّ بها، أي إنَّ الكلمات والألفاظ تخرج من معناها المعجميّ إلى معنى آخر قصده المنشئ، مستعينًا بأدواته والسياق[2].

قصديَّة إلقاء الحجَّة على المسلمين، وإخلاء ذمَّتها من خطلٍ للرأي الذي وقعوا فيه، فتقول: «**لَا جَرَمَ لَقَدْ قَلَّدْتُهُمْ رِبْقَتَهَا، وَشَنَنْتُ عَلَيْهِمْ عَارَهَا، فَجَدْعًا وَعَقْرًا وَسُحْقًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**»، والربق كالقلادة في العنق، أو هو الحبل الذي يلازم العنق، و(شنَّ) وتعني صبُّ الماء متفرِّقًا، فهي عليها السلام قد حمَّلتهم المسؤوليَّة، وجعلتها في أعناقهم، وأنَّ العار منقسم بينهم، فلا أحد منهم له عذر، أو يمكن أن يتخلَّص من هذا العار، فهي لم تترك لهم سبيلًا للعذر، وقد ختمت عليها السلام بثلاثة مقاطع من الدعاء، وهي جدعًا، وهو قطع طرف الأنف، وعقرًا وهو الهلاك، وسحقًا، وفي روايةٍ بُعدًا، وهو بُعد الله عزَّ وجلَّ عن القوم، ويلاحَظ فيه التدرُّج أو التسلسل النمائيّ، فالاولى عار لحِقَ بهم، والثانية مترتِّبة على ممارسة ذلك، والثالثة الجزاء المترتِّب عليه أُخرويًّا[3].

قصديَّة أحقيَّة أمير المؤمنين عليه السلام بالخلافة: إذ تقول: «**وَيْحَهُمْ أَنَّى زَحْزَحُوهَا[4] عَنْ**

(١) ينظر: أدب فاطمة الزَّهراء، د. محمود البستانيّ: ٨٠-٨١.
(٢) ينظر: علم لغة النص النظرية والتطبيق: ٤١.
(٣) ينظر: أدب فاطمة الزَّهراء: ٨٩.
(٤) البعد: أي بوعد. المصدر نفسه: ٤٣٢.

رَوَاسِي الرِّسَالَةِ وَقَوَاعِدِ النُّبُوَّةِ وَمَهْبِطِ الْوَحْيِ الأَمِينِ، وَالطَّبِينِ[1] **بِأَمْرِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ**»، والزحزحة في اللغة هي البُعد، اي بُعِدَ، فهي تقصد كيف أبعدوا الخلافة عن أمير المؤمنين بعد أن عهد له بها رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو الأحقُّ والأكفأ، فهم رواسي الرسالة، وقواعد النبوَّة، ومهبط الوحي الأمين، وأنَّ عليًّا عليه السلام هو الفَطِن (الطَّبين) بأمور الدنيا وأمور الدين، ثمَّ تقول: «**لَوْ تَكَافُّوا عَنْ زِمَامٍ نَبَذَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله لَاعْتَلَقَهُ**»، وهو زمام الخلافة: أي إنَّهم لو تركوها ليتقلَّدها الخليفة الذي نصَّبه الرسول صلى الله عليه وآله في غدير خم، وقد ابتدأت المقطع بكلمة (ويحهم)، وهي مزيج من التعجُّب والتساؤل والذمِّ، وبعد جملة زحزحوها أردفت بثلاث جمل فيها استعارة، وهي (رواسي الرسالة)، و(قواعد النبوَّة)، و(مهبط الوحي)، وهي إشارة إلى أنَّ الإمامة امتداد للنبوَّة، وجميع هذه الجمل تتَّصف بالثبات، ولكن العجب في زحزحتها، فالرواسي والقواعد والمهبط كلُّها ثابتة، وقد ختمت هذا المقطع بـ«**الطَّبِينِ بِأَمْرِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ**» إشارة إلى أنَّ من يتصدَّى لقيادة الأمَّة، لا بدَّ أن يتَّصف بمخزون معرفيّ (علميّ، واجتماعيّ)، وهذا لا يوجد في غير شخص الإمام علي عليه السلام[2].

القصديَّة الاقتصاديَّة (أ): إذ تقول عليها السلام: «**وَلَسَارَ بِهِمْ سَيْرًا سُجُحًا، لَا يَكْلُمُ خِشَاشُهُ، وَلَا يُتَعْتِعُ رَاكِبُهُ، وَلَأَوْرَدَهُمْ مَنْهَلًا نَمِيرًا فَضْفَاضًا تَطْفَحُ ضِفَّتَاهُ، وَلَأَصْدَرَهُمْ بِطَانًا قَدْ تَحَيَّرَ لَهُمُ الرَّيَ غَيْرَ مُتَحَلٍّ مِنْهُ بِطَائِلٍ إِلَّا بِغَمْرِ الْمَاءِ وَرَدْعِهِ سَوْرَةَ السَّاغِبِ، وَلَفُتِحَتْ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**». وبهذا المقطع تقول عليها السلام: إنَّهم لو تركوا زمام الخلافة ليتقلَّدها من كُفل بها، ولم ينازعوه عليها، لتوجَّه بهم وسار بطريق ليِّنة سهلة، من يسلكها لا يجرح، ولا يخدش، ولا يملّ، ولا يتعثَّر راكبها، ولأوردهم منهلًا نميرًا، أي: إنَّ شربهم سيكون صافيًا عذبًا فضفاضًا واسعًا، تطفح ضفتاه، إشارة إلى الوفرة، وأمَّا

(١) الفطن: معجم مقاييس اللغة: ٦٠٧.
(٢) ينظر: ادب فاطمة الزَّهراء: ٩٠-٩٢.

مأكلهم، فهو لأصدرهم بطانًا، وهي كناية عن الشبع، قد تخيَّر لهم، أي إنَّهم احتاروا من أيِّ مكانٍ يرتوون، وهي إشارة إلى كثرة أماكن الرَّي، ورغم ذلك أنَّه لم يأخذ منها سوى شربة العطش بغمر الماء، وشبعة الجائع (ثورة الساغب)، وهي كناية أنَّه زاهد بما لديهم من الخير، فهو لا يأخذ إلَّا كفافه، وأنَّهم لو قلَّدوا ابا الحسن بخلافته؛ لفُتِحت عليهم البركات من السماء والأرض، وهذه كلُّها تدلُّ على الحالة الاقتصاديَّة فيما لو تسلَّم أمير المؤمنين عليه السلام مقاليد الحكم.

القصديَّة الاقتصاديَّة (ب): وهي عكس فيما لو وضعوا مَن كُلِّف بالخلافة- أي أمير المؤمنين عليه السلام- إذ تقول: «**يدع فيأكم زهيدًا، وزرعكم حصيدًا**» أي يجعل الغنائم والخراج (حقوقكم الماليَّة) قليلًا، وزرعكم حصيدًا، أي محصود، والقصد أنَّ السلطة يتصرَّفون في غنائمكم، ويُجرونها إلى انفسهم، فلا ترون منها إلَّا القليل، وهذا بيان للحالة الاقتصاديَّة التي ستعيشها الأمَّة في ظلِّ هذه الخلافة، فهم سيجعلون موارد الأمَّة قليلة؛ وذلك لأنَّهم سيستأثرون بالغنائم ويُجرونها لصالحهم، ولا يعطون المسلمين حقوقهم إلَّا القليل، والفيء هو الظِّل، وهو رمز للراحة، والزهيد القليل.

القصديَّة السياسيَّة: فهي عليها السلام تقول: «**أَلَا هَلُمَّ فَاسْمَعْ، وَمَا عِشْتَ أَرَاكَ الدَّهْرُ عَجَبًا، وَإِنْ تَعْجَبْ وَقَدْ أَعْجَبَكَ الْحَادِثُ، إِلَى أَيِّ سِنَادٍ اسْتَنَدُوا وَبِأَيَّةِ عُرْوَةٍ تَمَسَّكُوا، اسْتَبْدَلُوا الذُّنَابَى وَاللهِ بِالْقَوَادِمِ، وَالْعَجُزَ بِالْكَاهِلِ، فَرَغْمًا لِـمَعَاطِسِ قَوْمٍ** ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾، ﴿.. أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾». وهنا تتساءل السيِّدة الزَّهراء عليها السلام أنَّ الناس كانوا يستندون إلى أقوال الرسول صلى الله عليه وآله، ويعتمدون على أوامره ويطيعونه؛ لأنَّه مُرسَل من عند الله عزَّ وجلَّ، وقد توفَّرت فيه الأهليَّة بجميع معنى الكلمة، فلا عجب في اتِّباعه وتقديم الناس له، ولكن العجب كلُّ العجب، إذ إنَّهم بعد الرسول اتَّبعوا مَن هو دون

هذه المؤهِّلات، فالذي كان يستند إلى الرسول كيف يستند إلى مَن هو دونه، وما المعيار الذي اتَّبعوه لجعلهم خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله؟ أمَّا جملة (استبدلوا الذناب بالقوادم)، إذ شبَّهت الأمَّة الإسلاميَّة بالطائر، والقوادم هي أسلحة الطيران في جناح الطائر، وما بعدها يسمَّى الذَّنَب، فبغير القوادم لا يمكن أن يطير الطائر[1]، أي إنَّ المسلمين قدَّموا مَن هو ليس أهلًا للقيادة، وسلَّموا القيادة للأقل بالمؤهلات، وكذلك شبَّهت عليّ عليه السلام بالكاهل، وهو مقدَّم الجسد ما بين الكتفَين، لما فيه من الصلابة، فهو يحمل كامل الجسد، وشبَّهت السلطة الحاكمة بالعجز، وهو مؤخَّر الظهر ما بين الوركين، وهو لا يستطيع حمل الأثقال، والمقصود أنَّ المسلمين سلَّموا قيادة الأمَّة إلى مَن لا يستطيع قيادتها، وهو منصب خطير وعظيم؛ لعدم توفُّر الأمكانيَّات، ونحّوا أصحابها الأكفاء، وهذا مقصد واضح بمطالبتها بخلافة أمير المؤمنين، وإسقاط للحكومة آنذاك، وجملة «على أيَّة ذريَّة أقدموا احتنكوا[2]»، هي بيان للظلم الذي وقع عليها وعلى أبنائها عليهم السلام.

قصديَّة التنبُّؤ بأحداث المستقبل، أو عاقبة سوء الاختيار: إذ تقول: عليها السلام «**أَمَا لَعَمْرِي لَقَدْ لَقِحَتْ، فَنَظِرَةٌ رَيْثَمَا تُنْتَجُ، ثُمَّ احْتَلَبُوا طِلَاعَ الْقَعْبِ دَمًا عَبِيطًا، وَزُعَافًا مُمْقِرًا**»، وفي هذه المقطوعة تشبِّه الزَّهراء عليها السلام الفتنة التي حصلت بالناقة الحامل، وهذا التشبيه من شأنه تقريب الصورة لدى المتلقِّين، فالناقة حين تضع حملها تنتج لبنًا، بيد أنَّ هذه الفتنة سوف تحلب دما يملأ (القعب)، وهو القدح الكبير الذي يوضع فيه اللبن ويفيض بها، وهنا كناية عن كثرة الدماء التي تُراق، فضلًا عن أنَّ الدم يرمز للموت، واحتلبوا أيضًا السمَّ المهلك، وهي المصائب التي تأتي لاحقًا، فشبهَّتها بالسمِّ؛ لأنَّ السمَّ يُميت الضحيَّة تدريجيًّا، وكذلك هذه المصائب سوف تأتي تدريجيًّا، وهذا ما يرويه التاريخ من حروب دارت، وفتن سواء في الخلافة الراشدة، أو بعدها، وهي الويلات والمصائب التي

(١) ينظر: شرح خطبة الزَّهراء وأسبابها: ٣٣٤.
(٢) الحقد في الصدور: معجم مقاييس اللغة، مادَّة (احنَ): ٤٧.

انصبَّت على الأمَّة الإسلاميَّة، وأنَّ هذا التنبُّؤ هو ليس إخبارًا من السماء أو عن الغيب، بل هو إخبار عن نتائج الأعمال ومضاعفاتها، فالسيِّدة الزَّهراء عليها السلام تنظر إلى المجتمع وسوء اختياره للقيادة غير الحكيمة، فتنكشف لها عواقب الأمور السيِّئة ببركات تلك القيادة، وكلُّها إخبارات بالمستقبل، ولقد تحقَّق هذا كلّه.

قصديَّة الشماتة أو السخرية: وما نقصده هنا ليس الشماتة المكروهة أو المذمومة، وإنَّما هي من أسلوب القرآن الكريم، وهذا ما أوضحته الزَّهراء عليها السلام من قولها: «**ثُمَّ طِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَنْفُسًا، وَاطْمَئِنُّوا لِلْفِتْنَةِ جَأْشًا، وَأَبْشِرُوا بِسَيْفٍ صَارِمٍ وَهَرْجٍ شَامِلٍ، وَاسْتِبْدَادٍ مِنَ الظَّالِمِينَ**»، وهذا الحديث هو من قبيل الآية الكريمة ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ التي يُراد بها عكس بالكلام للحقيقة، فجملة «**طِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَنْفُسًا**» أي اسكن واهدأ عن القلق، وهي مرادف لما يقال للظالم (قرَّة عينك) أو (بشراك)، وكذلك جملة «**وَاطْمَئِنُّوا لِلْفِتْنَةِ جَأْشًا**» أي: فلتسكن قلوبكم للفتنة، وهذا أيضًا يُراد به العكس، فالقلب لا يسكن للفتنة، وإنَّما يسكن للأمن والسلام، وجملة «**أَبْشِرُوا بِسَيْفٍ صَارِمٍ وَهَرْجٍ شَامِلٍ، وَاسْتِبْدَادٍ مِنَ الظَّالِمِينَ**»، أي الديكتاتوريَّة والتفرُّد بالحكم بلا قوانين أو مقاييس أو شريعة أو دين، وإنَّما اجتهادات حسب مشتهياتهم ومزاجاتهم، وهذه جميعها جمل معكوسة، وإن هذا الاستبداد ستكون عواقبه وخيمة، وهذا بظلمكم أنفسكم، فأنتم من اخترتم هذه القيادة.

قصديَّة إكمال الدين وتمام النِّعمة: وهذا حين قالت عليها السلام «**فَيَا حَسْرَتَي لَكُمْ، وَأَنَّى بِكُمْ وَقَدْ عُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ** ﴿.. أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾»، أي إنَّ الرسول صلى الله عليه وآله لم يترك الأمَّة بلا خليفة، وهذا واضح من قولها: «**وَاللهِ لَوْ تَكَافُّوا عَنْ زِمَامٍ نَبَذَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله**»، وهو زمام الخلافة والقيادة في يوم غدير خم، فقد نصَّبه لكم أميرًا، وكذلك حصول القبول من عليّ عليه السلام، ألا إنَّكم تكرهون أن يكون عليًّا خليفة عليكم، وأنَّ هذه الأمور عميت عليكم، فأنتم لا تعرفون بها، ونحن لا نريد الخلافة بإكراهكم، فنحن

لا نفرض عليكم خلافة عليّ عليه السلام، لأنَّكم تكرهونها، وقد طمعوكم بخراج فدك، وأنَّه فيء المسلمين.

قصديَّة بيان الحقِّ والحقيقة: وذلك حين قالت: «**هُنَالِكَ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ، وَيَعْرِفُ التَّالُونَ غِبَّ مَا أَسَّسَ الْأَوَّلُونَ**» أي بعد وقوع هذه الأحداث وتعاقب الأجيال، سوف يعرفون أنَّ هذا الذي أسَّستم له، وهو وضع الخلافة في غير أهلها، وتتَّضح الحقائق ويفرّق بين الحقِّ والباطل، قد تكون هذه القصديَّة هي القصديَّة الكبرى، إذا صحَّ التعبير، وذلك لعدَّة أسباب، وهي: إنَّ الزَّهراء عليها السلام كانت في علَّتها التي استشهدت بها، فما الحاجة إلى هذه الخطبة؟ وإذا كانت تقصد تأجيج الوضع على الحكومة آنذاك، فلا جدوى منها لكونها- الخطبة- وقعت بعد الخطبة الفدكيَّة، وقد كانت الخطبة الفدكيَّة متراصَّة المضامين، وأقرب إلى الحدث، ولم يتأجَّج الوضع، فما بالك الآن، أقصد زمن وقوع خطبة النساء، وقد استتبَّ الحكم، وسيطروا على مقاليده، أمَّا إذا كان القصد إرجاع الحكم والخلافة إلى أمير المؤمنين، وهذا غير ممكن، وهو ما فهمه رجال المسلمين بعد أن أخبرتهم نساؤهم بحديث الزَّهراء عليها السلام، فقد جاءها وفد من وجوه المهاجرين والأنصار معتذرين، وقالوا: «لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر قبل أن نبرم العهد ونحكم العقد؛ لما عدلنا عنه إلى غيره»، وهو فهم خاطئ لقصد الزَّهراء عليها السلام؛ وذلك لأنَّها قالت: لهم «**إليكم عنِّي، فلا عذر بعد تعذيركم، ولا أمر بعد تقصيركم**»، وهي إشارة منها أنِّي حذَّرتكم بالخطبة الفدكيَّة فتعذَّرتم عنِّي، على الرغم أنَّكم تعرفونني، وتعلمون بحقِّي، ولا أمر بعد تقصيركم في نصرتي، فقد طلبت نصرتكم على مدى أربعين يومًا، فكنتم تجيبون ليلًا وتقعدون نهارًا، وأنَّكم قصَّرتم في نصرتي، وهنا يقع ما يسمَّى بفشل القصديَّة، أي إنَّهم لم يصلوا إلى قصد الزَّهراء عليها السلام.

القصديَّة الاجتماعيَّة أو العامَّة: فهي عليها السلام تحاول حلَّ مشكلة اجتماعيَّة، وخطأ وقع فيه المسلمون، حين اختيارهم لمن يمثِّل السلطة، فأرادت أن تنبِّه إلى هذا الانحراف،

وتشير إلى عواقب الأمور، بعد أن أخبرتهم بما سيؤول إليه الأمر من استبداد، وهرج شامل، وسيف صارم، وحالة اقتصاديَّة يُرثى لها، لعلَّهم يتنبهون ويغيِّرون، بيد أنَّها كانت تعلم بأنَّهم لم يغيِّروا ولم يتأثَّروا، فأشارت (وقد عميت عليكم)، فهي بعد أن أخبرتهم بعواقب فعلهم، كذلك لم يتأثَّروا، وقالوا: لو قال لنا أبو الحسن هذا قبل أن نحكم العقد، وهي دلالة على عدم تغييرهم، وعدم قدرتهم على التغيير.

المقبوليَّة

المقبوليَّة لغةً: إنَّ المعنى اللغويّ للجذر (قبل) يدور في معنَيين: أوَّلهما عام، وهو المواجهة، ومنها تتفرَّع عدَّة معانٍ، إذ يقول ابن فارس: «القاف والباء واللام أصلٌ واحدٌ صحيحٌ تدلُّ كلمهُ على مواجهة الشيء للشيء، ويتفرَّع بعد ذلك»[1].

أمَّا في لسان العرب، فقد أورد معنًى آخر، وهو الارتضاء ومحبَّة النَّفس، إذ يقول: «قبلت الشيء قبولًا إذا رَضيته، وتقبَّلت الشيء قَبُولًا بفتح القاف.. يقال: على فلان قبول إذا قبلته النفس.. وهو بفتح القاف المحبَّة والرِّضا بالشيء، وميل النفس اليه..»[2]. إذًا تنحصر جميع معاني المادَّة بهذَين المعنَيين، فالمقبوليَّة هي خليط بين المواجهة والمحبَّة والارتضاء، فهي تجعل النصَّ ومنشئه في مواجهة المتلقِّي، وإذا أثَّر النصّ في المتلقِّي، ارتضاه، وأحبَّته نفسه فقبله.

المقبوليَّة اصطلاحًا: عرَّف دي بوجراند المقبوليَّة بقوله: «وهو يتضمَّن موقف مستقبِل النصّ إزاء كون صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نصّ ذو سبك والتحام. وللقبول أيضا مدى من التغاضي»[3]. ولقد توهَّم أحمد عفيفي إذ قال: «ويعني ذلك أنَّ القبول مرتبط بمجموع الدلالات التي يطرحها النصُّ

(١) معجم مقاييس اللغة، مادَّة (قبل): ٨٤٢.
(٢) لسان العرب، مادَّة (قبل): ١١/ ٢١.
(٣) النصُّ والخطاب والإجراء: ١٠٤.

بشرط تماسكها والتحامها وتحديدها بعيدًا عن الاحتماليَّة الدلاليَّة»[1]، فمعيار المقبوليَّة هو مشابه لمعيار القصديَّة من حيث التغاضي، وقد سبق القول فيه، فيمكن أن يكون النصّ فيه خلل بالسبك أو الحبك، لكنَّه يتوصَّل إلى المقبولية، إذ يقول دي بوجراند: «في حالات تؤدِّي فيها المواقف إلى ارتباك، أو حيث لا توجد شركة في الغايات بين المستقبل والمنتج»[2].

وقد ذكرت الدكتورة كواكب أنَّه «يعتمد على الكفاءة النصيَّة، وقدرة المتلقِّي على التأويل والفهم»[3]. وفي بعض الاحيان يكون هناك انتهاك لمبدأ النوعيَّة في السبك والحبك، ولا يؤدِّيان إلى فقدان النصِّ للمقبوليَّة ما دام الخلل والانتهاك يقعان في نطاق القصديَّة التي تتَّجه إلى الهدف، كما في المثل الذي يقول: «إنَّ في الموضوع إنّ»، فقد عمل المنشئ إلى انتهاك السبك لقصدٍ تمَّ قبوله من المتلقِّي (عليّ بن منقذ)، إذ جعل نون (إن شاء الله) مشدَّدة، وعلى مستقبِلي النصّ أن يقبلوا التشكيليَّة اللغويَّة على أنَّها نصّ متضام متقارن وقابل للاستغلال[4].

والجدير بالذكر أن معيار المقبوليَّة هو المعيار الرابع عند بعض الباحثين، وعند بعضهم الآخر هو المعيار الأخير، ويعزى هذا الاختلاف إلى أنَّ بعضهم قسَّم المعايير إلى معايير سطحيَّة، وهي (السبك والحبك)، ومعايير تداوليَّة، وهي (القصديَّة والمقبوليَّة)، ومعايير دلاليَّة (التناص، والإعلاميَّة، والموقفيَّة)، فتكون من خلال هذا التقسيم المعياريّ الرابع، وبعضهم الآخر وجد أنَّ المقبوليَّة هي نتاج جميع العناصر، ولذلك لا يمكن أن تكون المقبوليَّة إلَّا إذا تمَّ دراسة جميع المعايير من (سبك، وحبك، وقصديَّة، وموقفيَّة، وتناص، وإعلاميَّة)، فهي جميعها تؤثِّر في معيار

(١) نحو النصِّ اتجِّاه جديد في الدرس النحويّ: ٨٧.
(٢) النصُّ والخطاب والإجراء: ١٠٤.
(٣) شعر هاشم الرفاعيّ دراسة في المعايير النصيَّة (القصديَّة والمقبوليَّة والإعلاميَّة): ٧١.
(٤) ينظر: مدخل إلى علم لغة النصِّ: ١٧٤.

المقبوليَّة[١]، والمقبولية هي رغبة المتلقِّي بالمشاركة في عمليَّة الإبداع، فهو يشارك المنتج في إنتاجه اللغويّ، إذ يقول صاحب النظريَّة عن هذه الرغبة «رغبة نشطة للمشاركة في المقال ومشاطرة الهدف»[٢]. ويقصد بهذه الرغبة هي المشاركة من خلال المعرفة، وصياغة مفاهيم مشتركة، وهذا ما قالت به الدكتورة عزَّة شبل «رغبة المتلقِّين وصياغة مفاهيم مشتركة، وبذلك يمثِّل المتلقِّي جانبًا مهمًّا من جوانب عمليَّة الإنتاج التي تتكوَّن من المنتج والنصِّ والمتلقِّي»[٣].

ولـمَّـا كان المتلقِّي هو أحد عناصر عمليَّة التواصل، إن لم يكن هو الأهم، فعادةً ما تكتسب النصوص الحياة من خلال المتلقِّي، فهو يفكُّ شفرتها ويستخرج ما فيها من خلال قواعد الحذف والتعميم والتركيب[٤]، ويتوقَّف ذلك على ثقافته وأفقه ومعرفته بعالم النصِّ وسياقه، وما نقصده بالأفق، هو الأفق الذي يمكِّنه من إدراك الأفكار والجماليَّات والمبادئ في النصِّ، وكذا يمكِّنه من ملء الفراغات الكامنة بين عناصر ذلك النصّ[٥]، وهذه الفراغات الكامنة هي التي تُثير القارئ لاستكمال القراءة في النصِّ، فالقارئ لا يقبل النصّ أو يرفضه لمجرَّد أنَّه مسبوك ومحبوك، ولكنَّه يتعدَّى إلى بناء تمثيل معرفيّ مشابه لذلك الذي يهدف اليه المنشئ[٦]، هذا من جهة الفهم، أما من جهة العلاقة بين المتلقِّي والنصّ، فهي لم تعد تلك العلاقة الجامدة التي ليس لها دور للمتلقِّي، أي: تسير باتِّجاه واحد من النصِّ إلى المتلقِّي، وإنَّما هي علاقة تسير في اتِّجاهَين متبادَلَين من النصِّ إلى القارئ، ومن القارئ إلى النصِّ، فبقدر ما يقدِّم النصّ للقارئ، يضفي القارئ

(١) ينظر: شعر هاشم الرفاعيّ: ١٣٢.

(٢) مدخل إلى علم لغة النصِّ: ١٧٨.

(٣) علم لغة النصِّ النظريَّة والتطبيق: ٣٤.

(٤) ينظر: نظريَّة علم النصِّ رؤية منهجيَّة في بناء النصِّ النثريّ: ٥٣.

(٥) ينظر: القارئ في النصِّ (نظريَّة التأثير والاتِّصال)، نبيلة إبراهيم، مجلَّة فصول، العدد١، مجلَّد٥، ١٩٨٤م: ١٠١.

(٦) ينظر: علم لغة النصِّ رؤية منهجيَّة في بناء النصِّ النثريّ: ٥٤.

على النصِّ أبعادًا جديدة قد لا يكون لها وجود في النصّ[1]، والخلاصة أنَّ هناك مَن يرى أنَّ المقبوليَّة هي الوصول إلى المعنى الذي قصده المنشئ للنصِّ، وهناك من يرى المقبوليَّة هي التفاعل بين النصِّ والقارئ والعلاقة بينهما في اتِّجاهين: من النصِّ إلى القارئ، ومن القارئ إلى النصّ، فهي تُلغي الثنائيَّة بين النصِّ والقارئ، ليحلَّ محلَّها التأثير الجماليّ، الذي ينجم عن الالتحام بينهما، وتسمِّي نفسها بنظريَّة التأثير والاتِّصال، أمَّا النظريَّة الأولى، فتسمَّى نظريَّة الاستقبال، وهي تظلُّ تحتفظ بثنائيَّة النصِّ والمتلقِّي، وتُعنى بما يسمَّى أفق التوقُّعات التي تتحدَّد بتوقُّعات القارئ لحظة استقباله للنصِّ، وهي التوقُّعات الثقافيَّة والفنيَّة والأخلاقيَّة، التي تتكوَّن لدى القرَّاء في ظروف تاريخيَّة محدَّدة[2]. والباحث يرتضي هذا الراي؛ كونه يعبِّر عن المقبوليَّة معيارًا مترابطًا بين القصديَّة والمقبوليَّة.

مستويات القراءة وأنواع القرَّاء (المتلقِّين)

ذكرنا سابقا أنَّ المتلقِّي مشاركٌ في العمل الإبداعيّ، لا من حيث النصّ نفسه، وإنَّما في معناه «اعتياد القارئ على الأعراف البلاغيَّة واللغويَّة والتقييدات الثقافيَّة التي ينتج بها النصّ، ووضوحها بالنسبة له يُسهم في سرعة تقبُّله له، فعمليَّة القراءة تفاعل بين النصِّ والخلفيَّة المعرفيَّة المسبقة للقارئ، أو مخطَّط الذاكرة والتوقُّعات المعيَّنة حول البنية العامَّة للنصوص، فالقارئ هو المبدع المشارك لا للنصِّ نفسه، بل لمعناه وأهميَّته وقيمته»[3]. وعليه فإنَّ عمليَّة الفهم تتأثَّر بظروف القارئ وشخصيَّته واهتماماته وثقافته، ولكون القارئ هو من يحدِّد السياق، فقد يختلف المعنى من قارئ إلى آخر، إذ إنَّ القارئ أو المجتمع يكون على علم بالانحرافات اللغويَّة وقادر على تفسيرها،

(١) ينظر: علم لغة النصِّ المفاهيم والاتِّجاهات: ١٧٧.
(٢) ينظر: القارئ في النصِّ نظريَّة التأثير والاتِّصال: ١٠٢.
(٣) ينظر: نظريَّة علم النصِّ رؤية منهجية في بناء النصِّ النثريّ: ٥٣

كذلك فإنَّ الجامع الخياليّ مختلف من متلقٍّ إلى آخر، وتأثير العوامل النفسيَّة لدى القارئ الواحد، فقد تتعدَّد قراءة شخص لنفس النصِّ؛ وذلك لتغيير حالته النفسيَّة[1]، كلُّ هذا ينتج عنه تعدُّد في مستويات القراءة، وتعدُّد في أنواع القرَّاء (المتلقِّي).

مستويات القراءة

وقد سمِّيت مستويات، وليست أنواعًا؛ وذلك لأنَّ النوع يقتضي التفريق بين نوع وآخر، بيد أنَّ المستويات فيها تدرج من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى، وهي تراكميَّة، أي إنَّ المستوى الأوَّل لا يضيع ضمن المستوى الثاني، والمستوى الثاني لا يضيع ضمن المستوى الثالث، ولا يضيع المستوى الثالث ضمن المستوى الرابع، وهذه المستويات هي[2]:

المستوى الأوَّل: أو ما يسمَّى بالمستوى الابتدائيّ، وله أسماء أخرى مثل القراءة الأوليَّة أو القراءة الأساسيَّة أو القراءة التمهيديَّة، والقارئ في هذا المستوى يجب أن يكون قد ألَمَّ بقواعد القراءة والكتابة، وتلقَّى التدريب الأساسيّ في القراءة، واكتسب المهارات الأوَّليَّة.

المستوى الثاني: أو ما يمكن تسميته بالقراءة التفحصيَّة، وهي تتميَّز عن سابقتها بالتركيز الخاص على الوقت، إذ تركِّز على إنجاز كميَّة معيَّنة من النصوص في زمن محدَّد، مع استخراج المعاني التي تنطوي عليها تلك النصوص، وهو في العادة زمن قصير، ولها اسم آخر هو (التصفُّح)، وما يقصد بالتصفح ليس الاستعراض العرضيّ أو العشوائيّ، وإنَّما هو التصفُّح المنتظم المتماسك، وهدف هذا المستوى التفحُّص السطحيّ للنصِّ؛ لاكتشاف كلِّ شيء يمكن أن تعطيه القراءة السطحيَّة، وهو هدف جيِّد.

(١) ينظر: نظريَّة علم النصِّ رؤية منهجية في بناء النصِّ النثريّ: ٥٦.

(٢) ينظر: كيف تقرأ كتابًا، مورتيمر آدلر، تشارلز فان دورن، ترجمة طلال الحمصيّ: ٣٠-٣٥

المستوى الثالث: أو ما يسمَّى بالقراءة التحليليَّة، وهي أكثر تعقيدًا وفعَّاليَّة، وأكثر انتظامًا مِن كِلَا المستوَيَين السابقَين، وتتعلَّق بمدى صعوبة النصِّ الواجب قراءته، إذ تلقي عبئًا أكبر على القارئ، وهي كذلك قراءة شاملة وتامَّة، وما يفرِّق بينها وبين القراءة التفحصيَّة، هو أنَّ الوقت محدَّد في القراءة التفحصيَّة، أمَّا في هذا المستوى من القراءة (القراءة التحليليَّة) يكون الزمن مفتوحًا، وهي قراءة ليست للمتعة، وإنَّما قراءة من أجل الفهم والهيمنة عليه.

المستوى الرابع: وتسمَّى بالقراءة المرجعيَّة أو الموجَّهة لموضوع واحد، وهو المستوى الأخير والأعلى، وهو النموذج الأكثر تعقيدًا وانتظامًا بين كلِّ مستويات القراءة، ويكون فيه عبء كبير على عاتق القارئ، حتَّى لو كانت النصوص التي يقرؤها سهلةً نسبيًّا، وغير معقَّدة، وفيها يقرأ القارئ كتبًا عديدة، ويدرك الترابط بين الكتب من جهة، وبين الكتب جميعها والموضوع الواحد الذي تتمحور حوله، وهي ليست فنًّا سهلًا، ومن خلال هذا المستوى يكون القارئ قادرًا على أن ينشئ ويحلِّل الموضوع الذي قد لا يوجد في أي كتاب من الكتب، وهي الأكثر جهدًا والأكثر فعَّاليَّة بين مستويات القراءة، والفائدة منها كبيرة جدًّا وقواعدها ليست معروفة بشكلٍ واسع.

أنواع القرَّاء (المتلقِّين)

تأثَّرت نظريَّة التلقِّي بخمسة تأثيرات، «وقد تمَّت ملاحظة خمسة تأثيرات للروَّاد على هذا الأساس، تلك هي: الشكلانيَّة الروسية، وبنيويَّة براغ، وظاهراتيَّة رومان انجاردين، وتاويليَّة هانز جورد جادامير، وسيسيولوجيَّة الأدب»[1]، وإنَّ هذه التأثيرات اعتنى أصحابها بالقارئ بوصفه الطرف الثاني في العمليَّة الإبداعيَّة، وكلٌّ يرى القارئ وفق ما ذهب إليه من منهج في قراءة النصِّ؛ وذلك بتعدُّد التأثيرات ورؤيتها. تعدُّد

(١) نظريَّة الاستقبال مقدِّمة نقديَّة، روبرت سي هول، ترجمة رعد عبد الجليل: ٢٨.

القارئ في نظريَّة التلقِّي وأنواع القرَّاء، هي:.

القارئ الضمنيّ: وهذا القارئ لدى (وولفغانغ آيزر) «هو بنيَّة نصيَّة تتوقَّع حضور متلقٍّ دون أن تحدِّده بالضرورة. إنَّ هذا المفهوم يضع بنية مسبقة للدور الذي ينبغي كلّ متلق على حِدَة، ويصحُّ هذا حتَّى عندما تدور النصوص وكأنَّها تتعمَّد تجاهل متلقِّيها الممكن، وإنَّها تقصيه بفعَّاليَّة»[1].

القارئ النموذجيّ: عني (امبرتو إيكو) بالنصِّ السرديّ المكتوب وحلَّل الروايات والقصص القصيرة، وقد افترض لنصِّه السرديّ قارئًا نموذجيًّا، وهو مثل ما تدلُّ عليه التسمية، لذا يمكن التنبُّؤ بصعوبة العثور عليه، وهو قارئ يتمتَّع بثروة لغويَّة هائلة، فضلًا عن المعارف اللغويَّة، ومخزونًا تركيبيًّا، وهذه المعرفة يطلق عليها (إيكو) (الموسوعة القرائيَّة)، فالنصُّ يُكتَب لطبقة معيَّنة من القرَّاء، والنصُّ يوجِّه عمليَّة القراءة، ويكوِّن عالم تفسيراته الممكنة[2].

القارئ الأعلى: لدى (ميشيل ريفاتير) هو قارئ أسلوبيّ يعتمد على الدهشة، وشدَّة الانتباه للانزياحات الأسلوبيَّة التي تشدُّ انتباهه، وتجعله يتوقَّف عندها في النصِّ، وعليه فإنَّ ثراء النصِّ يقاس بكثرة التأثيرات الأسلوبيَّة التي يثيرها النصّ في القارئ الأعلى، وبذلك فإنَّ أحكام القيمة التي يصدرها القارئ الأعلى لها ما يسوِّغها في النصِّ، فتلك أحكام عن آثار تمخَّضت من المثيرات داخل النصّ[3]، وبذلك أهمل (ريفاتير) قارئه، وجعله مجرَّد ردود أفعال لمثيرات، وقد خلَّصه من كلِّ خلفيَّة، أو هو مصطلح جمعيّ لقرَّاء متباينين لهم كفاءات مختلفة، فإنَّه يأخذ بنظر الاعتبار وصفًا

(١) فعل القراءة نظريَّة جماليَّة التجاوب في الأدب، فولفغانغ ايزر، ترجمة د.حميد الحمدانيّ، د.الجلالي الكدية: ٣٠

(٢) ينظر: القارئ وبنية النصّ، أ. أبو ساحة فريدة، مجلَّة علوم الإنسانيَّة، جامعة محمَّد خيضر بسكرة، العدد١٠، نوفمبر ٢٠٠٦: ٢٨٥-٢٨٦.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٨٠.

يمكن التأكُّد منه تجريبيًّا، وصفًا لذلك الكامل الدلاليّ والتداوليّ الموجود في إرساليَّة النصِّ[1].

القارئ المقصود: لدى (أورين وولف)، هو قارئ تخيُّلي في النصِّ، لا يمثِّل تقاليد الجمهور المعاصر فقط، وإنَّما يجسِّد أيضًا رغبة المؤلِّف بالارتباط بتلك المفاهيم، أو وصفها أو العمل عليها، وصورته يمكن أن تتَّخذ أشكالًا مختلفة حسب النصّ المتناوَل، ويمكن اعتباره قاطنًا في النص؛ فلذلك هو يجسِّد رغبة المؤلِّف بالارتباط بهذه المفاهيم، فأحيانًا يصفها فقط، وأحيانا يعمل وفقها، ويمثِّل القارئ المقصود مفهوم إعادة البناء، كاشفًا عن الاستعدادات للجمهور، القارئ الذي كان يقصده المؤلِّف، وأهم سؤال يُطرح هو لماذا يستطيع قارئ بعد مرور أجيال أن يدرك رغم ذلك معنى النصّ؟ مع أنَّه لا يمكن أن يكون هو القارئ المقصود. من الواضح أنَّ الخصائص التاريخيَّة التي أثَّرت على المؤلِّف في زمن الكتابة تصوغ صورة القارئ المقصود، وهي في حدِّ ذاتها تجعلنا قادرين على إعادة بناء مقاصد المؤلِّف[2].

القارئ المخبر: ونجد هذا القارئ عند (ستانلي فيش)، وهو قارئ يجب أن تتوفَّر عنده الكفاية التي يتبيَّن بواسطتها النصّ، وهذا يتضمَّن ردود أفعاله التي تتوالى في الأوقات المناسبة في أثناء قراءته، مولِّدة معنى النصّ البنيَّة السطحيَّة وصولًا إلى البنية العميقة، وردود الأفعال المتباينة عند القرَّاء تنشأ عبر الإستراتيجيَّات المضلِّلة في النصِّ، ويجب أن تتوفَّر فيه مجموعة شروط، هي: أن يكون متكلِّمًا متمكِّنا من اللغة التي يُبنى بها النصّ، ويكون متمكِّنا من المعرفة الدلاليَّة لتلك التي يستحضرها المستمع الناضج عند مهمَّة الفهم، وتكون له كفاءة أدبيَّة، وهو مزج بين القارئ الحيّ والمجرَّد[3].

(١) ينظر: فعل القراءة نظريَّة جماليَّة التجاوب في الأدب: ٢٤-٢٥، والقارئ وبنية النصِّ: ٢٨٠.
(٢) ينظر: فعل القراءة نظرية جماليَّة التجاوب في الأدب: ٢٧-٢٨.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٥-٢٦.

المقبوليَّة في خطبة الزَّهراء عليها السلام في نساء المهاجرين والأنصار

بعد أن بيَّنَّا أهميَّة المتلقِّي في عملية التقبُّل، وبيَّنَّا أنواعه، نقدِّم نموذجًا عنه في خطبة الزَّهراء عليها السلام، وتبيَّن أنَّ هناك ثلاثة أنواع للمتلقِّين، وهي:

المتلقِّي الأوَّل: وهو نساء المهاجرين والأنصار، فنصُّ الخطبة واضح، إذ يقول: (اجتمع إليها نساء المهاجرين والأنصار يعِدنَها)، ولكن الزَّهراء عليها السلام استغلَّت تجمُّع النساء في دارها؛ لتوصل ما يساورها من قول عن طريقهنَّ، فهنَّ لم يكنَّ مقصودات بالخطاب، وإنَّما كان النساء مجرَّد قناة ناقلة للحدث الكلاميّ (الخطاب)، فبادرت عليها السلام واسترسلت بعد سؤالهنَّ عنها، ولكون المتلقِّي في هذا المستوى هو مجموعة من نساء المهاجرين والأنصار، فلا بدَّ أن يتَّصفن بصفات سواء أكانت مجتمعة في واحدة منهنَّ، أو متفرِّقة فيهنَّ، فهنَّ باجتماعهنَّ نتحقَّق الشروط الواجب توافرها في هذا المتلقِّي، وهو المتلقِّي المخبِر عن الخطاب، وهذه الشروط ذكرت مسبقًا، وهي أن يكون متكلِّمًا كُفؤًا باللغة التي يبنى بها النص، ويكون متمكِّنًا من المعرفة الدلاليَّة التي يستخدمها المستمع الناضج عند مهمَّة الفهم، وتكون له كفاءة أدبيَّة، ولمعرفة الزَّهراء عليها السلام بالمجتمع المعاصر هذا المجتمع الذي فهم تعابير القرآن الكريم وتدارسه، وكذلك معرفتها بشخصيَّة المرأة، وقدرتها على نقل الكلام، وهذا من طبيعتها التكوينيَّة، وبما لدى الزَّهراء عليها السلام من أسلوب وتمكُّنها في سبك الكلام وحبكه، وما لديها من معارف وعلوم، كيف لا تتَّصف بهذه الإمكانيَّات وهي ربيبة النبوَّة وزوج أمير البلاغة، فقد جعلت الخطبة مكثَّفة بالمعاني، متعدِّدة الدلالات، وجعلتها قصيرة ليسهل حفظها، عمدت أيضًا إلى التشبيه والاستعارة والتصوير الفنِّيّ، فضلا عن تكرار الوزن والصياغات التركيبيَّة (التكرار الجراماتيكيّ) سهَّل عمليَّة حفظها ونقلها، كذلك دور الاقتباسات القرآنيَّة التي ضمَّنتها الخطاب، ودور المعلومات التي انتخبتها للخطاب (الإعلاميَّة)، وأهمّها التنبُّؤات بما سيؤول له الأمر، نلاحظ أنَّ التأثُّر واضح من النساء، أمَّا عن المقبوليَّة، فقد

حصلت، وذلك حين رجوعهنَّ إلى أزواجهنَّ، وإبلاغهنَّ بكامل الخطاب وما تضمَّنه، وهنا تتحقَّق المقبوليَّة بتحقُّق أحد مقاصد الزَّهراء عليها السلام، وهو النقل عنها.

المتلقِّي الثاني: وهو رجال المهاجرين الأنصار، وذلك واضح جليّ، فغالب الخطاب موجَّه لهم من قولها عليها السلام «**أصبحت قالية لرجالكنَّ**»، وكذلك الضمائر المحيلة إليهم في (لفظتهم، وشنأتهم، وسبرتهم)، ومن القصد الذي يقول بأنَّه تقريع وذم لهم ولموقفهم، وقد فهمت النساء هذا القصد، ونقلت الخطبة إلى الرجال، وما تضمَّنته من معلومات (إعلاميَّة)، وهي إخبار الزَّهراء عليها السلام بما سيحصل فيما بعد؛ لذلك نجدهم تأثَّروا، ونتيجة لهذا التأثر، فقد جاؤوها معتذرين يقولون: «يا سيِّدة النساء لو أنَّ أبا الحسن أخبرنا ذلك لما عدلنا عنه إلى غيره». وهم بقولهم هذا لم يفهموا قصد الزَّهراء عليها السلام، فهي لا تريد اعتذارهم، وإنَّما تريد أن ينتبهوا إلى فعلهم ويعدلوا موقفهم ويرجعوا الخلافة إلى أهلها، وهنا يكون فشل بالقصديَّة، أمَّا المقبوليَّة فإذا قلنا إنَّ المقبوليَّة هي فهم القصد، وما قالت به نظريَّة التلقِّي، فتكون المقبوليَّة فشلت أيضًا، وهي الشرط لتحقُّق القصديَّة، فالقصديَّة والمقبوليَّة بينهما علاقة تبادل، فلا تتحقَّق القصديَّة إلَّا بوجود المقبوليَّة، وإذا لم يفهم قصد المنشئ لم تتحقَّق المقبوليَّة، أمَّا إذا كانت المقبوليَّة هي التأثير أو التفاعل، فيمكن القول إنَّ المقبوليَّة تحقَّقت في هذا المتلقِّي أيضًا، فهي تحقَّقت لا من خلال فهم القصد، وإنَّما بتفاعلهم مع النصِّ، وهو مجيؤهم معتذرين عن تقصيرهم، فهم بتحرُّكهم هذا إشارة عن تفاعلهم مع النصِّ، وأنَّهم فهموا من خلاله أنَّ الزَّهراء عليها السلام تريدهم أن يعتذروا.

المتلقِّي الثالث: هو المتلقِّي الكونيّ، أو ما يعبَّر عنه بالمتلقِّي المستقبليّ، فكلُّ كاتب حينما يبدأ بالكتابة، أو منشئ نصّ، يتوقَّع حضور متلقٍّ حتَّى لو لم يحدِّد مَن هو هذا المتلقِّي، وهو قارئ تخيُّلي يمكن أن يحضر عن طريق مجموعة من الإشارات، وهو غير مستقل بوظيفته عن المنظورات النصيَّة الأخرى مثل الراوي، والشخوص، ومسار

الحبكة، والقارئ التخيُّلي ما هو إلَّا واحد من بين منظورات عديدة، وكلُّها ترتبط فيما بينها وتتفاعل، وينشأ دور القارئ من هذا التفاعل، لذا لزم التفريق بين هذا القارئ الذي هو نوع من القارئ المقصود، وبين دوره[1].

وقد تركت الزَّهراء عليها السلام إشارات في النصِّ في قولها: «**وسيعلم التالون غب ما أسَّس الأوَّلون**»، وقد سبق القول إنَّ القارئ المقصود لا يمثل تقاليد الجمهور المعاصر فقط، وإنَّما هو رغبة المنشئ أو الكاتب بالارتباط بتلك المفاهيم أو العمل عليها، فالزَّهراء عليها السلام كانت تقصد أن تصل هذه الخطبة إلى الأجيال، وهذا واضح من نصِّ العبارة فهي كانت تعلم بانتقال هذه الخطبة إلى الأجيال، وبمختلف عقائدهم وتوجُّهاتهم، وكلٌّ له دور في فهم هذه الخطبة، بيد أنَّها كانت جازمة بأنَّهم سيعلمون «**غبَّ ما أسس الأوَّلون**»، فكلُّ باحث عن الحقيقة، ومنصف سوف يتوصَّل إلى حقيقة هذا الانحراف التاريخيّ من خلال بحثه عن الأسباب، وقد كانت هذه الخطبة عبارة عن شرارة البحث عن الحقيقة، وسبب موقف الزَّهراء عليها السلام من رجال المهاجرين والأنصار والتقريع بهم، وفي هذا النوع من القرَّاء أو المتلقِّين نجد أنَّ المقبوليَّة حصلت أيضًا، من خلال التفاعل مع نصِّ الخطبة، إذ تمَّ دراستها وشرحها وبيان أسبابها، ومن خلال الأحداث التي تلت، وقد أنبات عنها الزَّهراء عليها السلام، وقد وقعت في التاريخ الإسلامي.

نتائج البحث

١. بيان معنى الكشف والإظهار، والتفريق بين الكشف عند الصوفيِّين، والكشف بمعنى رفع السِّتر وبيان ما خُفيَ.

٢. إثبات الترابط بين معايير النظريَّة النصيَّة، وذلك من خلال اعتماد كلّ من

(١) ينظر: فعل القراءة نظريَّة جماليَّة التجاوب في الأدب: ٢٨.

القصديَّة والمقبوليَّة أحدهما على الآخر، فضلًا المعايير الأخرى مثل السَّبك، والحبك، والإعلاميَّة.

٣. بيان مقاصد الزَّهراء عليها السلام من خلال خطبتها في نساء المهاجرين والأنصار.

٤. إثبات أنَّ الزَّهراء عليها السلام كانت لا تترك مناسبة إلَّا وحاولت أن تستغلَّها لبيان مظلوميَّتها، والحيف الذي وقع عليها.

٥. التفريق بين نظريَّة الاستقبال ونظريَّة التلقِّي، وأيُّهما يعدُّ من المقبوليَّة.

٦. توضيح مستويات القراءة، وكيف تؤثِّر في فهم النصِّ.

٧. ذكر أنواع المتلقِّين مع توضيح ماهيَّته، وإلى أي نظريَّة هذ المتلقِّي سواء أكان ضمنيًّا أو أعلى أو نموذجيًّا أو مقصودًا أو مرسلًا.

٨. إثبات ثلاثة أنواع من المتلقِّين في خطبة الزَّهراء عليها السلام في نساء المهاجرين والأنصار، وكيف حدثت المقبوليَّة عند كلِّ نوع.

المصادر

الكتب المطبوعة

* القرآن الكريم.

- آفاق جديدة في البحث اللغويّ، الدكتور محمود أحمد نحلة، رفع عبد الرحمن النجديّ، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة، ٢٠٠٢م.
- أدب فاطمة الزَّهراء عليها السلام، الدكتور محمود البستانيّ، دار الحسنَين، ط١، ١٤٢٤هـ.
- التعريفات، أبو الحسن علي بن محمَّد بن عليّ الجرجانيّ، وضع حواشيه وفهارسه محمَّد باسل عيون السود، ط٢، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م.

- شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام وأسبابها، الشيخ نزيه القميحا، ط٢ مزيدة ومنقَّحة، بيروت، المريجة، ١٩٩٥م/ ١٤١٥هـ.
- شرح نهج البلاغة، عزّ الدين أبو حامد عبد الحميد ابن أبي الحديد المعتزليّ، تحقيق محمَّد أبي الفضل إبراهيم، الدار اللبنانيَّة للنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩م.
- الصاحبيّ في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، نشر وتصحيح المكتبة السلفيَّة، طبع مكتبة المؤيَّد، القاهرة، مصر، ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م.
- علم لغة النصِّ المفاهيم والاتِّجاهات، الدكتور حسن سعيد بحيري، ط١، طبعة دار نوبار للطباعة، الشركة المصريَّة العالمية للنشر، لونجمان، الجيزة، مصر، ١٩٩٧م.
- علم لغة النصِّ النظريَّة والتطبيق، عزَّة شبل محمَّد، ط٢، مكتبة الآداب القاهرة، ٢٠٠٩م.
- علم اللغة النصِّيّ بين النظريَّة والتطبيق دراسة تطبيقيَّة على السور المكيَّة، الدكتور صبحي إبراهيم الفقي، ط١، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- العين، الخليل بن أحمد الفراهيديّ، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م.
- فعل القراءة نظريَّة جماليَّات التجاوب في الأدب، ولفغانغ آيزر، الدكتور حميد الحمدانيّ، الدكتور الجلاليّ الكدية، مطبعة الأفق، فاس، ومطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، نشر وتوزيع مكتبة المناهل، فاس، ١٩٨٧م.
- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الدكتور طه عبد الرحمن، ط٢، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م.

- كيف تقرأ كتابًا، مورتيمر آدلر، تشارلز فان دورن، ترجمة طلال الحمصيّ، ط١، الدار العربيَّة للعلوم بيروت، لبنان، ١٩٩٥م/ ١٤١٦هـ.
- لسان العرب، ابن منظور، اعتنى به أمين محمَّد عبد الوهاب، ومحمَّد الصادق العبيديّ، ط٢، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م.
- لسانيَّات النصِّ النظريَّة والتطبيق مقامات الهمذانيّ أنموذجًا، ليندة قياس، تقديم الدكتور عبد الوهاب شعلان، ط١، مكتبة الآداب القاهرة، ٢٠٠٩م.
- مدخل إلى علم لغة النصِّ، روبرت دي بوجراند، ولفغانغ درايسلر، ترجمة إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، ط١، مطبعة دار الكتب، سمير أميس، ١٩٩٣م.
- مدخل إلى علم النصِّ ومجالات تطبيقه، محمَّد الأخضر الصبحيّ، ط١، الدار العربيَّة للعلوم ناشرون، لبنان، ٢٠٠٨م.
- معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيَّة، د.محمود عبد الرحمن عبد المنعم، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، طبعة دار النصر للطباعة الإسلاميَّة، القاهرة، ١٩٩٩م.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس، اعتنى به الدكتور محمَّد عوض مرعب، والآنسة فاطمة محمَّد أصلان، ط١، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م.
- معرفة اللغة، جورج يول، ترجمة الدكتور محمود فرَّاج عبد الحافظ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندريَّة، مصر، ١٩٩٥م.
- نحو النصِّ اتِّجاه جديد في الدرس النحويّ، الدكتور أحمد عفيفي، ط١، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، ٢٠٠١م.

- نحو النصِّ بين الأصالة والحداثة، أحمد محمَّد عبد الراضي، ط١، مكتبة الثقافة الدينيَّة، شارع بور سعيد، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- النصّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة د. تمّام حسَّان، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- نظريَّة الاستقبال مقدِّمة نقديَّة، روبرت سي هولب، ترجمة رعد عبد الجليل جواد، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقيَّة، سوريا، ١٩٩٢م.
- نظريَّة علم النصِّ رؤية منهجيَّة في بناء النصِّ النثريّ، الدكتور حسام أحمد فرج، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٧م.

الرسائل والأطاريح

- ديوان ابن العرندس دراسة في المعايير النصيَّة (القصديَّة، المقبوليَّة، التناص)، مشتاق خضير شويش، إشراف الدكتور حسين عليّ المهدي، رسالة ماجستير في كليَّة الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٢٢م/ ١٤٤٤هـ.
- شعر هاشم الرفاعيّ دراسة في المعايير النصيَّة القصديَّة المقبوليَّة الإعلاميَّة، أطروحة دكتوراه، كواكب محمَّد صالح، إشراف الدكتور عرفات فيصل المناع، قسم اللغة العربيَّة، كليَّة الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٢٠م.
- المعايير النصيَّة في ديوان محمَّد العيد آل خليفة، أطروحة دكتوراه للطيِّب العزاليّ قواوة، إشراف بلقاسم دفَّة، قسم اللغة والأدب العربيّ، كليَّة اللغة والأدب والفنون، جامعة باتنة الحاج لخضر، الجزائر، ٢٠١٧-٢٠١٨م.

البحوث

١. تطبيقات معيارَي القصديَّة والمقبوليَّة في النصِّ في معهود الخطاب عند العرب، عثمان جميل قاسم الكنج، مجلَّة الدراسات اللغويَّة، ع٢، ديسمبر، ٢٠١٥م.

٢. القارئ في النصِّ نظريَّة التأثير والاتِّصال، نبيلة إبراهيم، مجلَّة فصول، ع٥، الأسلوبيَّة، ١٩٨٤م.

٣. القارئ وبنية النصِّ، أ. بو ساحة فريدة، مجلَّة العلوم الإنسانيَّة، جامعة محمَّد خيضر بسكرة، ع١٠، نوفمبر، ٢٠٠٦م.

٤. القصديَّة في قصيدة النثر (مجيء النقاب أنموذجًا)، هاشمي محمَّد بلحبيب، الدكتور ملياني محمَّد، التعليمية، المجلَّد١١، ع٢ نوفمبر ٢٠٢١م.

٥. القصديَّة من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، وشن دلال، مجلَّة كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، جامعة محمَّد خيضر بسكرة، ع٦.

٦. القصديَّة وأثرها في توجيه الخطاب الشعريّ، وسام مرزوقي، قوتال فضيلة، مجلَّة إشكالات في اللغة والأدب، مجلد٨، ع١، ٢٠١٩م.

٧. نظريَّة جون سيرل في القصديَّة دراسة في فلسفة العقل، الدكتور صلاح إسماعيل، حوليَّات الآداب والعلوم الاجتماعيَّة، فصليَّة علميَّة محكَّمة تصدر عن مجلس النشر العلميّ، جامعة الكويت، الحوليَّة ٢٧، الرسالة ٢٦٢، ٢٠٠٧م/ ١٤٢٨هـ.

٨. النظريَّة القصديَّة في المعنى عند جرايس، الدكتور صلاح إسماعيل، حوليَّات الآداب والعلوم الاجتماعيَّة، الحوليَّة الخامسة والعشرون، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

فهرس المحتويات

محورُ الدِّراساتِ اللغويَّة والأدبيَّة ٥

ظلال المعاني وأثرها في الكشف عن أسرار الخطاب عند الزَّهراء عليها السلام ٧

أ.د. قصي سمير عبيِّس

كليَّة الإمام الكاظم عليه السلام/ أقسام بابل

خطاب السيِّدة فاطمة عليها السلام: دراسة أسلوبيَّة ٤٣

د. فاطمة مهدي البزَّال

الجامعة اللبنانيَّة

الفصل بين الصدق والكذب مرويَّات السيِّدة الزَّهراء عليها السلام دراسة في معيار الـحَبْك ٧٥

أ.د. خليل خلف بشير

جامعة البصرة/ كليَّة الآداب

لمحاتٌ بيانيَّةٌ في أدعيَّةِ السيِّدةِ الزَّهراء عليها السلام ١٢١

أ.د. هاشم جعفر الموسويّ

جامعة بابل/ كليَّة التربية للعلوم الإنسانيَّة

«اعلموا أنِّي فاطمة» دراسة في عرفانيَّة اللغة وقصديَّة الخطاب ١٤٩

أ.د. سامي الماضي

الجامعة المستنصريَّة/ كليَّة الآداب

قصديَّة الخطاب الفاطميّ ١٧٧

أ.م.د. موفَّق مجيد ليلو

المديريَّة العامَّة لتربية ميسان

السِّمات الموضوعيَّة في خِطاب السَّيدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام ٢١٣

أ.م.د. إيمان عبد الحسن عليّ

جامعة بابل/ كليَّة العلوم الإسلاميَّة

سير الخطبة الفدكيَّة بين التعبير والدلالة ٢٣٣

أ.م.د. محمَّد إسماعيل عبد الله سعيد النبهانيّ

تشكيلات الصورة البديعيَّة في الخطبة الفدكيَّة ٢٧٣

م.د. فاطمة عبد زيد شوين الخزاعيّ

جامعة الكوفة/ كليَّة التربية الأساسيَّة

السمات الأسلوبيَّة لكلام السيِّدة الزَّهراء عليها السلام ٣٠١

د. سعد مرزه الشيخ كريم الحسناويّ

التوكيد في نصِّ الخُطبة الفَدَكِيَّة دراسةٌ في الغرض والإجراء ٣٣١

م. أحمد راضي جبر الشمَّريّ

المديرية العامَّة للتربية في بابل

مراثي الأب وتجلِّي فضائلهِ في الشِّعر الإسلاميّ قراءة تحليليَّة في شعرِ الزَّهراء عليها السلام ٣٦١

م.م. زهراء سالم جبَّار

الآخر وأثره في خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام (الخطبة الفدكيَّة أنموذجًا) ٣٨٩

م.م. أنوار جاسب غالب كشيل الغزاليّ

المديرية العامَّة للتربية النجف الأشرف

لحنُ السَّماء في منطق الزَّهراء عليها السلام بحث صوتيّ ٤١٣

الباحث محمود عبيد حسين

الكشف والإظهار في خطاب مستودع الأسرار دراسة في معيارَي القصديَّة والمقبوليَّة في خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في نساء المهاجرين والأنصار ٤٤١

الباحث منتظر جبَّار بشَّار

جامعة البصرة/ كليَّة الآداب